

أحمد محمد حسنين باشا

فى صحراء ليبيا

تحرير

د. أحمد إبراهيم الهوارى

فى صحراء ليبيا

أحمد محمد حسنين « باشا »

حرره وقدم له

دكتور أحمد إبراهيم الهوارى

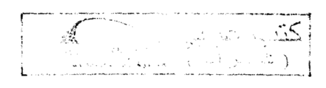
أستاذ النقد الأدبى - جامعة الكويت

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٩م

هذا الكتـــاب روايـــة عن رحلــــة   فى التيه أو عن نزهة فى الغاب
صحراء فى طول الظنون وعرضهـــا   تُطوى وتنشـر فى فصول كتاب

« شوقى »





عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بطاقة فهرسة	المستشارون
حسنين ، أحمد محمد	د . أحمد إبراهيم الهوارى
فى صحراء ليبيا / أحمد محمد حسنين ،	د . شوقى عبد القوى حبيب
حرره وقدم له أحمد ابراهيم الهوارى - ط١ -	د . قاسم عبده قاسم
القاهرة : عين للدراسات والبحوث الانسانية	**المشرف العام :**
والاجتماعية ، ٢٠٠٩	د. قاسم عبده قاسم
٣٨٠ صفحة ١٧×٢٤سم	**المدير التنفيذى :**
تدمك ٢ ٢٤٦ ٣٢٢ ٩٧٧	شريف قاسم
١- ليبيا- وصف ورحلات	**مدير الانتاج :**
أ- العنوان	جمال عابد
	تصميم الغلاف: د. منى العيسوى

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
web site: WWW.Dar -Ein.com / E-mail : dar_Ein@hotmail.com

إلى شباب الأمة

قل للشباب بمصر : عَصْرُكم بَطَلٌ ... بكل غـــاية إقـــــدامٍ لــــه وَلَع

أسٌّ الممالك فيــه همِّـــــةٌ وحِجىً ... لا التُّرهاتُ لها أسٌّ ، ولا الخدع

يُعطى الشعوبَ على مقدار ما نبغوا ... وليس يبخسهم شيئًا إذا برعـــوا

إنَّ الشبابَ غَدٌ ، فليهْدِهم لغدٍ ... وللممالك فيه الناصح الوَرِع

وما البطولة إلا النفس تدفعها ... فيما يُبلِّغها حَمْــداً ، فتندفع

رحّالة الشرق إنَّ البيدَ قد علمتْ ... بأنك الليث لم يُخلَق له الفـــزع

أحمد شوقى



مقـدمـة المحرر

- ١ -

ولد « أحمد محمد حسنين » في حي بولاق في عام ١٨٨٩م . وكان والده الشيخ محمد حسنين من علماء الأزهر الشريف ، أما جده « محمد حسنين باشا » فكان فريقًا في الجيش المصري من أمراء البحر في الأسطول (الزركلي ، الأعلام ، مجلد ١، ط. الثامنة ، ١٩٨٩م ، ص ٢٥٢)(١) و (أحمد حسن الزيات ، الرسالة : ١٩٤٦/٢/٢٥ ، ص ١).

حفظ الكثير من سور القرآن الكريم ، وقرأ بتوجيه من أبيه تفاسير القرآن الكريم ، كما حفظ قصائد من الشعر العربي القديم . وكان لهذا التكوين التراثي في بداية حياته تأثيرات بعيدة في عمق معتقده الديني الصوفي، وفي أسلوبه الأدبي ، على نحو ما بدا في صياغة أسلوب رحلته « في صحراء ليبيا » .

أُدخل المدرسة الخديوية . وفيها أشبع هوايته في رياضة السيف « الشيش » ، وكانت رياضة الأرستقراطيين . وبعد أن حصل على البكالوريا سافر إلى أوكسفورد لمواصلة دراسته. وهناك تفوق في دراسته ، وفي ممارسته لرياضته المفضلة « الشيش » ونال شهرة واسعة بين زملائه . وحصل على بطولات عديدة في هذه الرياضة أهمها بطولة جامعة أوكسفورد، كما كان المصري الوحيد الذي اشترك في الدورة الأوليمبية في استوكهلم عام ١٩١٢م ، واشترك مع فريق مصر للسلاح عام ١٩٢٤م (٢). وكانت هذه آخر مبارة رسمية له .

جانب آخر يكشف عن بُعْد من أبعاد شخصية الرحّالة المقدام « محمود صلاح : أحمد حسنين ، الهلال أغسطس ٢٠٠٥ » « شخصية المغامر الجسور » ذي الإرادة الفولاذية التي لا تعرف المستحيل» . فقد أراد أن يكون طيارًا ، ولكنّ الحوادث أرادت غير ما يريد ، فقد طار من انجلترا إلى إيطاليا ، ثم سقطت طيارته ، فأصلحها وطار ، وقد صمم على أن يدخل مصر طائرًا ولو سقط في جوف المحيط. ولكن برقية سامية صدرت إليه بوحي من الملك فؤاد ، فأذعن لها وقدم عن طريق البحر .

تقلَّد وظائف عدة منها السكرتير العربى للجنرال فاسكويل " الحاكم العسكرى البريطانى (١٩١٤)" ، ثم " مفتشًا فى وزارة الداخلية ، وبعد ذلك عُين فى المفوضية المصرية فى " واشنطن " فى وظيفة سكرتير أول ، ومنها انتقل إلى المفوضية المصرية فى لندن .

اختاره الزعيم سعد زغلول ، ليعمل فى مكتب رئاسة الوزراء وقد كلفه بمهام حل الخلاف بين مصر وإيطاليا بشأن الحدود . وكان يعتزم أن يعينه فى منصب وكيل وزارة الخارجية ، إلا أن مقتل السرداد أطاح بسعد خارج الحكم .

استطاع أن يكسب ثقة الملك فؤاد فعينه أمينًا للديوان الملكى ، وفى سنة ١٩٣٤م اختاره رائدًا لولى عهده فاروق . وعندما تقرر سفره ، وهو فى الرابعة عشرة من عمره ليتعلم فى لندن، صدر قرار بأن ترافقه بعثة مصرية يرأسها الفريق عزيز المصرى ، وكان أحمد حسنين ، ضمن هذه البعثة . وبعد أن أصبح فاروق ملكًا عينه رئيسًا للديوان الملكى .

وصفته " مجلة آخر ساعة " وصفًا هو أعجب الأوصاف ، حين قالت : إن أحمد حسنين يتمتع بأعظم المواهب السياسية ، لأنه أقنع الجميع بأنه رجل غير سياسى .

ويلوح للناظر فى سيرته أننا أمام شخصية بالغة الثراء والتنوع ، متعددة الأبعاد الدرامية . فإضافة إلى ما أشرت سابقًا ، فقد تعدد نشاطه ليشمل الرياضة والفن والجمعيات الأهلية . فقد كان رئيسًا للنادى الأهلى ، ونادى السلاح الملكى ، وجمعية الرواد . وكان يرى أن " أم كلثوم " تستطيع بأغانيها أن تحرك الشعب أكثر مما يفعل الزعماء ، وأن " نجيب الريحانى " فيلسوف ساخر يستطيع أن يؤثر ، بمسرحه ، فى آراء الشعب وأفكاره .

ولعل أصل ما فى شخصيته يتمثل فى " الفروسية " تلك التى تجسد شمائل الفارس . وقد صاحبت هذه الروح سلوكه طوال حياته . وعلى الرغم مما تعرض له من هجوم من خصومه ، فهم يجمعون على نظافة يده ، وعفة لسانه ، وأمانته . وقد أجمل " الزيات " تلك السجايا حين رثاه : " ... ومن اعتدال الزمان وإقبال الأمور أن تكون بطانات الملوك من هذا الطراز : رأس مفكر ، ولسان عف ، ويد طاهرة ، وقلب مؤمن . (الرسالة : العدد ٦٦٠ ، ٢٥ فبراير ١٩٤٦، ص١)

الرجل الكيِّس الكامل ، هكذا أسماه الإنجليز . وكان وهو تلميذ يطلب العلم فى "أكسفورد" المثل الأعلى للنشء الحديث ، إلى حد أنه كان يختصم إليه المتخاصمون بدل أن يختصموا إلى أولى الأمر فى الجامعة (٣) .

ثمة بُعْد مهم من أبعاد شخصية أحمد حسنين الحافلة بالدراما العاصفة . وهو بُعْد يحوطه الغموض ، أعنى الحياة العاطفية ؛ فقد أفاض " محمد التابعى " فى كتابه « من أسرار الساسة والسياسة – مصر قبل الثورة ، فبراير ١٩٧٠م» ، و " محمود صلاح " : " أحمد حسنين – أسرار السياسة والحب " أغسطس ٢٠٠٥م) فى معالجة هذا الجانب المثير من حياته . سيما وأن أحمد حسنين كان دائمًا موضع إعجاب النساء . إذ كان يتحلى بشمائل عدة ، فهو مثال – للدون جوان – الأصيل ، قوام ممشوق ، طويل النجاد ، أنيق المظهر ، حلو الحديث ، لطيف المعشر ، يعرف كيف يعامل العصب الحساس فى المجتمع : المرأة ، رياضى شهير من أبطال سلاح السيف «الشيش» جوّاب آفاق ، اجتاز الصحراء وحقق نجاحًا بكشوفه فى الصحراء الغربية .

وصفه زكى مبارك بـ " الإنسان الكامل " . وهو لا يريد الإنسان الكامل فى اصطلاح الصوفية ، وإنما يريد أنه كان رجلاً كامل الرجولة حين اخترق الصحراء فى ١٩٢٣م ، والرجولة التى يعنيها ، هى الرجولة المبَّرأة من شوائب الضعف والغفلة والقنوط . كان أحمد حسنين فى ذلك العهد رجلاً بكل معنى الكلمة : كان بدويًا فى مواطن البداوة ، وحضريًا فى معاهد الحضارة . كان حليمًا فى أوقات الحلم ، وجاهلاً فى أوقات الجهل ؛ فكان له فى كل حالة لبوس ، وكان فى جميع أحواله صورة من الرجل الذى يرى الخُلق الصحيح فى رياضة النفس على مسايرة ظرف المكان والزمان . (الرسالة ، ١٩٤٠/١٢/٢٣، ص ٨٤٣) (٤).

وجملة القول : إنه جسّد المعنى العميق للمثقف ، والثقافة ، التى تتمثل فى ذلك الكل المعرفى المركب ، المتشعب الذى يتبقى فى الوجدان ، بعد أن ينسى المرء ما حصله ، ويتحول إلى سلوك .

* * *

أتجاوز هذا الجانب الشائق الشائك من حياة " أحمد حسنين " الإنسان .. ذلك المجهول بما يثير من فضول القارئ . " البصاص " ، الذى يحرص على أن يشبع فضوله الغريزى فى "التلصُّص " على حياة الآخرين ، متوهمًا أنه طاهر الذيل ، بلا خطيئة ، أتجاوز هذا الجانب لأقف أمام رؤيته " الموضوعية " من المرأة المصرية .

وأنا أعتمد فى معرفة رأيه على حوار نادر أجراه معه " أحمد الصاوى محمد" فى مجلتى وفى هذا الحوار عَبَّر عن إيمانه أن المرأة المصرية من أكفأ نساء الدنيا ، وأقدرهن على

الاضطلاع بالمسؤوليات وأداء الواجبات ، وفهم المسائل الاجتماعية ، وتصريف الأمور ، وكان يعتقد أن نهوض مصر من جميع نواحي حياتها ، سواء كانت سياسية أم اجتماعية أم قومية أم اقتصادية ، إنما سبيله بيد الأمهات ، وإنه ليس ثمة إصلاح يُرْجى من برامج التعليم أو التثقيف التى تقدم لنشء جديد، إلا بعد أن تُصلح الأمهات هذا النشء، وهو يجتاز مرحلة التكوين الأولى ، وهى مرحلة الطفولة ، فالأم هى الأمّة وبقدر ما تكون الأم تكون الأمّة . ووَجّه نقده للرجل المصرى لما فى شخصيته من ازدواجية (مجلتى ، يوليو ١٩٣٦، ص ١٩٤ - ٢٠٢) وتأكدت بصيرته فى الرجل المصرى فى الصورة البديعة التى رسمها بعد ذلك ، نجيب محفوظ لشخصية السيد أحمد عبد الجواد فى ثلاثيته الشهيرة (١٩٥٦م) .

* * *

مصرع أحمد حسنين

وكما كان " أحمد حسنين " فى حياته محوطًا بالأسرار من كل جانب ، كذلك جاء مصرعة ليثير أسئلة تحوم حول شبهة مؤامرة وراء الحادث الذى راح ضحيته فى يوم الثلاثاء ١٩ فبراير ١٩٤٦م ... وهى أسئلة لم يكشف عنها النقاب بعد [٥].

« فى صحراء ليبيا »
قراءة فى ثقافة الصحراء
- ٢ -

المتأمل فى كتاب " أحمد حسنين " ، وفيه حصاد رحلته .. " فى صحراء ليبيا " ، يلمس أنه يقدم مادة علمية مهمة للدارسين فى علوم الإنسان : الأنثروبولوجيا (المعرفية) والاجتماعية ، والإثنولوجية [٦]، فضلاً عن النتائج العلمية التى تمس علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) بفضل نماذج الصخور التى حملها الرحّالة معه، واجتلبها من الجبال الرواسى فى الصحراء .

وقد قدمت هذه الرحلة مأدبة طازجة يشيع منها نسائم الصحراء ورياحها وعواصفها ، قدمت مادة خصبة لعشاق سياحة الصحراء.

يحتفل " أحمد حسنين " إذن بكل ما فى الصحراء : حيث يرقب طباع الحيوان الذى يدب على ثراها ، ويقلّب وجهه فى السماء بين النجوم والكواكب السيارة . ثم يقف أمام طقس الصحراء المتقلب، حيث الأجواء التى تغلفها ، من برد الصحراء ، وحر الصحراء ، والسراب

الذى يتمايل أمام الناظر فى أفق الصحراء، ولحظة الغسق . وهو دائمًا حريص على أن يرصد مظاهر التغير الذى يلف الكون والكائنات .

يأتى " أحمد حسنين " ليقدم فى كتابه " فى صحراء ليبيا " نموذجًا لما يتميز به كُتّاب الرحلات ، على نحو ما أشار البروفسور A. Chcjne ، من حيوية فى المعلومات والأخبار ، وتلك ثمرة لثقافة البصر ، فضلاً عن عرضها للعلاقات الثقافية والاجتماعية ... فهى تمثل ثروة إثنولوجية كبيرة .

وبصفة عامة ، تحتوى كتب الرحلات على مادة تاريخية ، مع تسجيل ملاحظات أصحابها على ما يشاهدون ، فتأتى كتاباتهم مضمخة بعبق خبراتهم وانطباعاتهم ، ووجهة نظرهم فى طبائع الشعوب ، ما يعكس التاريخ الاثنوجرافى والأنثروبولوجى لها (٧).

وفوق هذا المحتوى من الحقائق العلمية التى تفيد الدارس فى علوم الإنسان ، فهى تقدم للدارس الأدبى نصًا أدبيًا حيًا ، بما ينبض من الحرارة الدفء ، وهذا النص يحمل خصوصية صاحبه وبصمته الإبداعية ، بما يفضى فى متلقيها من مشاعر وأحاسيس.

برنامج الرحلة :

قام " أحمد حسنين " برحلتين إلى الصحراء الليبية . بدأ التفكير فى الرحلة الأولى عام ١٩١٧م حين أوفدته الحكومة المصرية إلى شيخ الطائفة السنوسية " السيد إدريس السنوسى " ومقره " الكفرة " . وكان برفقته اللواء تالبوت باشا ، من الضباط البريطانيين ، منتدبًا للخدمة فى الجيش المصرى . وكان أهم مقاصد هذه البعثة الاتفاق مع السيد إدريس على منع العرب من الاعتداء على حدود مصر الغربية ، ومنع القلاقل التى تحدثها الحرب .

وقد كاشف " أحمد حسنين " السيد إدريس فى " الزوينية " ، وقابله بعد ذلك فى "عكرمة " بالقرب من " طبرق " وأخبره بعزمه على القيام بالرحلة إلى الصحراء، بعد انتهاء الحرب العالمية . وكان معه فى " طبرق " المستر " فرنسيس وود " ، وهو زميل " أحمد حسنين " فى مرحلة الدراسة فى كلية " باليول " بجامعة أوكسفورد ، فاتفقا على أن يترافقا فى هذه الرحلة. لكن ثمة موانع حالت دون مصاحبة المستر وود . وانتهى الأمر بسفر مسز فوربس معه عام ١٩٢٠م، مزودين بمساعدة السيد إدريس الذى قدّم لهما ما يلزم القافلة ، فوصلا الكفرة فى يناير ١٩٢١م . وفى الرحلة الأولى قطع فى الصحراء أكثر من ألف وستمائة ميل (يونان لبيب رزق والنقل من محمود صلاح ، ص ٢٧) .

وكان أكبر همه أن يجوب صحراء ليبيا ويصل إلى " الكفرة " وهى مجموعة من الواحات فى صحراء ليبيا ، لم يزرها من قبل إلا المستكشف الألمانى " رولفس " ١٨٧٩، ولكنه لم يخرج منها إلا بحياته ، بعد أن خسر جُلَّ مدوناته ونتائج ملاحظاته العلمية .

على أن هذه الرحلة إلى " الكفرة " ، لم تزد " أحمد حسنين " إلا حبًا فى التوغل فى أعماق تلك الصحراء الممتدة وراءها . وكان هناك إشاعات عن واحتين مجهولتين لا يعرفهما كثير من أهل الكفرة إلا فى أساطير الأولين .

وعرض على " الملك فؤاد " برنامج رحلته ، وهو اجتياز صحراء ليبيا كلها ، لمعرفة حدودنا الغربية لمصر والسودان ، فسُرَّ الملك لهذه الفكرة ، وشجعه عليها وأمر بمساعدته ، وسمح بإعطائه إجازة طويلة ، وأصدر أوامره إلى الخزينة المصرية بمنحه جميع النفقات التى تتطلبها هذه الرحلة . ولم يسبق لأحد من قبل أن اجتاز صحراء ليبيا من الشمال إلى الجنوب . (انظر ملاحق هذه الطبعة الجديدة) .

وأود أن أطلع القارئ على طقوس(٨) هذه الرحلة الفريدة .

طقوس الرحلة :

أنهى الرحالة " أحمد حسنين " ترتيباته وجمع حوائجه فى ديسمبر ١٩٢٣م فى دار أبيه حتى يحظى ببركته وصالح دعواته ، وفقًا للتقاليد القديمة .

" سَدَّد الله خُطاك " تلك كانت دعوة الأب الحانى للإبن البار . تجاوبت أركان الغرفة الفسيحة بهذه الدعوة الطيبة التى امتزجت ألفاظها بما انتشر فى الجو من ضوء الشموع وسحب البخور المتناثرة .

وبعد طقوس التبرك ، حَفْلة مباركة الأمتعة والحوائج ،تلك الطقوس التى استنتها العرب ، وجعلتها الأجيال المتعددة ، واجبًا مقدسًا قبل الرحيل . وقد تراخى فى أدائها الخلف ، إلا أنَّ أباه حرص على أن يؤدى هذا الواجب لابنه الوحيد، وهو مقبل على سفر طويل .

ويشف حديثه عن صادق ولائه للأب . فما كاد ينتهى من وضع هذا الكتاب ، حتى فوجئ بموت أبيه . وعبّر عن فقده بكلمات تنم عن حس إنسانى رهيف . وحقًا ما مات من خَلَّف مثل أحمد حسنين .

الرحلة الثانية :

وأشير هنا إلى أن رحلته الثانية بدأت من السلوك يوم ٤ يناير ١٩٢٣ على شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى الأبيِّض عاصمة كردفان بالسودان ، وهى مسافة قدرها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر قطعها الرحّالة المقدام على ظهور الإبل ، وفيها وُفِّق إلى كشف واحتين مجهولتين هما " أركنو " و " العوينات " وكانتا غير معرفتين . قبل ذلك للجغرافيين .

الصحراء ... امرأة معشوقة :

فى محاولة لإلقاء الضوء على ملامح أدبية / شعرية نص " فى صحراء ليبيا " يلوح للقارئ أن " أحمد حسنين " حين يكتب عن الصحراء يقف وكتفه بين أكتاف شعراء كبار فى عشقهم للصحراء كذى الرمة الذى لم يفتعل عاطفة ، ولم يزيف شعوراً ، وإنما صدر عن تجارب واقعية مَرَّت فى حياته ، وعاش على ذكرياتها يستلهمها ، ويستوحيها ويعبر عنها. وهكذا (٩) كان عِشْق " أحمد حسنين " .. فهؤلاء قتلى هذا العشق للصحراء .

وهذا الشغف بالصحراء يدفع بصاحبه أن يتماهى معها : فالمرأة والصحراء هما وجهان لعملة واحدة . وتتراءى الصحراء مثل مرآة الغريبة فى باصرة " أحمد حسنين " وفى بصيرته التى تحدد رؤيته للعالم لتكشف عن إنسان يحتفل بالحياة والأحياء . وهو فى حبه للصحراء ، شأنه شأن رجل شديد الوله بغادة فاتنة ساحرة ، ولكنها قاسية جافية ، تعرض عنه فتظلم الدنيا فى وجهه ، حتى إذا جن الليل وتبسمت له استحالت الدنيا بأسرها إلى جنة ضاحكة " (فى صحراء ليبيا ، ص ١٤ ، مجلد ١) (١٠). كذلك الصحراء تبسم لك فتنسى كل شيء " .

وحديث " أحمد حسنين " هنا بمثابة قناع يخفى من ورائه تجارب ذاتية حقيقية ، وإن اتخذ من الصحراء موضوعًا . ومن ثم جاء تصويره للوحات الصحراء ضفائر أو جدائل تراوحت فيها ذاتيته فى موضوعية بدت شفيفة فى صور الصحراء ومشاهدها .

بلاغة الصمت :

وهو يحدثنا عن " بلاغة الصمت " الذى يعرو من يحيا فى الصحراء . فالصحراء تعلِّم السكوت . وإذا أحدق الخطر ، فماذا يجدى الكلام ؟ وبلاغة الصمت تلك ؛ من تجليات ثقافة الصحراء . فهو فى لحظة يشعر بالميل إلى التجول فى الصحراء ، فإذا لم تكن الريح باردة سار نصف ميل ، وهو يُرجع البصر كرتين ، فيرى أشباح الرجال فوق أديم السماء عند الأفق

من وقت لآخر ، ويبدو لعينيه ، فيملك لبه منظر الخيام المتقاربة والحوائج المكدسة ، والجمال الباركة ، ينعكس على كل ذلك، بصيص النور المنبعث من النار الخامدة فى وسط ذلك السكون، فيغمره سكينة الكون حتى كاد يصغى إلى حديث السكون .

وهذا الجو هَيّأ لصاحبه أن يعرف لذة الجلوس فى حلكة الظلام ويرعى النجوم . وهو هنا يقارن بين ثقافة أهل الحضر وأهل الصحراء . فالأعرابى إذا انتهى من عمل يومه ، خلا إلى نفسه ، وانقطع إلى ترسم حركات النجوم ، وإمتاع روحه بما تبعثه فيها من الراحة والشعور بالسمو إلى ما فوق العالم الأرضى . وتقع النجوم من نفسه موقع الأصدقاء القريبين الذين يلقاهم كل يوم . وما هكذا حياة أهل المدن .

وهو يضفى من ذاتيته على الموضوع الماثل : " الصحراء " ليعرج بنا فى الصحراء . ويأخذ بيدنا وهو يجوس فى فيافيها . وهو ، يقدم للقارئ إحساسه بالمكان ، بالبيئة الصحراوية ، فى احتفال بتفاصيل المشهد . وهو فى كل ، يكشف عن ملكة راوٍ حكّاء ، قادر على شد انتباهنا فى مزيج يجدل مشاهده من موضوعية غالبة ، فى الرصد والوصف ، أو قل إعادة إنتاج ما زاغ عن البصر، وبقى فى الذاكرة المعرفية الحافظة ، تلك التى تمتح من ثقافة البصر ، والخبرة العيانية المباشرة ، وبين قدرة على التعبير الشفيف عما يمور فى الذات من مشاعر وأحاسيس.. بين (**الوجود**) الذى تحلم بتحقيقه ، و (**العدم**) الذى تفتح عليه عينها صباح مساء .

يتوحد الرحّالة مع الطبيعة حين بانت الشمس وأذنت بالمغيب . وهو يصور ، فى إيقاع بطئ مشهد " غروب الشمس " بين هزيمة الشمس .. وهزيمة البشر .

" فكأنما الشمس قد نالها ما نالنا من تعب ، وكأنما النهار الذى قطعته وإيانا في نضال الصحراء قد أسفر عن انهزامها كما أسفر عن انهزامنا . وكأنما صراع الصحراء قد أدمى وجهها ، فإذا قرصها المهزول يرسل أشعة حمراء ضعيفة كأنها خيوط الدم . وكأنما الشمس عمدت مثلنا إلى الانزواء ، تُضَمِّد ثخين جروحها ، وتجدد منهوك قواها حتى إذا تم لها ذلك ، عادت وعدنا فى نورها إلي مصارعة الصحراء ، ولكن الصحراء لا تلبث أن تصرعها وتصرعنا .. قصة كل يوم .

ثم يهبط الظلام شيئًا فشيئًا ، تطارد طلائعه فلول النور ، ويسجو الليل ، زاهر النجوم ، أو وضاح البدر . وربما كان ليل الصحراء أعجب نواحى الحياة فيها (فى صحراء ليبيا ، مجلد

١ ، ص ١٢) . إنها مثل محبوبة أبى فراس الحمدانى ، فاتنة شيمتها الغدر . وهى ، فى كبرياء ، تعى أن عشاقها كُثرُ .

إن " أحمد حسنين " يعى فِعل الزمن فى الكون والكائنات ، وأنه متغير ، يرقب متغير (الصحراء) ، فى إطار متغير : الأجواء التى تسود الصحراء ، البرد ، العواصف ، شروق الشمس ، غروبها ، كما مر فى المشهد السابق أو اللوحة السابقة ، الريح الباردة ، التوجس من مخاطر الصحراء .

ويلجأ " أحمد حسنين " إلى تقنية تشيع فى أدب الرحلة ، أعنى " اليوميات " وهى شكل أو أسلوب من أساليب الكتابة ، فيها نرى الكاتب وهو يرصد ما بنفسه من انطباعات عن الكون والكائنات ويصبح مثل دوار أو عبّاد الشمس يدور ودورة الزمن . والقارئ يتعرف من خلال كتابة اليوميات على ضفيرة مجدولة من (**الذات**) و (**الموضوع**) وما يمور فى تلك (**الذات**) من نوازع ، وما يصطرع فيها من خشية ورجاء ، من هم وغم . وعلى حد تعبير العقاد : " ما من كاتب يوميات فى الحقيقة ، إلا وهو ظاهرة نفسية ، كثيرة البدوات والغرائب ، كثيرة الجوانب التى تتعلق بها مباحث النفسانيين والحكماء " (الرسالة ، العدد ٤٢٧ ، ١٧ نوفمبر ١٩٤١م)[١١] ، هكذا جاء أسلوب " أحمد حسنين " . كاشفًا عن أديب مطبوع ، شعرى الأسلوب ، عن شخصية شديدة الثراء والتنوع .

وأشير إلى نماذج دالة على ما ذكرت من الخاصية الأسلوبية لليوميات . " ... ورأيت فى صباح يوم ٢٠ مايو أبدع مشارق الشمس التى شاهدتها فى حياتى ، فإن انعكاس ضوء الشمس الساطع على الصخور المجاورة بين حمراء وسوداء ، وعلى التلال البعيدة ، جعل كل شىء واضحًا جليًا ، ثم احمرّت صبغة الشروق ، وتسللت أشعة الشمس الذهبية بين ثنايا السحب الرقيقة وغمرت كل شىء . وكان انعكاس الظلال المستطيلة للصخور والعواسج المتناثرة فوق الأرض يوشع صفحة الرمال الصفراء . وكانت ظلال القافلة الوانية فى سيرها ترسم على أديم الصحراء أشكالاً غريبة ، ولكن هذه المناظر البديعة تبعها ضحى ساكن النسيم راكده . (م . ن ، جـ ٢ ، ص ٦٧ ، وراجع ص ٦٨) لوحة تصور مخاطر الصحراء والعواصف الرملية (م . ن ، جـ١ ، ص ١٠٠)[١٢] .

ولوحة أخرى يصور رحيله من " أجاه " حيث تكثر الغزلان والنعام والنعاج البرية ، وما زاده رغبة فى الرحيل كُدُورة ماء البئر من أثر الحيوانات ، ولم يكن معه إلا بندقية عتيقة من

طراز " مارتيني " ، وأخرى من بنادق الفرسان الإيطالية أهديت إليه في " الكفرة " . وهاتان وإن كانتا صالحتين في الدفاع عن النفس ، إلا أنهما كانتا قليلتي الفائدة في الصيد على المرمى البعيد ، ولذلك حرم نفسه لذة الصيد .

ثم يُصَوِّر لنا المكان، حيث يتعاقب الظل والحرور ، وظلام الليل وطلوع الهلال ، وأسراب اليمام سابحة في الفضاء، وكأنها تُسَبِّح لفاطر السموات والأرض . لنشاهد معًا تفاصيل هذه اللوحة :

" وكان الجو شديد الحر ، فلم نبدأ السير إلا الساعة الخامسة مساءً ، فسرنا في الوادي الجميل مدة ساعة ، ثم أخذنا نتسلق التلال ، حتى إذا وصلنا قممها ، رأينا منظرًا بديعًا امتزجت فيه ظلال الأشجار والأدغال بلون الرمال الوردي ، وحمرة صخور التلال التي تكتنف الوادي .

وكان نسيم المساء البليل ، يحمل على أجنحته أنغامًا عذابًا تنبعث من أسراب اليمام ، وزاد هذا المنظر بهاءً وانطباعًا في الذاكرة ، غروب بديع ، امتزجت فيه الحمرة بلون الذهب ، فَوقفْتُ جوادي وتَرجلت ، ثم انطرحت على قطعة من الرمل الناعم ، وقضيت نصف ساعة أشرب جمال ذلك المنظر الفردوسي .

وشمل الكون الظلام ، وطلع الهلال . وسمعت ، على البعد ، بدو القافلة يتغنون ، فعدت إلى نفسي وقمت ألحق بالقافلة ، وفي نفسي الميل إلى البقاء .

واختلفت مناظر الأرض ، فأصبحت متموجة كثيرة الشقوق يحيط بها جبال شعثاء بعيدة .

وكانت الرجال والجمال تشكو أثر ماء " أجاه " المكدر . وحططنا الرِّحال مبكرين لهذا السبب ، ولخطورة المسير في نور الهلال الضئيل . ونزلنا واديًا ناعم الرمَل يبعد عن سبيلنا زهاء مائتي متر وضربنا الخيام " (م . ن ، المجلد الثاني ، ص ٦١) ، (انظر أمثلة أخرى ، م . ن ، جـ١ ، ص ١٢٣ ، ١٣٤)(١٣).

الناظر في اللوحات أو المشاهد السابقة يلمس كفاءة " أحمد حسنين " في اختيار الزوايا حيث يقف بنا أمام المشاهد التي يريد تقديمها ليستعيد من خلال الكتابة ، ما بقي في الذاكرة المعرفية الحافظة ، في محاولة أن يُحوّل الحدث الكلامي ، نتاج تجربته الحية ، وهو يخاطب المتلقي، بحضوره الذهني، ليُريه من بديع تشكيله اللغوي آيات، وهو يتخير معجمه اللغوي

ليتلاءم وتصوير الموضوع الماثل (**الصحراء**) . حيث يجدل كل هذه المظاهر (**الموضوعية**) لـ "مكان الحدث " بمشاعره وأحاسيسه الذاتية . وتأتى حروف الكلمات لتكتسب قيمها التشكيلية، من خلال تجسيدها للمَشاهد أو للبناء المرئى للأحداث التى يسردها لرحلته . وليس أمامه من سبيل سوى تفجير الطاقات الكامنة للحروف العربية بقيمها التجريدية والتشخيصية . وهنا يتآزر الحدث الكلامى المُنْتَج لمخاطبة القارئ، الحاضر حضوراً ذهنياً، إلى وقائع بصرية تجسد المكان (تأمل الكلمة وما توحى به من دلالة التمكن المادى) .

وثمة تشابه بين كاتب الرحلة والروائى ، فى نظرة كليهما لدور الكلمات فى بناء السرد أو المشهد . فدور الكلمات فى بناء الحدث فى الرواية يكاد يقترب من دور الكلمات فى استرجاع الصور البصرية لدى الرحَّالة . وقد أسعفت خبرة " أحمد حسنين " المرتكزة على " **المنظور** " فى التصوير الفوتوغرافى فى محاولته تطويع " **فن القول** " حيث الحدث الكلامى، إلى فن وقائع بصرية عيانية، إلى فن قائم على **التجسيم والتشخيص** .

إن الكلمات هى الأداة التى تصلنا بالحدث الذى ينسجه الروائى وكاتب الرحلة . و " أحمد حسنين " هنا يستعير من الروائى تقنيته فى البناء الروائى الذى يعتمد على " عنصر الحركة بوصفه وحدة من وحدات البناء القصصى ، أقول : إنه يستعيد عنصر الحركة ليعيد تشكيل أحداث الرحلة بمفرداتها وظواهرها جميعًا ، فهو يراقب الظاهرة أو المشهد بوصفه يمثل وحدة فى أحداث المشهد أو الفعل [١٤]. ثم يضع أمام باصرته : الأشخاص والأشياء ، وبهدى من بصيرته يصور هذه الأحداث ، فتتراءى لنا ، بما هم جماعة من الأفراد، يحيون فى فعل يحدّد ذواتهم أو هويتهم . وكما أن الروائى أو القصصى يتجاوز مفردات الكلمات ،ليقرب من تصوير الشخصية من خلال الحدث ، كذلك فعل " أحمد حسنين " ، على نحو ما عرضت من نماذج لمشاهد من اللوحات القلمية التى جسّد بها إحساسه بالمكان ، وبمن يسكن المكان .

حاجات مجتاز الصحراء :

يقدم " أحمد حسنين " تجربته أو خبرته لمن ينشد اجتياز الصحارى . فما يحتاج إليه الإنسان فى قَطْع الصحراء بسيط ، والأشياء تكون متماثلة فى كل حالة . فغذاء الصحراء هو: الدقيق والأرز والسكر والشاى ، وسكان الصحراء يحبون اللحم ، ولكنه لا يمكن حمله بطبيعة الحال ، فلابد للإنسان من الصيد إذا أراده أو الاستغناء عنه .

وحديث " أحمد حسنين " عن البلح يذكرنا ببيت شوقى :

طعام الفقير وحلو الغنى وزاد المسافر والمغترب

فالبلح من أهم الأطعمة فى الصحراء ، إن لم يكن أهمها جميعًا ، فإنه غذاء الرجال والجمال إذ نفذ الزاد ، أو ضاق الوقت عن طهى شىء . وليس بلح الصحراء تلك الفاكهة الحلوة الشهية ، فإن البلح الذى يحمله قاطع الصحراء ، يجب أن يكون قليل مادة السكر ، لأن السكر يسبب العطش ، ولا بد من الاقتصاد فى الماء ، إذ الآبار على مسافة أيام من بعضها البعض .

أما الشاى فهو شراب أهل صحراء ليبيا ، وهم يفضلونه على القهوة لسببين : أولهما دينى والثانى عملى . فقد حرّم السيد السنوسى على أتباعه عيش الترف ، وأمْرُه نافذ ، لأنه مؤسس الطائفة السنوسية . وقد تناولت أوامره تحريم الدخان والقهوة ، ولكنها لأمر ما لم تتناول الشاى. ولهذا نجد كل أتباعه يحبون الشاى .

والسبب الثانى الذى يجعل أهل الصحراء يؤثرون الشاى على القهوة ، أنه منشط على العمل ، وهم يشربونه عقب كل طعام .

والماء أهم ما يتحتم على مجتاز الصحراء التفكير فيه والعناية به . وهو قد حرص على حفظ الماء فى " فناطيس " مستطيلة ، مُدَلَّاة على جوانب الجمال ، و " زمزميات " من القماش . وكانت تفيد فى تبريد الماء عند اشتداد الحر فى السودان ، فإنّ تبخر الرطوبة من منافذ قماش الخيش ، يحفظ للماء درجة حرارة معتدلة .

وتكشف الصحراء عن جانب من الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى .. تكشف من نفس الإنسان عن جوانبها الشريفة . فإنك إذا واجهت أهل المدن بالخطر ، ناضل كل منهم عن سلامة نفسه . أما فى الصحراء فتعظم نفس الإنسان وتنعدم الأنانية . ويُفرغ كُلٌّ قصارى جهده فى خدمة زملائه ومساعدتهم . فإذا هدّد الخطر قافلة من القوافل ، وعنّ لأحد أفرادها سبيل النجاة تنكب عنه، ولم يترك رفقاءه ، لينجو بنفسه . فمن يُجَرِّب السفر فى الصحراء ، يدرك أنه يجب أن لا يختص نفسه بشىء دون رجال القافلة . فلا يحمل من لذائذ المأكولات ما لا يكفيهم جميعًا ، إذ فى الصحراء تنمحى الفوارق كلها ، فلا تمييز بين رفيع ووضيع .

وأشد ما يهولك فى الصحراء أن ينزر الماء ، وربما دار بخلدك فى مثل هذه الحال ، أن تستبقى لنفسك ما لديك منه . ولكنك بدلاً من هذا ، لا تلبث أن تجدك حاملاً زجاجة ماء . وهى إذ ذاك أثمن ما تملك ، تدور على الرجال تسأل كلاً منهم هل يريد جرعة ، تسألهم غير مكترث، كأنما أفرخ فى روعك أن الماء غزير فائض عن حاجتك ، تسألهم دون أن تفكر فى سلامتك الشخصية .

وهكذا تنعدم فى الصحراء الأثَرة والأنانية ، فتقول لنفسك : مهما يكن مما قدر الله أن يقع، فليقع لرجال القافلة جميعًا ، إذ إنك لا تريد النجاة وحدك ، ذلك هو الشعور الذى يستولى عليك .

وكان من ضمن متاعه أربع خيام ، منها ثلاث ناقوسية الشكل والرابعة مستطيلة ، وكذلك من أدوات الطبخ " حَلَّة " كبيرة من النحاس لطهى الأرز ، وكان مع القافلة ، استعدادًا للطوارئ ، صندوق صيدلة ، نفعهم كثيرًا أثناء الرحلة ، فى حالات حرجة ، وهذا الصندوق يحوى الكينا واليود والقطن والأربطة ، وحقنة ومصل ضد لسع العقرب ، ودهان من الزنك لأجل الأجزيما ، وأقراص مُلَيِّنة ، وملح فواكه . وكان معه بعض الجهازات وبعض أسلحة الجراحة الطبية ، وأدوات وأدوية لمعالجة أمراض الأسنان .

أما عن لباسه ، فى الصحراء ، فكان الثوب البدوى العادى المكّون من قميص وسروال وصديرى من نسيج قطنى أبيض ، وجرد عربى (= حزام من الصوف) وكوفية وعقال . وأخذ بعض ملابس حريرية ، وسروايل من الجوخ للبسها فى مواقف خاصة ، عند دخول الواحات والخروج منها ، ومقابلة رؤساء العشائر ، وكبار أهل الصحراء وحضور مآدبهم وغير ذلك .

ويتألق الوعى الاجتماعى بثقافة المكان فى التفات " أحمد حسنين " للعادات الاجتماعية . فالعادة عند السفر فى أراضى مجهولة فى البلاد الشرقية ، أن يقوم الإنسان بتقديم الهدايا إلى الرجال المشاهير الذين يلقاهم ، فكان معه كمية وافرة من الحرير ، والأوانى النحاسية والمباخر المطّعمة بالفضة ، وزجاجات الروائح العطرية ، والمناديل الحريرية ، وأباريق وأكواب للشاى من الفضة ، وأجراس فضية يسر البدوى أن يستعلمها فى دعوة خدمه أو توقعًا لنفع ، وتلك كانت بمثابة تحية أو تذكار .

* * *

الصحراء ... نبع الإيمان :

إن الصحراء عنده " أحمد حسنين" ، ليست رمزًا للعقم بقدر ما هى نبع للإيمان ، حيث يقف المرء فى هذا الفضاء اللانهائى ، وحيث يصفو الجسم والعقل ، وتنقى الروح ، فيشعر الإنسان أنه أقرب إلى الله عز وجل .

وعماد البدوى فى مواجهة الصحراء : الجمال ، والماء ، والدليل . لكنها جميعاً لا تغنى عن شىء آخر، هو الإيمان الثابت الذى لا يتزعزع . وكثيراً ما كان يغمض عينيه ، ويستعرض ما مَرَّ به ، فى مدى سبعة شهور طويلة ، فيشعر بأنه لا فضل له فيما قام به ، وأنه لا يستطيع أن يفخر بنجاح رحلته . وإذا رجع كل رحَّالة إلى ضميره ، لما استطاع أن يقول : فعلت . وكل ما يقوله : وُفِّقتُ وما التوفيق إلا من عند الله (١٥).

قد يتحمل الرجال الصحراء ويلين مهادها . وقد يكون رجال القافلة نُضْر الوجوه مرحى الخواطر . ولكنها قد تكون أيضاً قاسية فتاكة ، يضرب فيها على غير هدى ، أولئك التعساء الذين كتب عليهم سوء الطالع ، أن يهيموا فى نواحيها مستيئسين . فإذا تهدلت رؤوس الإبل من العطش والإعياء ، ونزر الماء وما من أثر لبئر قريبة ووجم رجالك ، وتطرق اليأس إلى نفوسهم ، ونظرت فى الخريطة ، فلم تجد أثراً يهديك ، لأن الطريق الذى تسلكه لم يكشفه أحد بعد ، وسألت دليلك عن الطريق فهز كتفيه وقال : الله أعلم ، أو " دماغى طاحت " ، وذرعت بنظرك الأفق ، فإذا هو ذلك الخط القائم المضطرب، الممتد بين زرقه السماء الباهتة وصفرة الرمال ، وأمعنت النظر فى كل ما يحيط بك، فما رأيت إشارة أو علامة تبعث على بعض من الأمل ، وضاقت دائرة الأفق البعيد الشاسع حتى أصبحت طوقًا يضيق حول عنقك ، ويغل حلقك الجاف . هنا يشعر البدوى بافتقاره إلى قوة كبرى ، أكبر من قوة الصحراء الفتاكة القاسية . وهنا تجأر باستدرار رحمة الله ولطفه ... هذا هو الإيمان الذى لابد منه لمجتاز الصحراء .

هذا الإيمان الذى وقر فى القلب ، يُصَدِّقه العمل : الصلاة . يتصل الليل فينبعث من فم أول مستيقظ من رجال القافلة : " حى على الصلاة . الصلاة خير من النوم " فيستيقظ القوم وكأنهم يجمعون عظامهم ، فكل عضو من أجسامهم متألم ، وكل حلق جاف . ومع هذا فما أعظم التغيير الذى طرأ عليهم، سرى فيهم الأمل ، وتولدت الثقة ، بل يعتقدون فى ضمائرهم أن كل شىء سيجرى على ما تهوى النفوس .

البدو والعبيد : شمائلهم وعاداتهم :

يقدم " أحمد حسنين " مادة أثنولوجية مهمة حين يتحدث عن البدو والعبيد – فى المجتمع الصحراوى – الذين اجتاز أرضهم ، وعاش بينهم .

فيرى أنه للبدو خلال أورثتها إياها الفطرة . فالبدوى مثلاً يأخذ ولا يشكر ، ويعطى ولا ينتظر شكراً . وكان " أحمد حسنين " فى سفراته الأولى يتضايق من هذا الأمر كثيراً، حتى عاش بينهم ، فأدرك السبب ، ذلك أنهم يَعُدُّون الناس شركاء لكلٍ فى كُلِ ما معه ، وأنه شريكهم فى كل ما معهم أيضاً .

هذه هى الاشتراكية الفطرية التى قَضَتْ المدنية الحديثة فى مئات السنوات فى صراع الطبقات للوصول إليها . (السياسة ، ٢٩ أغسطس ١٩٢٣م ، ص ٣) .

يتزوج البدو من جارية من الجوارى. فإذا أنجبت إحداهن ولداً أصبحت حُرَّة طليقة . والبدو لا يهتمون بفوارق الألوان ، فإذا وَلدت جارية لشيخ قبيلة ولده البكر، فإن هذا الولد يصبح ، بحكم الواقع ، رأساً لهذه القبيلة بعد أبيه مهما كان أسود اللون .

وأبناء العبيد عبيد كذلك ، أما ابن الجارية من رجل حر فهو حر كذلك مهما كان فقيراً ولن يكون عبداً ولو تركه أبوه يتيماً .

ويلبس العبيد ثياباً فاخرة، لأنهم مرآة تتجلى فيها صور أسيادهم . وليس على كجا عبد السيد إدريس الصفى موضع ثقته فحسب ، ولكن له فوق ذلك قوة وسيطرة ، لا يملكها الكثيرون من أحرار البدو ، كما أن للعبد الحق فى شراء جارية (م . ن ، جـ١ ، ص ١٦) .

والبدوى يحب رؤية عظام الجمال لسببين : أولهما أن أى إشارة تدل على مرور أحد قبله ، تشجعه على السير فى تلك المفاوز المتشابهة . وثانيهما أن عظام الجمال أكثر ما تكون على مقربة من الآبار ، لأن الجمال أكثر ما تكون تعرضاً للموت فى نهاية الرحلة ، حين يرهقها أصحابها وقد عز الماء . ولا يحب البدو أن يستعملوا كلمة هيكل للدلالة على بقايا تذكرهم بالموت فيطلقون عليها كلمة غزال (م . ن ، ص ١١٨) .

وهو يقارن بين عادات البدو والعبيد ، فيلاحظ أن عبيد التبوكانوا يجرون يميناً ويساراً ، ويتقدمون القافلة للبحث عن روث الجمال ، ليتخذوا منه وقوداً . فقد اعتادوا أن يعيشوا بمعزل عن بقية أفراد القافلة ، ومالت نفوسهم إلى الاستئثار بنار خاصة ، يوقدونها ليلاً على مسافة قصيرة من مضرب الخيام . وكان روث الجمل كل ما تصل إليه أيديهم من الوقود . فكانوا يستفيدون من سرعة عَدْوهم ، ويحيدون عن طريق القافلة مسافات ، بلغت أربعة أميال فى بعض الأحايين للبحث عن هذه المادة الثمينة .

وكان البدو لا يرضيهم عادة هؤلاء العبيد من سبق القافلة وجمع الروث . ولكن العبيد لم يخرجوا فى ذلك عن قوانين الصحراء التى تقول : " إن أول من يضع يده على شيء فى الطريق مالك له بدون منازع " ..

ويختلف عبيد التبو عن البدو فى كثير من الخصال والعوائد . فالعبيد قلما يستعملون النار فى تحضير طعامهم ، وإن أنسوا إليها وفرحوا بها ، وهم يجففون لحاء النخلة عند قمتها ويطحنونه ويصنعون من ذلك مسحوقًا يضيفون إليه بلحًا وجرادًا مسحوقين . وهم لا يدعون أحداً إلى اقتسام طعامهم كما يفعل البدو ، ولا يتأخرون عن تلبية الداعى إلى طعامه . والبدو يأخذون عليهم هذه النقيصة .

وعبيد التبو يتعمدون أن لا يتركوا فى طريقهم شيئًا من أشيائهم ، لأنهم يخافون خرافة مؤداها : أن من يلتقط شيئًا سقط منهم ، لابد أن يستولى عليهم يومًا من الأيام .

وهم قوم ذو أجسام متينة البناء ، أهل جد وعمل . ولكنهم شديدو السذاجة فى نظام معيشتهم وتفكيرهم . على أنهم الآن آخذون فى الاختلاط بالبدو ومحاكوهم فى كثير من طبائعهم .

وما أكثر المواقف التى يكشف فيها " أحمد حسنين " عن فطنته وبصيرته بما فى طبيعة أهل الصحراء ، فهم يسرعون إلى التكهن بمقاصدك إن أمكنهم ذلك ، فإن عجزوا ظنوا الظنون فى كل ما تفعل أو تريد أن تفعل . فالأعراب أهل شره ونهم .

وهو يقدم مثالاً لغدر البدو حيث تآمر عليه أصحاب الجمال فاستغنى عنهم، واستبدل قومًا غيرهم . وسرى خبر أن البك " أحمد حسنين " يحمل معه، ثروة طائلة ، والدائرة على الألسنة أن معه صناديق مملوءة ذهبًا . ما دفعه إلى أن يستبدل الطريق المستقيمة إلى الجغبوب بطريق تضطره إلى قطع ضلعى المثلث الذى تكوّن مواضع السلوم وسيوه والجغبوب رؤوس زواياه ، وقد أطال هذا التغيير مسافة القسم الأول من الرحلة . ولكن الزمن والمسافة هينان فى سبيل سلامة الوصول .

البدوى وطقس الغناء :

والبدوى ينشد من الأغانى ما يوافق الظروف التى يتغنى فيها . فينشد الأغنية الأولى إذا طالت عليه الشقة إلى الواحة التى ينشدها .

ويغنى الثانية إذا قرب من الأصقاع التى تتناثر فيها تلال الرمل .

وينشد الثالثة والرابعة إذا أشرف على بئر .

ويتغنى بالأخيرة إذا دخل أرضًا يسكنها أعداؤه .

وَيُطْلع أحمد حسنين القارئ على تقاليد البدو فى الأعراس ، فقد رأى فى طريق عودته من " الجوف حفلة زفاف . وكان العريس قائد جيوش الكفرة . ودعاه أبو العروس إلى تفريغ البارود تشريفًا للحفلة ،. " فسرنى أن أقوم بتأدية هذا الواجب للضابط ، لأنه صديق قديم لى. ولما أطلق رجال الحفلة النار تحية ، ركضت بجوادى ، كما يفعل البدوى الصميم ، واتجهت صوب الجماعة ، ثم أوقفته دفعة واحدة أمام العروس ، وصوبت بندقيتى إلى الأرض قدامها ، ثم أطلقت النار ، وقد أدهشنى جوادى " بركة " حين سمع طلقات بنادقهم، وأسرع بالعدو ووقف بى مرة واحدة على المسافة المقدرة من العروس ، لإطلاق النار ، ولا بدع فى ذلك فهذا شيء تدربت عليه خيول البدو " (١٦). (م . ن ، جـ١ ، ص ١٦١) .

وقد لاحظ " أحمد حسنين " أن : نساء البدو فى (أم برو) ، وهى قرية على بعد ٣٨ كيلو متر من فوراويه ، حيث أقيمت سوق عامرة على مقربة من خيام الرحّالة ، هن اللائى يشتركن فى هذا السوق ، وهن اللائى جلبن الزبد والجلود والحصير والشعير والقطن والملح ، واستبدلن بكل هذا أشياء أخرى غير مستعملات النقود فى معاملتهن . وتقوم النساء بهذا العمل، بينما يستريح الرجال ، ويظلون عاطلين عن العمل .

كما لاحظ أن الجوارى ، فى قرى السودان ، يَكُنَّ أسعد حالاً وهن فى ربقة الأسر فى البيوت البدوية ، فإنهن وهن مُطَلّقات يقمن بتأدية كل الأعمال ، فيتعهدون الغنم والماعز ، ويشتغلن فى الأسواق ، ويقمن بعمل كل شيء ، على وجه عام . أما وهن فى ربقة الأسر ، فليس عليهن إلا واجبات محدودة تترك لهن من الفراغ نصيبًا غير قليل " . (م . ن ، جـ ٢ ، ص ٨٠) .

وهو يصور تقاليد احتفال إحدى القرى القريبة من (فوراويه) ، وقد أصروا على أن يستقبلوا شيخ القافلة : " .... أحاط بجوادى سرب من العذارى يتغنين ويرقصن . فلم يسعه إلا أن يجاوبهن بالطفر والقفز ، كما يليق بالجواد البدوى . وزغردت النساء ، فطلب منى البدو أن أفرغ البارود . وأفْسَح الجمهور الطريق لجوادى فابتعدت به مسافة قصيرة ، ثم دُرْت

وانطلقت به عائداً فوقفته دفعة واحدة . وكنت فى ذلك الوقت قد أخرجت بندقيتى فأطلقتها ، على الطريقة البدوية ، عند أقدام أول صف من العذارى الجميلات فأخافهن ذلك وشاقهن " (م. ن) .

ولا يكتمل طقوس الحفل إلا بعد أن أحاط ست من العذارى بجواده ، وطفن حوله ثم أدين للرحّالة رقصة " الشّبال " وفيها يرسلن جدائل شعورهن ، ثم يلوين رؤوسهن بغتة تاركات خُصلَهّن تدور أمامه ، ويجيبهن على هذه التحية ، فكان يضع أصبعه على جبين كل منهن ، ويدير بندقيته فى الهواء حول رأسها ، وهو يقول : " أبشر بالخير " ... وراه رجال القافلة محاطًا بالعذارى ، فأطلقوا النار احتفالاً وتكريمًا ، ووزع عليهن بعد ذلك الروائح العطرية ، فانصرفن فرحات . وكانت ليلة أنس وطرب فى مضرب الخيام (م . ن) .

طباع حيوان الصحراء (الجمل) :

يحتل " الجمل " مكانه من نفس البدوى ، فهو أعز ما يملك وأضن ما يجود به ، وهو لا ينزل عنه حتى يموت فى سبيل المحافظة عليه . وقد يتحين البدوى الفرص للثأر من قاتل أخيه أو ابنه ولكنه إذا ضاع جمله هام على وجهه ، فلا يقر له قرار حتى يسترجعه ولو سفك فى سبيل ذلك دمه . والمثل البدوى يقول : " اللى ما يوصنها ما هى له " . وهذا ما يدفع البدوى التويه بجمله والافتخار به .

ونلمس ما تتميز به كتابات " أحمد حسنين " عن هذا الحيوان " الجمل " من قوة ملاحظة ومراقبة لما يأتى من فعل تنم عن خبرة هى عطاء لمعرفة مباشرة تذكرنى بدقة الجاحظ فى كتابه " الحيوان" . وهذه المعرفة تكشف عما يتحلى به هذا الحيوان الأعجم من ذاكرة قادرة على "اجترار التجارب " واستدعائها – بالغريزة – عند الضرورة .

حدث بينما كان الرحالة يقترب من جالو أن جملاً فتك به الداء وانقطع أمل القافلة ، فقسم أصحابه حمله على الجملين الآخرين ، وتُرِكَ فى الصحراء ، رغم إلحاحه عليهم بقتله ليرحموه من آلام الموت البطئ ، وقد عرض عليهم ثمن الجمل ، إن سمحوا له أن يقضى عليه ولكنهم رفضوا قائلين : إن هذا الجمل كريم الأصل ، وهو منهوك القوى لا يلبث أن يعود إلى خيامه بعد أن يستريح . وقد علم بعد ذلك أن الجمل عاد فعلاً إلى موطنه وأنه أجود صحة .

ويحس الجمل أن له دليلاً ، فإذا وقف رجال القافلة وسط الصحراء يتناقشون فى أمر السبيل التى يسلكونها ، اجتمعت الجمال حول الدليل حتى يسير ، فتتبعه غير حافلة بسائر رجال القافلة .

ولا يتقدم الجمل الدليل فى العادة ، فإذا سار قُدّامه غير حافل به ، فاعلم أن الصلاح فى اتّباع ذلك الجمل . إذ من المحقق أنه يعرف المكان الذى تريده القافلة .

ويقول البدو : إن الجمل الذى رعى مرة فى واحة لا يخطئ السبيل إليها ، وإن فصلتهما الأيام الطوال ...

وقد رأى بعينه جملاً تقدم القافلة ، وكانوا على مسيرة أربعة أيام من بئر ذاق ماءها قبل ذلك بأربع سنوات . ويعرف الناس قصة عن جمل أنقذ قافلة فى سفرها من الواحات الداخلة إلى واحة العيونات . كان دليل القافلة موغلاً فى الصحراء، متبعًا فى سيره وصف أحد أصدقائه، فأخطأ السبيل . لأنه لم يطرقها من قبل . وهامت القافلة على وجهها إثنى عشر يومًا . ونفد الماء وفقدوا الرجاء ، فاندفع الجمل بغتة وتقدم القافلة فسارت فى أثره ونجت ، لأن ذلك الجمل سافر إلى العوينات قبل ذلك ببضع سنين ، فنشق الماء ، كما يقول البدو ، على مسيرة يومين وأوصل القافلة إلى إحدى الآبار .

ويستطيع الجمل المتدرب أن يسافر أسبوعين فى الشتاء ، من غير أن يذوق الماء . وقد يصبر فى الصيف إثنى عشر يومًا . ويعلف البدو جمالهم حشيشًا إذا أمكنتهم الفرص حتى إذا رموا بها فى الصحراء، أطعموها بلحًا جافًا أو شعيرًا . وأغلب جمال برقة إبل " حملة " وأسرع الإبل عدوًا جمال قبيلتى " التبور " و " الطوارق " ، التى تمتاز ببياضها ، ونحافة أوصالها ورشاقتها . ويقطع جمل الحملة ٢٥ ميلاً فى اليوم ، ويسير الهجين الطوارقى أربعين ميلاً وربما قطع ستين دفعة واحدة .

وقد يكون الجمل مخلصًا لصاحبه مُحِبًا له ، فإن الناقة الكريمة لا ترضى ممتطيًا لها غير صاحبها . والعادة أن يحمل الماء على ظهور الجمال المسنة الرزينة ، التى لا يخشى من نزاقتها على ما تحمل من القرب . وهى تعلم أنها تحمل أعز حوائج القافلة . فإذا انتهى سير اليوم ، وحانت ساعة رفع الأحمال ، انتحت ناحية بعيدة عن بقية الجمال ، خوفًا على القرب التى تحملها من الاصطدام وانبجاس ما تحمله من الماء .

وقد رأى جِمَالاً تحوم حول الخيام، ثم تقترب من قرب الماء الملقاة على الأرض بعضها إلى بعض ، وهى مغطاة بحيطة وتحفظ ، حتى لا تطأها بأقدامها ، كأنها تشعر بقيمة تلك القرب ، وأهمية ما تحويه من المياه فتدور حولها . وقد اختار الرحّالة جملاً فأخذه مدة طويلة يحمل خيمته وكتبه وأجهزته العلمية . وإنما وقع اختياره عليه لقوته وكبر سنه ، وكان من عادته إذا أصبح الصباح وبدأت عملية التحميل ، أن يقصد خيمته من تلقاء نفسه ، ثم يبرك بالقرب منها، انتظاراً لوضع الأحمال فوق ظهره (م ٠ ن ، جـ١ ، ص ١١٥) .

" فى صحراء ليبيا " السياق الثقافى :

وإطلالة على المشهد السياسى والثقافى لمصر فى عشرينيات القرن العشرين ، تكشف عن السياق الثقافى الذى شمل مصر إبان تلك الفترة من الزمن . ومن اللافت أن هذا السياق كان يحتفل بقيمة " العلم " و " العمل " . بدا ذلك حينما احتفلت مصر ، بمؤسساتها الرسمية والأهلية ، فى مطلع القرن الماضى بالترجمة الكاملة لإلياذة هوميروس عن اليونانية ، نهض بها سليمان البستانى ، مع مقدمة نفيسه ، ضافية باتت من وثائق النقد المقارن .. ثم فى تكريم الرحّالة المقدام " أحمد محمد حسنين " بنجاح رحلته فى صحراء ليبيا ، فى الربع الأول من القرن الماضى .

وفى هذا الحفل اجتمع أمراء مصر ووزراؤها وكبار موظفيها وأعيانها ، وكبار أدبائها فى كازينو سان ستيفانو، وفيها ألقى د. محجوب ثابت قصيدة أمير الشعراء " أحمد شوقى " تحية للرحّالة المصرى المقدام ، جاء فيها : (السياسة ، الثلاثاء ، ١٩٢٣/٨/٢٨م) :

أكْبَرْتُ من (حسنين) هِمَّةً طَمَحَتْ تَرومُ مالا يروم الفتية القُنُع

وما البطولةُ إلا النفْسُ تدفعها فيما يبلِّغُها حَمْداً ، فتندفع

رَحَّالة الشرق ، إنّ البِيَد قد عَلِمتْ بأنك الليثُ لم يُخْلَق له الفزَع

ويهمنى فى هذا السياق أن أشير إلى فكرة أكد عليها رئيس الحفل، الذى تم برعاية الملك فؤاد ، "جعفر ولى باشا " : فكرة النهضة القومية، حيث أشار إلى أنه أول مصرى يخاطر هذه المخاطرة ، ويجوب الصحراء بقصد الاكتشاف وخدمة العلم والحقيقة ، وأبدى أمله أن تكون رحلة أحمد حسنين بك فاتحة عصر جديد لمصر ، وأن تكون مصر قد بدأت بمجاراة البلدان

الأوروبية التى تخرج كثيرين من المكتشفين وطلاب الحقائق العلمية ، والفنية ، والجغرافية خدمة للهيئة الاجتماعية (المجتمع) " الأهرام ، ١٩٢٣/٨/٢٩" (١٨).

ومهما كانت النتائج العلمية التى تعرض لها " أحمد حسنين بك " ، فإنه قد ألقى علينا درسًا نافعًا يجدر بنا نحن المصريين أن نحتذيه فى نهضتنا القومية الحديثة . فإذا ما شعرنا بذكرى هذا الرحّالة الآن ، فإننا نرجو أن يكون فاتحة عصر جديد : عصر الاعتماد على النفس ، وصدق العزيمة . فإن الأمم برجالها ، والرجال بعزائمهم . وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم (السياسة ، ٢٨ أغسطس ٢٣ ، ص ٥) .

ومضمون خطاب الكلمات التى ألقاها المحتفلون بالمحتفل به تنسجم مع الخطاب القومى الذى كان سمة رئيسة وَسَمَتْ المشهد الثقافى والتاريخى الذى شهدته مصر . فمع انتهاء الحماية البرطانية على مصر فى الثامن والعشرين من فبراير ١٩٢٢م ، والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، أصدر السلطان فؤاد مرسومًا بتكوين حكومة جديدة . وفى الخامس عشر من مارس ١٩٢٣م تغير الاسم الرسمى لمصر إلى " المملكة المصرية " . وفى العام نفسه تم الكشف عن اثار توت عنخ آمون ... فى ذلك الوقت الذى كانت مصر تبحث فيه عن قوميتها وشخصيتها ، وعن ماضيها، وعلاقتها بذلك الماضى ، حدثت التنقيبات الأثرية ، وتمت اكتشافات الأمجاد التى كانت مطمورة فى (الماضى) والحقائق التى كانت مجهولة .

واللافت أن توقيت القيام بالرحلة وإنجازها ، يتلاقى مع لحظات حاسمة فى تاريخ مصر ، سبقت الرحلة ، وواكبتها . إذ سبقت الرحلة ثورة ١٩١٩ القومية ، تلك الثورة التى عززت سلطة الطبقة البورجوازية على المسرح السياسى والاجتماعى والاقتصادى . وقد بدت تجلياتها فى إبراز فكرة أستاذ الجيل " لطفى السيد "، فى تأكيده على الشخصية المصرية ، وفى إعلائه للوطن والمواطن والفكر الليبرالى بشقيه السياسى والثقافى .

وقد وجدت هذه الأفكار القومية عَضُدًا لها، فى جهود طلعت حرب فى إنشاء بنك مصر وشركاته ، وفى إنشاء الجامعة المصرية ، والاعتزاز باللغة العربية التى تجسد وحدة الأمة . (وليس بصحيح أن الدعوة للمصرية كان على حساب الاهتمام باللغة العربية ، على الرغم من دعاة العامية . ففى ظل الاستعمار كان الاعتصام باللغة العربية أعمق مما هو بُعَيد نيل استقلالها ، على نحو ما نرى آثاره الوبيلة بعد ذلك) ..

المهم ، شاعت آنذاك كلمات من نحو : الأمة المصرية ، الوطن المصرى ، النهضة القومية ، الاستقلال والتجديد .

وفى أحضان ثورة ١٩١٩ نشأت موسيقى سيد درويش تعبيرًا عن نبض الشخصية المصرية وإحساسها ، ونشأ أدب المدرسة الحديثة ، مُعَبِّرًا عما يعتمل فى نفوس المصريين لإيجاد فن واقعى يرتبط بالشعب المصرى(١٩) . وفى هذا السياق نشير إلى أن تمثال نهضة مصر، والمناخ الثقافى الذى صاحب ظهور فكرة التمثال ، أو ما امتد فى أعقابه ، جاء صدى لهذا البُعد القومى .

لقد كانت مصر على مشارف عصر جديد ، وعلى موعد مع جيل جديد ، جيل(٢٠) كانت رؤيته لمصر وللعالم تختلف عن رؤية نظرائهم فى الأجيال اللاحقة ، ما يكشف عن مدى درجة الاستمرار أو الانقطاع فى القيم والسلوك ، ومدى اقتراب الأجيال اللاحقة أو ابتعادهم عن الجيل المؤسس الذى جاءت أعماله أو مواقفه أنشودة ولاء لمصر .

وليس عجيبًا فى هذا السياق الثقافى، أن تقرر وزارة المعارف العمومية قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى فى الاحتفال بالرحّالة المقدام، ضمن نصوص المطالعة فى مدارسها وأن تكون تجربته التى رصدها بين دفتى كتابه " فى صحراء ليبيا " ضمن مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية لكن عجبى لما وصل إليه حال " التربية " وحال " التعليم " فى أيامنا . فبعد تباشير النهضة حلّت الكبوة ونحن بإعادة إصدارنا لهذا الكتاب ، إنما نسهم فى إحياء وشحذ الهمة ، وإحياء ذاكرة شباب الأمة ، أمة عانت الظلام طويلاً، فعماها فى أن يزول الظلام .

* * *

لكن يبقى أن أحمد حسنين هو أول مصرى، وجد من نفسه وحدها دافعًا إلى المخاطرة بحياته فى القيام بمثل هذا العمل الجليل - رحلته فى صحراء ليبيا - فلبى نداءها بجنان ثابت، وتحمل الكثير من المشاق والمتاعب ، واقتحم الشدائد والمصاعب فى اختراق هذه الصحراء المحرقة ، يلفحه أوارها، وترهقه سمومها ، مُذَلِّلاً ما اعترضه من العقبات ، بما تأصل فى نفسه من الخلق الثابت والعزم الوطيد . وكل ذلك لا لأنه مكلف القيام بهذا العمل من قبل حكومته ، ولا لأنه يرمى لفائدة مادية ينتظرها من ورائه ، ولكن الدافع الوحيد له على ذلك، هو رغبته فى رفع شأن وطنه مصر ، وإعلاء مكانتها بين الأمم .

مراجع وتعليقات :

١ – الزركلى : الأعلام ، المجلد الأول ، ط الثامنة ، بيروت ١٩٨٩م ، دار العلم للملايين .

٢ – محمود صلاح : أحمد حسنين ، أسرار الحب والسياسة ، كتاب الهلال ، أغسطس ٢٠٠٥ .

٣ – مواضيع متفرقة ، مجلتى ، السنة الثانية ، المجلد الرابع ، أول يوليو ١٩٣٦م ، ص ١٩٦ .

٤ – زكى مبارك : الرسالة ، العدد ٣٩٠ ، ٢٣ ديسمبر ١٩٤٠ ، ص ٨٤٣ ؛ وزكى مبارك ناقداً ، دار الشعب، ١٩٧٧ .

٥ – محمد التابعى : من أسرار الساسة والسياسة ، مصر ما قبل الثورة ، كتاب الهلال ، فبراير ١٩٧٠م ، ص ٣٧٤ .

٦ – الإثنية ، الجماعة الإثنية Ethnicity, Ethnic Group يرجع أول استخدام مسجل للكلمة " الإثنية " بمعنى الشخصية أو الصفة المميزة لجماعة إثنية إلى عام ١٩٥٣م ، وهى تعميم لأحد العناصر التى تشتمل عليها قائمة من الكلمات المشتقة من الكلمة الإغريقية Ethnos بمعنى شعب .

ويستخدم مصطلح " الجماعة الإثنية " فى الأنثروبولوجيا أحياناً لتحديد جماعة مستقلة ذات تميز ثقافى ، ولكن أوسع استعمالها هو لفظة Category من السكان يشتركون أيضاً فى سمات ثقافية عامة ، ومؤسسات اجتماعية بوصفهم جماعة (عرقية) ،

ميشيل مان : **موسوعة العلوم الاجتماعية** ، نقلها إلى العربية ، عادل مختار الهوارى ، سعد عبد العزيز مصلوح ، الإمارات العربية المتحدة ، دارالفلاح ، ١٩٩٤م .

الإنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology هى الدراسة الشاملة للثقافات والمجتمعات على امتداد العالم

وقد نشأت الأنثروبولوجيا نتيجة حب استطلاع الثقافات الأخرى التى وصفها المستكشفون والتجار وأعضاء البعثات التبشيرية منذ أواخر القرن الخامس عشر .

جوردون : **موسوعة علم الاجتماع** ، المجلد الأول ، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع ، مراجعة وتقديم ، محمد محمود الجوهرى ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ٢٠٠٠ .

٧ – Zolonek, Altahtowi & Political freedom, The Muslam World, 1964, p. 91 - 97 .

٨ – الطقس : أى تنظيم مركب للنشاط الإنسانى ليست له طبيعة فنية (تقنية) أو ترويحية بارزة ، ويتضمن استخدام أساليب السلوك التى تتسم بقدرتها على التعبير عن العلاقات الاجتماعية ، شارلوت سميور – سميث

"م . س " طقس العبور : Rite of Passage مصطلح قدمه العالم الأنثروبولوجى الهولندى فان جنيب Arnold Van Genep فى عام ١٩٠٨ ليطلقه على طقوس معينة rituals تعد علامة على انتقال الفرد بين حالات ثابتة ومستقرة نسبيًا، تكون معترفًا بها من الوجهة الثقافية ، وتشمل العملية التى وصفها على ثلاثة طقوس :

١ – الانفصال : حيث يشير السلوك الرمزى إلى مفارقة الحالة .

٢ – حالة الغموض أو بداية الشعور بما بين الوضع القديم والجديد من تمايز .

٣ – التجميع أو كمال التحقق حين يستحوذ المرء على الحقوق والواجبات المرتبطة بحالة جديدة مستقرة .

ميشيل مان م . س .

٩ – يوسف خليف : ذو الرمة ، شاعر الحب والصحراء ، دار غريب ، د.ت ، ص ١٥١ .

١٠ – أحمد محمد حسنين : فى صحراء ليبيا ، المجلد الأول ، د.ت ، ص ١٤ .

١١ – الرسالة : العدد ٤٢٧ ، نوفمبر ١٩٤١م.

١٢ – أحمد محمد حسنين : م . س ، المجلد الأول ، ص ٦٨ .

١٣ – م . ن ، ص ٦١ ، ١٢٣ ، ١٣٤ .

١٤ – See, Maevin Mudrick, " Character and event in fiction " Yale Review, 1, (1960), pp. 205 - 210 , passim" .

وانظر : أحمد إبراهيم الهوارى : نقد الرواية فى الأدب العربى الحديث ، القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٣ ، ص ١٠٣ .

١٥ – أحمد محمد حسنين ، م . س ، المجلد الأول ، ص ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ .

١٦ – م . ن ، ص ١٦١ ، ص ١٣٥ .

١٧ – م . ن ، المجلد الثانى ، ص ٨٠ .

١٨ – الأهرام : ١٩٢٣/٨/٢٩م ، ص ٥ .

١٩ – انظر : محمد حسين هيكل : ثورة الأدب ، الطبعة الثالثة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٥م، ص ١٣٣ .

– أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، بيروت ١٩٥٩م ، صفحات ١٣٠ – ١٣٤ .

– بدر الدين أبو غازى : المثال مختار ، الدار القومية ١٩٦٤م ، ص ٨ .

– بد الدين أبو غازى : مختار حياته وفنه ، د.ت ، ص ١٣١ .

– حامد سعيد : الفن المعاصر فى مصر ، ١٩٦٤م ، ص ٧ .

– فتحى غانم : الفن فى حياتنا ، الكتاب الذهبى ، يونيو ١٩٦٦م ، ص ٨٧ .

– أحمد إبراهيم الهوارى : البطل المعاصر فى الرواية المصرية ، ط الرابعة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٢ ، صفحات ٥٢ – ٦٢ وهوامش الفصل الأول .

٢٠ – اللافت أن هذا العصر ، كان عصر العمالقة فى كل مجال ، لكن ما أشير إليه هنا هو ما تثيره هذه الظاهرة ، مما طرأ على الحياة الثقافية والسياسية فى الأجيال اللاحقة من اختلاف يدعو إلى التأمل والدرس . فهل هى صدى يؤكد مقولة نظرية الدورات الحضارية ؟ أم هى أثر من آثار طبيعة النظام الاقتصادى والسياسى السائد، ودوره فى تهيئة المناخ لظهور أجيال ... " نظائر " لهذا الجيل المؤسس للنهضة الحديثة ، وليس مجرد " أشباه " !! إن القضية بحاجة إلى نظر علمى .

وأشير هنا فقط ، ومن منظور اجتماعى ، إلى أن فكرة الجيل Generation هى صورة من صور جماعات العمر ، يتكون من أفراد المجتمع الذين ولدوا فى نفس الوقت تقريبًا . ولقد شهدت السنوات الأخيرة اهتمامًا متزايداً بالتحليلات الجيلية التى تهتم بدراسه إسهام الجماعات العمرية الجديدة فى التغير الاجتماعى، وكيف ترى العالم مقارنة بالجماعات السابقة أو اللاحقة .

انظر ؛ مارشال ، جوردون : م . س ، ص ٥٧٤ .

في صحراء ليبيا

أحمد محمد حسنين

هذا الكتاب رواية عن رحلة   في التيه أو عن رفقة في الغاب

صحراء في طول الظنون وعرضها   طويت ونشرت في فصول كتاب

شوقي



صورة غلاف الطبعة الأولى



إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول

بنورك اهتديت فى مجاهل الصحراء ، فاقتحمتها يحدونى صوت الأمل فى رضاك وتظلنى رعايتك فى جوها اللافح، وشمسها المحرقة، وبعطفك وتشجيعك مضيت، فلان لى صعبها، وسهل حزنها، وقصر بى مداها البعيد، فطويتها كما ينطوى هذا الكتاب، الذى تشرّف باسمك، على ما يكتبه لك عبدك الخاضع، من إخلاص وولاء ، وإنى لأتقدم به إليك، كما يتقدم قاطف الزهرة إلى غارسها وساقيها ومجتنى الثمرة إلى متعهدها وراعيها ولازلت يا مولاى

عبدك الخاضع المطيع

أحمد محمد حسنين





حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر [الأسبق]
إبان العهد الملكى





مقـــدمــة

حسن جميل ، أن يقوم المرء بسياحة شاقة ليحصل رضى النفس من جراء الوجدانات المتنافرة التي يجدها . يلقى بنفسه في المفازات يحصل الإحساس بالوحشة ؛ فإذا سنح له غزال، أو بدا له سرب من القطا في النهار، أو طلع في الليل نجم ألفه من قبل ، حصل نوعًا خاصًا من الإحساس بالأنس . يعروه كذلك إحساس القوة القادرة ، ويدخل إلى نفسه شيء من الإعجاب بذاته ، كلما ذكر تفرده بالحال التي هو فيها وتفوقه في اقتحام الأخطار على نظرائه وبيئته . يتناوبه الخوف والطمأنينة كلما قل ماؤه ثم ورد بئرًا أو ظن الهلاك ينتظره في بعض الطريق ثم نجا منه . كل هذه الأحاسيس تجعل للنفس رضى لا يعرفه إلا أهل الأسفار الشاقة إذا ذاقوه مرة قل أن يقنعوا بما نالوا منه . بل يطلبون المزيد من هذا الرضى فيصير لهم السفر لذة مقصودة لذاتها، يباشرونها كلما استطاعوا كما يباشر غيرهم لذات الإقامة سواء بسواء .

وحسن جميل أيضًا أن يحمل المرء نفسه على مشاق السياحة الخطرة وأهوالها ، لا لأن به هذا الميل الذي ذكرنا . ولكنه يقتحم صنوف هذا العذاب ليصل إلى تقرير حقيقة أتنولوجية أو تعيين مواقع جغرافية أو ضبط معلومات جوية أو أرصاد فلكية ... إلخ إلخ . فإذا ظفر بطلبته حصل على رضى للنفس ، لا نظنه من النوع الأول ولكنه رضى لا يقل عنه في أثره السعيد ، بل يزيد عليه كثيرًا في قيمته وفي بقائه .

وأحسن من ذينكم وأجمل ، أن يقع الوفاق بين رغبة النفس ومطلب العقل ، أو بعبارة أخرى، بين اللذة وبين الواجب . فيعرض السائح نفسه لأخطار القفار ، لأن اقتحام الخطر في ذاته يلذ لنفسه ، ولأجل أن يحقق النفع العام بما يحاول من الاستكشاف وتنمية العلم الإنساني أو تجديده . كذلك كان صديقنا أحمد حسنين «بك» حين اقتحم صحراء ليبيا، وحين وضع بما وجد فيها من اللذة الشخصية، وما وُفق إليه من الاستكشافات العلمية، هذا الكتاب الذي نقدمه لقراء العربية .

اقرأوا كتابه تروا حبه لآفاق الصحراء وغرامه بكل ما فى الصحراء ، يتجلى فى كل موطن بارزًا ، يُغشّى كل ما دونه من الإحساسات الأخرى . وليس فى الصحراء إلا الوحشة والتفرد بنوع ما ، وانقطاع النظر عن المرئيات المألوفة والسمع عن الأحاديث المعتادة والنفس عما فى المدينة من دواعى الرجاء ، وبواعث الخوف على السواء . يقص علينا هذا الرحالة النابه، أنباء ما استشعره من تلك الأحاسيس المتباينة جد التباين، يبسط لنا وصف ما لقيه من الضيق يومًا ومن الفرج يومًا آخر . يتحدث إلينا بكل ذلك ، فى نوع من الحنين إلي الصحراء ، والشوق إلى استشعار تلك الإحساسات، كأنه لم يفارق الصحراء ومشاق الصحراء إلا كارهًا، ولم يرجع إلينا إلا بعد أن خلَّف هناك فى تلك المفاوز ، موضع حب مازالت تساوره ذكراه ، ومنازل نعيم مازالت معقد حنينه وموضع مناه .

هذه النزعة البدوية من ناحية، وهذا الإخلاص للعلم والتضحية له بالمال وبالراحة من ناحية أخرى ، ليسا موهبة عادية ولكنهما من خصال الطبع الاستثنائى ، أو قد يكونان أثرًا ناميًا من آثار الانتقال الوراثى القريب . فما كل امرئ رحّالة، ولا كل نفس تطيق ما أحبته نفس الرحّالة أحمد حسنين ابن أستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين ابن المرحوم أحمد حسنين باشا . لقد امتزج فى نفسه حب السياحة بحب العلم والإخلاص له ، فاتخذ من لذته الشخصية وسيلة للاستكشاف وأداء الواجب العلمى . وما أحسن أن يكون القيام بالواجب طوعًا لا إكراه فيه ، ولذة لا يشوبها ألم .

نعلم شيئًا غير قليل من الصفات العامة المميزة للشعوب العربية من غيرها ومن بعضها والبعض الآخر . وأكثر ما نعلمه من ذلك قديم لأنه يرجع فى جملته إلى كتب السير القديمة ودواوين الشعر القديمة وبقية كتب الآداب . وقل ما نجد الآن من الثقات من يخالطون البدو عن يمين مصر وعن شمالها ، ليحققوا تلك المميزات الإتنولوجية التى لا شك فى أن يد الدهر قد تناولتها ، بالتغيير والتبديل والحذف والمسخ والتحسين . حتى كانت هذه الرحلة المباركة فكشفت عن مواطن جيراننا فى الصحراء الغربية ، وشىء غير قليل من عاداتهم ومواطن تفاؤلهم وتطيرهم ، فى وصف لذيذ وعناية تامة بالتفاصيل والدقائق .

قد يظن الحضرى أن من السهل أن يركب الجمل ، فى قافلة تسير فى الأرض أسابيع أو أشهرًا فى رفقة كيفما اتفق . هذا الخاطر أبعد ما يكون عن حقائق الأشياء . فإن رحلة مثل رحلة حسنين «بك» فى جوف الصحراء ، لا سلامة منها إلا بأعجوبة أو بتوفيق من الله عظيم .

إن المسافر فى مثل هذا الطريق ؛ وفى مثل هذه القافلة التى ليس بينه وبين أحد أفرادها شبه فى منازع النفس ، ولا فى التربية ولا فى فهم الحياة ، ولا فى مقومات الأخلاق ، معرّض كل ساعة للهلاك من خيانة من معه ومن خطأ الدليل ، ومن خور الرواحل ، ومن عاديات الطبيعة التى لا ترحم عادياتها ، متى أثارت رياحها رمال الصحراء فتدفن أحياء ، أولئك الأشباح الإنسانية التى تتمايل على ظهرها ، كأنها تعاقبها على ترك مواطنها الطبيعية ، وغشيان ما شاءت الطبيعة أن يكون قفراً من كل ساكن، وعلى الخصوص من بنى آدم . وعلى هذا النحو ، ينبغى أن نقدر شجاعة رحّالتنا المصرى، ومقدار إخلاصه للاستكشاف . الواقع أنها رحلة شاقة . قال الدكتور هيوم :

" إن رحلة أحمد بك حسنين قد فتحت أمامنا منطقة عظيمة كانت حتى الآن من مجاهل الأرض " .

لو أن الطريق معبداً والشقة محتملة ، لما كان هناك ما يمنع من أن يجوب تلك الناحية من خلال الصحراء كل سائح . ولكنى لا أذكر عالمًا قام بمثل هذه الرحلة منذ نبلاء « فيلى » فى القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد .

ومع ذلك فإن بعض القطع القليلة التى وجدت من رحلاتهم ، لا تدل على أنهم سلكوا تلك السبيل الوعرة التى سلكها أحمد حسنين «بك» . بل على العكس من ذلك ، ربما كانت كل القرائن متضافرة ، على أن سبلهم كانت قريبة من نهر النيل ، وإن كانت فى صحراء ليبيا عينها .

لا نظن أن الجمع بين أحمد «بك» حسنين وبين النبيلين « ميخو » و « هيركوف » فى هذا المعنى يؤذن بالتلازم فى مصر ، بين النُّبل وبين الرحلات الخطرة ، وإن كان النبلاء أقدر عليها من غيرهم فى العادة ، لا من حيث أنهم أطمح إلى المجد فحسب ، ولكن لأن الرحلات من هذا القبيل قد تستتبع استعداداً خُلقيًا وأداة غالية بوجه ما .

لئن كان هيركوف موفداً من قبل فرعون مصر « ميتيزوفيس الأول » فلقد لقى حسنين «بك» بعد عودته من رعاية ملك مصر صاحب الجلالة فؤاد الأول ؛ وعطفه ما يشجع فى الواقع على مثل هذه الرحلات الخطرة .

عاد هيركوف فى رحلته الثالثة بأنواع من الجلب أهمها قزمة فرح بها الملك الشاب «بيوبى الثانى » خليفة « ميتيزوفيس الأول » واتخذه ضحكة له ، وأغدق من أجل ذلك على هيركوف نعماً وتشاريف كانت تضرب بها الأمثال .

لم يعد رحالتنا أحمد حسنين بقزمة ضحكة ، ولكنه عاد بأرصاد فلكية ، وتعيينات جغرافية قضى فى تحليل نتائجها الدكتور بول مدير قسم مساحة الصحارى مدة شهرين . وفى خلاصة هذه التحاليل يقول الدكتور بول : « ربما يسمح لى أن ألفت النظر إلى أن رحلة أحمد بك حسنين ، كما يظهر لى ، هى فوز يكاد يكون فريداً فى تاريخ الاستكشاف الجغرافى » . وجاءنا أيضاً بنماذج جيولوجية قال فيها الدكتور هيوم مدير قسم الجيولوجية المصرية : « إن أحمد حسنين بك قد حصل برحلته على مجموعة ثمينة من النماذج الجيولوجية والصور الفوتوغرافية ، تجعل من السهل على من خبروا جيولوجية الصحارى المصرية خبرة عملية أن يصلوا إلى نتائج صحيحة عن التركيب الجيولوجى للمنطقة التى اخترقها » .

كتاب رحالتنا حسنين بك على ما فيه من الحقائق العلمية ملحة أدبية . لم يكن رحالتنا مشهوراً قبل الآن بالتفوق فى الكتابة، كما اشتهر بالتفوق فى العلم ، وفى وسائل الشجاعة والرياضات . ولكنه لما تهيأ له ظرف الكتابة والوصف سما إلى ألطف المعانى وترتيبها ، وحسن الذوق فى إيراد الحوادث، والتبسط فى عرضها، إلى حد يصح اعتباره نموذجاً كتابياً. أتراه ، كما يظهر لى ، قد ترك التعمل ناحية ولم يزد على أن رسم بقلمه صورة ساذجة للمعانى التى أثرت فى نفسه أثراً عميقًا ؟ يظهر لى أن لطف الحس فى هذا المقام له أثره العظيم فى رشاقة التعابير وجاذبية القصص .

مباركة هذه الرحلة التى اكسبت الوطن نوعًا جديداً من المجد واكسبت علوماً عدة زيادة فى موضوعاتها وضبطاً فى تعييناتها وَأجْدَتْ على النابغة أحمد «بك» حسنين مجداً يبقى بقاء المعلومات التى أضافها إلى العلم . لاشك فى أن بقاء الكتب رهن بما حوت من حق وبما أعطت لقارئها من لذة . وكل ذلك بين دفتى هذا الكتاب الذى يسرنى السرور كله أن أقدمه إلى قراء العربية .

أحمد لطفى السيد

مدير الجامعة المصرية

الفصل الأول

الصحـراء

كنت فى رحلتى الأولى وسط الصحـراء قد نذرت نذرًا ضللنا الطريق وأضعنا معه الأمل . فلا أثر للواحة التى التمسناها . ولا سبيل إلى بئر قريبة منا . هدّ التعب أجسامنا . وتسرّب اليأس إلى نفوسنا . وكانت الصحراء قاسية عاتية . فنذرت إن خرجنا منها أحياء أن لا أعود إليها ثانية .

مـضى عامـان على ذلك النذر فإذا بى فى نفس الصحـراء . وفى عين البـقـعة التى ضللنا عندها الطريق . ثم إذا بى عند ذات البئر التى أنقذت حياتنا فى الرحلة السالفة .

أجل قد يكون للصحراء متاعبها ولها أيضًا ملاذها وهى التى تستهوى عشاقها وتجذبهم إليها . افتتن بها كل من جاب فيافيها . افتتن بعظمتها المتمثلة فى فضائها الواسع وسكونها العميق وحياة التنقل المحفوفة بالمخاطر . بل هى تلك المخاطر نفسها التى تفتنه بل يفتنه الموت المنتشر فى كل بقعة من بقاعها .

تَبْسَم فما أحلى ابتسامها . وتعبس فما أقسى عبوستها . تضحك نجومها فتستهوى عابر سبيلها ، ويحتكم فضاؤها فى القلب فتوقعه فى أسرها ، فيسير مغتبط النفس هانيها سير المؤتنس بها ، المولع بجمالها ، المفتون بعشقها ، ولكنها كالغانيات شيمتها الغدر . فلقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب ونهاية القساوة .

الصحراء ساحرة جذابة . إذا عرفتها تعلقت بها نفسك أبد الدهر . ولكن ليس من السهل أن تدرك سر سحـرها ولا سبب خلابتـها . بل كل ما تعرفه أنـها تناديك ، فينفذ نداؤها إلى صميم قلبك . وتدعوك فلا تلبث أن تشد الرحـال إليها صـاغرًا ... يسوقك الحنين . وتدفعك الذكرى

وأية ذكرى !! ...

تكون قد سِرْت عامة يومك على أقدام مقروحة ... حتى السير أهون عليك من ركوب الإبل !

تلازم القـافلة سـاجى العينين تجـرر قـدميك على وقع خطا الإبل ، وقد جف ريقك وتشقق حلقك ولا أثر لبئر تروى منها .

يسير رفقاؤك فى هدوء وسكون وقد خفتت أصواتهم وانعدمت فيهم رغبة التغنى . قلّص وجوهم الجهد . وحالت إلى لون الدم عيونهم تبعث نظرة شاردة حائرة ملؤها اليأس ، تستطلع الأفق وتستبين ذلك الخط الذى تلتقى عنده زرقة السماء بصفرة الرمال ، فإذا به دائمًا باهت بعيد .

السكون شامل لا تصدعه إلا خضخضة النزر اليسير الباقى من الماء ، فى القرب المتهدلة على جوانب الإبل

إننا فى الصحراء لا نتحدث كثيرًا . فالصحراء تُعَلِّم السكوت . وإذا أحدق بنا الخطر تحاشينا النظر بعضنا إلى بعض وغنينا عن الحديث

وماذا يجدى الكلام ! ؟

كل منا يعرف ما هو واقع . وكل منا يحتمله بصبر وجلد إذ التضجر ضرب من اللوم على الله القدير . وهذه معصية لا يقدم عليها بدوىّ قط . ففى عقيدته أن الله كتب عليه هذه الحياة . وقدر عليه سلوك هذه الطريق . وقد تقوده إلى الموت الذى اختاره له . فلا بد له من الرضاء به. والبدوىّ يقول: لا مفر مما كتبه الله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾(١)

فى مثل هذه الساعات ، تقطع على نفسك المواثيق والعهود أن لا تعود إلى الصحراء قاطبة إذا خرجت منها حيًا .

ثم ينتهى عمل اليوم وتحط الرحال ولا تنصب الخيام لأن الرجال مجهدون غافلون عن التفكير فى أجسامهم .

وكأنما الشمس قد نالها ما نالنا من تعب . وكأنما النهار الذى قطعته وإيانا فى نضال الصحراء قد أسفر عن انهزامها كما أسفر عن انهزامنا . وكأنما صراع الصحراء قد أدمى وجهها؛ فإذا قرصها المهزول يرسل أشعة حمراء ضعيفة كأنها خيوط الدم . وكأنما الشمس قد عمدت مثلنا إلى الانزواء تضمد ثخين جروحها ، وتجدد منهوك قواها حتى إذا تم لها ذلك، عادت وعدنا فى نورها إلى مصارعة الصحراء . ولكن الصحراء لا تلبث أن تصرعها وتصرعنا .. قصة كل يوم .

ثم يهبط الظلام شيئًا فشيئًا ، تطارد طلائعه فلول النور . ويسجو الليل زاهر النجوم أو وضاح البدر . وربما كان ليل الصحراء أعجب نواحى الحياة فيها .

---

(١) النساء : ٧٨ .



الأمير السيد محمد إدريس السنوسي

يغشاك السكون ثم تحن إلى الحديث بعد سكوت يوم طويل . وتبدأ المُلَح فاترة فيجرؤ صغير القافلة، أن يقذف بنكتة طريفة عالى نبرات الصوت عن رفقائه ، وإن لم يكن طرب الفؤاد

ثم تتوافق أصوات البدو غير شاعرين وترتفع وتتزن فى ذلك المقام ... فيدور الحديث

هكذا الصحراء تبدأ سحرها

يسرى نسيم الليل عليلاً فينعش أرواح القافلة ولا تمضى دقائق قليلة حتى يبدأ النقر على «الفناطيس » الخالية . ويدور الرقص والغناء . والرجال يتعهدون الإبل أو يرتبون الحوائج ويصلحون السروج . فما يكاد يقع فى آذانهم أول صوت من أصوات النقر أو الغناء ، حتى يتجمع شملهم حول رماد النار الخابية، فيتوسم كل منهم وجوه رفقائه ، ليطمئن عليهم ويتيقن سلامتهم . ويحاول كل منهم أن يكون أشد بهجة من جاره، ليقوى عزيمته ويجدد فى نفسه الثقة والأمل والطمأنينة .

ونعمد إلى مغالطة أنفسنا . وهى مهمة تبدأ ثقيلة شاقة . نحاول أن نطرب وأن نبعث فى ظلام حيرتنا ومتاعبنا نوراً . فيقول أحدنا : « إن جمال القافلة على ما يرام ، لقد تعهدت ذلك الجرح فإذا به أخف مما كنت أظن » . ويقول آخر : « أخبرنا بو حسن أنه رأى شارة البئر على مقربة إلى اليمين » . وهكذا نستدرج أنفسنا لنقنعها بأن كل شىء على ما نود ونرغب . وربما كان هذا كله تغريراً منا بأنفسنا ، ولكنها الصحراء قد خلبت ألبابنا وتغلب سحرها على عقولنا .

شأننا فى ذلك شأن رجل شديد الوله بغادة فاتنة ساحرة ولكنها قاسية جافية . تعرض عنه فتظلم الدنيا فى وجهه . حتى إذا جن الليل وبسمت له استحالت الدنيا بأسرها إلي جنة ضاحكة . كذلك الصحراء تبسم لك فتنسى كل شىء . تنسى متاعبك وآلامك . تنسى الصعاب التى لاقتك والمشقات التى تنتظرك . تنسى كرب الحر والعطش . تنسى أنك أشرفت اليوم على الموت وأنه يرقبك غداً، وأنه كامن لك عند كل خطوة . تبسم الصحراء فلا يبقى بعدها مكان جدير بأن تعيش فيه ، ولا تطيب لك الحياة فى غيرها من بقاع الأرض .

تبسم الصحراء فيعاودك حبها وتقبل عذرها . وتغفر ذنبها وتنقض عهد هجرانها .

ويسطو الرقص والغناء على ما بقى فى نفوس القوم من قوة وجلد بعد جهد النهار . فتفتر العزائم . ويغلب النعاس على الأجفان فيرقدون تحت قبة السماء الصافية الجميلة وقد رصعتها النجوم.

قليلون من أهل المدن يعرفون لذة الجلوس فى حلكة الظلام ورعى النجوم . ولا عجب إذا كان العرب أساتذة علم الفلك . فالأعرابى إذا انتهى من عمل يومه، خلا إلي نفسه وانقطع إلى ترسم حركات النجوم، وإمتاع روحه بما تبعثه فيها من الراحة، والشعور بالسمو إلى ما فوق العالم الأرضى .

وتقع النجوم من نفسه موقع الأصدقاء الأقربين الذين يلقاهم كل يوم ، حتى إذا دارت بها قبة الفلك لم تغب فجأة كما يختفى المسافر عند الرحيل ، ولكنها تحتجب تدريجًا كما يذوب الراحل فى عين مودعه على أمل اللقاء القريب .

ويتصل الليل فينبعث من فم أول مستيقظ من رجال القافلة « حىّ على الصلاة . الصلاة خير من النوم » ومازال فى السماء قليل من النجوم المتناثرة ، فيستيقظ القوم وكأنهم يجمعون عظامهم ، فكل عضو من أجسامهم متألم وكل حلق جاف . ومع هذا فما أعظم التغيير الذى طرأ عليهم ... سرى فيهم الأمل وتولدت الثقة ، بل قد يعتقدون فى ضمائرهم أن سيجرى كل شىء على ما تهوى النفوس .

والدنيا بعد ، فضاء مكفهر رطب . ونيران وقود الصباح وحدها تمزق برودة نسيم الشمال. فإذا كان الجو صحواً لا سحاب فيه انتشر فى السماء نور ضئيل ، يرمى خلف الرجال والإبل ظلالاً مستطيلة رواغة دقت حتى ما تكاد تسميها ظلالاً . ثم يتخضب الفضاء بحمرة تبعث الدفء . وإنما تَبين ألوان الصحراء بين الفجر وبزوغ الشمس . حتى إذا طلعت ذكاء لم يبق فى الصحراء إلا ذلك المنبسط السحيق من زرقة وصفرة . ثم تنصل الزرقة شيئًا فشيئًا حتى إذا انتصف النهار انمحت الألوان من السماء .

ويخلق الصباح قوة جديدة كما يبعث الليل السلام والسكينة

تلك هى الساعات التى يتجلى فيها للإنسان سحر الصحراء وجمالها . فى سكون هذا الفضاء المتسع، يدق الإحساس حتى إنه ليشعر قاطع الصحراء أحيانًا بقرب واحة عامرة . وتغلب غريزته أيضاً فيحس بمئات الأميال التى تبعده عن كل كائن حى.

وفى تلك اللانهاية الساكنة يصفو الجسم والعقل، وتنقى الروح ، فيشعر الإنسان بأنه أقرب إلى الله عز وجل، ويحس وجود قوة قاهرة ، ليس لقوة أخرى أن تحول قلبه عنها . ويتسرب إلى نفسه الإيمان بالقدر الغالب ، والاعتقاد بحكمة ما كتب الله . فيصبح شديد الاستسلام

حتى يهون عليه بذل حياته للصحراء دون تبرم . وهناك حقًا أوقات يشعر فيها بأن الحياة قليلة الوزن هينة .

وتكشف الصحراء من نفس الإنسان عن جوانبها الشريفة . فإنك إذا واجهت أهل المدن بالخطر، ناضل كل منهم عن سلامة نفسه . أما فى الصحراء فتعظم نفس الإنسان وتنعدم الأنانية . ويفرغ كلُ قصارى جهده فى خدمة زملائه ومساعدتهم . فإذا هدد الخطر قافلة من القوافل، وعنّ لأحد أفرادها سبيل النجاة تنكب عنه ولم يترك رفقاءه لينجو بنفسه .

وأشد ما يهولك فى الصحراء أن ينزُر الماء، وربما دار بخلدك فى مثل هذه الحال ، أن تستبقى لنفسك ما لديك منه . ولكنك بدلاً من هذا ، لا تلبث أن تجدك حاملاً زجاجة ماء . وهى إذ ذاك أثمن ما تملك . تدور على الرجال تسأل كلاً منهم هل يريد جرعة . تسألهم غير مكترث، كأنما أفرخ فى روعك أن الماء غزير فائض عن حاجتك . تسألهم دون أن تفكر فى سلامتك الشخصية .

وهكذا تنعدم فى الصحراء الأثرة والأنانية . فتقول لنفسك : مهما يكن مما قدّر الله أن يقع، فليقع لرجال القافلة جميعًا، إذ إنك لا تريد النجاة وحدك . ذلك هو الشعور الذى يستولى عليك.

* * *

لا أزال أزداد إعجابًا بالبدوىّ كلما فكرت فى ثباته وسكينته وشجاعته، التى لا يزعزعها شىء.

يدخل البدوىّ الصحراء وعماده ثلاثة : الجمال . والماء . والدليل .

أما الجمال فقد يخور أقواها وينفق لغير سبب ظاهر كما وقع لى حين تركت الكفرة ونفق جمل من خيرة جمالى فى الليلة التالية ، بينما قام أضعفها من الكفرة يتمايل تحت حمله ثم قطع نحو ١٢٠٠ كيلو متر ودخل الفاشر يقارب فى خطواته

وكنت قد أخذت على صاحبه إحضار تلك الدابة الضعيفة فقال « الله يحفظه » وقد حفظه الله حقًا وحفظنًا كذلك ، لأن موت جمل من جمال القافلة كارثة عظيمة . معناها إلقاء جُل أحماله إن لم نقل كلها

أما الماء فيحمل أكثره فى قرب ، ولكنها قد تنثغر فجأة رغم تعهدها أيامًا وأسابيع أو يتبخر الماء منها . وربما اصطدم جملان فى حلكة الليل فتنفجر قربة أو قربتان.

بقى الدليل

قد يقول الدليل – والأسباب كثيرة – إن الأرض تدور برأسه، ومعنى هذا أن رأسه طاح .
وقد يضل الطريق إذا غامت الشمس بضع ساعات أو أخطأ فى ترسم علم من أعلام الطريق

عماد البدوى فى اجتياز الصحراء كما قلت ، ثلاثة : الجمال والماء والدليل ولكنها . جميعها لا تغنى عن شىء آخر هو الإيمان . الإيمان الثابت الذى لا يتزعزع . الإيمان الراسخ الوطيد

ولطالما كنت أغمض عينى وأستعرض ما مر بى فى مدى سبعة شهور طويلة فأشعر بأننى لا فضل لى فيما قمت به ، وأننى لا أستطيع أن أفخر بنجاح رحلتى ، وإذا رجع كل رحالة إلى ضميره لما استطاع أن يقول : فعلت وكل ما يقوله : وفّقت وما التوفيق إلا من عند الله .

قد تتجمل الصحراء ويلين مهادها . وقد يكون رجال القافلة نضر الوجوه مرحى الخواطر . ولكنها قد تكون أيضًا قاسية فتّاكة . يضرب فيها على غير هدى ، أولئك التعساء الذين كتب عليهم سوء الطالع ، أن يهيموا فى نواحيها مستيئسين . فإذا تهدلت رؤوس الإبل من العطش والإعياء . ونزر الماء وما من أثر لبئر قريبة . ووجم رجالك وتطرق اليأس إلى نفوسهم . ونظرت فى الخريطة فلم تجد أثرًا يهديك، لأن الطريق الذى تسلكه لم يكشفه أحد بعد . وسألت دليلك عن الطريق فهز كتفيه وقال : الله أعلم ونزعت بنظرك الأفق، فإذا هو ذلك الخط الغائم المضطرب الممتد بين زرقة السماء الباهتة وصفرة الرمال . وأمعنت النظر فى كل ما يحيط بك فما رأيت شارة أو علامة تبعث على بصيص من الأمل . وضاقت دائرة الأفق البعيد الشاسع حتى أصبحت طوقًا يضيق حول عنقك ، ويغل حلقك الجاف . فهنا يشعر البدوىّ بافتقاره إلى قوة كبرى ، أكبر من قوة الصحراء الفتاكة القاسية . وهنا يجأر باستدرار رحمة الله ولطفه . حتى إذا ضلت دعواته الطريق ضم « جرده » إلى جسده وتهالك على الرمال ينتظر الموت المحتوم فى سكينة واستسلام .

هذا هو الإيمان الذى لا بد منه لمجتاز الصحراء .



الرحّالة بملابسه البدوية

الفصل الثانى
وضع خطة الرحلة

هذه قصة رحلة قمت بها سنة ١٩٢٣ من السلوك على شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى الأبيّض عاصمة مديرية كردفان بالسودان . وهى مسافة قدرها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر ، قطعت على ظهور الإبل ، وقد وفّقت فيها إلى العثور على واحتين مجهولتين هما (أركنو) و (العوينات) وكانتا غير معرفتين قبل ذلك للجغرافيين .

وقد كانت الغاية الأولية من رحلتى هذه علمية ، ولكنى حاولت فى هذا الكتاب أن أتجنب إرهاق القارئ بذكر المصطلحات الفنية ، وأن أقدم إليه حكاية أرجو أن تكون شائقة حتى لمن يجهل مصر والسودان وصحراء ليبيا .

كان أكبر همى طول أيام حياتى ، أن أجوب صحراء ليبيا وأصل إلى (الكفرة) . وهى مجموعة من الواحات فى صحراء ليبيا لم يزرها قبلى إلا مستكشف واحد. فقد نجح المستكشف الألمانى المقدام (رولفس) سنة ١٨٧٩ فى القيام بهذه الرحلة ولكنه لم يخرج منها إلا بحياته، بعد أن خسر جل مدوناته ونتائج ملاحظاته العلمية .

وقد أسعدنى الحظ سنة ١٩١٥ بلقاء السيد إدريس السنوسى فى القاهرة عند عودته من الحج . والسيد إدريس هو شيخ الطائفة السنوسية التى مقر ملكها واحة الكفرة . وفى سنة ١٩١٧ أوفدت فى بعثة إلى السيد إدريس المذكور مع اللواء تالبوت باشا ، أحد مشاهير الضباط البريطانيين المنتدبين للخدمة فى الجيش المصرى. كان قد ترك الخدمة العسكرية ، وعاد إليها عند نشوب الحرب العظمى.

وكان أهم مقاصد هذه البعثة ،الاتفاق مع السيد إدريس على منع العرب من الاعتداء على حدود مصر الغربية، ومنع القلاقل التى قد تحدثها الحرب.

وقد انتهزت هذه الفرصة، فجددت علاقاتى مع السيد إدريس فى (الزويتينة) وهى ثغر صغير بالقرب من (جدابيه) فى برقة وكاشفته بغايتى . وقد عطف علىَّ السيد إدريس وسألنى أن أحيطه علماً بموعد سفرى، متى شرعت فى القيام بهذه الرحلة ، حتى يقدم لى المساعدة والرعاية اللتين لابد منهما لكل مسافر يقصد (الكفرة) .

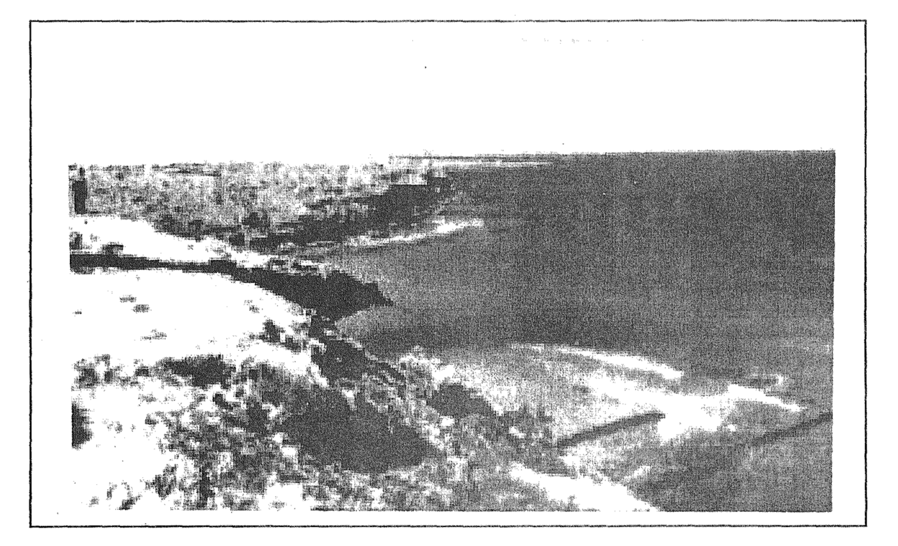
وقابلته بعد ذلك فى « عكرمة » بالقرب من « طبرق » وأخبرته بعزمى على القيام بالرحلة بعد انتهاء الحرب الأوروبية ، وكان معى إذ ذاك فى « طبرق » المستر فرنسيس رود . وهو صديق لى قديم ترجع صلتنا إلى عهد الدراسة فى كلية (باليول) بجامعة أكسفورد فاتفقنا أن نترافق فى هذه الرحلة .

وانتهت الحرب فجاءتنى مسز روزيتا فوربس (وهى الآن مسز مجراث) وتقدمت إلىَّ بخطاب من صديقى رود راجية أن ترافقنا كذلك . فبدأت برسم خريطة لرحلة يرافقانى فيها، ولكن الموانع حالت دون مصاحبة المستر رود لنا . وقد أوشكنا أن ننتهى من كل ترتيب ، وانتهى الأمر بسفر مسز فوربس معى سنة ١٩٢٠ مزودين بمساعدة السيد إدريس الذى قدّم لنا ما يلزم للقافلة فوصلنا الكفرة فى يناير من سنة ١٩٢١.

ولكن هذه الرحلة إلى الكفرة لم تزدنى إلا حبًا فى التوغل فى أحشاء تلك الصحراء الممتدة وراءها . وكان هناك إشاعات عن واحتين مجهولتين ، لا يعرفهما كثير من أهل الكفرة إلا فى أساطير الأولين وأخبارهم .

فلما عدت من الرحلة الأولى إلى القاهرة، صممت على القيام برحلة ثانية وعزمت على الانحدار إلى الجنوب مخترقًا تلك الصحراء المجهولة إلى وادای والسودان . وزادنى رغبة فى القيام بهذه الرحلة الثانية، أن كل ما كان معنا فى الرحلة الأولى من المعدات العلمية لم يزد عن بارومتر وبوصلة . ولذلك لم يكن فى وسعى أن أقوم بعمل خريطة دقيقة للجهات التى اخترقناها ، ولا أن أضبط مواقع الآبار وواحات الكفرة بالدقة . فداخلنى ميل شديد إلى التحقق من النتائج العلمية التى وصل إليها « رولفس » من مكان الكفرة على الخريطة الجغرافية .

وفى سنة ١٩٢٢ تشرفت بعرض خطة رحلتى مخترقًا الصحراء، من البحر الأبيض المتوسط إلى السودان، على حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، الذى كان قد تفضل فأبدى اهتمامًا برحلتى الأولى ، ومنحنى نوط الجدارة فأظهر عناية شديدة بفكرتى ، وسمح بإعطائى إجازة طويلة، وتفضل بإصدار أمره إلى الخزينة المصرية بمنحى جميع النفقات التى تتطلبها هذه الرحلة ، فلجلالته منى تقدير العبد المخلص، الذى يجهر بأن كل ما وفق إليه من النجاح فى هذه الرحلة، راجع إلى معونة جلالته الثمينة .



شاطئ السلوم

وانتهيت من ترتيباتى وجمعت حوائجى فى ديسمبر سنة ١٩٢٣ فى دار أبى حتى أحظى ببركته وصالح دعواته، وفقًا لتقاليدنا القديمة، قبل بدئى بعمل هذه الرحلة .

سَدَّد اللّه خُطَاك

« سَدَّد اللَّه خُطَاك » تجاوبت أركان الغرفة الفسيحة بهذه الدعوة الطيبة ، التى امتزجت ألفاظها بما انتشر فى الجو من ضوء الشموع وسحب البخور المتناثرة.

وكانت إلى جانب الحوائط ، أكداس من حوائج السفر بين صناديق متفاوتة الأحجام من كبير وصغير وقرب الماء « وفناطيس » من الصفيح لحمله أيضًا . وحقائب مفعمة زادًا . ورزم من الخيام وجعب مختلفة من الجلد والمعدن تحوى بعض الأجهزة العلمية وكذلك أمتعتى الخاصة .

سكنت جلَبتنا من إعداد كل شىء بعد حزمه وترتيبه، فوقفنا وسط الغرفة واجمين وليل مصر يسدل ستاره، والنسيم يحمل إلينا من ناحية الحديقة، تلك الهمهمة الخافتة التى تسرى عند المساء فى أحياء القاهرة .

كنا ثلاثة . أنا وعبد الله وأحمد . أما عبد الله فنوبى من أسوان وثقت به الثقة كلها وكان عند حسن ظنى به . وأما أحمد فنوبى من أسوان أيضًا صحبته فى رحلتى فكان طاهيها البارع وروحها الهفافة

ووقف أمامنا شيخ طويل القامة ذو لحية بيضاء مسترسلة، يلبس قفطانًا من الحرير البرتقالى . وينبعث من وجهه الوسيم المتغضن ، نور الصلاح والطمأنينة والتقوى ، وتتساقط بين أصابعه الطويلة المنشرحة حبات سبحة من الكهرمان . ووقف إلى جانبه خادم يحمل مبخرة من الفضة ، يتصاعد منها بخور زكى الرائحة ينشر فى فضاء الغرفة حلقات رقيقة.

وضع ذلك الشيخ التقى سبحته جانبًا ثم رفع يديه نحو السماء ، وتمتم بصوت خافت من فعل السنين ، واضح من أثر اليقين . دعاء يستمطر به رحمة الله بالراحلين . ويضرع إليه تعالى أن يسدد خطانا ، ويكلل بالنجاح مسعانا ويعيدنا سالمين غانمين .

وجعل يغادى فى أنحاء الغرفة ويراوح بالمبخرة على كل حزمة من حوائج السفر مرددًا دعاء قصيرًا .

تلك هى حفلة التبرك . حفلة مباركة الأمتعة والحوائج التى استنَّتها العرب وجعلتها الأجيال المتعددة واجبًا مقدسًا قبل الرحيل ، وقد فرّط فيها الخلف وقلّ استعمالها فى أيامنا الأخيرة .

أما أبى الذى يضىء سبل حياته سنا العرفان ، ويشع فيها نور الرسول، فقد أبى إلا أن يؤدى هذا الواجب لابنه الوحيد المقبل على سفر طويل بعيد .

وقفت أمام ذلك الشيخ الصالح أتلقى البركة ، فلم أعد ذلك المصرى المتحضر ، وإنما كنت بدويًا يعود إلى الصحراء حيث أقام أجداده وأسلافه قوائم خيامهم . ثم درت ويممت أبى .

لقد قضيت وإياه خمسة عشر عامًا - منذ أرسلت لتلقى العلم فى أوروبا - تختلف مشاربنا وآراؤنا وتتابعد طرائقنا فى الحياة . على أننى طالما تمنيت لو أنى توفرت على درس ما مال إليه من العلوم ، حتى أقتبس من معارفه الواسعة وأغترف من بحر علمه الغزير .

سمعته ذات يوم يقول عنى لأحد زملائى : " إنه مخلوق لغير زمانى فدعه يحصل ما يقتضيه زمنه من العلم والتهذيب " وهكذا نشأت فى غير نشأته .

وهكذا كان شأن أبى وشأنى. أما الآن ، وقد أقبلت على العودة إلي الصحراء التى نشأ فيها أجدادى فقد التقت خواطرنا، واجتمعت أفكارنا، واتحد شعورنا ؛ وعرف كل منا ما يخالج ضمير الآخر فتفاهمنا صامتين ، وغشينا سكون قصير ثم وضع يديه على كتفىَّ وقال : " سر يا بنى رافقتك السلامة، وسدد الله خطاك ووهبك القوة وأنجح مسعاك " .

بوركت حوائج السفر وخرج عبد الله وأحمد إلى السلوم، بما ثقل منها وخلّيا لى الأدوات العلمية وآلات التصوير .. وفى اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر أقلعت بى الباخرة من الإسكندرية إلى السلوم .

* * *

ما كدت أنتهى من وضع هذا الكتاب حتى فوجئت بموت أبى، ففقدت بفقده خير النصراء النصحاء . فقدت الأب البار الشفيق . كنت إذا اشتدت صروف الحوادث واستحكمت حلقاتها، أجد عنده الكلمة التى تفرج الكرب، والنصيحة التى تفتح أبواب الفرج . والعظة التى تعيد للنفس المضطربة بأسها، وللحواس المضعضعة قوتها . وللعزيمة المزعزعة ثباتها

كان الصديق الصادق إذا ضاقت السبل وانقطعت الأسباب ، وتعقد الأمر وتكاثفت الظلمات ، واشتدت الحيرة ، فلا عجب إذا كان مصابى بفقده جللاً ، وخطبى بموته جسيمًا. وإذا أحسست بعد غيابه بفضاء واسع وفراغ كبير ، كان يملأه صلاحه وتقواه . وسعه الله برحمته وأسكنه فسيح الجنة والرضوان .

الفصل الثالث
الزاد والمتاع

رست بى الباخرة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٢ فى ميناء السلوم وهى ثغر صغير قريب من حدود مصر الغربية . وكان الترتيب أن نأخذ الجمال من السلوم ونذهب عن طريق « الجغبوب» إلى « جالو » وهى المركز المهم لتجارة الصحراء ، حيث يتم تنظيم كل شىء للبدء فى رحلتنا إلى الجنوب

ولمثل رحلتى هذه دائماً مراحل عدة ، ينتابك فى كل مرحلة منها شعور خاص ، وتلقى فيها تجاريب تختلف عما تلقاه فى غيرها . فإنى ساعة وقفت فى دار أبى فى تلك الغرفة التى يشيع فى أرجائها القاتمة ، عبق البخور ، رأيت القيام بهذه الرحلة ضرباً من الأحلام يخلب لبى باحتمال تحقيقه وأن اليقين منه كان بعيداً .

أما فى السلوم فقد واجهتنى الحقيقة الواقعة، التى تستلزم جمع الزاد والمتاع، وحزم كل شىء ، بحيث يصغر حجمه ويسهل تناوله ، وجرد كل شىء للتحقيق من وجوده ، ثم الاتفاق مع أصحاب الإبل على المرحلة الأولى من الرحلة .

وعند « جالو » تبدأ المرحلة الثالثة ، حيث أتقدم القافلة وأستقبل طريق « الكفرة » التى قطعتها من قبل ثم تنكرت لى معالمها . حتى إذا وصلت إلى الكفرة بدأت مرحلتى الأخيرة ضارباً فى أحشاء تلك الفيافى المجهولة التى لم تطأها قدما مكتشف من قبل.

وقد سبقنى إلى السلوم عبد الله وأحمد ومعما أمتعتى الضخمة . وكانا قد رتبا كل شىء يختص بسفرنا عن طريق الجغبوب فأخذنا جميعاً فى تحضير المتاع والزاد

ولا يفوتنى أن أصف فى هذه المناسبة ذينك المصريين اللذين صحبانى فى هذه الرحلة.

كان عبد الله نوبياً من أسوان متين البناء متناسب الأعضاء . قوياً . له عينان صغيرتان غائرتان .. يلوح فيهما الذكاء والشمم . وكان يبلغ من العمر أربعين سنة خرج منها بعلم واف واستظهار للقرآن الكريم .

وكان أول لقائى به سنة ١٩١٤ حين كان فى خدمة الأسرة الأدريسية بالقاهرة . وقد ملت إليه منذ رؤيتى له ، لما توسمت فيه من مخائل الذكاء والولاء . وكان من الأمانة بمكان

فاستودعته المؤن والذخائر ، وكان يعمل للطوارئ حساباً فلا يخلو متاعه مما نحتاج إليه من سيور جلدية وإبر غليظة لرتق الأحذية إلى أدوات أخرى لإقامة المعوّج وإصلاح المكسور من أعمدة الخيام . وكان دائماً على استعداد لمواجهة كل ظرف من الظروف ، فكان فى وسعه أن يظهرنى بدوياً من عرب مصر الرحّل أو تاجراً أو موظفاً كبيراً فى الحكومة ، كما حدث حين هبطنا ميدان الحياة الرسمية بالسودان . غير أن عبد الله كان فيه خاصية غريبة ، هى أن النوم يغشاه بين الغروب وبعده بساعة أو اثنتين فيصعب كثيراً إيقاظه من غفوته ، وكان يتغلب النعاس عليه أحياناً ، وهو جالس يتحدث فلا يتمالك نفسه من أن يهوّم . وإنى لأذكر أننا فرغنا من العشاء ذات مساء ، وحلت ساعة تهويمه فانتهز هذه الفرصة رفيقى البدوى الأمين «الزروالى » وكان قد انضم إلينا فى « جالو » وأراد مداعبته فأخذ جانباً من الزعتر ، ووضعه فى كوب الشاى الذى كان أمامه وصحا عبد الله فتذوق كوبه وعرف الأمر فلم يقل شيئاً وأعاد كوبه إلى موضعه ، وبعد قليل من الزمن التفت إلى «الزروالى» وقال : " أظن أنك تنتظر قادم وإنى لأسمعه مقبلاً " وما كاد «الزروالى» يقوم للتحقق مما سمع حتى أبدل عبد الله كوبه بكوب «الزروالى» وكان نصيب الأخير أن جرع تلك الكوب الحريفة بينما عبد الله يهوم كعادته آمناً مطمئناً .

وقد تجلت فى عبد الله غريزة الاتجار فى أجلى مظاهرها، حين وصلنا فى نهاية رحلتنا إلى بعض البلاد الآهلة ، وقد أعوزنا الطعام فقد جمع كل ما فاض عن حاجتنا مما خلا من علب الصفيح وزجاجات الأدوية إلى بعض أسلحة الأمواس المستعملة، واستبدل بكل ذلك من السكان زبداً ولبناً وتوابل وجلوداً .

وكان من الشمم وطيبة القلب على شيء كثير ، وقد تألم عند عرضى شريط رحلتى أثناء إلقائى محاضرة شرفها جلالة الملك فؤاد فى دار الأوبرا بالقاهرة . فإن عبد الله حين رأى نفسه فى كثير من الصور فى ثوب مهلهل ، آلمه أن يظهر فى تلك الحال الزريّة أمام ملكه وسألنى بعد ذلك إن كان فى المقدور أن أغير تلك الصور بحيث يظهر فيها أحسن هنداماً وأسلم ثوباً

أما أحمد فكان كذلك نوبياً من أسوان منسرح القامة، صلب القناة وكان خادمى الخاص وطاهىّ . وقد اختار حرفة الطهى على مبلغ تعلمه، لأنه أراد أن يكون طليقاً . وقد أبى أن ينزل على إرادة أبيه حين اختار له حياة دينية لأنه لم يأنس إلى ما فى تلك الحياة من بساطة وزهد

وتقشف . وكان طروبًا أبدًا محبوبًا من جميع أفراد القافلة ، رغم صبه اللعنات والشتائم من وقت لآخر . ولو أن غيره فاه بكلمة واحدة من ألفاظ السباب التى يفوه بها لكانت كافية لإراقة الدماء بين رجال القافلة ، ولكنهم اعتادوا ذلك منه وكانوا يتفكهون به .

وكان من عادته إذا انتهى من الطهى أن يجلس إلى الأعراب ويهزأ من مبلغ معرفتهم بقواعد الدين . ويظهر التفوق عليهم بإنشاء مقاطيع من شعر الزهد ، ويحسن اختيار أشعار الغزل ورواياتها ، وطائفة من أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام .

وكان أحمد هذا مخلصًا لى متفانيًا فى خدمتى ، لم يكن يفوته أن يقدم لى كوبًا من الشاى فى أحرج الظروف وأقلها ملاءمة لذلك . وإنى لأذكر أنَّا سرنا ليلة كاملة ثم حططنا الرحال وكان يشكو ألمًا فى قدمه فقلت له اعتباطًا حين أخذنا فى نصب الخيام : إني لم أكن فى حاجة إلى الفطور أو الشاى حتى أصحو من نومي، وسمحت له بالنوم فتركنى ، وما كدت أفرغ من إعداد غطائى حتى جاءنى بكوب من الشاى يتصاعد منه البخار .

وكان على سبابه ولعنة رفقاءه البدو، لا يتوانى عن الاهتمام بتخفيف آلام من يمرض منهم فقد أخذ عنى بالتدريج ، فهم استعمال الأدوية التى معى، وكان كلما أشكل عليه معرفة دواء يجيئنى بزجاجته للتحقق مما بها .

إن ما يحتاج إليه الإنسان فى قطع الصحراء بسيط . والأشياء التى يحملها مجتازو الصحراء معروفة تكون متماثلة فى كل حالة . فغذاء الصحراء هو الدقيق والأرز والسكر والشاى . وسكان الصحراء يحبون اللحم، ولكنه لا يمكن حمله بطبيعة الحال، فلا بد للإنسان من الصيد إذا أراد، أو الاستغناء عنه .

أما الشاى فهو شراب أهل صحراء ليبيا وهم يفضلونه عن القهوة لسببين : أولهما دينى والثانى عملى . فقد حرم السيد ابن على السنوسى على أتباعه عيش الترف وأمره نافذ ، لأنه مؤسس الطائفة السنوسية المهيمنة على أمور البلاد التى أزمعت اختراقها . وقد تناولت أوامره تحريم الدخان والقهوة ، ولكنها لم تتناول الشاى لأمر ما . ولهذا تجد كل أتباعه يحبون الشاى إذا صحت المقارنة بين ذلك السائل العكر المر الذى يبعث النشاط فى النفوس . نفوس الأعراب أثناء السير . وينعشها آخر النهار، وبين ذلك الشراب الذهبى الشهى ذى الرائحة الزكية الذى يوسّع حافات الموائد فى بلاد الحضارة .

والسبب الثانى الذى يجعل أهل الصحراء يؤثرون الشاى على القهوة، أنه مُنَشِّط على العمل، وهم يشربونه عقب كل طعام ويختمون به رحلة اليوم .

والبلح من أهم الأطعمة فى الصحراء إن لم يكن أهمها جميعًا ، فإنه غذاء الرجال والجمال؛ إذا نفد الزاد أو ضاق الوقت عن طهى شىء . وليس بلح الصحراء تلك الفاكهة الحلوة الشهية، التى يتلذذ بأكلها أهل الغرب على موائدهم ويحملونها معهم فى سياحاتهم القصيرة . فإن البلح الذى يحمله قاطع الصحراء، يجب أن يكون قليل مادة السكر، لأن السكر يسبب العطش، ولا بد من الاقتصاد فى الماء إذ الآبار على مسافة أيام من بعضها البعض .

وقد أخذت معى بعض الأطعمة المحفوظة فى العلب مثل لحم البقر والخضر والفاكهة . ولكن هذه العلب ثقيلة والإكثار منها يتطلب زيادة فى عدد جمال القافلة . وكان معى بعض البن ، ولكنى لم أشرب القهوة إلا قليلاً ، وقدمته هدايا إلى من صادقنا أثناء الطريق . وكان معى كذلك قليل من زجاجات أقراص اللبن المركز، وقد نفعتنا كثيرًا عند نقص مقدار الطعام ولكن البدو لم يميلوا إلى هذه الأقراص لأنها كما كانوا يقولون : تشبعهم بدون إمتاعهم بلذة التذوق.

هذا ما كنا نحمله من الأغذية، مضافًا إليه الملح والتوابل، وأخصها الفلفل لعمل (العصيدة) ولا تخلو هذه الأغذية من التنويع القليل . ولكن التنويع فى المأكل شىء يجب الاهتمام به فى الصحراء، حيث تنقل المؤن دواب تعيش فى الغالب على أكثر ما تحمله . ولم يكن معى طعام خاص شهى استعين بلذته على إساغة الأرز والخبز والبلح والشاى ، لأن من يجرب السفر فى الصحراء ويتعلم دروسه ، يدرك أنه يجب أن لا يختص نفسه بشىء دون رجال القافلة . فلا يحمل من لذائذ المأكولات ما لا يكفيهم جميعًا، إذ فى الصحراء تنمحى الفوارق كلها ، فلا تمييز بين رفيع ووضيع . غير أن التبغ كان الشىء الوحيد الذى ميزت به نفسى عن بقية الرجال، ولكن هذا لم يكن فى الواقع خرقًا للقاعدة ، إذ لم يكن بين رجال القافلة من يدخن إلا شخص واحد شاركنى لذة التدخين التي نعمت بها أثناء الرحلة ، لكثرة ما حملت معى من السجاير المصرية والطباق

ويجىء الماء بعد هذا ، وهو المعضلة الدائمة فى الصحراء فقد رأينا رجالاً يمسكون عن الطعام أيامًا عديدة، ويصومون إلى آجال لا يصدقها العقل . إما لحاجة قضت بذلك أو على سبيل التجربة . أما إذا أمسك رجل عن الماء فى الصحراء أربعة أيام فإنه يكون قد أتى بمعجزة . والصحراء لم تُسَم صحراء إلا لخلوها من الماء . والماء أهم ما يتحتم على مجتازها التفكير فيه والعناية به .

ولقد حملنا الماء على طريقتين، فأخذنا حاجتنا منه فى خمس وعشرين قربة من جلد الغنم. على أن هذه القرب سهل انفجارها إذا اصطدم جملان ليلاً فى طريق صخرية، ولذلك أودعنا الماء الذى ربما مَسَّت إليه الحاجة فى فناطيس مستطيلة من الصفيح، مدلاة على جوانب الجمال . وكان معنا ثمانية فناطيس . يسع الواحد منها ما يملأ ثلاث قرب ، فكان كل ما معنا من الماء يكفى جميع أفراد القافلة فى أطول المراحل بين بئر وأخرى . وقد قصرنا وضع الماء الاحتياطى على الفناطيس . وإن كانت أسلم عاقبة من القرب، لأن هذه لا تشغل حيزاً كبيراً إذا خلت ، فقد يكفى جمل واحد لحمل الخمسة والعشرين قربة الخالية . بينما لا تزيد حمولة الجمل الواحد عن أربعة فناطيس . سواء أكانت ملأى أم خالية ولم يكن معنا جمال نغنى عنها.

وكان معنا كذلك بعض (زمزميات) من القماش ولكننا ألقينا معظمها ، لأنها كانت تضايقنا كثيراً فى حملها . وقد نفعنا القليل الباقى فى تبريد الماء بعد ذلك ، عند اشتداد الحر فى السودان ، فإن تبخر الرطوبة من منافذ قماش الخيش يحفظ للماء درجة حرارة معتدلة

وكان من ضمن متاعنا أربع خيام منها ثلاث ناقوسية الشكل والرابعة مستطيلة وكذلك من أدوات الطبخ أهمها (حلة) كبيرة من النحاس لطهى الأرز . وكان معنا استعداداً للطوارئ صندوق صيدلة يحوى الكينا واليود والقطن والأربطة وساليسلات البزموت، لمعالجة الدسنطاريا وأقراص من المورفين، وحقنة ومصل ضد لسع العقرب، نفعنا كثيراً أثناء الرحلة فى حالات حرجة ودهان من الزنك لأجل الأجزيما، وأقراص ملينة وملح فواكه . وكان معى بعض الجهازات وبعض أسلحة الجراحة الطبية، وأدوات وأدوية لمعالجة أمراض الأسنان .

وكانت هذه الأدوية والجهازات ، تساعدنا كثيراً فى علاج الأمراض البسيطة العادية . أما إذا اشتد المرض على عليل وضقت ذرعاً بعلاجه، فكان لا مناص لى من تفويض أمره لله قائلاً كما تقول العامة : الشفاء من عند الله

وأخذت معى لقصد الصيد ودفع الطوارئ ثلاثة مسدسات كبيرة ، وثلاث بنادق وبندقية أخرى لصيد الطيور، أهديتها قبل عودتى . بينما زدت أسلحتى ست بنادق أخرى ومسدساً كبيراً

ولما وصلت تلك الأسلحة إلى السلوم فى صندوق غريب الشكل ، تهامس الناس أنى أحمل مدفعاً رشاشاً لغاية خفية، اختلقوها وفقاً لأهوائهم ولم تخلُ هذه الإشاعة من الرواج .

وحملت معى خمس آلات للتصوير رغبة منى فى أخذ مناظر الرحلة بحيث تظهر التفصيلات التى أعوذ بها عنها وافية واضحة ناطقة . وكان ثلاث آلات منها من نوع كوداك . وقد قامت بتأدية وظيفتها على أحسن ما يرام حتى آخر الرحلة ، وواحدة من نوع آخر، وقد أتلفها تسرب الرمال إليها، وكانت الآلة السادسة من آلات السينماتوغراف

وقد استعملت فى التصوير بهذه الآلات (فلماً) من نوع (ايستمان كوداك) حفظته بعناية شديدة فى علب صفيحية محبوكة القفل، ثم وضعت هذه العلب فى صناديق من الصفيح ملأتها بنشارة الخشب، ووضعت كل هذه فى صناديق من الخشب . ولم تكن العناية بهذه (الأفلام) زائدة عن الحد، نظراً للحرارة الشديدة فى مبدأ الرحلة، والأمطار الغزيرة التى هطلت بعد ذلك فى السودان .

وكان طول الشريط السينماتوغرافى الذى حملته معى ٩٠٠٠ قدم.

وقد كنت موفقاً فى كل ما أخذته من الصور، ولم أحمض الجزء الكبير منها حتى عدت إلى مصر بعد ذلك بثمانية أشهر . ولكن الذى خسر منها قليل بالنسبة لمجموعها

أما لباسى فكان ثوب البدوى العادى المكون من قميص وسروال وصديرى من نسيج قطنى أبيض وجرد عربى (والجرد هذا حزام من الصوف) وكوفية وعقال . وأخذت بعض ملابس حريرية وسروايل من الجوخ للبسها فى مواقف خاصة ، عند دخول الواحات والخروج منها ، ومقابلة رؤساء العشائر ، وكبار أهل الصحراء وحضور مآدبهم وغير ذلك

ولم أرد أن أتزيا بزى أهل الصحراء حتى أنتهى من المرحلة الأولى . فتركت السلوم فى (بدلة) من الخاكى وسروال ركوب نال منها القدم وكنت غريب الهيئة وأنا انتعل تلك المراكيب الصفراء التى لا ينفع غيرها للسير فى الصحراء ، وألبس تلك القلنسوة الصوفية دفعاً للبرد الشديد

والعادة عند السفر فى أراضى مجهولة فى البلاد الشرقية، أن يقوم الإنسان بتقديم الهدايا إلى الرجال المشاهير الذين يلقاهم، فكان معى كمية وافرة من الحرير، والأوانى النحاسية والمباخر المطعمة بالفضة وزجاجات الروائح العطرية، والمناديل الحريرية وأباريق وأكواب للشاى من الفضة، وأجراس فضية ، يسر البدوى أن يستعملها فى دعوة خدمه بدلاً من التصفيق بيديه. وكنت عند قيامى بهذا المقدار العظيم من الهدايا أظن أنى عائد بنصفه .



الشيخ عبد الله الصادق والأسطى أحمد المصريين
من أسوان اللذين رافقا الرحالة فى رحلته

ولكنى لاحظت عند وصولى الكفرة أن الميل إلي قبول الهدايا لم يقتصر على من أدى لى خدمة فى هذه الرحلة . ولكنه تجاوزهم إلى كل من أدوا إلىَّ أية خدمة فى رحلتى السابقة ، مهما صغرت تلك الخدمة . ولذلك رأيت أن كل ما حملت لم يكن كافيًا لإرضاء من توقع الهدية قبل عودتى ، ومن استحقها فى رحلتى الثانية . ولم تكن هذه الهدايا منى طلبًا لخدمة أو توقعًا لنفع وإنما كانت بمثابة تحية أو تذكار من بدوىّ من المدن إلى أخيه البدوىّ المقيم فى الصحراء.

وكان أهم ما خرجت منه بفائدة عظيمة من هذه الرحلة، من حيث الأبحاث العلمية والتاريخية ، تلك الجهازات العلمية والأدوات الفنية التى ذكرها الدكتور بول فى تقريره الطبوغرافى فى ذيل هذا الكتاب.

وقضيت فى السلوم أسبوعين ، كنت فيهما شديد الاهتمام بتهيئة أسباب الرحلة ، صارفًا عنايتى فى تنسيق كل شىء وترتيبه، لأن الأشياء التى تنقل على ظهور الإبل، ويتحتم حملها كل صباح وإنزالها كل مساء ، وصفّها فوق بعضها، ليكون منها حائل يدفع البرد ويرد الاعتداءات المتوقعة ، لابد أن يعتنى بحزمها والتأكد من سلامتها. فقد يحدث بعد سفر يوم طويل أن يستسهل الحمالون الذين نال منهم التعب، أو تغلب عليهم الإهمال أن يتركوا الأحمال تزل عن جوانب الجمال بدلاً من أن ينزلوها عنها برفق وعناية .

الفصل الرابع

التآمر والتفاؤل

انتهيت من وضع خطتى للانحدار جنوبيًا إلى الجغبوب ، ولكن حادثة وقعت لى قبل اليوم المحدد للسفر بيومين شغلت بالى ، وذلك أنى كنت جالسا ذات مساء فى غرفتى بمنزل استراحة الحكومة ، اشتغل بفحص أجهزتى العلمية ، فإذا بطارق على الباب . وحرت فى التكهن بمن يريدنى فى تلك الساعة . ولكنى تقدمت إلى الباب وفتحته قليلاً، فرأيت بدويًا لا أعرفه، متلحفًا بجردة، فأقفلت الباب فى وجهه وسألته من أنت ؟ فقال صديق . ولكنى لم أطمئن إلى ذلك فسألته عن اسمه وعما يريد فأجابنى من وراء الباب " أنا صديق أريد أن أسر إليك شيئًا لا بد من إخبارك به "

ففتحت الباب وسألته الخبر فدخل بلهجة المستفسر : أظنك ستسير إلى الجغبوب من الدرب (الطوالى)

فأومأت برأسى أن نعم . فقال وفى لهجته شدة : لا تذهب

فقلت : ولم هذا ؟

فأجاب : إن البك غنى يحمل معه ثروة طائلة، والأعراب أهل شره ونهم ، والدائر على الألسنة ، أن معك صناديق مملوءة ذهبًا .

قال لى هذا : بينا ينطق فى عينيه اعتقاده بصحة هذه الإشاعة وأن ادعى غير ذلك . ثم ثنّى قائلاً : لقد اتفق الجمالون مع أصدقاء لهم فى الطريق ، على الكمون لك ونهب ما معك ، وقد تضيع مالك وتفقد حياتك إذا سلكت تلك الطريق

فأجبته : إن فى وسع كل إنسان أن يدافع عن نفسه وعن ماله .

فقال : ذلك محتمل إن كان معك العدد الكافى من الرجال

ولم يكن معى ذلك العدد الكافى فتطرقت فى الحديث معه، إلى الاستفسار عن صحة هذا الخبر، فقص علىَّ القصة وكان صادقًا وزاد يقينى في صحة أخباره، أنه كان قريبًا لرجل أديت له خدمة حين أوفدت فى بعثتى الأولى إلى السنوسيين .

وشكرته على اهتمامه بتحذيرى . واختفى الرجل فى ظلام الليل ، فخلوت بنفسي أعرض عليها التفكير فى الخروج من ذلك المأزق الحرج

وأهل الصحراء سريعون إلى التكهن بمقاصدك إن أمكنهم ذلك . فإن عجزوا ظنوا الظنون فى كل ما تفعل أو تريد أن تفعل . وكان أكثر متاعنا فى صناديق، والأعراب لا تفهم من الصناديق إلا أنها تحوى كنوزًا . وليس عجيبًا منهم وقد ظنوا مدفعًا تلك العلبة التى جئت بها وفيها ثلاث بنادق، أن يحسبوا آلات التصوير والأجهزة الفنية التى حملتها معى، نقودًا ذهبية أو سفاتج من الأوراق المالية . وليس بعيدًا أن يكون الرجال الذين أكريت جمالهم قد ظنوا أنى مخترق الصحراء ، بهذه الثروة الطائلة لسبب خاف عنهم ففكروا فى سرقتى .

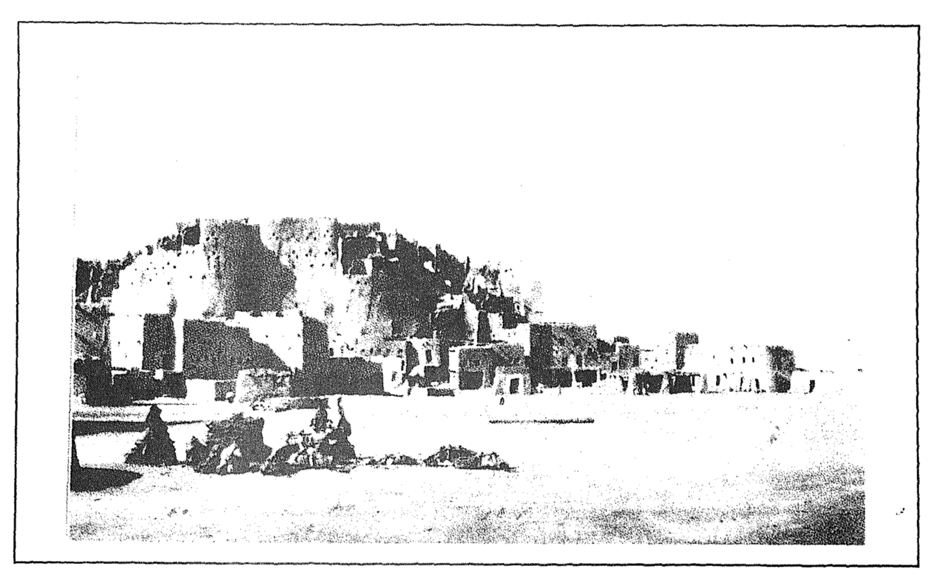
ولست أكتم القارئ أنى لم أرتح إلى هذا الخبر ، فإن استهلال رحلة بقتال لا يدعو إلى التفاؤل أو يشرح النفس ، مهما أولينا فيه من فوز وخرجنا منه سالمين . ولذلك فضلت اجتناب هذه العقبة عن التعرض لها .

وأصبح الصباح فاستغنيت عن أصحاب الجمال الذين انكشف لى سر مؤامرتهم ، واعتضت عنهم بآخرين يوصلوننى إلى واحة سيوة ، واستبدلت الطريق المستقيمة إلى الجغبوب بطريق تضطرنى إلى قطع ضلعى المثلث الذى تُكوِّن مواضع السلوم وسيوة والجغبوب رؤوس زواياه . وقد أطال هذا التغيير مسافة القسم الأول من الرحلة . ولكن الزمن والمسافة هينان فى سبيل سلامة الوصول .

وللسفر بطريق سيوة ميزات كثيرة ، لأن هذه الطريق واقعة فى الأملاك المصرية لا فى تلك الأصقاع التى تسكنها القبائل التى ينتمى إليها الجمالون الخونة ، ولأنها طريق مطروقة لا يجسر قطاع الطرق أن يقدموا على اغتيال المارة فيها ، بدون التعرض للخطر . وقد حال إسراعنا فى الرحيل بعد تغيير خطة السفر، دون تفكير المتآمرين علينا فى إعداد خطة جديدة لنهبنا، إن كانوا قد فكروا فى ذلك .

وهكذا ظننت السلامة فى هذا التغيير والتبديل، ولم أكن مخطئًا فى هذا الظن .

وبدأت القافلة سيرها فى أول يناير وبعد قيامها بثلاثة أيام تفضل الملازم « باثر » فاستصحبنى فى سيارة للحاق بها عند بئر « دجنيش » على بعد نحو ستة وثلاثين ميلاً من السلوم . ثم ودعت ذلك الضابط الرقيق ، وأخذت مكانى بين رجال القافلة، وكانت المسافة إلى



سيوة

سيوة ستة أيام ، قضينا وقتًا منها فى إخفاء صناديقنا وعلبنا بين طيات حوائجنا ، بحيث ظهر مجموعها كأنه أثاث عادى من أثاث البدو

ولم يقع لنا فى بحر هذه الستة أيام أمر ذو بال، اللهم إلا حادث كان أول ثلاثة بعثت فى نفوسنا الفأل الحسن بنجاح الرحلة . وذلك أنى رأيت فى عصر اليوم الخامس غزالاً يرعى على مقربة من طريقنا، فتعقبته يحتثنى الميل إلى تذوق اللحم الطرى، وما كدت أتقدم له حتى سمعت صراخًا وعويلاً خلفى، قصد بهما رجال القافلة تثبيط همتى فى صيده . ولم أفهم بادئ الأمر ما دعاهم إلى منعى من صيد ذلك الغزال ، مع ما أعرفه فى البدوى من حب اللحوم ، وظننت أنهم خافوا علىَّ البعد عنهم وتعطيل سير القافلة ، فلم أحفل بصراخهم وتقدمت إلى الغزال، وبعد أن طاردته قليلاً أطلقت النار عليه فأصبته فى مقتل .

وما كدت ألحق بالقافلة حاملاً طريدتى حتى نالتنى الدهشة مرة أخرى ، فقد تقدم الرجال إلىَّ يلوحون بأيديهم ويرسلون صراخًا يمتزج فيه الفرح بالتهانى ، ولم ينقص عجبى من وقوفهم دون صيدى الغزال وترحيبهم بى بعد صيده ، حتى سمعت منهم تفسير ذلك . ففهمت أن البدو يعدون أول طلقة من رئيس القافلة على طريدة بعد البدء فى سير القافلة ، فاصلة فى خط الرحلة من النجاح أو الخيبة . فإن أخطأ الرامى أصاب القافلة مصيبة قبل انتهاء الرحلة، وإن أصاب ، بسم الحظ لها وكتب لها النجاح . ولذلك أشفق الأعراب من رؤيتى أقطع فى حظ القافلة بهذه السرعة . ولو كنت أدرى هذه النظرية، لأبقيت الطلقة الأولى حتى وصلنا الفاشر بعد ذلك بستة أشهر .

وأقمنا فى سيوة ثلاثة أيام قضيناها فى تأجير جمال أخرى للمرحلة إلى الجغبوب وعمل بعض الترتيبات النهائية .

وسيوة آخر مركز يتصل بالعالم المتمدين الذى أخلفه ورائى، فعندها تنتهى أعمال البريد والإشارات البرقية . ولا يوجد بعد سيوة شىء يباع ، إلا محصولات الصحراء والقليل من الأرز والقماش ، وهذا غالى الثمن ، إن فرض وجوده .

وقد أكرم وفادتى وقام بمساعدتى فى بحر الثلاثة أيام حضرة المأمور أحمد أفندى كامل والموظفون والملازم (لولر) قومندان قوة مصلحة أقسام مصلحة الحدود المرابطة هناك .

وسيوة أكبر الواحات وأجملها ، تتفجر فيها عيون الماء العذب وتنمو فيها الفاكهة اللذيذة ، وأخصها أجود أنواع البلح فى العالم . وتقع العين فيها على مناظر بديعة، وعادات لأهاليها غريبة . ومن هذه العادات أن المرأة إذا فقدت بعلها، أمسكت عن الاستحمام أربعين يومًا واحتجبت عن الأنظار . يقدم لها الطعام من ثغرة فى الباب . فإذا انقضت هذه المدة ذهبت تستحم فى بئر من الآبار، فتنكب كل إنسان عن المرور فى طريقها وسماها الناس (غولة) وتجنبوها ، لأنهم يعتقدون أنها تجلب النحس لكل من يقع نظره عليها فى ذلك اليوم .

وفى سيوة تكدس أكوام البلح فى سوقه الخاصة التى يطلق عليها اسم (المسطاح) . وهذه الأكوام مقسمة حسب أنواع البلح ؛ من جيد ورديء . ولا يقوم بحراستها أحد، ولكن الأيدى الغريبة لا تمتد إليها ولا تخلطها قصد الانتفاع . على أن لكل إنسان أن يدخل هذه السوق وينال كفايته من أجود أنواع البلح بدون أن يدفع مليمًا واحدًا ، ولكنه ليس فى حلّ من أن يحمل معه شيئًا .

وفى سيوة مقام لأحد الأولياء يودع الناس حوله أشياءهم ليأمنوا عليها ؛ فإذا فكر أحد فى السفر ، أخذ متاعه الثمين وتركه بالقرب من هذا المقام، فلا تمتد إليه يد إنسان ولا يفكر أحد فى التعدى على الأشياء المودعة عند هذا المقام ، مهما غلا ثمنها ، لأن الاعتقاد السارى الذى لا يتزعزع، هو أن الإنسان الذى يمد يده عند هذا المقام إلى شيء لا يملكه ، يبتلى بالنحس وسوء الطالع طوال أيام حياته .

وعند تأهبى للقيام من سيوة ، تضاعف عدد رفقائى فقد أضفت من السلوم إلى عبد الله وأحمد رجلاً من قبيلة (المنفىَ) اسمه حمد . وكان أشد رجال القافلة إقبالاً على العمل وأصبرهم على التعب . فلا أذكر أنى رأيته مرة متعبًا وكان مشغوفًا بالجمال خبيرًا بأحوالها وشئونها فعهدت إليه ببعيرى .

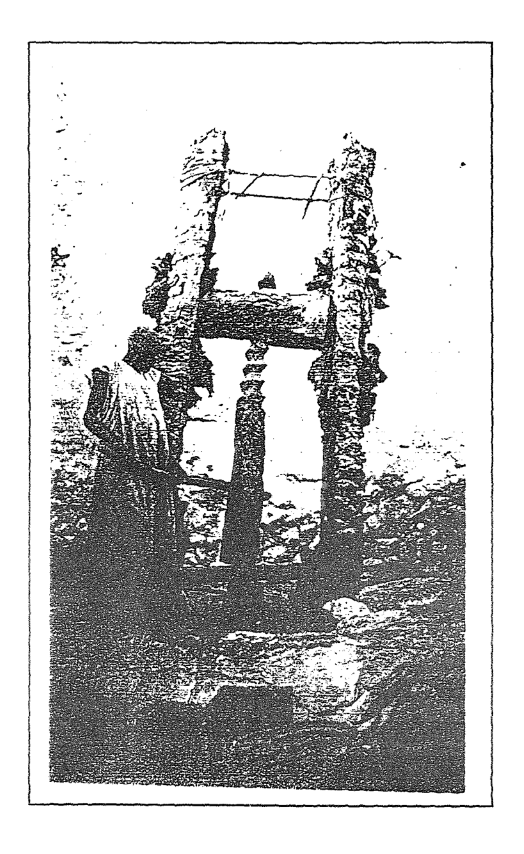
وأما رابع الرجال فكان إسماعيل . وهو شاب من سيوة يظهر عليه الضعف ، ولكنه كان آخر من يتعب من السير ويمتطى ناقة . وقد عهدت إليه بالجواد الذى حصلت عليه فى « جالو» واختصصته بمرافقتى فى تجوالى للبحث عن بعض العينات من طبقات الأرض، أو عند الاشتغال ببعض الأبحاث الفنية . فإن نشأته فى واحة مصرية لها اتصال بحياة المدينة ، بواسطة البريد والتلغراف ، لم تخلق فيه تلك الريبة التى اختص بها أهل الصحراء ، وجعلتهم يؤولون أقل عمل يأتيه الغريب تأويلات غريبة بعيدة عن الحقيقة . فإن من البدو من كان يظن

أنى أقتطع الأحجار لأنها تحوى ذهباً، أو أنى أرتاد تلك الأصقاع لأمهد سبيل غزوها فيما بعد. وقد أحببت إسماعيل لأنه لم يكن كذلك، ولأنه كان يطيعنى طاعة لا يتسرب إليها سوء الظن بما أفعل .

وتركنا سيوة بعد استبدال جمالنا فى اليوم الرابع عشر ، وانقطعت آخر حلقة من حلقات اتصالنا بالعالم الخارجى . وما كدنا نقف بعد المرحلة الأولى ، حتى خلعت ذلك الثوب البالى من الخاكى ولبست ثياب البدو وظننتنى رجلاً من رجال الصحراء . وكان تأثير هذا التغيير سريعًا فى رجالى . فقد تعودت منهم قبل ذلك أن يقربونى مرتبكين حيارى، ولكنى ساعة تزييت بزيهم تقدموا إلىَّ مقبلين علىَّ ، وشدوا على يدى على طريقة البدو وقالوا : الآن صرت منا

ووقعت لنا الحادثة الثانية التى تفاءلنا منها خيراً بعد تركنا سيوة ببضعة أميال . فقد وجدنا بلحًا فى طريقنا كان قد تناثر من بائع أثناء ذهابه إلى السوق . والبلح المنثور فى طريق القافلة فأل حسن بنجاح الرحلة . وقد يحدث أحيانًا أن يتعمد أصدقاء البدوى نثر البلح فى طريق القافلة قبل بدئها فى السير حتى يعثر بها فى سبيله . وقد زاد هذا الفأل الأمل فى نجاح الرحلة بعد حادثة الغزال . ولكن الحادثة الأخيرة كانت أبعث الحوادث على حسن التفاؤل ،. وذلك أنى كنت أرسلت رجلين من رجالى يحملان خطاباً إلى السيد إدريس فى الجغبوب أعلمه فيه بقرب وصولى، فإن العادة فى الصحراء ألاَّ يفجأ الإنسان صديقًا أو ذا حيثية بدون سابق إعلان بمجيئه . لأن هذا الإعلان يمكن كلاً منهما من ارتداء الملابس التى يليق فى مثلها لقاء أهل الفضل والوقار

وحدث بعد تركنا سيوة بيومين . وكنت فى مؤخرة القافلة . أن وقف سير الجمال فسألت عن سبب هذا الوقوف غير العادى، فكان الجواب أن رسلاً جاءوا يحملون خبر وصول السيد إدريس بعد ساعة . فما كاد رجالى يسمعون هذا الخبر حتى بان فى عيونهم الطرب ، فإن تقدم شيخ السنوسيين نفسه للقائنا فى أول الرحلة يفسَّر بفأل حسن . وقال الرسل : إنه يرجو البك أن ينصب خيامه حتى يجيء إليه . وهذا يشعر بآداب الصحراء ويدل على السنن والعادات المتبعة فيها . ولم نكد نستقر ، حتى رأينا طلائع قافلة السيد إدريس التى وصلت بعد قليل ونصبت خيامها على مقربة منا . وبعد ذلك بنصف ساعة تقدم السيد إدريس يحف به حشمه إلي خيامنا ، وتقدمت أنا الآخر للقائه فقابلنى مقابلة ودية ، وجددنا مراسم تلك المعرفة القديمة، يظهر فى وجهى أثر السرور، ويلوح الابتهاج على محياه . ولست أكتم القارئ أن



عَصَّارة زيتون بسيوة

الرحلة الأولى لم تصب ذلك النجاح إلا برعاية السيد إدريس لنا وعنايته بنا . فما بالك بأثر هذه الرعاية فى رحلتنا هذه . وهى أطول من تلك ثلاث مرات ، وأدعى إلى توغلى فى أرض أجهلها كل الجهل .

ودعانا لتناول الغداء فى خيمته ، وكان مكوناً من الأرز والدجاج المحشو وفطير البدو المسكر يعقبه بعد ذلك أكواب الشاى المعطر بالنعناع وماء الورد . وشرحت له خطتى وحدثته بخبر العالم، فسرّه كثيراً علمه بنتيجة معاهدة فرساى ، وطلب منى بعد ذلك أن أدعو جميع رجالى إلى خيمته ليباركهم ، فجاءوا ووقفنا جميعًا نصغى إلي تلك الألفاظ تنحدر من بين شفتيه ، فعادت إلى ذاكرتى تلك الساعة التى وقفت فيها أمام أبى، فى تلك الغرفة المعطرة بعبق البخور ، أتلقى مباركته ودعاءه لى ، بينما يلوح فى خاطرى طيف الصحراء والإبل والحياة البدوية . لقد كان ذلك خيالاً تصورته . أما الآن فبدت لى الحقيقة ورأيتنى فى لباس البدو أتقدم القافلة واستقبل الطريق المؤدية إلى قصدى

وكانت مباركة السيد إدريس لرجالى باعثة فى نفوسهم على الأمل العظيم بنجاح الرحلة وسلامتها من كل خطر . وحل وقت العصر ، فودع كل منا الآخر ورفعت الخيام وسارت القافلتان، فانحدرت قافلة السيد إدريس شرقًا إلى مصر ، وتقدمنا غربيًا إلى الجغبوب وما وراءها من صحراء مترامية الأطراف ، وأراد رجالى أن يستزيدوا من بركة السيد إدريس ، فصمموا على أن يتبعوا فى سيرهم الطريق الذى سلكته قافلة شيخ السنوسيين وهى قادمة إلينا .

الفصل الخامس

السنوسيون

لا يكمل سرد قصة عن صحراء ليبيا بدون ذكر السنوسيين الذين هم أهم عامل من عوامل النفوذ فى تلك الأصقاع . وهذا الموضوع كبير ، أحق به أن يفصّل فى كتاب خاص ولكنى أقدم للقارئ فى هذا الفصل القصير أهم نقط تاريخ السنوسيين

لا يكوّن السنوسيون شعبًا أو مملكة أو وحدة سياسية ، وإن كان فيهم من هذه الأشياء خواص كثيرة . على أنهم من البدو الذين يسكن معظمهم صحراء ليبيا

ويبسطون نفوذهم على مساحة عظيمة من تلك النواحى . وتسلم حكومات النواحى بأنهم قوة حقيقية فى شؤون إفريقيا الشمالية الشرقية . وهم مسلمون . وأحسن وصف لهم أنهم رابطة دينية زعامتها وراثية ونفوذها قوى فى إدارة شؤون سكان صحراء ليبيا

ويمكن تقسيم هذه الطائفة إلى أربعة عصور اكتسبت الطائفة صبغتها فى كل عصر منها من شخصية الزعيم . والزعماء الأربعة هم على التوالى السيد بن على السنوسى مؤسس الطائفة، والسيد المهدى ولده، والسيد أحمد ابن أخ المهدى، والسيد إدريس بن المهدى زعيم الطائفة الحالى .

ولد السيد محمد بن على السنوسى المعروف بالسنوسى الكبير فى الجزائر سنة ١٢٠٢ هجرية، وهو من نسل الرسول عليه السلام توفر على دراسة العلوم فى جامعة القيروان ، وفى فاس وفى مكة ، حيث أخذ العلم عن الفقيه الشهير سيدى أحمد ابن إدريس الفاسى وقد مالت نفسه إلى التقشف ، وتمكن من نفسه اليقين بأن الدين الإسلامى مفتقر للرجوع إلى تلك الصورة الخالصة التى وضعتها تعاليم النبى عليه السلام .

وقد اضطر أن يترك مكة فى السنة الأولى بعد الخمسين من عمره مدفوعًا بمعارضة المتقدمين فى السن ، من المتفقهين الذين خالفوه فى بعض آرائه الدينية ، فعاد عن طريق مصر إلى برقة . وأخذ يؤسس المعاهد لبث تعاليمه بين أهل البادية، وسنتناول فى شرح هذه التعاليم، ذكر ثلاثة أشياء لا مندوحة عن تفسيرها وهى الزاوية والإخوان والوكيل .

أما الزاوية فبناء مكوّن غالبًا من ثلاث غرف ويتوقف حجمها على أهمية المكان الذى تقام فيه . وإحدى هذه الغرف خاصة بإعطاء الدروس التى يتلقاها صغار البدو عن الإخوان . والثانية مَضْيفة ينزل فيها المسافرون لتمضية ثلاثة الأيام التى يقضى بها كرم البدو . والغرفة الثالثة لسكنى الإخوان . وتقام الزاوية عادة بالقرب من بئر يقف عندها المسافرون ويجاور الزاوية، فى أغلب الأحيان، قطعة من الأرض يزرعها الإخوان

والإخوان هم الأعضاء العاملون فى هذه الطائفة وهم الذين ينشرون تعاليمها وأغراضها . والإخوان لفظ يطلق على المفرد والجمع (فى اصطلاحهم) وأما الوكيل فهو ممثل شيخ السنوسيين والقائم عنه بالأمر .

رأى مؤسس هذه الطائفة مسلمى برقة سادرين فى غيابات الضلال ، معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والْخُلُقيِّة ، فأراد أن ينتشلهم من وهدة السقوط . وإنا لنسوق بعض الأمثال لتلك الأعراض التى غيرت من معالم الدين الحنف

أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الأخضر، شمال برقة ضربًا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذى قضى الإسلام بحجه ، على كل من استطاع إليه سبيلاً . وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة ، أن يدخلوا فى أذهان البدو أن زيارتها ، تقوم مقام حج بيت الله الحرام .

وأراد أولئك الشيوخ أن يتخلصوا من صوم رمضان، والانقطاع فيه إلى العبادة ، فابتدعوا لذلك بدعة، هى أن يذهبوا قبل حلول رمضان بأيام إلى وادٍ اسمه وادى زازا ، وهو معروف بقوة رجع الصدى الذى تردده جوانبه ، ثم يصرخون جميعًا سائلين : " أى وادى زازا أنصوم رمضان أم لا ؟ " فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة من هذه الجملة وهى " لا لا " ويتصور من سأل ذلك الوادى أنهم أصبحوا فى حل من الإفطار فيفطرون، غير مقيدين بأوامر الدين الحنيف ، قانعين بأن الأمر صدر إليهم بعدم الصوم .

ومما يذكر أنه فى بداية تعاليمه، أقيمت الصلاة فدخل المسجد أعرابى اسمه « مجرم » ووقف فى الصف الأول يصلى لأول مرة فقرأ الإمام آية « ألم نهلك الأولين » فتأخر إلى الصف الثانى فقرأ الإمام « ثم نتبعهم الآخرين » فتأخر مجرم إلى الصف الأخير فقرأ الإمام « كذلك نفعل بالمجرمين » فخرج مجرم من بين المصلين يعدو مهرولاً إلى داره . فسألته امرأته وقد رأته مضطربًا ما خطبه : فقال « ها دوَّة الصلا دوَّة وعرة . هلك الأولين توخرَّت . هلك الآخرين توخرَّت نادى بالاسم يا مجرمين عدِّيت » .

مسطاح الملح بسيوة

وكان فى بدو تلك النواحى بقية من العادات البربرية القديمة، فكانوا يقتلون البنات خشية ما قد يجلبنه عليهم من العار وهذه العادة المرذولة تحول بين هؤلاء القوم وبين التقدم إلى مصاف ناشرى الدعوة للإسلام

رأى مؤسس الطائفة السنوسية كل ذلك ، فحاول فى تعاليمه وإرشاداته أن يعود بالإسلام إلى قواعده فى ذلك العهد الطاهر . وأسس السيد ابن على أول زاوية فى أرض أفريقية فى واحة سيوة . وتقدم من تلك الناحية غربًا إلى برقة ، فأسس الزوايا فى (جالو) و (أوجله) وتوغل غربًا فى طرابلس وتونس ينشر تعاليمه بين البدو . وكان قد تقدمته إلى تلك النواحى شهرته الدينية والعلمية، فطلب وفادته شيوخ البدو وتنازعوا فى سبيل إكرامه . وعاد إلى برقة سنة ١٢٥٨ هجرية فأسس زاوية كبيرة، فى الجبل الأخضر، بالقرب من درنة، ودعاها الزاوية البيضاء . ولم يكن له حتى هذا العهد مركز ثابت ، لأنه كان كثير التجوال ، ينشر تعاليمه فى كل مكان، فأقام فى الزاوية البيضاء واستقبل الزوار من رؤساء قبائل برقة .

وكانت أهم تعاليم شيخ السنوسيين، الدعوة إلى الدين الإسلامى الحق ، والتمسك الشديد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم . وليس أدل على تعاليمه من ذكر فقرة من كتابه إلى أهل (واجنجه) فى (واداى) وقد رأيت أصله فى الكفرة وفيه يقول :

" أسألكم باسم الإسلام أن تطيعوا الله ورسوله فقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول } ويقول { من يطع الرسول فقد أطاع الله } ويقول { ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا } "

" أسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدوا الصلوات الخمس وتصوموا رمضان وتؤاتوا الزكاة وتؤدوا فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ، وتجتنبوا ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس وشرب الخمر وتأدية شهادة الزور ، وغير ذلك مما أمرنا الله باجتنابه . فإذا فعلتم ما أمر الله به ،ورجعتم عما نهى عنه، أسبل عليكم نعمته الأبدية ومنحكم الخير والرزق الدائمين " .

وكان أهم ما عنى به مؤسس الطائفة السنوسية الدعوة إلى الحياة الدينية الطاهرة . فلم يعمل لأن يكون زعيمًا سياسيًا أو صاحب قوة زمنية . وكان فى كل أعماله مثالاً صالحًا للتقوى التى دعا الناس إلى التحلى بها . ولم تكن له تعاليم خاصة فى الفقه أو آراء شخصية فى

تفسير قواعد الدين . وكان أكبر همه ، اتباع رجاله لقواعد الإسلام لا الإكثار من رسوم العقائد ، والشيء الوحيد الذى أضافه إلى العبادات الدينية دعاء وضعه وردده السنوسيون بعد ذلك . وهو « حزب » على نحو الأحزاب المعروفة ، بين طوائف الطرق الصوفية وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه السابقين ، أو يزيد عما نزل به القرآن . وإنما هو تعبير موافق لما جاء فى محكم التنزيل .

وقد جاء فى كتابه إلى أهل واجنجه الذى سبقت الإشارة إليه، فقرة أخرى تبين الفكرة التى أقام عليها دعوته فى سبيل رضاء الله وخدمة الدين وهى :

" تنبيه الغافل . وتعليم الجاهل . وهدى من ضل سواء السبيل " .

وقد نهى عن حياة الترف كل من انضم إلى طائفته . فمنع حيازة الذهب والجواهر إلا فى حلى النساء . وحرم تدخين التبغ وشرب القهوة . ولم يأمر بطقوس أو فروض جديدة ، وإنما طلب إلى الناس أن يتبعوا قواعد الدين فى أبسط مظاهره ، كما أنزل الله على رسوله الكريم . وكان فى بدء دعايته، لا يجيز اتصال رجاله بالأجانب، كى لا يفسدوا عليهم عقائدهم إلى أن تتأصل تعاليمه فى نفوسهم، بل كان لا يجيز اتصالهم بأهل البلاد الإسلامية التى يعتقد أنها حادت عن جادة الدين الحنيف

وفى سنة ١٢٧٠ هجرية أسس السيد ابن على فى الجغبوب الزاوية التى أصبحت بعد ذلك مركز العلوم والعرفان للطائفة السنوسية . ولم يكن اختياره الجغبوب اعتباطًا أو اتفاقًا ، وإنما نظر فى اختياره هذا بعين الحكمة والروية . فقد قصد بانتخابها أن تكون مركزًا للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ، ونشر راية السلام بينهم جميعًا . وقد جاء فى خطابه المتقدم إلى أهل " واجنجة " وهم من السود « يا أهل واجنجه إنا نريد أن ننشر السلام بينكم وبين الأعراب الذين يغيرون على بلادكم، ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم وإننا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به فى كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾(١) .

ويقول عز وجل : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢).

---

١ – الحجرات : ٩.

٢ – الأنفال : ١ .



بنت من سيوة

وكانت جغبوب مركزًا أحسن اختياره وصالحًا لأغراضه ، فهى وسط قبائل فى الشرق والغرب، كان النزاع بينها مستمرًا. ومن ثم، أمكن السنوسى الكبير أن يبسط نفوذه على المتنازعين وأن يصلح ذات بينهم كما أمر بذلك الرسول .

وليست جغبوب من الوجهة العملية ناحية تصلح أن تكون مركزًا علميًا أو دينيًا، كما فكر السنوسى الكبير ، لأنها ليست فى خصب الواحات، إن صح أن تسمى واحة، فإن النخيل فيها قليل، والماء غير عذب، والتربة مستعصية على الزراعة . ولكن مركزها السياسى لا نزاع فى صلاحه ولذلك اتخذها مقرًا له بدون تردد. وقد انقطعت فعلاً بعد إقامته هناك تلك الإغارات التى كانت مستمرة بين قبائل الشرق والغرب، وكان له الفضل فى إيقافها، ولم يقتصر نفوذه على تلك النواحى ، بل تعداها إلى قبائل برقة فقضى على ما كان بينها من عداء قائم من قديم الزمان

وعاش السيد ابن على ست سنين بعد أن اتخذ جغبوب مقامه . ومدّ نفوذه شرقًا وغربًا حتى دعته إلى الكفرة قبيلة (زوىّ) – التى اشتهر رجالها بقطاع طريق برقة، وكانوا معروفين بين العرب بأنهم لا يخافون الله ولا يخشون الناس – وهى مركزهم المهم وسألته أن يؤسس زاوية له هناك . وقد رضوا أن يقفوا الإغارات والنهب ومهاجمة القبائل الأخرى ، وعرضوا عليه ثلث أملاكهم فى الكفرة ، إذا رضى بأن يوفد إليهم أحد إخوانه ينشىء بينهم زاوية ينشر فيها تعاليمه ويعلم أبناءهم . ولم يتمكن السيد من الذهاب بنفسه ، فأرسل أحد مشاهير الإخوان وهو سيدى عمر أبو حواء فأسس زاوية فى (جوف) بالكفرة .

وبدأ ينشر تعاليم السنوسى الكبير بين أهالى قبيلة (زوىّ) . وأرسل السنوسى إخوانًا آخرين إلى جهات أخرى من صحراء ليبيا، ولم يمت حتى أصبح جميع البدو المقيمين على حدود مصر الغربية، وفى جميع نواحى برقة وطرابلس تلاميذه وأتباعه

وقد مات سنة ١٢٧٦ هجرية فى الرابعة والسبعين من عمره، ودفن فى القبر الذى تظله القبة الشهيرة بالجغبوب

وخلف السنوسى الكبير ولده سيدى محمد المهدى وكان فى السادسة عشرة من عمره عند موت أبيه . وقد قوّى مركزه بين السنوسيين، على الرغم من حداثة سنه، عاملان مهمان : أولهما أنه كان فى مجلس أبيه وأراد الانصراف ، فقام أبوه وأصلح وضع حذاء المهدى بنفسه، وكان قد خلعه قبل أن يدخل على أبيه – وفى ذلك ما فيه من المهابة والتواضع – ثم التفت بعد ذلك إلى جلسائه وقال : « اشهدوا أيها الحضور أن ابن علىّ أصلح بنفسه وضع حذاء ولده

للمهدى » . وقد فهم الناس ساعتئذ أنه أراد بذلك أن يشعرهم بأن الولد لن يخلف أباه فقط، بل يقوم بعده أيضاً في صلاحه وتقواه .

أما العامل الآخر ، فهو أنه جاء في بعض الأنباء القديمة ، أن المهدى المنتظر الذى يرفع لواء الإسلام في نهاية العالم يصل سن البلوغ في غرة محرم ١٣٠٠ هجرية ، وأن يكون من أب اسمه محمد وأم اسمها فاطمة. وقد جمع المهدى في نفسه كل الصفات التى قيل إنها وردت في أحد كتبهم . ولذلك تم اختياره خلفًا لكبير السنوسيين

وانتشرت زوايا السنوسيين حتى صارت عند بلوغ السيد المهدى ثمانيًا وثلاثين زاوية في برقة، وثماني عشرة في طرابلس وتناثرت غيرها في بقاع أفريقية الشمالية . ولم تخل مصر من نحو عشرين زاوية . وقد قدر المحصون أن عدد من انضم لطائفة السنوسيين وأقر بالزعامة الدينية للمهدى عندما خلف أباه كان يتراوح بين مليون ونصف مليون وثلاثة ملايين

والمهدى أشهر أفراد أسرة السنوسي، فقد رأى، من أول الأمر، أن نفوذ الطائفة يجد في جهات الكفرة والبلاد الجنوبية، مجالاً أوسع مما يجده في الشمال، فنقل مركز إقامته سنة ١٣١٢ هجرية من الجغبوب إلى الكفرة . وقبل أن يترك مقره القديم أطلق جميع عبيده من الرق، ولايزال بعض هؤلاء العبيد وأولادهم مقيمين في الجغبوب

وكان انتقاله إلى الكفرة فاتحة عصر جديد في تاريخ السنوسيين . فقد تقدمت التجارة في عهده بين السودان وشاطئ البحر الأبيض المتوسط ، عن طريق الكفرة حتى صارت الطريق الوعرة الخالية من الماء بين بئر (بو الطفل) بالقرب من (جالو) وبين بئر (الظيغن) في شمال الكفرة طريقًا تختلف إليها القوافل التجارية ، ويرتادها المسافرون لزيارة الكفرة مركز طائفة السنوسيين . وبلغت الحركة في تلك الطريق حداً قال لي بدويّ عنه : إنه كان في وسع الإنسان أن يسير نصف يوم من أول القافلة إلى آخرها . وكانت الطريق من الكفرة إلى (...) وعرة خطرة في تلك الأيام ، فحفر المهدى بئرى (بشرى) و (ساره) في الطريق الموصلة من الكفرة إلى (تكرو)

وكانت واحات الكفرة في أيام قبيلة (زوىّ) البدوية التى انتزعتها من قبيلة (التبو) السود مركزًا مهمًا للسطو والاغتيال في صحراء ليبيا . وكان أفراد هذه القبيلة المتمردة عيالين ... ، لا يخضعون لقوة أو قانون ، ولا يرحمون من يخترق أراضيهم . فلم تخل قافلة تمر ... ة ، من النهب والسلب أو الاضطرار لدفع جزية . وجاء المهدى فجعلهم ينزلون عن طلب الجزية ، لأنه أراد أن يؤمن الطريق الممتدة في صحراء ليبيا من الشمال إلى الجنوب وأن ... تجارة تلك الأصقاع ، وعمل على ذلك حتى قال لي أبو مطارى – وهو من شيوخ قبيلة

(زوىٍّ) فى الكفرة – : إنه صار فى وسع المرأة أن تسير من برقة إلى واداى بدون أن يتعرض لها أحد .

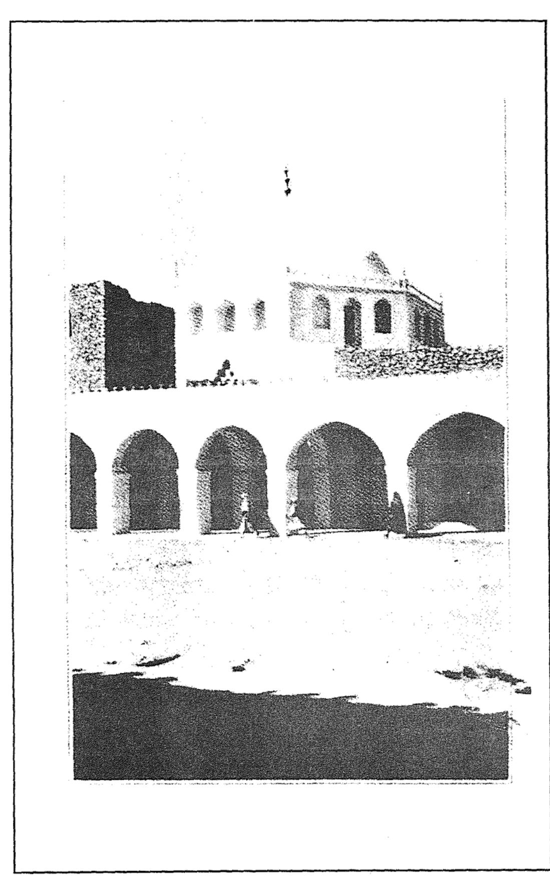
وبسط المهدى نفوذ السنوسيين فى جهات كثيرة ، وأرسل الإخوان يؤسسون الزوايا فى البلاد الواقعة بين مراكش وفارس . ولكن أعظم أعماله، كانت فى الصحراء بين البدو والقبائل السود، القاطنة جنوب الكفرة، فقد جعل من السنوسيين قوة روحية فى تلك الأصقاع ، وعاملاً قويًا على بث السلام والإخاء بين القبائل ، بل جعل منهم فوق هذا، هيئة تجارية كبرى، بفضلهم نمت التجارة وأزهرت ، وأراد أن يبسط نفوذ الطائفة بنفسه فى أواخر أيامه، فانحدر إلى الجنوب حتى وصل (جرو) جنوب الكفرة وهناك وافاه القدر المحتوم فجأة سنة ١٩٠٠ ميلادية.

مات المهدى ولم يترك بين أولاده بالغًا فخلفه فى زعامة السنوسيين ابن أخيه السيد أحمد وصيًا على السيد إدريس أكبر أبناء المهدى وخليفته الشرعى .

وخرج شيخ السنوسيين الجديد عن مناهج أسلافه، فأراد أن يجمع بين القوتين الزمنية والدينية ، فإنه حين أخذ الإيطاليون برقة وطرابلس من الأتراك ، حاول السيد أحمد أن يضيف إلى قوته الروحانية، ما تركه الأتراك من القوتين الزمنية والحربية . وقامت الحرب العظمى فأراد أن يهاجم تخوم مصر الغربية تحت تأثير البعثات التركية والألمانية ، وفشلت مساعيه حتى اضطر إلى السفر إلى تركيا فى غواصة ألمانية .

وهكذا خالف ثالث الزعماء السنوسيين سياسة السنوسى الكبير وابنه المهدى . فإنهما رأيا أن الزعيم الدينى لا يمكن منازعته فى زعامته أو القضاء على مكانته . أما إذا خرج يتطلب السلطة الزمنية ، فإن بضع هزائم حربية تكفى للقضاء على سلطانه وتدمير شهرته .

وقد كانت قوة السيد ابن على والسيد المهدى راجعة إلى صفتهما الشخصية وما يشع من تأثيرهما الروحانى ، فخالفهما السيد أحمد فى ذلك باعتماده على الأسلحة والذخائر والظروف، حتى إذا خانته كلها ، لم يبق فى يده من الأمر شىء . غير أنه مشهور بصلاحه وتقواه، وله مكانة عظيمة عند البدو، لشدة تمسكه بأمور الدين الحنيف ، ولما بذله من المساعى فى محاربة الطليان، واجتهاده فى تخليص بلاده من ربقة الاحتلال .



قبة الجامع بالجغبوب

ولما خرجت الزعامة من يد السيد أحمد عادت إلى الوارث الشرعى السيد إدريس ، الذى يستمد بانحداره من صلب السيد المهدى قوة عظيمة ونفوذًا كبيرًا، وهو على تمتعه بهذه الميزة أهل لتمكين نفوذ السنوسيين ، وإنجاح أغراضهم تحت زعامته، بما يتحلى به من الصفات الشريفة، من لين فى الأخلاق إلى شدة فى الحق . ولذلك لا يقر له بالطاعة والولاء ، الإخوان السنوسيون فقط ، بل أهالى صحراء ليبيا أيضًا .

وفى سنة ١٩١٧ حصل اتفاق بين السيد إدريس وبين الحكومة الإيطالية، أقرت فيه إيطاليا للسيد بحقه فى إدارة شؤون واحات (جالو) و (اوجله) و (جدابيا) و (الكفرة). وقد تجددت المصادقة على هذا الاتفاق بعد ذلك بسنتين فى (رجمه) وحدث لسوء الحظ سنة ١٩٢٣ أن وقع خلاف بين الطرفين المتعاقدين ،فوقف سير الاتفاق . وإنى لأرجو أن يتجدد الاتفاق بين السيد إدريس والحكومة الإيطالية، فيعود إلى تلك الواحات، ما كان لها من أمن ورفاهية .

ولا نزاع فى أن للنفوذ السنوسى فى حياة سكان تلك النواحى أثرًا طيبًا . فالإخوان السنوسيون لا ينشرون العلم ويقيمون قواعد الدين ويبثون دعوته فقط ، بل يقضون ويوفقون أيضًا بين الرجال والقبائل . وليس أدل على روح التوفيق والرغبة فى نشر لواء السلام، من خطاب السنوسى الكبير إلى أهل (واجنجه) الذى ألقى تلك المهمة على عاتق السنوسيين الإخوان ولم يخرج ولده المهدى عن هذا الميل فى التوفيق ، إن لم يكن زاده وقوّاه .

ومهما كان ما قلناه : فإننا لم نغال فيما ذكرنا عن أهمية مظاهر الحكم السنوسى فى حفظ الأمن، وصيانة السلام والسعى لما فيه خير أهل الصحراء .



الفصل السادس
جغبوب الهادئة

في عصر اليوم التالي لمقابلة السيد إدريس رأينا قبة مسجد الجغبوب البيضاء تنيف على المدينة ، فاتبعنا عوائد البدو وحططنا رحالنا على مسافة من المدينة ، وأرسلنا رسولاً يحمل خبر وصولنا فعاد بعد ساعتين يخبرنا باستعداد القوم للقائنا . وتقدمت القافلة إلى المدينة، حتى إذا صارت على مقربة من أسوارها، أرسلنا طلقات النار في الهواء ، وقابلنا بباب المدينة سيدى حسين الوكيل، وهو ممثل السيد إدريس في تلك المدينة . ويرافقه جميع الإخوان المدرسين في جامع الجغبوب . واصطف الطلبة على جانبي الطريق، ورحبوا بنا مهللين، ونحن نخترق صفوفهم، فكان لهذا الترحيب صدى سرور يتردد في قلوبنا .

دخلت الجغبوب وكأنى عائد إلى وطنى ، فقد كانت في رحلتى الأولى منذ سنتين قريبة من غايتى ، غير أنها الآن النقطة التى تبدأ منها رحلتى الثانية ، أو في الواقع نقطة من عدة نقط ، لكنها على أى حال بداية الرحلة الطويلة النائية التى تنتظرنا .

وأحسست عند دخولها برد فعل يعترى كل من انتهى من سفر طويل . وكان شعورى خليطًا من التشوّف والتأثر ، لأن الانتهاء من رحلة واستئناف السفر إلى أخرى ظرفان متباينان يهيج كل منهما في النفس عواطف متباينة .

وقد كنت واقفًا أود الإسراع في الرحيل ، ولكن عدم وجود الجمال اضطرنى إلى الإقامة في الجغبوب نحو خمسة أسابيع . وكنت قد أرسلت قبل قيامى من السلوم رجلاً اسمه السيد على السعيطى، وكلفته أن يسبقنى إلى الجغبوب بالطريق المستقيمة ليؤجر جمالاً ، ويعدها حتى ألحق به عن طريق سيوه ولكنى لم أجده ، وسمعت أنه انحدر إلى الغرب، إلى جدابيا غير موفق ، لأن الأعراب الذين لقيهم بعد سفره من السلوم ، لم يرضوا أن ينزلوا له عن دوابهم التى كنت في حاجة إليها . ولم يوفق عليٌّ إلى إيجاد الجمال في جدابية كذلك . ولم تصلنى أخباره لمدة أسبوعين . وبعد ذلك عرفت السبب في عدم توفقه، وهو أن الطريق من الجغبوب إلى جالو وَقْفٌ على رجال قبيلتى زوىّ والمجابرة ، لا يجرؤ على اجتيازها غيرهم من رجال القبائل الأخرى إلا بإذن منهم .

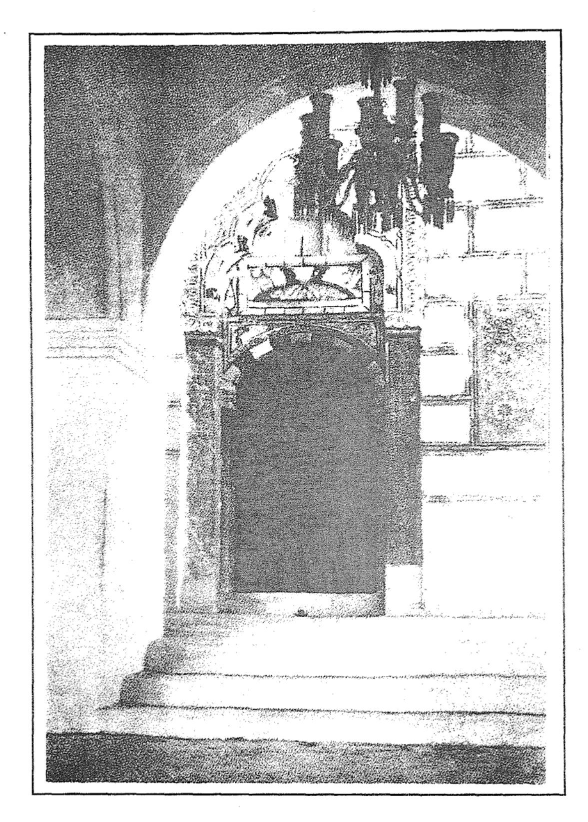
وأنسانى جمال الجغبوب وهدوؤها، شوقى إلى استئناف السفر، فإنها بلد عامر بالعلم والدين. وإن لم تكن مركزاً للتجارة أو الزراعة. إذ الصالح للزراعة فيها بقاع متناثرة من الأرض، تخرج القليل من الخضر والبلح، ويستغلها العبيد الذين أطلقهم السيد المهدى عند انتقاله إلى الكفرة .

ومركز حياة الجغبوب مسجدها الكبير الذى يسع زهاء الستمائة نسمة ومدرستها، وهى مركز التعليم الدينى لطائفة السنوسيين . ويحيط بالمسجد بعض منازل يسكنها أفراد الأسرة السنوسية والإخوان .ويتناثر داخل أسوار المدينة وخارجها قليل من المنازل الخاصة ، ويسكن زهاء الثلثمائة طالب فى منازل صغيرة بالقرب من المسجد

وقد وصلت الجغبوب إلى أوج شهرتها فى عهد السيد بن على السنوسى الكبير حين اتخذها قصبة لطائفته . ووليه ابنه المهدى فظلت حافظة شهرتها مدة اثنتى عشرة سنة حتى انتقل إلى الكفرة، فأصبحت هذه مركز أعمال السنوسيين .

ورجعت الجغبوب إلى عهدها الزاهر أيام السيد أحمد الشريف ، الذى كان وصيًا على السيد إدريس قبل بلوغه . وكانت أهميتها تزيد وتقل تبعًا لترك السنوسيين لها ، أو رجوعهم إليها ، فإن فرض أن جعلها السيد إدريس عاصمة السنوسيين أصبحت مدارسها ومنازلها فى بحر شهرين عامرة بأعضاء الطائفة والطلاب ، يقصدها الأتقياء من كل صوب لزيارة ضريح السنوسى الكبير . ولكنى عند زيارتى لها لم أجد بها إلا ثمانين طالبًا بدويًا، تتراوح سنهم بين الثامنة والخامسة عشرة، يأخذون العلم على الإخوان . وإنما قل عدد الطلاب لقلة عدد المدرسين، فإن السيد إدريس الذى تفضل بمقابلتنا فى طريقة إلى مصر ، كان يقيم فى ذلك الوقت ببلده جدابيا الواقعة على مسافة بعيدة من غرب الجغبوب

ومسجد « الجغبوب » به غرفة داخلية تحوى مقصورة من النحاس ، فيها ضريح ذلك الرجل الكبير الذى طلب لقومه مظهر الإسلام الطاهر المتين فى بساطته ، والذى لا تشوبه شائبة من الحياة المادية . ويزور هذا الضريح كل من قدر على السفر ممن اتصل بالطائفة ، وأراد أن يجدد المواثيق على اتباعه تعاليم السيد السنوسى الكبير . وإنما يقصد الطلاب الجغبوب لأمرين فإما أن يتهيأوا ليصبحوا إخوانًا للطائفة ، أو ليعودوا إلى ديارهم فى الواحات المختلفة، وقد تزودوا من العلم ، ما يجعلهم يهيمنون هيمنة دينية على رجال قبائلهم .



قبر السيد ابن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية فى الجغبوب

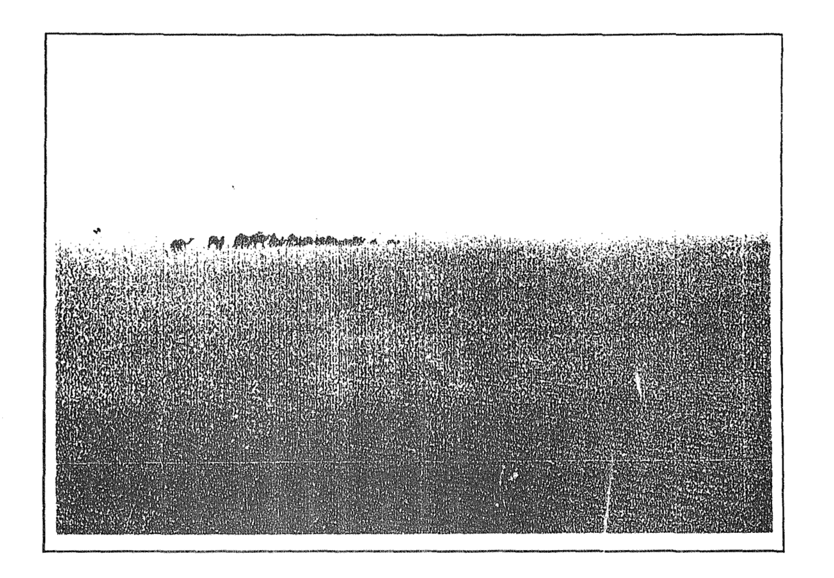
ولم يكن يشغلنى شاغل فى هذه المدينة الهادئة، إلا اهتمامى باستحضار الإبل التى توصلنى إلى جالو الواقعة على مسافة ٣٥٠ كيلو متر تقريبًا إلى الغرب . وفيما عدا هذا، قضيت أيامى فى الجغبوب، فى التبصر والتأمل وإعداد ما يلزم للرحلة .

وللصحراء فى العقل والروح تأثير يغاير تأثير حياة المدن الصاخبة . فإنى أيام جست خلال هذه المدينة الصغيرة أو خرجت إلى الواحة التى تحيط بها، أو وقفت تحت ظلال المسجد الندية، أو جلست فى برجه ، أساجل علماء البدو مختلف الحديث ، وأرى الليل يمد رواقه على القبة البيضاء ، وما تشرف عليه من تلك الأبنية المتلاصقة ، خلصت من توافه المشاغل التى تبعثها حياة المدن المزدحمة بسكانها المتناحرين على الحياة .

ومرت بى الأيام فقضيتها بين تنزه فى الصباح وأداء صلاة الظهر فى المسجد ، ثم تناول الطعام فى هدوء حتى إذا انتهيت منه قضيت وقتًا فى تعهد معداتى العلمية وآلات التصوير ثم صليت العصر واسترحت قليلاً . وتناولت العشاء وجلست إلى رجالى أوزع عليهم أكواب الشاى على طريقة البدو . وبعد أن أصلى العشاء أخلص إلى النجوم فأناجيها، وأطلق خيالى فى سماء الليل الساكن، ثم أنقلب إلى فراشى، فأهنأ بنوم لا يذوقه ساكن المدن .

وقد راقنى من بين الإخوان الذين رأيتهم فى الجغبوب رجلاً استرعى لُبِّى لعدم اختلاطه بى أو محادثته إياى ، وقد حاولت أن أعلم سر ذلك من بقية الإخوان ، فلم أفلح حتى علمت أخيرًا قصة الرجل بطريق الصدفة .

كان سيدى ... شيخًا ذا وجه صبيح يظهر فيه الكبر وتلوح دلائل احتقار الحياة ، فى شفته المتقلصة وإن لم تنصفه الدنيا فى أيامه الأخيرة . وكنت فى زيارتى الأولى للجغبوب ، قد أقمت فى داره الخالية ، وحاولت أن أطيل معه الحديث فلم تتح لى الفرصة المناسبة . ولما هبطت الجغبوب هذه المرة جاءنى يرحب بى ليلة وصولى فأحسست فى ضمير ذلك الشيخ مأساة يخفيها عن الناس . وهو رجل من قبيلة البراعصة ، من خيار رجال البدو ، أهل الشمم ولكنه كان ينعى على الأقدار، ولا يستسلم لحكم الدهر . وكثيرًا ما أدهشنى ذلك منه فإنى أعرف فى نفوس العرب الرضا بصروف القضاء . وكان كل من يحيطون بى فى الجغبوب يمثلون الإنسانية الخيِّرة الرضية إلا سيدى ... فكان وحده دون بقية الإخوان صورة محزنة للكبرياء المحطمة .



القافلة فى زوبعة بين الجغبوب وجالو

وحدث لى ذات مساء عند عودتى من المسجد أن لقيت مبروكًا، وهو من عبيد سيدى المهدى الأقدمين فحييته ورد التحية بأجمل منها . ثم جلست أجاذبه أطراف الحديث؛ فبدأنا بذكر قطعة الأرض الصغيرة التى يتعهد زرعها فقال : « ليس لدينا من الغذاء شىء كثير ، ولكن بركة سيدى المهدى تجعل من قليلنا كثرة » . وفى هذه اللحظة اجتاز صحن المسجد، وقد بدأ الغسق يرخى غلالته، رجل منسرح القامة فى ثوب أبيض ، يمرق كأنه شبح من الأشباح . وكان ذلك الشيخ البراعصى فأشرت إليه بأصبعى وقلت لجليسى « لست أكتمك أن صحة هذا الرجل لم ترقنى حين زارنى اليوم ، إنى لأعجب ما خطبه » . فأجابنى مبروك قائلاً : « إن هذا الشيخ لا يشكو داء ، وإنما يتألم لخيانة أخيه التعس الذى جلب على نفسه غضب أسيادنا السنوسيين » واستطرد بعد ذلك فى قصته فانكشف لى سر ذلك الشيخ الحزين

كان أخوه سيدى .... وكيلاً أمينًا للسيد المهدى فى الجغبوب صاحب أمر ونهى . حدث له أيام طفولته أن سقط عليه حائط فحطم رأسه . وكان السنوسى الكبير على مقربة منه فأسرع إليه وعصب رأسه قائلاً : ستكون هذه الرأس فى مقبل أيامها منبعًا للعلم والعرفان . وقد صدقت نبوءته، فقد أرسله أبوه إلى الجغبوب أيام إقامة السنوسى الكبير بها وتركه يطلب العلم فى مسجدها العامر . وأصبح بعد ذلك كبير الإخوان وشيخ المدرسين فى الجغبوب وشاعرًا نابغًا يخطو إلى المجد .

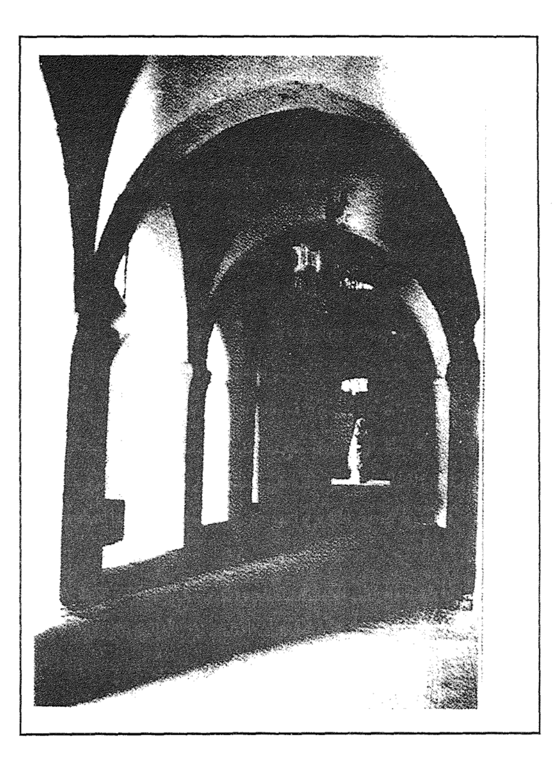
ومات السنوسى الكبير، فاتخذه سيدى المهدى وكيله الوحيد فى الجغبوب حين نزح إلى الكفرة وأئتمنه على أملاكه، ووكل إليه إدارة كل شىء فى تلك المدينة . ولكن الله أراد أن يضربه مثلاً لمن يخون السيد ولا يكون عند حسن ظنه به . فقد أغوته الحياة الدنيا فمال إليها. وبدد أكثر أملاك المهدى ، وباع الكثيرين من عبيده وابتز كل ما وصلت إليه يده من المال .

وكتب الله عليه العقاب ففضح سر خيانته وكان آخر مظهر من مظاهرها – والخبر مفتقر إلى الأدلة – أنه كتب إلى كبير من الكبراء فى مصر – قيل إنه أجنبى – يخبره أن السيد المهدى بعيد فى الكفرة، وأن الجغبوب لا تمانع فى إلقاء مقاليد أمورها لمن يستولى عليها . وكان سيدى محمد العابد السنوسى يقيم فى الجغبوب فى ذلك الوقت، فسمع بكتابة ذلك الخطاب ، وعرف أنه مرسل إلى مصر عند هجوم الليل . فأرسل فى الحال اثنين من الإخوان يكمنون للرسول فى الطريق ويأخذون الرسالة منه . وجىء بالرسول بعد يومين ، فاطلع سيدى العابد على الكتاب ، ولم يقل شيئًا ، ولكنه هيأ قافلة للرحيل إلى الكفرة، وسأل الوكيل أن

يصحبه فحاول الاعتذار بكبر سنه وضعف صحته . ولكن العابد أصر على مرافقته له، فاضطر إلى القبول، وقطعوا الصحراء صامتين حتى وصلوا الكفرة ، فأظهر العابد ذلك الكتاب إلى السيد المهدى

وفى يوم الجمعة التالى لوصولهم دعا السيد المهدى جميع الإخوان للاجتماع بعد صلاة الجمعة فى مسجد التاج ، ثم وقف بينهم ملتفتًا إلى الوكيل وقال : « يا سيدى ... إنك لتعلم علم اليقين ما فعلت » فوجم الحضور وعلموا أن فى الأمر شيئًا، فاشرأبت أعناقهم إلى سماع الحديث ، واستطرد المهدى فى حديثه فقال : « ولكنا لن نجزيك على ذلك . سندعك تعيش ونجرى عليك رزقك المألوف . والله يتولى عقاب من يخفر ذمتنا . غير أنّا نطلب إليك أن تقرأ على الجمع الحافل من الإخوان هذا الكتاب الذى خطته يدك » . فلم يسع الرجل إلا الإذعان لأمر المهدى فقرأه والإخوان تلوح فى وجوههم الدهشة من خيانته وهو موضع ثقة المهدى .

وانتهى الرجل من قراءة الكتاب فقال المهدى : « سنعفيك بعد الآن من مشقة النظر فى أمورنا » . ثم صرفه المهدى فانقلب المسكين إلى داره مريضًا ومات بعد ذلك بأيام قليلة وتبعه ولداه بعد بضعة أشهر . وتزوجت بنتاه من رجلين من الأسرة السنوسية . وقد استولت الأسرة السنوسية على جميع أملاكه وكتبه . وكانت مكتبته من أعمر مكتبات الطائفة ، ولم يبق من أسرته إلا أخوه هذا الشيخ البالى الذى ورث عنه بيته الخالى فى الجغبوب وعاره الملصق به . وبموت هذا الأخ تنقرض أسرة هذا الشقى الذى وثق به السيد السنوسى فلم يكن عند حسن ظنه به .



داخل الجامع بالجغبوب

الفصل السابع
الولائم والأدوية

لقد أظهر الزعماء السنوسيون من دلائل كرمهم شيئًا كثيراً ؛ وجروا على سنة البدو فى إظهار ذلك ، تبعًا لمكانة رب البيت والضيف ، ووفقًا للظروف ومناسباتها . فإن المسافر إذا حل بواحة أو بلدة فى الصحراء، كان معه رجال قافلته، وما يحتاج إليه من ضرورات العيش . ولا ينزل ذلك المسافر فى فندق أو فى دار صديق ، وإنما يتخذ له مقامًا منفرداً فينصب خيامه ويقيم فيها أو يسكن فى دار توضع تحت تصرفه ، كما حدث لى فى الجغبوب وجالو والكفرة .

فإذا حل ضيف المدينة أظهر كبراؤها كرم الضيافة نحوه ، فدعوة إلى تناول الغداء أو العشاء فى منازلهم أو أرسلوا إليه الطعام بخيامه أو داره . وسأفيض فى وصف كرم البدو إذا دعوا أحد إلى منازلهم عند التكلم عن إقامتى فى جالو . فقد دعانى فى هذه المدينة زهاء الخمسة عشر وجيهًا من وجوهها . أما فى الجغبوب فقد أبدوا لى ذلك الكرم بإرسال ألوان الطعام إلى دارى . وقد تمتد ضيافة البدوى لضيفه ثلاثة أيام أو سبعًا تبعًا لمنزلة الرجلين .

وقد حدث بعد وصولى الجغبوب ببضعة أيام ، أن تفضل فتيان فى الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما، وهما سيدى إبراهيم وسيدى محيى الدين وهما أصغر أبناء السيد أحمد المقيم الآن بالحجاز ، والذى كان الوصى على السيد إدريس - فأظهرا نحوى من دلائل الكرم، ما ترك لهما فى خاطرى أجمل الذكرى . فقد وصل إلى دارى بدوى ومعه عبدان ينوءان تحت عبء الأطعمة ونثرا أمامى صحاف الطعام المتنوع ، فوجدتنى مضطراً إلى تذوق ما لا يقل عن عشرين صنفًا . وجلس ممثل ضائفى بأدب واحتشام، لا يمد يده إلى شىء بينما أصبت قليلاً من كل صَحْفِه . وظل يشرف على تقديم ما يجعلنى راضيًا ويسامرنى أثناء تناولى الطعام . وهذا البدوى من قبيلة البراعصة، التى اشتهر رجالها بأنهم الطبقة الراقية لأهل الصحراء ، وامتازوا بطول القامة وجمال الخلقة وعزة النفس والشجاعة ، فإن البراعصى لا يحجم عن مقابلة الإهانة بالسيف ولو انفرد بين رجال قبيلة بأسرها .

جلست أتناول الطعام ترعانى عين هذا البدوى ويخدمنى العبدان . ولست أدرى لكثرة ما قدم إن كان فى إمكانى أن أذكر الألوان الشهية التى ملأت الخوان ، ولكنى أذكر أن ذلك لم يخل من جميع أصناف اللحم والخضر والفطائر .

واللحم من أهم أنواع طعام البدوى وأخصه لحم الخراف ، وهو قوام حياة البدوى إذا لم يكن مسافراً . ولا تكمل ضيافة البدوى لنزيله إلا بتقديم اللحوم التى أحضرت خصيصًا له . فإذا أراد البدوى أن يدعو أحداً لتناول الطعام نحر له شاة . والعادة أن لا يجهز شيئًا أو يذبح ذبيحًا حتى يحضر الضيف فيرى بنفسه أن كل شيء قد أعدَّ له وحده . وربما طلب رب الدار من ضيفه سكينًا يذبح بها الشاه ، حتى يؤكد له أنه يقوم نحوه بكل أنواع الإكرام .

وإنما يبين كرم البدوى فى كثرة ألوان الأطعمة التى يقدمها لضيفه ، فإن الطعام فى الصحراء أهم مظاهر الكرم ، وهو فى تلك الأصقاع الساذجة ، كل ما يتحدث به الناس . ولم تخل إقامتى فى الجغبوب من حادثتين أبانتا لى أن الشرق والغرب على كثرة ما بينهما فى الاختلاف ، متفقان اتفاقًا ظريفًا فى بعض الميول . وأولى هاتين الحادثتين فكهة والثانية لا تخلو من عاطفة تشوبها فكاهة .

كنت قد أمرت رجالى أن لا يردوا أحداً يقصدنى فى طلب دواء ، فجاءنى أحد الإخوان السنوسيين يطلب دواء لسعاله ، فأعطيته زجاجة من الشراب الخاص بمداواة السعال ، وجاءنى بعد يومين قائلاً : إن الجرعات الأولى التى تناولها أفادته فائدة عظيمة دفعته إلى إفراغ ما فى الزجاجة ، وسألنى أن أعطيه زجاجة أخرى ثم انصرف . وكان عبد الله حاضراً فالتفت إلىَّ وقال هازئًا : « لا أعجب إذا طلب سيدى الإخوانى زجاجة أخرى، فإن الشراب شهى لذيذ وإنه ليشربه متلذذاً بطعمه لا متداوياً » . وأظن أن عبد الله كان مصيباً فى تعبيره، فطالما لاحظت أثناء إقامتى بانجلترا أن الأطفال يؤكدون لأبائهم فتك السعال بهم وإن برئوا منه ، وإنما يدفعهم إلى ذلك حلاوة الدواء وطيب مذاقه .

وقد اعتاد رجالى أن يفخروا أمام البدو، بأنى أحمل فى حوائجى الدواء لكل علة ، فجاءنى فتى تحت تأثير تابعى أحمد يسألنى شيئًا يداوى به جارية من السهو والنسيان ، فكان جوابى على ذلك ، إنى رأيت بعد تجاربى العديد فى كثير من الممالك ، أن منع الخدم من النسيان لا يقل صعوبة عن منع الماء من الغوص فى الرمال .

صحن الجامع بالجغبوب

أما الحادثة الثانية فكان بطلاها يختلفان كل الاختلاف : جاءني عبد أحد الإخوان يستشيرني في شيء كلفه سيده بعرضه عليَّ، لأنه لا يجمل به أن يسره إليَّ شخصياً . فإن آداب البدو تقضي أن لا يذكر إنسان زوجه أمام غيره ، بل أن لا يذكر سيدة لا يعرفها المتحدثان . أما العبد فيمكنه أن يقول ما تأبى كرامة السيد التصريح به .

جاءني ذلك الخادم فقال : « إن زوج سيدي عاقر وإن ذلك يؤلم بعلها كثيراً . وإن سيده واثق إن إزالة ذلك العقم لا بد في استعمال الأدوية التي أحملها من عجائب علم الغرب » . وما كاد يتم حديثه حتى عادت بي الذكرى إلى أيامي الأخيرة في أكسفورد فذكرت خادماً في الجامعة ، كان لطيف العشرة ولكنه شديد الحياء .

جاءني ذلك الخادم ذات يوم وكنت أهيىء أسباب عودتي إلى مصر . وبعد أن استجمع كل جرأته للجهر بما يضمر ، سألني هذا السؤال : « إذا سمحت يا سيدي أن أسأل فضلك أفضيت إليك بحاجة لي . أن زوجي عاقر والطبيب عاجز عن مداواتها وليس لديه ما يقترحه ، فإذا عدت يا سيدي إلى بلدك الذي سمعت أنه يحوي طلاسم عجيبة ، تؤثر في كل شيء فتنازل بالبحث لي عن طلسم للحبل ، وأرسله عسى أن يرزقنا الله ولداً . ولست أكتمك يا سيدي أني لا أعتقد بالسحر ، ولكن الحيل ضاقت بي في سبيل هذا الأمر » ولم يسعني وقد رأيت انشغال باله، وكشفه لي عن بنات صدره، إلا أن أجيبه بجد وعطف، أني سأفعل ما أنا قادر عليه . ولم تدعني الحاجة بعد ذلك إلى البحث عن طلبته لأنه مات قبل أن أعود إلى أكسفورد، تاركاً وراءه ذكرى طيبة بين طلبة كلية (بليول)

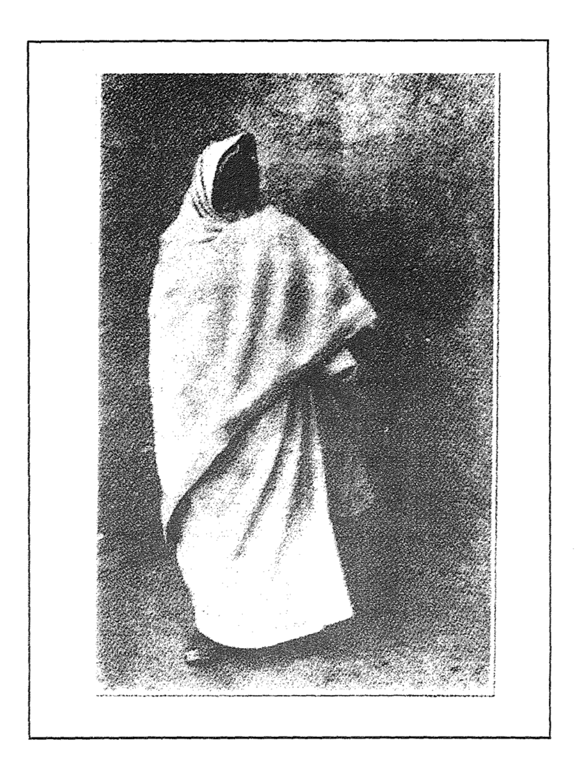
ذكرت كل هذا وعبد ذلك الإخواني منتظر ، ولكني لم يسعني أن أبطئ في اعطائه ما طلب إلى سيده . وأتيحت لي فكرة للخروج من هذا المأزق، فأعطيت الخادم نصف زجاجة أقراص اللبن المركز ، وأمرته أن يجعل السيدة تتناول ثلاث حبات منها حتى تنفرج الأزمة وانصرف الخادم . ففكرت في المقابلة الغريبة بين هاتين الحادثتين، فهناك في أكسفورد أهاب علم الغرب بقوة الشرق الروحية، وقد أعوزت تجاريبه السبل في إيجاد دواء للحمل. وهنا في الجغبوب طلب الشرق مساعدة العلم الغربي بعد أن ضاقت به الحيل في العلوم الروحانية . وهكذا يظل الشرق والغرب معتقدين في قوة المجهول العجيبة

وطالت عليَّ الإقامة في الجغبوب ولكن عيشتي الهادئة وتمتعي بلطف البدو وبشاشتهم لم ينسياني التفكير في أمر الإبل ؛ فبعثت الرسل إلى جميع النواحي المجاورة في طلبها وزدت

مبلغ الأجر لأصحابها ، ولكنى لم أظفر بطائل . وسألت السيد حسيناً مساعدته، ولكنه أقر لى بعجزه عن عمل أى خدمة لى . وأرسلت رسولاً إلى سيده يحمل إشارة برقية إلى السيد إدريس فى مصر أعلمه فيه بحيرتى ، وأسأله المساعدة فجاءنى الرد منه بأسرع مما كنت أنتظر طالبًا إلى السيد حسين أن يقدّم لى ما فى طوقه من المساعدة، ولكن السبل كانت مسدودة . وأخيراً وقد سدت منافذ الأمل، وصلت قافلة من قبيلة (زوى) كانت قد تركت جالو إلى سيوة فى طلب البلح فأردت تأجير إبل القافلة، ولكن أصحابها لم يرغبوا فى العودة بدون البلح الذى قصدوا استجلابه . غير أنى وجدت فى آخر الأمر طريقة لحملهم على النزول عن جمالهم، فأعلمتهم بواسطة سيدى حسين أن الأوامر صدرت من الحكومة المصرية بمنع رجال قبيلة زوى من الدخول فى الأراضى المصرية حتى ينحسم النزاع بينهم وبين أولاد على المقيمين فى مصر ، ذلك النزاع الذى نشأ عن ثأر متحكم بين رجال القبيلتين منذ بضع سنين .

ورأى رجال القافلة أن التقدم إلى مصر غير ميسور خوف العقاب . فلم يبق أمامهم وقد حُجزوا فى الجغبوب إلا العودة من حيث أتوا فكان ذلك ما قصدت . وساعدنى على رضائهم بتأجير إبلهم إخبارهم بأوامر الحكومة المصرية وكتاب السيد إدريس واستمالة السيد حسين لهم ووعدى بإعطاء أجر باهظ جرونى إليه لاحتياجى إلى جمالهم . وانتهت تلك الأيام السعيدة التى قضيتها تحت ظلال القبة البيضاء

وانقضت كذلك أيام الهدوء والتفكير والتأمل فى ظل القبة البيضاء وأيام القلق للرغبة فى السفر والبحث عن ممهداته ، فأدرت وجهى إلى الغرب قاصداً جالو فى ٢٢ فبراير بعد أن أقمت فى الجغبوب ٣٤ يومًا كاملة .



السيد حسين وكيل الأمير السيد إدريس السنوسي بالجغبوب

الفصل الثامن

زوابع الرمال فى طريق « جالو »

تركت الجغبوب فى يوم من خير الأيام التى جرت عادة البدو أن يتفاءلوا بها .

كان ذلك يومًا عاصفًا تسفى فيه الريح الرمال والعرب يقولون : إن القافلة التى تبدأ رحلة فى عاصفة يكون نصيبها التوفيق وتصيب حظًا طيبًا

وأكبر ظنى أن العرب ابتدعوا هذه الفكرة قديمًا للرضا بما هم واقعون فيه كل يوم . والنزول على ما تضطرهم إليه طبيعة الصحراء، وإلا فإن البدوى فى هذا يكون كالمصرى أو السودانى إذا قال : إن السفر محبوب فى يوم مشمس، أو الإيقوسى إذا تمنى اليوم الممطر لسفره . إذ زوابع الرمال فى الصحراء أمر عادى قد يلقاه مجتازها ، فى أى مكان وأونة . على أنها تجربة شاقة ومحنة قاسية يعانى الإنسان هولاً شديداً فى احتمالها

يصبح والسماء صافية والجو خال مما ينذر بعاصفة أو يشعر بريح . وتبسم الصحراء لنا ونحن نهم بالرحيل، فتتحرك القافلة فرحة مبتهجة وتسير فرحة طروبة . وما هو إلا قليل زمن حتى يهب نسيم بليل ، لا يعرف مأتاه يمضى همسًا فوق الرمال ، ثم يشتد دون أن نشعر بذلك . وإلى هذا الحد لا نلقى من هبوبه ما يضايقنا

ثم ينظر الإنسان إلى وجه الصحراء فإذا سطح الأرض قد تغير تغيراً غريبًا ، وإذا ذرات الرمال ترتفع قليلاً، وتنبجس وتدور كأنها بخار يتصاعد من ثقوب لا عدّ لها، فى أنابيب مدت تحت ذلك السطح . وتزيد ثورة الرمال شيئًا فشيئًا كلما ازدادت الريح قوة، حتى يخيل للإنسان أن سطح الصحراء كله يرتفع إطاعة لقوة دافعة رافعة تحته .

ويتطاير الحصى ويتناثر فيصيب قصب الأرجل والركب والأفخاذ، ويتصاعد رشاش حبات الرمال الراقصة على الأجسام، حتى يلطم الوجه ويدوّم فوق الرءوس .

ثم تغيم السماء فلا يرى البصر إلا أشباح الجمال القريبة منه وتثور الطبيعة ، فكأن فى الجو قوى خفية تصيب العذاب لطمًا وقذفًا ولدغًا .

وخير لمن تدهمه الزوبعة أن تهب الريح من ورائه، لأن لطم الرمال وجهه عذاب أليم ، وفوق هذا ، فليس فى وسعه أن يبقى مفتوح العينين، ولا هو يجسر أن يغمضهما، فلئن كان لدغ حبات الرمال شراً وبلاءً ففقد الطريق شرٌ أعظم وبلاء كبير .

ولحسن الحظ أن الريح تهب فى عصفات متلاحقة تتراوح بين الثلاث والأربع ، وتعقب كل طائفة منها ثوان قليلة ، تسكن فيها الريح فتريح النفوس . ذلك أن الإنسان عند عصفها يدير وجهه ويتقى الرمال بطرف (كوفيته) ويكاد يمسك عن التنفس حتى تجىء فترة السكون ، فيكشف عن وجهه ويلقى نظرة سريعة يتبين الطريق ويعجل بالتأهب للهبَّة الثانية . وكأن هنالك شيطاناً هائلاً عاتياً ينفخ تلك العصفات، والهبات الداوية فى الرمال فيسفيها فوق رءوس المسافرين ويدوى فى الفضاء صوت يصم الآذان ، وكأن هذا الصوت من يد ذلك الشيطان ، تضرب بأصابع قوية خشنة، ضربات متناسقة على أوتار مشدودة من الحرير .

متى بدأت زوبعة الرمال لم يكن للمسافر إلا أن يندفع فى سيره غير وانٍ ، فإن الرمال إذا أصابت شيئاً ثابتاً سواء أكان ذلك الشىء عاموداً أم جملاً أم رجلاً تكدست حوله حتى تصبح ركاماً . وهكذا إذا كان فى السير عذاب وأهوال ، ففى الوقوف الموت الزؤام

وقد تظل زوبعة الرمال على أشدها (خمس أو ست ساعات) ، وليس فى ميسور القافلة أن تتابع التقدم حينئذ إلا مع الحرص الشديد على تبين الطريق حتى لا تخطئه .

وإذا تمردت العاصفة واشتدت ، فإن الإبل تكاد لا تتقدم، ولكن غريزتها تجعلها تتوقع الموت إذا وقفت فى السير . ويتجلى ذكاؤها الغريزى فيها عندما يبدأ نزول المطر إذ لا تحس خطراً فتقف بغتة أو ترقد .

وتدفع العاصفة ذرات الرمل فتخترق كل شىء يحمله الإنسان . تملأ ثيابه وطعامه . تملأ حوائجه وآلاته العلمية . تبحث عن موضع الضعف فيما يذروها فتنفذ إليه منه حتى يحس بها ويتنفسها ويأكلها ويشربها . وربما نفذت درات الرمال الدقيقة فى مسام جلده فآذته كثيراً .

ويعرف البدوى خصائص هذه العواصف ، فيحيط بها علماً كل غريب عن الصحراء . يقول البدوى : إن الريح التى تنذر بالعاصفة تهب مع النهار أو تقر مع غرب الشمس . ولا تقوم العاصفة فى ليلة مقمرة ولا تثور بين العصر والمساء . ولكن كل هذه القواعد الطيبة اختلت فى رحلتنا إلى « جالو » فقد ثارت العواصف والقمر مشرق . وثارت والليل بهيم . وأصابتنا زوابع بدأت قبل الفجر وأخرى ظلت إلى ما بعد الغروب بزمن طويل . ودهتنا عواصف جمعت بين العصر والمغرب حتى ما أحسسنا لضوء النهار بين هذين فارقاً .

واختلفت أنواع العواصف التى أصابتنا . فكان منها الضعيف والقوى . والقصير الأمد والطويل الهبوب . والثائر بالنهار والقائم بالليل .

هذا حال الصحراء فى شدتها وقسوتها . فى غضبها وثورتها . على أنها لا تلبث أن تكشف لنا عن وجهها الجميل ، وتطلع علينا بصحيفة جديدة من صحف سحرها . فقد يحدث فى المساء، أن نكون فى صراع هائل مع كتائب الرمال السافية، فتسكن الريح فجأة ، كأنها أمِرتْ فامتثلت ، ثم تقر حبات الرمل الدقيقة، كأنها ضباب يستقر . ويُشرق القمر فتأخذ الصحراء شكلاً جديداً تحت ضوئه السحرى الباهت الذى يغمر نواحيها ...

أكانت هناك منذ هنية زوبعة ثائرة كادت تودى بحياة القافلة ؟ من يستطيع أن يذكر ذلك ؟ هل يعقل أن هذا الفضاء الهادئ البديع كان قاسياً قط ؟ من يستطيع أن يصدق هذا ؟

وهكذا لم تكن رحلتنا إلى جالو بالسهلة، فقد كانت زوابع الرمال تضايقنا باستمرار . وبلغت فى بعض الأحايين حد الخطر، وكان الشق الثانى من الطريق مملوءاً بغرود من الرمل اضطرت القافلة إلى تجنبها بالسير حولها ، مع ما فى هذا التعرج من إجهاد للفكر ومشقة كبرى فى تتبع البوصلة .

وقد زاد هذا الواجب من جراء ثورة الزوابع، وسفيها الرمال فى أبصار رجال القافلة ورغماً من هذا تابعنا السير مجدين

وكان لنا ساعات لهو وسرور أثناء هذه المرحلة، رغم مالاقينا من أذى الرمال . فإن الذاكرة لا تنسى الليالى البهيجة ، التى كنا نجتمع فيها حول نار الحطب نتناول كؤوس الشاى بعد العشاء . فيبدأ الحديث رفيقنا مغَيِّب الشيخ الكبير وألسنة النيران الراقصة تنعكس على لحيته الشعثاء التى وخطها الشيب . ويقص علينا فصولاً من تاريخ قبيلة زوى، أيام كان جدُّه يقصد واداى لمحاربة قبائل السود ويغنم الجمال والعبيد .

ويتبعه الرفيق صالح فيطرفنا بأخبار الربح الطائل الذى جناه ابن عمه حين سافر سفرته الأخيرة إلى واداى ، فلم يحارب أحداً وإنما جاء منها بالجلود وريش النعام والعاج وباع كل ذلك فى أسواق برقة .

وكانت تميل نفسى إلى سماع أغنية من أغانى العرب فأطلب ذلك من علىّ . وكان شاعراً أو خطيباً لأخت حسين الذى تنم صباحة وجهه عن جمال أخته . وهنا تتجه أنظار علىّ إلى

عمه مغيب كأنما يسأله أن يأذن له إجابة طلبى ، وهو مشغول عنا بسبحته متعمداً عدم الالتفات إلى مجرى الأمور الجديد ، لأن الشيخ البدوى لا يليق لوقاره أن يستمع أغانى الحب من صغار الشبان . ولكن احترامه لى يدعوه إلى الرضا بذلك وعدم ترك المجلس . فيقول لعلى بصوت خافت : « غن البك ما دام يحب أغانى البدو » فيبدأ على الغناء بصوته الرخيم الذى تحمله أجنحة نسيم الليل البليل ، بينما تتهالك حبات سبحة مغيب بين أصابعه منتظمة متوافقة كأنما لا يشغله شاغل عن الانقطاع لأداء فروض تعبده ويغنى علىّ فيقول :

مَـضـيِت أغنى وكل النجع يسـمع لى

حـمـرا مـثـيل الدم مـخـروطة عـود البَـشَم

خَـضْـره يعـرفـهـا اليَمْ(١)

إن كـان لَقـيِتـهـا فى الطريق خـرْقَه نُرُشَّـهـا دم

ويسكن صوت على فلا أدرى أى الشيئين أسرع انحداراً أخيالى فى مسراه البعيد أم حبات سبحة مغيب بين أصابعة ؟ ثم يغنى على

يا بصـيـلاة(٢) السـقَّـاى(٣)

يَـمْ(٤) ريقـا عـسل فـوق السنون جـرَّاى

السَّـمِح خَـشْـمِك ونابك العـوَّاى(٥)

يا مُـصيْلِيـبا(٦) مـرقوق بصـيـد الخـلا جـرَّاى(٧)

أتْلِمـيِّنى مِـعَـاكِ ولاَّ صـابك راى(٨)

بَطْنك ضـامـر سـوط (٩) مـرقـد صـدرك جَنَّه

الغىّ ما يتخبَّا   والأجل عند الله

---

١ - الجميع .

٢ - نرجسه

٣ - البستانى.

٤ - يا أم

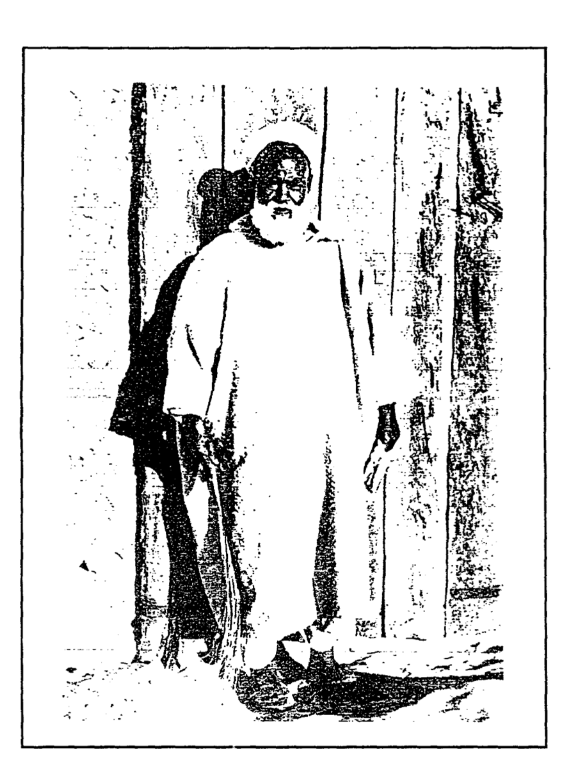
٥ - الأبيض مثل العاج.

٦ - ذات الوسط .

٧ - أى مثل الأسد وهو يجرى

٨ - هلى تقبليننى أم أنت تحبين شخصاً آخر

٩ - أى مثل السوط الرقيق .



قاضي جالو

حتى إذا انتهى من غنائه غشى القافلة سكينة شاملة اللهم إلا أزيز النار الخامدة ، والصوت المتناسق ، المنبعث من حبات السبحة التى تغير هزجها تغييراً محسوساً ، لأن أصابع مغيب وقفت بغتة ثم أسرعت فى إطلاق الحبات كأنما أراد ذلك الشيخ ، أن لا يشعرنا بوقوفه عن التسبيح . وإنما ألهاه عن الاضطراد فى تسبيحه تحليق خياله فى سماء الماضى الذى كان فيه شاباً محباً ، والذى هاج ذكرياته غناء علىّ . ومن يدرى إذا كان كل جالس معنا عاشقاً وكان من حسن حظه أنه لم يمسك سبحة تفضح سره

واجتزنا بئر سلامه وهى بعد الجغبوب بسفر يوم فاخترقنا ناحية بها بقايا غابة متحجرة وكنا نمر فى سيرنا بقطع كبيرة من الأحجار قائمة ، كأنها أعلام فى الطريق . وقد كانت هذه الصخور منذ أجيال بعيدة أشجاراً نامية ولكن عوامل الطبيعة نقلتها من مملكة النبات إلى مملكة الجماد . وكان هناك قطع قليلة متناثرة من الأخشاب المتحجرة ، ولكن أغلبها كان مدفوناً تحت الرمال . وإنما بقيت القطع الكبيرة ظاهرة ، لأن عوائد الصحراء تقضى على من يمر بعلم ساقط من هذه الأعلام أن يقيمه . ومن العادات أيضاً أن توضع فى الدروب الجديدة أكداس من الصخر متقطعات تدل القوافل على تلك الدروب .

وقد يحدث أن يمر الإنسان بشجرة أو شجيرة قد علق بها خرق من الأثواب ، ويتعين عليه أن يضيف إليها شيئاً من حوائجه فيكون تكدس هذه الأشياء دليلاً على وجود الشجرة فى درب مطروق ، يشجع التابعين على مواصلة السير فيه . لأن الشعور بمرور زميل سابق أمر ينعش قاطع الصحراء ، فى ذلك السكون الشامل والفضاء الممل بتشابه مناظره . وإن رؤية روث الجمل وعظامه المبيضة، بل العثور بهيكل عظمى لمسافر قضى فى الطريق يسر عين المار بها . لأنها تؤكد له مرر قافلة فى تلك الطريق من قبل .

وبعد تركنا الجغبوب بقليل عثرنا بعلم مغاير لأعلام الطريق المألوفة . وكان ذلك أكواماً صغيرة من الرمل ، كأنها بيوت النمل ممتدة تعترض السبيل . ويسمى هذا العلم علم « بو الظفر » وهو فى الحقيقة رمز لعادة بدوية ظريفة . فإن المتعارف أنه إذا مرت قافلة بهذا العلم، وكان فيها من مر به لأول مرة، فعلى المسافرين الجدد أن ينحروا شاة للمسافرين القدماء الذين مروا به من قبل . وهذه العادة مشهورة بعادة بو ظفر . فإذا لم ينتبه سالكو هذه الطريق لأول مرة إلى أداء هذا الواجب، نبههم إليه من سبقهم إلى قطعها ، بأن يتقدموا القافلة ويهيلوا أكوام الرمل فى سبيلها حتى إذا أوشكت القافلة أن تجتازها صرخوا قائلين « بو ظفر» ... «بو ظفر » فانتبه رفقاؤهم ونحروا الشاة وأقيمت المأدبة المألوفة .

وكان فى قافلتنا كثيرون لم يعبروا تلك الطريق من قبل ، وكنت بين هؤلاء . وأعددت العدة قبل تركى الجغبوب فاشتريت شاة أنحرها لمن تقدمنى فى اجتياز تلك الطريق من أفراد القافلة. ولذلك لم يكن رفقائى فى حاجة إلى تكديس أكوام الرمل فى سبيلى، وتنبيهى إلى هذه العادة الطريفة

وقد أسعدنا الحظ فى هذه الرحلة ، فوجدنا مراعى لجمالنا على طول الطريق ، حتى وصلنا جالو . وقد وقع لنا أحياناً أننا حدنا عن الطريق السوى للوصول إلى البقاع العشبية . ولكنا كنا موفقين دائماً إلى إيجاد ما ترعاه إبلنا

وتنمو فى هذه النواحى ثلاثة أنواع من الأعشاب . فالبلبال عوسجة ذات أوراق لا تصلح طعاماً للجمال . وهى لا تنمو إلا على مقربة من الآبار ، ولا تمسها الإبل عادة إلا إذا أحست بجوع شديد . وهنا يخشى عليها من المرض إذا لم يراقبها أصحابها مراقبة شديدة . والضمران عوسجة أخرى تشبه البلبال ، ولكن أوراقها أشد سواداً وسيقانها سمراء تصلح وقوداً وهى جافة . وهذه الشجيرة طعام جيد للجمال التى تقبل على أكلها بشهية . أما النوع الثالث من هذه الشجيرات فاسمه النشا . وهى شجيرة ذات أوراق رقيقة متوشجة يصل ارتفاعها إلى علو قدم وهى صالحة لأكل الجمال . وإنما تنمو هذه الشجيرات فى فصل الشتاء حيث يسقط المطر القليل . ولذلك لا يقوى البدوى على قطع المسافة بين الجغبوب وجالو فى فصل الصيف ما لم يكن قد حمل معه علف إبله .

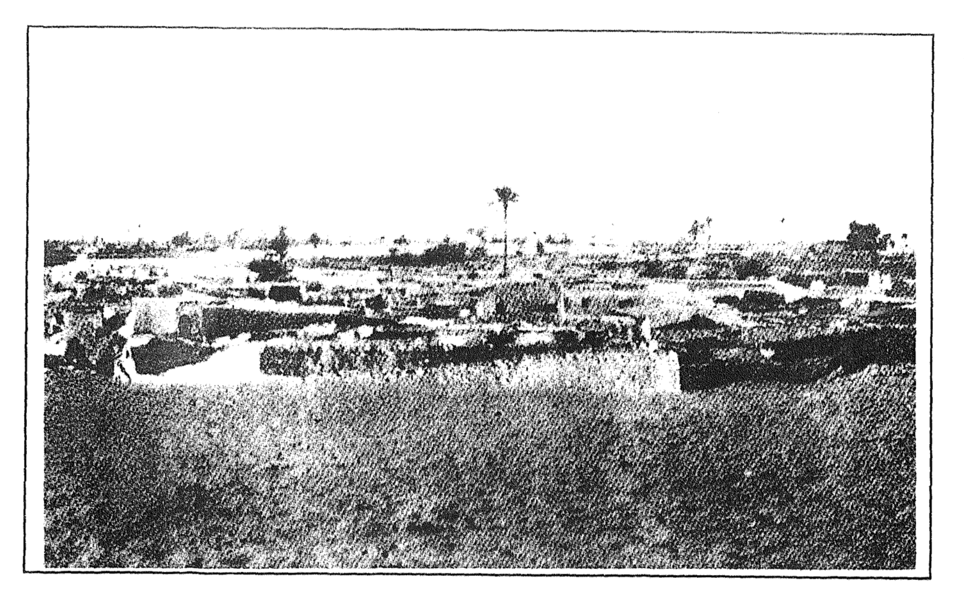
ووصلنا بئر عزيلة – وهى أول بئر أبى سلامة فى اليوم العاشر من رحيلنا عن الجغبوب . وعلم هذه البئر قليل من الشجر والأدغال الصغيرة المخضرة . وقد أمكننا أن نصل إلى الماء العذب بعد أن جرفنا الرمالة الهديلة على جوانب البئر . ولكنا لم نصل منه كثيراً لأن مذاق ما وصلنا إليه بعد ذلك لم يكن فى عذوبة ما وصلنا إليه أول الأمر .

وبعد ذلك بيومين أشرفنا على ظاهر واحة جالو . ولم نكد نقرب الواحة حتى اندفع إلينا رسول جاء لمقابلتنا حاملاً خطاباً من سيدى محمد الزروالى – وهو من الإخوان السنوسيين – الذى أمره السيد إدريس أن يرافقنا إلى الكفرة . وطلب منى الرسول أن أحط رحالى حتى يتهيأ القوم لمقابلتنا بما يجب من الحفاوة والإكرام .

وكان السيد إدريس قد أخبر رجال جالو عند تركه جالو قبل ذلك بشهرين أنى قادم إليهم . وأمرهم أن يتلطفوا فى لقائنا . وقد توقع أهل المدينة وصولنا مدة طويلة حتى إذا أبطأنا عنهم ظنوا أننا غيرنا الطريق إلى الكفرة .

ونصبنا الخيام على مقربة من المدينة، وبعد ذلك بساعات قليلة جاءنا جمع من البدو ووقفوا صفًا طويلاً مهيب الهيئة على طول طريق قرية (اللبَّة) . وهى إحدى القريتين اللتين تكونان جالو . وتقدمنا إليهم ونحن فى أجمل لباس وأصلحه لذلك اللقاء الرسمى . وكان مع رجالى من الذخيرة ما يكفيهم لطلقات الترحيب .

واقتربت منهم فصافحت سيدى السنوسى قد ربوه . وهو قائمقام تلك الناحية وصافحت كذلك أعضاء مجلس جالو وأشرافها . وخطبنا القائمقام مرحبًا ، فرددت عليه وأطلق رجالى النار مرحبين ، ثم دخلنا المدينة فقصدت الدار التى وضعت تحت تصرفى . واستقبلت أعضاء مجلس جالو وسيدى الفضيل عم السيد إدريس ، وتناولت العشاء مع سيدى قد ربوه السنوسى وقضيت المساء أناقش سيدى زروالى فى وضع الخطط لرحلتنا إلى الكفرة



بلدة جالو

الفصل التاسع

فى واحة جالو

جالو واحة من أهم واحات برقة ، وهى على مسافة ٢٤٠ كيلو متر من أقرب نقطة من شاطئ البحر الأبيض المتوسط وراء جدابيا وعلى مسافة ٦٠٠ كيلو متر من الكفرة الواقعة فى الجنوب مباشرة . وهى الواحة التى تُخرج أكبر كمية من البلح فى جميع تلك الجهات وفوق هذا فإنها المنفذ الذى تصدر عن طريقه حاصلات واداى ودارفور بعد مرورها بالكفرة

ويمر بجالو كل ما يرسل من الجهات الأخرى إلى الكفرة ولقد نعتها السيد البشارى ، وهو من كبار شيوخ قبيلة المجابرة فقال : إن الصحراء بحر وجالو ثغر ذلك البحر

وقد كانت هذه المدينة فى أوج عزها منذ نحو ثلاثين عامًا أيام كان المهدى متخذًا الكفرة قصبة للطائفة السنوسية . فكان يرتادها كل أسبوع قوافل مؤلفة من مائتين إلى ثلاثمائة جمل تسير بينها وبين جهات الجنوب. ولكن هذه الحركة كانت قد نزلت إلى العُشر أيام زرتها، غير أنها تزداد ثانية فى الصيف أيام موسم البلح . وجالو مؤلفة من قريتين تفصلهما مسافة ميل وهما (العرق) و (اللبّه) وتتناثر أجمات النخيل بين هاتين القريتين، وحولهما ولايقل عدد نخيل هذه الناحية عن مائة ألف نخلة

وتقع « أوجله » على مسافة اثنى عشر ميلاً من غرب جالو وهى الواحة القديمة التى قال عنها هيرودوت إنها شهيرة ببلحها

وفى « أوجلة » هذه قبر عبد الله الصحابى الذى اشتهر بأنه كان كاتب النبى عليه السلام . وهذه القصة مشكوك فى صحتها . على أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد اتخذ كاتبًا اسمه عبد الله الصحابى، وأن هذا الصحابى هبط شمال أفريقيا وأن هنالك قبرًا لرجل بهذا الاسم فى « أوجله » . وكم من أخبار صحت فى الأذهان على أساس أوهى من هذه الشواهد .

ويرون أن السنوسى الكبير وجد جثة سيدى عبد الله الصحابى مدفونة فى ناحية بعيد . ورأى فى بعض أحلامه روح ذلك الجسد النائى تقول له : « اخرج جسدى من مقره وضعه على جمل . وحيثما وقف بى الجمل ابن لى ضريحًا » . وأطاع السنوسى الكبير الأمر وسافر

بالجثة حتى وصل أوجلة وعندها وقف الجمل بغتة، وأبى أن يتقدم فى سيره، فأقيم ضريح محل وقوف البعير.

ويعتقد الناس أن لمؤسس الطائفة السنوسية، وأعضاء الأسرة السنوسية، وكبار الإخوان، قوة خفية ومعرفة بالغيب . وكان للسيد المهدى قوى خفية غريبة يسميها البدو كرامات . وقد أخبرنى أحد الإخوان فى جغبوب بقصة عنه قال :

جاء المهدى أعرابى جاهل يريد طلب العلم عليه فى جغبوب . ولم يكد يفاتح المهدى فى أمره حتى تذكر أن موسم البذر قد حل ، وأن ليس له من يتعهد أرضه فى غيابه . فرأى الصلاح فى السفر إلى بلده، حتى ينتهى من موسم الحصاد، ثم يعود لطلب العلم . وقصد السيد المهدى ليودعه قبل سفره ، فدخل غرفته، وأخذ مجلسه، وانتظر حتى يبدأ المهدى الحديث، كما جرت العادة ، وتغافل المهدى عنه لحظات، فغلب البدوى النعاس، وأغفى قليلاً ثم استيقظ على صوت المهدى الخافت بقوله له : « الآن هدأ بالك وقرت نفسك لأنك تعلم أن الأمور هيئت لك على ما يرضيك » وقد هدأ بال البدوى حقًا . لأنه رأى فى تلك الغفوة القصيرة حلمًا تمثل له فيه أخوه يحرث الأرض، ويبذر حب الشعير . واستطرد المهدى فى حديثه فقال : « انزل علينا ضيفًا وتوفر على الدرس، وأسأل الله أن يهديك سواء السبيل ، ولا تخف شيئًا، فقد رأيت كيف سارت أمورك على ما تحب . وأن الله رحيم يلحظنا جميعًا بعين عنايته » فأقام الرجل بجغبوب ولم يعد إلى بلده إلا أيام الحصاد . وعاد بعد ذلك إلي جغبوب، فأخبر أحد الإخوان تحقيق رؤياه فى دار المهدى حين رأى أخاه يبذر الحب فى أرضه . وزاد على هذا، أن قطعة الأرض التى رآها تبذر فى رؤياه ، كان يجرى فيها العمل فى نفس الوقت الذى شاهد فيه الرؤيا .

وأخبرنى حاكم جالو بقصة أخرى قال : « كنت مسافرًا مع جماعة من الرفقاء من بنغازى إلى جغبوب لزيارة السيد المهدى فأخطأنا موضع بئر فى الطريق ، وشعرنا بضيق شديد لقلة الماء . وأمسى المساء ، فالتفت إلىَّ أقل رجال القافلة رغبة فى زيارة المهدى وقال : « أما وقد أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل التقى ذى الكرامات فهلا سألته أن يرسل إلينا ما يبل أوامنا، إن كان من التقوى والصلاح بحيث تقول » . وحدث فى تلك الليلة بجغبوب أن السيد المهدى استيقظ من نومه ، ونادى عبدين من عبيده وأمرهما أن يقوما فى الحال، فيحملا الزاد والماء على خمسة جمال ، وأن ينطلقا إلى الصحراء ويأخذا السبيل التى أشار إليها ، فلا يقفان حتى يلتقيا بقافلة فى الطريق فمضيا سبيلهما بقافلتنا وقد أشرف رجالها على الهلاك » .

ولا يزال بين رجال الطائفة إخوان قدماء يخشاهم أعضاء الأسرة السنوسية أنفسهم ، خوفًا من تأثير قواهم الخفية . ومن بين هؤلاء رجل يعيش فى الكفرة . وكان فى ماضى أيامه إخوانيًا فى زاوية ببرقة، فأحضر أحد البدو غنمه تستقى من البئر القريبة من الزاوية . فشرد بعضها وأكل الشعير الناجم فى قطعة الأرض المجاورة للزاوية . وأنذر الإخوانى ذلك الأعرابى أن يقف غنمة عن إتلاف الزرع . فأظهر الطاعة والسهر على قطيعه، ولكنه كان ناويًا فى نفسه، أن يطلق غنمه على الزرع فتأتى عليه . ولذلك أطلقها فى غفلة من الإخوانى . وخرج هذا من الزاوية فرأى الغنم تفتك بشجيرات الشعير، فصب عليها اللعنة قائلاً « أهلك الله الغنم التى تأكل زرع الزاوية » ويقول رواة هذه القصة : إنه لم تخرج شاة واحدة وهى حية من مزرعة الزاوية .

ولا يزال البدو إلى هذه الأيام، يخشون أسرة السنوسيين لا لسلطتهم الزمنية ، وإنما للقوة الروحية التى يعتقدون وجودها فيهم . فإن السنوسى إذا صب لعنته على أحد، ظل طول عمره خائفًا متوقعًا أن يصيبه مكروه . وقد يتحاشاه إخوانه، بل وأهله، حتى لا ينالهم أذى مما يصيبه.

ومن المسائل المشهورة فى هذا الشأن، مسألة رئيس كتبة السيد المهدى الذى يعيش الآن فى الكفرة نصف مشلول . وقد زرته فرأيته سعيدًا راضيًا، رغم عجزه عن تحريك جسمه . ثم رأيته مرة أخرى فأنس إلىّ وسألنى ، وهو يتردد بين الاعتقاد والشك ، إن كان بين أدويتى شىء يقيه من مرضه ، وترددت فى الإجابة عليه . لأنى لم أرد أن أقطع أمله . ورأى ذلك فى عينى، فلم يترك لى الوقت الكافى للرد عليه وقال « لقد كتب الله علىّ ما أنا فيه وكان الذنب ذنبى . أمرنى السيد المهدى أن أسافر شمالاً فلم أقو على عصيان أمره . ولكنى أردت أن أخلص من تلك الرحلة بعد أن وصلت الهوّارى، فكتبت إليه مدعيًا المرض وجاء رده بإعفائى من إتمام الرحلة، إن كنت صادقًا فيما ادعيت . وفى اليوم التالى أصابنى الشلل وحملت إلى الكفرة ولا أزال بها إلى الآن . وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة

وقد أخبرنى حاكم جالو بقصة أخرى حين كنا نتناقش فى الكرامات قال : « قامت عاصفة شديدة فى أوجلة أسفَتْ الرمال حتى غطت قبر السيد عبد الله الصحابى فأحضر العبيد لرفع الرمال المهيلة عن القبر . وبينما كان الفعلة دائبين فى عملهم دخل الحاكم الغرفة التى بها المقام ، فنشق رائحة بخور قوية، ونادى أحد العبيد فسأله هل أطلق أحد بخورًا فأنكر الرجل .

ولا يزال زائر هذه الغرفة فى هذه الأيام يشم تلك الرائحة الزكية ، وإن لم ينطلق أى بخور فى نواحيها .

وجالو مركز قبيلة المجابرة « البدو » شيوخ تجار صحراء ليبيا وبها بعض رجال قبيلة (زوى) ولكن أكثرية الألفين الذين يقيمون فيها من المجابرة . ولهؤلاء ميل غريب للتجارة . فإن الزجل منهم يفخر بأن أباه مات فوق سرج جمله ، كما يفخر ابن الجندى بأن أباه مات فى ميدان القتال .

وكانت العلاقات متوترة أيام إقامتى بجالو بين السلطات الإيطالية وبين السيد إدريس ، فمنعوا إرسال البضائع من بنغازى وغيرها من ثغور برقة إلى البلاد الداخلية . ولذلك ارتفعت أثمان الحاجيات ارتفاعاً سريعاً فى مدن الصحراء كجدابيا وغيرها . وسمع تجار المجابرة من أهل جالو بحالة التجارة فى جهات الشمال . وكان معهم بضائع كثيرة من مصر ، فلم يترددوا فى الاستفادة من هذه الفرصة، وغيروا وجهتهم فساروا شمالاً بدلاً من أن ينحدروا جنوباً وباعوا بضائعهم فى جدابيا فربحوا ربحاً وافراً، ثم عادوا سراعاً إلى مصر والجنوب يطلبون بضائع أخرى وعادوا بها إلى جالو ، فقارنوا بين ارتفاع الأثمان فى جدابيا والكفرة ثم اختاروا منهما أعمرهما سوقاً لتجارتهم

وأعجب ما فى الصحراء سرعة انتقال الأخبار من بلد إلى آخر ، مع ما هنالك من بعد الشقة بين تلك البلاد . فإن المسافة بين جالو وجدابيا خمسة أيام، وبين جالو والكفرة زهاء الخمسة عشر يوماً . ومع أن القوافل تسير بسرعة غير كبيرة . وأحسب أن التعليل الصحيح لهذا ، هو أن كل شىء فى الصحراء نسبى . فالأخبار تسير مع خطو الجمال ، وكذلك كل ما عداها .

وإن اشتهر المجابرة بالتفوق على غيرهم فى الاشتغال بالتجارة، فإن لقبيلة (زوى) ما يدعو إلى الفخار . والمنافسة بين هاتين القبيلتين كامنة تهيجها الظروف من وقت لآخر .

والزوى محسوبون من جميع قبائل برقة لأن منهم على باشا العابديه ، وهو الذى يلى السيد إدريس فى المرتبة بين السنوسيين . وعلى باشا هذا جندى ماهر وكان سنداً قوياً للسيد إدريس وموضع ثقة عنده .

وقد تناولنا ذات ليلة حديث المنافسة بين زوى وباقى القبائل، وكان ذلك فى جالو بعد تناول العشاء ، فناقش سيدى صالح وهو من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام لا ينتسب لأى قبيلة فى برقة – مع رجلىْ مغيب الزروالى، وهما من قبيلة زوى فى شأن تلك المنافسة، وبعد أن سمع منهما الإفراط فى مديح قبيلتهما ، هز رأسه ثم قال : « قد يكون تاريخ الزوى مجيداً كما يقول سيدى مغيب . ولكنهم قوم لا يخشون الله » فانطلق مغيب قائلاً : « والله يا سيدى صالح إنهم يخشون الله ولكنهم لا يخافون الإنسان . والويل لمن يتعرض لقافلتهم أو يسطو على خيامهم » . ثم التفت إلىَّ وقال : « لقد باركنا السيد المهدى إذ هبط علينا فى الكفرة قصبتنا ثم اختفى منها » . ولم يقل مات لأن السنوسيين لا يفوهون بكلمة الموت . وإنما يستعملون كلمة اختفى وما ماثلها فى التعبير . إذ الشائع بينهم أن المهدى لم يمت، وأنه يهيم فى نواحى الأرض حتى يعود إلى رجاله أهل الصحراء . وأحب شيوخ السنوسيين إلى الزوى السيد المهدى ، لأنه نقل مركز حركة الطائفة إلى الكفرة ، وبنى فيها قبة المسجد التى هى أجمل مظاهر فخر تلك المدينة .

وقد علمت بعد تجاريب عديدة أن أفراد قبيلة زوى يضمرون العداء للأجانب . فقد وضح لى وأنا المسلم ابن ذلك الرجل التقىّ العالم بالأزهر الشريف ، وموضع ثقة السيد إدريس أنهم لا يرضون إقامتى فى الكفرة، وبان لى ذلك جليًا حين سمعت أن أحدهم تمنى لو أنى أفارق الكفرة إلى الأبد بعد مغادرتى لها . على أنى بالرغم من معرفتى بهذا النفور ، لا أظن أن فى استطاعتى أن أجد رجلاً أقدر على قطع الصحراء ، وأعلم بطرق السير فيها من أفراد هذه القبيلة الذين كوّنوا جزءًا من قافلتى . فقد كان الزروالى ، وهو مثال الزوىّ الصحيح ، أمتع رفيق لى فى السفر وأحق أفراد القافلة باعتمادى وثقتى .

وبدوى برقة يجرى فى عروقه دم العرب الذين اجتازوا شمال أفريقية فى طريقهم إلى الأندلس . وهو بالرغم من اختلاطه برجال القبائل الأخرى ، محافظ على كثير من تقاليده العربية القديمة . فجريمة القتل عند السنوسيين تفصل فيها قوانين البدو الخاصة . والعادة أن يتداخل الإخوانى فى الخصومات ويصلح ذات البين بين المتخاصمين فيأخذ القاتل وشيخًا من شيوخ قبيلته ويقصد خيام المقتول فينصب خيامه على مقربة منها ثم يتقدم مع القاتل إلى أفراد أسرة القتيل قائلاً : « معى قاتل رجلكم » ثم يأخذ بيده ويقول : « هذا قاتل ولدكم أسلمكم إياه فافعلو به ما أنتم فاعلون » . فيكون الجواب عادة « سامحه الله وأنزل عليه عدله

ورحمته » ثم يأخذ الإخوانى بعد ذلك فى تسوية مقدار الدية، وهى فى الغالب ثلاثة آلاف ريال وعبد يكون معروف الثمن فى سوق الرقيق .

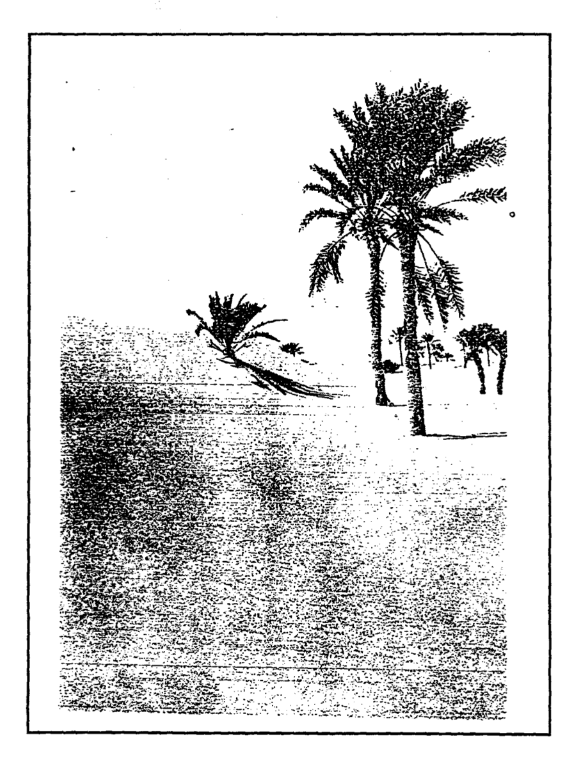
ولأقارب القتيل حق الاختيار بين قبض المال أو أخذ قيمته جمالاً وغنمًا وما إليهما من حوائج البدو . فإن آثروا المال قسم دفعه على أقساط تجرى من سنة إلى ثلاث سنين واتفق على ذلك وانتهى الأمر . وقد يحدث فى أحوال نادرة أو يقع إذا كان طلب الثأر مستحكمًا بين رجال القبيلتين ، أن يرفض قبول الدية . ومعنى هذا أن فى نية قبيلة القتيل أن تقتل قاتله أو أحد أقاربه أو رأسًا من رؤوس قبيلته .

وشبان البدو وعذاراهم مطلقون فى الاختلاط بعضهم ببعض ، ولا تحجب المرأة إلا فى الأسر الكبيرة . ويعرف الشاب موضع أمله فى الزواج فيقصد خيامها ويغنيها من شعره ، فإن مالت نفسها إليه خرجت وساجلته الغناء من مقولها أو من منقولها . ويقصد الشاب أهلها بعد ذلك ويدفع المهر إن تم الاتفاق . ثم يعود إليها فى حفل من أصحابه، ويأخذها إلى داره تحف بهما الفرسان المتخطِّرة ، وتدوى فوق رؤوسهما طلقات البنادق

ويقد يَفِر الحبيب بحبيبته فينتهى الأمر بين قبيلتيهما بسفك الدماء . لأن البدو يعدون الفارّ بحبيبته سارقًا لها . وعقود الزواج يجريها الإخوانى ويتم العقد وفقًا للشرع الإسلامى الشريف والزواج عند العرب فى سن مبكرة تتوقف على نمو البنت، والغالب أن تتزوج البنت فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ويتزوج الشاب بين السابعة عشرة والعشرين . والقادر من البدو يتزوج اثنتين أو أكثر . ولكن الأولى فى هذه الحال تبقى سيدة الدار بيدها أمر تدبيرها ، وتفضل على ضراتها، بما فيهن أقربهن وَأجلّهن إلى بعلها فى كل ما يتعلق بالشؤون المنزلية .

وقد سمعت بشبان كثيرين تدلهوا فى حب من لم تصل إليها أيديهم . ورأيت بعينى ضحية من ضحايا الحب . جاءنى شاب بدوى يسألنى دواء، وكان نحيلاً منسرح القامة متناسق الأعضاء . فتقدم إلىَّ وقال : أريد دواء يهبنى الصحة . فسألته ماذا يشكو . فهز رأسه وقال «الله أعلم » وكان فى هيئته غرابة حيرتنى، ولكنى خرجت من هذا بإعطائه بعض أقراص مركزة من اللبن وأمرته أن يتناول منها ثلاثة كل يوم .

وما كاد الشاب يمضى حتى دخل رجل مسن وجلس القرفصاء ثم قال « وهبك الله الصحة وجعل الشفاء على يديك. لقد قصدك ابنى مستشفيًا وأعطيته الدواء، فهل تدرى ما



الرمال تغطى النخيل فى جالو

علته. لقد جئتك أشكو عنه بعض ما يحس . إنه يشكو ضعفًا وصداعًا قاسيًا . وإذا جن الليل هجر الناس والتمس الوحدة ، وقضى طول ليله خاليًا بالصحراء . فقلت للشيخ : « لقد أعطيت ابنك ما آمل أن يخفف عنه بعض آلامه » فأجاب وفي صوته رنة حزن « الشفاء من عند الله غير أني أعلم الطريق إلى شفائه ، ولكن الأقدار كتبت عليه أن لا يبرأ الدهر من دائه . فهو يحب غادة رفض أبواها أن يزوجاها منه » فقلت له : ولم لا تسعى في سبيل التوفيق بينهما، وقد عرفت مبعث داء ابنك . فأجابني الشيخ : « لقد فات الوقت فإن الفتاة أصبحت زوجًا وعلم الله أنها تشكو داء ابني على بعد المزار وتنائي الدار » ثم قام وترك خيمتي ينطق الحزن في عينيه ويبين الاستسلام في مشيته .

ومن ظريف ما رواه لي أحد الإخوان أنه جاءه فتى وذكر له أنه تدله بحب غانية ، كما تدلهت بحبه، ولكن أهلها أبَوْها عليه . وذكر أنه سيعمد وإياها إلى الفرار، وهذا يفتح باب الثأر بين أسرتيهما فأطرق الإخواني قليلاً ، وأشار عليه بأن يوعز لحبيبته بالتظاهر بالصرع كل مساء عند غروب الشمس وكان ما أشار به .

وكان هذا الإخوان مشهوراً بين القوم بالدراية في مداواة العلل والأمراض ، فجاء أهل الفتاة إليه يطلبون عونه وطبه فعكف يصف لها الوصفات المختلفة ، دون أن تبرأ من الصرع بطبيعة الحال، حتى إذا عيل صبرهم قال لهم : لقد ضاقت حيلة الطب بها ولم يبق إلا أن استمد من حول الله وقوته ما يكون فيه الشفاء . فأعطوني بعض ملابسها أقرأ عليه آيات وأدعية ، ثم اتوسدها في رقادي الليلة، وفي الصباح أخبركم بما توصي به الرؤيا . فجاؤه « بعصبتها » . وفي اليوم التالي قال لهم : لقد رأيت حلمًا والله أعلم بما فيه الخير . لقد كلفت من الرؤيا أن أطلب منكم أن تعقدوا عقدها على « فلان » وفي اليوم نفسه ساكتب حجابًا ألهمت صيغته، فإذا انقضى أسبوع دون أن يصيبها الصرع زوجوها منه ، وإلا فاحملوه على طلاقها . وهذا سبيل شفائها الوحيد . وإلا بقيت طول عمرها يصيبها الصرع . فأطاع أهلها ما أمرهم به الإخوان وتزوجا

ولم أستطع في جالو، كما عز عليَّ من قبل في الجغبوب، أن أجد جمالاً في انتظاري . ولكن السبب في الحالين لم يكن واحداً ، ولم تكن حيرتي هذه المرة بحيث ضايقتني كالمرة السالفة . فقد كنت اتفقت على أجر الجمال، وكان صاحبها عمر أبو حليقة، على قدم الاستعداد للمسير عند عودة إبله من مراعيها، فإن البدوي العاقل لا يدع جماله تقطع مرحلة بعيدة، من غير أن يشبعها علفًا ناضراً قبل رحيلها . والمرحلة إلى الكفرة طويلة وخالية من كل

مرعى . وتضطر الجمال فى قطعها إلى الاكتفاء بالبلح الجاف والجمَّال يعد البلح الجاف مؤذياً لكبد جماله فيدعها تأخذ كفايتها من الأعشاب قبل السير .

وكان أبو حليقة قد أرسل إبله إلى مرعى قريب وأمر رعاتها أن يحضروها فى اليوم المحدد. ولكن الإبل لم تظهر فى الموعد المضروب . وعجبت لذلك فى اليوم الأول ثم انشغل بالى فى اليوم الثانى ، وتملكتنى الحيرة فى اليوم الثالث خيفة أن تكون الجمال قد أبقت من رعاتها. على أن شيئًا من ذلك لم يكن ، فقد ظهرت فى اليوم الرابع أكمل ما تكون تأهبًا للسير . وكريت خمسة وثلاثين جملاً بأجر باهظ مع أنه كان فى مقدورى أن أشترى الجمل منها بثمن يتراوح بين اثنتى عشر وثمانية عشر جنيهًا بينما طلب أبور حليقة فى الجمل الواحد ثلاثة عشر جنيهًا ونصف جنيه أجراً عن الشهرين أو الثلاثة الأشهر التى يستغرقها السفر إلى (بشة) فى واداى .

وكان تأجير الجمال أوفق لى لأن امتلاكى الإبل يوقع علىَّ مسؤولية سلامتها طول الطريق، ويضطر رجالى إلى الانقطاع لتعهدها مدفوعين بالأمانة والرغبة فى نجاح الرحلة . ولكن مرافقة أبى حليقة ورجاله لجماله مهدت سبيل العناية بها ، والسهر عليها طول الطريق . فإن أبا حليقة لم يغفل لحظة عن تعهد جماله ، فكان يخفف أحمال الضعيف منها أو المريض . وظل مشغولاً بها إلى آخر الرحلة، فلم آبه كثيراً بما بذلت من مال فى سبيل تحقيق رغائبى

وأعوزتنى الرجال كذلك على وجود أولئك الأربعة الذين انقطعوا لخدمتى ورافقونى من القاهرة والسلوم وسيوه وهم عبد الله، وأحمد، وحمد، وإسماعيل فضممت إليهم خمسة آخرين وهم الدليل االسنوسى أبو حسن، وسعد الأوجلى، وحمد، وفرج العبد، والسيد محمد الزروالى الذى تفضل السيد إدريس فأمره بمرافقتى إلى الكفرة . وكان مع أبى حليقة ولده وجمالان . وزاد على جميع هؤلاء خمسة من قبيلة التبو وهم من العبيد الرحالة « فى تيبستى » الواقعة فى الشمال الغربى من واداى . وكان عبد الله، والسيد الزروالى، رئيسى القافلة فكان أولهما منوطًا بحراسة الحوائج والمؤن . وثانيهما قائمًا بتعهد الرجال والجمال : والحق أقول : إن هذين الرجلين كانا أصلح رفيقين يصحبهما الإنسان فى رحلة صحراوية

وكنا فى حاجة إلى ملابس وبعض أنواع من الأطعمة، وفى عوز شديد إلى أحذية . فإن الحذاء البدوى الخالى من الكعب – وهو أصلح الأحذية للسير على الرمال – هو كل ما تصل إليه يد السائح فى الصحراء ، ولكنه يبلى بسرعة، ويضطر صاحبه إلى رتقه فى الطريق فكان على كل منا أن يجهز الجلود اللازمة لرتق حذائه حتى يصل الكفرة .



السيد محمد الزروالى الذى رافق الرحالة من جالو

ووجدت فى جالو صانع أحذية شهير وهو حميده الذى كنت لقيته منذ سنتين فى الكفرة ، فاستدعيته وأعطيته الأحذية التى صنعها لى إذ ذاك ، وهى فى حاجة ماسة إلى الترقيع ، ففرح كثيراً حين طلبت منه إصلاحها . وكان حميده رجلاً مهيب الطلعة يصح أن يحسبه رائيه قاضياً أو عضو مجلس على الأقل . وقد اختلف إلى دارى يعمل فى رتق أحذيتى الخمس، وصنع أحذية أخرى لرجالى، وإصلاح سروجنا، وغيرها من الحوائج الجلدية . وكان يسره كثيراً أن أدعوه للغداء ثم أقدم له بعد ذلك كوباً من الشاى. وحدث ذات يوم أن أخذه السعال عند تقديم الشاى إليه، فأظهرت إشفاقى عليه من دائه فنظر إلى من وراء كوب الشاى ، وقال بصوته الخافت : « إن الشاى الذى تقدمه لى يشفينى من السعال يا سيدى البك ولا أجد الشفاء في غيره » ولم تخف عنى هذه الإشارة اللطيفة فأتحفته بقليل منه قبل تركى جالو

واشتريت ملابس لرجالى وسمناً وزيتاً وشعيراً ووقوداً وثمانى قرب . وأخبرنى على كاجا، وهو عبد السيد إدريس الصفىّ ووكيله الأمين فى جالو، أن سيده أمر بوضع مخازنه تحت تصرفى فشكرته ، ولم أمدد يدى إلى شىء ، فقد تركت مصر مزوداً بكل ما احتاج إليه وأنا أعرف فوق هذا، أن ما لديهم يحتاجون إليه أشد احتياج لتعذر الحصول عليها فى الصحراء

وقضيت فى جالو عشرة أيام فى إعداد العدة لرحيلى ، وفي قبول دعوات مشايخ العرب ، وردّ هذه الدعوات ، والانقطاع إلى أشغالى العلمية .

وكانت المآدب التى أقيمت لى غاية فى إظهار كرم البدو . فتناولت عشاء أول يوم فى دار السنوسى « قدر بوه » حاكم جالو وتغذيت فى اليوم التالى عند البشارى أكبر تجار المجابرة وأشهرهم . ووقف فى خدمتنا مع أبنائه أثناء تناول الطعام كما هى عادة البدو .

وتلقيت الغداء فى اليوم الثالث من أعضاء المجلس وشاركنى فيه الزروالى وعلى كاجا ومغيب . وجرى لى بعد الغداء حديث مع القاضى عن تاريخ السنوسيين، فأرانى خطابات من السنوسى الكبير وابنه المهدى . وجاء العشاء فى هذا اليوم من عند الحاج فرحات وهو من كبار تجار المجابرة أيضاً . وشاركنى فيه الحاكم والزروالى وعلى كاجا ومغيب وعبد الله

وفى اليوم الرابع تناولت عند الحاج على بلال المجبرى غداء تقول عنه مفكرتى : إنه جيداً جداً « وأنه حضره الجمع المعتاد » وجاءنى العشاء من عند الحاج سعيد وهو من تجار المجابرة أيضاً.

وفى اليوم التالى تغديت بدار الحاج غريبل . وفى المساء وقع لى أهم حادث من حوادث الضيافة التى لقيتها ، ووضح لى كرم البدو بأجلى مظاهره حين دعانى فضليات نساء الأسرة السنوسية إلى تناول العشاء

كان يقيم بجالو نساء كثيرات من الأسرة السنوسية بينهن زوج السيد إدريس وأخته . وقد أرسل إلىَّ أولئك السيدات الكريمات بعد وصولى جالو بقليل يدعيننى للعشاء . وهذا حادث غير عادى لأن نبيلات الصحراء لا يولمن الولائم للرجال كما تفعل نساء الغرب ، وأدركت بطبيعة الحال أنى غير مدعو لتناول العشاء مع داعياتى . ولكنى قدرت هذا العطف من ناحيتهن فقبلت دعوتهن راضيًا شاكرًا . وجاءنى السيد الزروالى والحاكم فى الوقت المحدد لمرافقتى إلى دار الضيافة ، وكانت دار الحكومة فى عهد الأتراك فأدخلنا إلى غرفة فسيحة ينبعث في جوها بخور زكى الرائحة ، وينتشر فيها نور ضعيف من سراج نحاسي فاخر ، وشموع كثيرة ، ويلقى أشعته الندية على ما فى الغرفة من سجاجيد ثمينة وطنافس حريرية فيرسل عليها أضواء بهيجة .

وكان القائم بإكرامنا سيدى صالح وهو بعل سيدة من سيدات الأسرة السنوسية . فأشرف على نفر من العبيد قدموا إلينا ما لذ وطاب من طعام وشراب . وبعد أن نلنا من كل ما قدم إلينا جريًا على عادة البدو ، جاءنا العبيد بطسوت من النحاس فغسلنا أيدينا ثم تناولنا ثلاثة أكواب الشاى المعتادة، ونثرت علينا قطرات الورد وأطلق زكى البخور . وبعد ذلك تقدم إلىَّ رئيس العبيد باحتشام وهمس فى أذنى سائلاً إن كنت أحب أن أسمع شيئًا من الأغانى فيدير لى حاكيًا (فونوغراف) ويسمعنى بعض أسطوانات لمشاهير مطربى مصر . فأبيت شاكرًا على تلطفه ، وربما كنت فى ذلك مغضبًا رفقائى . وإنما دفعنى إلى الإباء رغبتى فى الاستمتاع بوجودى فى تلك الغرفة ذات الأثاث الفاخر والجو المعطر ، وإطلاق العنان لخيالى ، بعيدًا عن صخب المدن وجلبتها فى مناحى الصحراء ، ومحالى حياتها البدوية والإيناس إلى روحها التى تشيع فى نفسى الخالية المنفردة

وانطبعت ذكرى هذه الليلة الفريدة فى خاطرى ، لما رأيت من جمال المكان وأحسست من بعد عن العالم ، وما شعرت به من لذة الاستمتاع بضيافة شريفات البدو اللاتى اختفين عن عينى. وكن ماثلات فيما أظهرن نحوى من دلائل الكرم والرعاية وحملّت رئيس العبيد أجل تحياتى إلى السيدات . وسألته أن يبلغهن تقديرى لهذا العطف الشديد ، ثم خرجت إلى

الصحراء فى تلك الليلة البديعة تلعب كف النسيم بثنايا « جردى » فتثير فى الجو ما علق به من نشر البخور، وتهيج فى خاطرى ذكرى تلك الغرفة السحرية التى نعمت فيها بذلك المجلس الشهى .

وأصبح الصباح فأعددت وليمة أرد بها ضيافة من أكرمونى أثناء الأيام الماضية ، ولكن غرفتى الحقيرة التى تتناثر فيها أمتعة سفرى لم تكن من كمال الاستعداد بحيث تقارن بتلك الدار الجميلة التى تناولت فيها عشاء الأمس . غير أن على كاجا أخذ على نفسه أن يجعل هذه الغرفة صالحة للوليمة بقدر ما تسمح به الظروف . فاستعار من بيت السيد إدريس سراجين بديعين من النحاس، وبعض أبسطة فاخرة، وأضاف إلى ذلك بعض الرياش الأخرى وخلق من الغرفة بهواً يليق بإقامة مأدبة. وكان بين ضيوفى حاكم المدينة وأعضاء مجلسها وإخوان سنوسيان والقاضى وعلى كاجا وموسى ضابط المدفعية السنوسية والسيد الزروالى . ولبست أفخر ثيابى البدوية ثم وقفت فى خدمتهم ، كما يقف رب الدار البدوى، وقد سألنى بعضهم ممن زار المدن أن أجلس معهم وأشاركهم الطعام ، ولكنى أبيت واعداً أن أفعل ذلك إذا شرفونى بالزيارة فى القاهرة . وقد أظهر طاهىّ أحمد حذقًا شديداً فى تنويع ألوان الطعام فقدم شيئًا من الصحاف الأوروبية لم يسع ضيوفى معها السكوت عن مدحها والثناء على طاهيها . وكانت وليمتى هذه آخر الولائم فتركت بعدها أتناول طعامى خاليًا هادئًا . وقد أراحنى ذلك كثيراً وإن شكرت لضائفى ما أظهروا نحوى من دلائل الكرم .

وقد اهتممت أثناء إقامتى فى جالو بعمل بعض الملاحظات العلمية، فرصدت الشمس والنجوم لمعرفة خطوط الطول والعرض . وواصلت ملاحظة البارومتر والترمومتر ، لمعرفة ارتفاع المكان ولما روجعت ملاحظاتى فى هذا الشأن على الملاحظات البارومترية التى أخذت فى سيوة فى اليوم نفسه ، ظهر لى أمر هام وهو أن سطح جالو فى هذه الأيام أعلى منه بمقدار ٦٠ متًرا أيام زارها (رولفس) سنة ١٨٧٩ فقد قرر هذا الرحالة أن جالو تكاد تكون موازية لسطح البحر ووجدتها أعلى منه بستين متراً . وكان تغير وجود هذا الفرق واضحاً أمام عينى فقد رأيت الرمال المتراكمة تتكدس حول جذوع النخيل وعلى جدران المنازل تكاد تغمرها جميعاً .

وكانت نتيجة ذلك أن انتقل بعض سكان المدينة من مساكنهم القديمة وبنوا ديارهم فى جهات أكثر ارتفاعًا . وما زاد ارتفاع جالو عن سطح البحر زهاء مائتى قدم فى بحر أربع

وأربعين سنة إلا تلك الرمال المضطردة التراكم التى تسفيها العواصف فتعترضها الأشجار والمنازل وتجعلها ركاماً .

وكانت الدار التى أقمت فيها وقيدت بها ملاحظاتى أعلى من بقية دور جالو بزهاء العشرين متراً . وكنت شديد الحرص فى أخذ هذه الملاحظات، لأن البدو يسيئون الظن بكل جهاز علمى فما بالك بآلة (التيودوليت) التى ربما ظنوا أنى باستعمالها أرسم خريطة لتلك الأصقاع بقصد العودة لغزوها . ولم يَفُتنى وقد رآنى شيخ من شيوخ البدو وأنا اشتغل بالتيودوليت أن أفسر له بسرعة واهتمام، أنى أعمل فى إعداد إمساكية لشهر رمضان . وكان عبد الله وليس بالبدوى الساذج يعيننى كثيراً فى سبيل تمهيد ملاحظاتى العلمية وكان اختصاصياً فى الاحتيال على تفادى العقبات التى تعترض سبيل أعمالى مظهراً فى ذلك حذقًا شديداً فى منع سوء التفاهم .

كنت ذات يوم أعمل على مسافة من جالو بعض الملاحضات بواسطة جهازى ، فمر بنا أحد سكان المدينة، وسأل عبد الله ماذا تعمل فقال له : إننا نأخذ صورة لجالو فقال البدوى : «أتأخذون صورتها على هذا البعد » فأجابه عبد الله على الفور « إن هذه الآلة تجتذب الصورة فتطير إليها وتنطبع فيها » فقال البدوى المرتاب : « وكيف يجتذب الصندوق صورة » فهز عبد الله كتفيه وقال : « سل المغناطيس كيف يجذب الحديد » . وهكذا انتهت هذه المناقشة التى أظهر فيها عبد الله حذقًا ولباقة .

الفصل العاشر

فى الطريق

تأهبت للسير يوم الخميس ١٥ مارس فصحوت فى الساعة السادسة أهيئ حوائجى ، وقضينا فى إعداد كل شىء ثلاث ساعات كما هى العادة فى أول يوم من أيام السفر ، نظراً لعدم تعود القافلة على ما يستلزمه السفر من ربط وحل . وكان علينا أن نسير على عادة البدو من (التجهيز) ، وهو الاصطلاح الذى يطلق على الذهاب إلى بئر قريبة قبل البدء فى سير طويل ، والاستعداد فى بحر بضعة أيام لعمل الترتيبات الأخيرة ، بعيداً عن مشاغل حياة المدن. وكانت بئر بو الطفل وهى على بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً من جالو - البقعة التى أردنا أن نجرى عندها « التجهيز »

وبعد أن تم حزم كل شىء جاءنا حاكم المدينة وأشرافها وإخوانها ، ليقوموا بتوديعنا فجلسنا جميعًا القرفصاء ، نتشاور فى أمر الرحلة . وكنت قد سافرت إلى الكفرة، قبل هذا بسنتين، فى ظروف أكثر موافقة وأسعد حظًا . ومع ذلك ، فقد ضللت الطريق قبل الوصول إلى الكفرة . وكان الجو فى رحلتنا السالفة أشد ملاءمة والريح والعواصف أضعف هياجًا، والقافلة أقل عدداً .

ولم تشغلنى فى رحلتى الأولى مسألة إعداد الجمال وعلفها وتهيئة الرجال وطعامهم وأدواتهم . لأن السيد إدريس تفضل فقام عنى بتعهد القافلة ولوازمها . وكانت هذه الرعاية من جانبه ، باعثًا قويًا على تهدئة خواطر البدو، وإزالة ريبهم ، ومحو نزعة الكراهية فيهم للأجانب. ولكنى وجدتنى هذه المرة مضطراً لترتيب كل شىء بنفسى ، مع ما يبعث فى نفوس العرب من الدهشة أمثال هذه القافلة الكبيرة ، التى تحمل كمية وافرة من الحوائج التى تستلزمها رحلة طويلة.

والطبيعة قاسية فى قطع المسافات الطويلة الخالية من الماء، وهى فيها عدو الإنسان الوحيد. وفى مقدورها أن تكون عدواً لدوداً إذا شاءت . ولكن تضامن الرجال وغيرتهم على العمل، ما يجعل القافلة تهزأ بالحوادث، وتمضى فى سيرها آمنة مطمئنة . وكان رجالى

الأربعة الذين استحضرتهم من القاهرة والسلوم وسيوة ، على أحسن ما يكون ؛ من لطف المعاملة مع كل من لاقينا . وكان الزروالى وهو الإخوانى الذى انتدبه السيد إدريس لمرافقتنا مثال اللطف والإخلاص . وقد أفرغ كل جهده فى توفير أسباب الراحة أثناء الرحلة . والحقَ أقول : إنى لم أكن أحمل همًا للطوارئ مهما قست علينا الطبيعة .

وبعد أن حمّلنا الجمال بدأت حفلة « المودعة » التى اعتادها العرب ؛ فوقفت مع رجالى على شكل نصف دائرة ، وواجهنا شيوخ جالو وإخوانها ، وقد وقفوا على شكل نصف دائرة أخرى . ورفعنا الأكف خاشعين مبتهلين أن يبارك الله رحلتنا ، وأن يسدد خطانا ويرجعنا سالمين إلى الأوطان . وقرأنا الفاتحة وأمّن عليها أكبر الإخوان سنًا ، ثم تبادلنا الشد على الأيدى . وبدأنا السير بين صراخ الرجال تستحث الجمال، وزغردة النساء تدوى فى الفضاء .

وزاد إقبالنا على السفر، ما حدث لنا عند اختراقنا اللبة ، وهى ثانية القريتين اللتين تكوّنان مدينة جالو . فقد لاح لنا على جانب الطريق ، بدوية رشيقة القوام قد انفردت وهى مسدلة نقابها على وجهها، فلما مررنا بها أدار رجالى الأبصار إلى الغانية وصرخوا بصوت واحد « وجهك وجهك » فعطفت البدوية وأزاحت نقابها ، وهى خفرة فكشف عن وجه بديع القسمات صافى الأديم ، ينم عما عرف فى غوانى البدو من حياء وجلال . وبهر جمالها رجالى وملك أدبها نفوسهم ، فأرسلوا عبارات الإعجاب والسرور . ولم يسعنى أمام ذلك إلا أن أسير على عوائد البدو فى مثل هذه الظروف ، فأمرت رجالى أن يفرغوا البارود عند قدميها . فتقدم حامد ورقص أمامها رقصاً رشيقًا ، كأنما يوقع له الطبل إيقاعاً منتظماً ، وهو ممسك بندقيته فوق رأسه بكلتا يديه جاعلاً فوهتها إلى الأمام ، ثم اقترب منها وهو يغنى أنشودة بدوية من أناشيد الغرام ، حتى إذا صار قبالتها هوى على ركبة واحدة وصوب بندقيته إلى موطن قدميها ثم أطلق النار على قيد شعرة منهما . وكان هدفه من القرب والدقة بحيث أصاب لهب البارود حذاء الصبية فشاطت جوانبه . ولم تجفل عند إطلاق النار ، بل ظلت منتصبة القامة فخورة بالشرف العظيم الذى نالته . لأن الحذاء الشائط فى أرجل الغادة البدوية دليل فخار، تسمو إليه فتيات الصحراء

وحاكى سعد أخاه حامداً حتى إذا انتهى من إطلاق النار، صرخ رجال القافلة مهللين مستبشرين . وبدأنا المسير وبسمت الصبية فى أثرنا كأنما سرّها ما لقيته من إكرامنا لها ،

تفاؤلاً بالوجه الصبيح تشرق علينا طلعته، فى أول ساعة من ساعات السفر، واحتوانا فضاء الصحراء . فوصلنا بعد سير ثمانى ساعات إلى بئر أبى الطفل حيث نوينا الإقامة يومًا . وقضينا ليلتنا أطرب ما تكون ، وسمرنا حتى منتصف الليل فى حديث وغناء، حتى إذا تهيأ رجالى للنوم ، أخذت « غليونى » وانطلقت أخلو بنفسى . ولم يكن أحب إلىَّ فى الصحراء من تلك الرياضة الانفرادية التى أدخن فيها « غليونى » الأخير قبل الإقدام على السفر الطويل ، وأنا هادئ البال وادعه .

وكنت راضيًا عن كل شيء . يسرنى التوفيق فى اليوم السعيد ، ويملأنى الأمل فى الغد ، إذا أخطأنى الحظ فى يومى الحاضر . ولا أكون مبالغًا إن قلت : إنى لم أدخل فراشى ليلة من ليالى السفر ، وأنا أحمل فى نفسى همًا من الهموم ، مهما ضايقتنى الظروف أو آذتنى الأحوال .

وقضينا اليوم التالى فى التمهيدات الأخيرة للسفر . ولحقنا أبو حليقة صاحب الجمال فى قافلة صغيرة مكونة من ثلاثة جمال ، وتبعه فى نفس اليوم رجل من جالو .

وكنا فى حاجة إلى حبال ومشد . ولكن بائعيها بالغوا فى طلب الثمن وأطال عبد الله معهم الفصال وترك البت فى أمر الشراء حتى آخر لحظة . واتفق مع رجل منهم اسمه السنوسى أبو جابر، على أن يتبعنا بالحبال إلى أبى الطفل . وحضر الرجل فجاء إلى خيمتى وأخبرنى أن له أخًا فى واداى ، وطلب منى أن آخذه معنا ، على شريطة أن يخدمنا طول الطريق قيامًا منه بنفقات الرحلة . فتوسمت الرجل وعرفت أنه جدير بمرافقتنا ، وساقنى منه على الخصوص ظرف وفكاهة نحن أحوج ما نكون إليهما فى قطع الصحراء . فقد تخون الإنسان قواه فيستعين على تحمل التعب بإشغال باله بسماح المُلَح المستطرفة . وكنت أود أن يرافقنا ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهّين ، كما يدل ذلك الحديث الذى جرى بينى وبينه

قلت : إنا مسافرون فى التوّ وليس لديك من الوقت ما يمكنك من السفر إلى جالو والعودة بأمتعتك

فقال : « إن لدى كل ما أحتاجه »

فسألته وأنا أدور بعينى مندهشاً : « وأين حوائجك ؟ »

فأشار إلى قميصه وعصاه وقال : « هات كل ما يلزمنى »

جمل ينفق في الطريق

فضحكت من أعماق قلبي حيث رأيت أن هذين الشيئين هما كل ما يحتاجه الرجل في رحلة صحراوية متعبة وشاركني في ضحكي طروباً . ورضيت بمرافقته لنا، ولم أندم على ذلك فيما بعد ، فقد خبرته أثناء السفر فكان من أحسن رجالي .

وسقينا الجمال في اليوم التالي ولم نكن في ذلك بالمتعجلين . لأن حال الجمال أهم شيء في قطع الصحراء ، ولا يكتفي بإشباعها وتسمينها قبل الرحيل . بل يجب تركها تشرب جهدها من الماء وفق رغباتها والسماح لها بعد ذلك بالراحة . واستعدت الجمال فحملّناها بعناية شديدة، لأن وضع الأحمال بدقة على ظهور الإبل في مبدأ الرحلة يوفر وقتاً طويلاً وعناءً شديداً أثناء السير، فقد يوفر المسافر يوماً أو يومين من الوقت المحدد للرحلة إذا لم يُضع وقتاً طويلاً في وضع الأحمال ورفعها يوماً بعد يوم .

وتأهبنا للسير في منتصف الساعة الثالثة . وما كادت الإبل تتحرك حتى دوى صوت أبي حليقة بالأذان جرياً على عادة البدو عند البدء السير . فإن التقاليد البدوية تزعم أن القافلة التي تستهل سيرها بالأذان تختمه بالأذان كذلك غير ملا قية في الطريق أذى أو مصيبة . وقد زاد عدد القافلة بالتدريج حتى أصبحت تضم تسعاً وثلاثين جملاً وواحداً وعشرين رجلاً وجواداً وكلباً . فكان رجال القافلة وأنا ورجالي الأربعة عبد الله وحمدا وأحمد وإسماعيل والسيد الزروالي وأبا حليقة صاحب الجمال وابنه وابن أخيه وعبده وداود عم الزروالي . وكان مزمعاً السفر على جمله الوحيد إلى واحة تيزربو لإحضار زوجة وابنته . ودليلنا أبو حسن والسنوسي بو جابر صاحب القميص والعصا ، وحمد الزوي مغنينا المطرب وسعد الأوجلي ، وفرج العبد وعبدان من قبيلة التبو ويرفقتهما ثلاثة جمال وثلاثة عبيد آخرين من نفس القبيلة ، ومعهم ثلاثة جمال محملة بضائع بقصد تسليمها إلى بعض تجار الكفرة

واتجهنا جنوبياً قاصدين الكفرة . وكان يوم الرحيل حاراً شديد الريح ، ورمال الأرض المنبسطة متماسكة ، تتناثر عليها صغار الحصى . وكان مقصدنا الأول بئر الطيفن التي قدرنا الوصول إليها في تسعة أيام . وكانت العادة قبل عهد السنوسيين ، أن تقطع هذه المرحلة في بحر أربعة أيام ، من غير أن تقف القوافل في الطريق، لتناول الطعام أو طلب الراحة . ولكن السنوسيين أبطلوا هذا وأدخلوا عادة حمل الزاد والماء الكافيين للقيام بهذه المرحلة في ضعف الوقت السابق، وتمكين الرجال والجمال من الراحة كل يوم .

ولم تقبل الجمال على السير بادئ بدء، لأنها لم تكد تترك مراعيها التي تؤثر العودة إليها عن السير في الصحراء ، فحاول أبو حليقة أن يجعل تجار التبو يتقدمون القافلة بجمالهم .

ولكنهم رفضوا ذلك بلباقة . لأن السير فى المقدمة شاق على الجمال إذ يفضل الجمل أن يلحق سابقه عن أن يسير فى الطليعة غير تابع ولذلك يضطر الجمال المتقدم فى بعض الأحيان إلى الاستمرار فى السير باللكز والضرب بالعصا . وهذا هو السبب الذى دعا العبيد إلى تفضيل السير فى مؤخرة القافلة ، حتى لا يضطرون إلى استحثاث إبلهم . ولم يأب أبو حليقة أن ينزل لهم عن هذا ولكنه استفاد من خدماتهم أثناء السير

واستمر اشتداد الحر وهبوب الريح حتى عصر ذلك اليوم . ثم حل المساء فقرّت الريح واستحالت نسيمًا بليلاً وبدأت الصحراء تأخذ رونقها الساحر . وإنى لأجد فى يومياتى التى كنت أكتبها أثناء الطريق بضع فقرات دونتها، وصفًا لإحساسى عند عودتى إلى هذه الصحراء التى طرقتها من قبل، وشعورى بالاقتراب من الجهة التى ضللت فيها الطريق منذ سنتين . وإلى القارئ بعض ما كتبت

« هذه عين الصحراء المنبسطة التى تهيج فى خاطرى ذكريات قديمة، ما أكثر الإنسان غفرًا لشمس الصحراء المحرقة، ورياحها العاتية إذا هدأ المساء، وغربت الشمس، وطلع القمر، وهب النسيم وانيا بليلاً . وما أسرع ما ينسى أخطارها فى الاستمتاع بملذاتها التى تحببها إليه رغم قساوتها وجفائها

إنى لأنسى آلامى فى كوب من الشاى وفى « غليون » أدخنه ورجال القافلة نيام ، وتحمل أذيال النسيم عبقة الفيّاح . وأجد لذة فى رؤية انعكاس ألسنة اللهب على وجوه رفقائى بين شيخ مغضّن الجبين، وشاب ناعم الأديم . وتطربنى ملاحظة الرجال يعملون . فمنهم الموفقون ومنهم الخائبون . ويملأ نفسى فوق كل هذا، إحساسى بالقرب من الله جل وعلا والشعور بحضرته » .

صحونا فى اليوم الثامن عشر فى الساعة السادسة فحملنا جمالنا فى ٣٥ دقيقة ولم نستطع تحميلها بهذه السرعة، لولا عنايتنا بتحميلها أول الأمر فى جالو وبئر بو الطفل . على أنا لم نبدأ السير إلا فى الساعة التاسعة . لأن الإسراع فى إعداد العدة للرحيل يضايق البدوى الذى يكره أن يضطر إلى الإسراع فى تناول طعامه ، وأن يحرم من دقائق الفراغ اللازمة لتنظيم حركة الهضم وخلق الرضا فى نفسه . والعاقل بين رؤساء القوافل من يلاحظ كل هذا قبل إصدار أمره بالرحيل . وإنى لأرى الفرصة هنا مناسبة، لإعطاء القارئ صورة ليوم من أيام السفر يكون مثالاً لجميع الأيام التى قضيناها فى السفر إلى أن وصلنا لواحة أركنو.



الرحّالة مع عصفور وقع من شدة العطش فى وسط الصحراء
بين بئر بو الطفل والظيغن

كانت رحلتنا هذه في شهر مارس . ومع هذا ، فقد كان البرد شديداً يضطرني إلى الاستيقاظ بعد الفجر بقليل . لأن البقاء في الفراش يعرضني لفتك البرد القارس . رغم ما أشعر به من الدفء في أكياس النوم وتحت ملاءة البدو الصوفية . وأنظر من ثنايا الخيام فأرى نجوم الصباح تغيب وهي حيرى كـ ـالي . أصحو فأجد أحد رجالي قد أوقد النار وأشعر بدافع إلى الإسراع في طلب الدفء، فألتـ ـف بجردي وألف كوفيتي حول أذني، ثم أندفع إلى النار مقروراً في تلك الساعة المبكرة من الصباح . أقف إلى جانب النار، ثم أدور بعيني فأرى الرجال منكمشين من فعل الصقيع وإن صحوا من نومهم جميعًا . وألحظهم وقد أنسوا إلى الدفء في ألفاف جرودهم وكل ما وصلت إليه أيديهم من الثياب. واعتدنا متى كان الماء وفيراً أن تُدار أكواب الشاي فيشربوها . ثم تسرى فيهم روح العمل، فينطلق كل إلى عمله . ويقوم الجمّال بعلف إبله بلحًا (جافًا) تلتهمه بما فيه من حصى وتراب وتأخذ في مضغه . ثم يتعهد الجمال فيخفف عبء ما شكا منها بالأمس ثقل أحماله . ويحسن وضعها على ظهر ما آذاه سوء ترتيبها من قبل . ويقوم رجال آخرون فيحلون خيامنا الثلاث المنصوبة على شكل مثلث تضم أضلاعه إبل القافلة . ويفرزون ويعدون للتحميل حوائجنا التي كدسناها وأقمناها لوقايتنا من الريح الباردة .

وفي هذه الأثناء أكون مشغلاً بملاحظة البارومتر والترمومتر، وتدوين ما قيداه من الملاحظات في يوميتي العلمية . ثم أتحقق من وجود شريط للتصوير (فلم) جديد في آلات التصوير . أفعل هذا ، وأنا أسمع أصوات الرجال تشيع بين الخيام ، خافتة النبرات، تحت ما تَلَثّم به الرجال من الكوفيات وغيرها من الملابس .

وبعد طعام الفطور وقد يكون عصيدة أو أرزٌ وهمًا طعامان بسيطان . ولكن الأيدي تهوى عليهما في كلتا الحالتين بهيئة شديدة . لأن الإنسان لا يشعر في الصحراء بما يشعر به ساكن المدن، من عدم الميل إلى الفطور . ويعقب الفطور ثلاثة أكواب من الشاي يحتسيها الرجال في بطء وهوادة، لأن إنزال البدوي على الإسراع في تناولها يضايقه ، ويفقده الميل إلى العمل ويجعله يتباطأ في إنجازه .

ويشعر رجال القافلة بعد الفطور بالدفء والرضا والاستعداد للعمل ، فيسرعون في تحميل الجمال، رغم عناد صغارها التي لا تخلو قافلة منها ، والتي تمرق من تحت أحمالها وترمي بها إلى الأرض بعد وضع كل شيء على ظهورها . وكان السيد الزروالي وعبد الله يشرفان على

دقة التحميل والعناية به . لأن إضافة نصف ساعة إلى الوقت المقدر لهذا، توفر علينا تأخير ساعات في الطريق، إذا زلت الأثقال، أو آذى الدواب سوء توزيعها على ظهورها .

وتستعد القافلة للسير، فأعرف الدليل اتجاه سير اليوم، ويرسم خط السير في الرمل، فأحقق ذلك على إبرة البوصلة ، وهو يلحظني غير راض مني بعدم الثقة فيما يقول . ولكني أرضي نفسي بذلك، لأني أضمن بملاحظة البوصلة، من وقت لآخر، صحة اتجاه سير القافلة سحابة اليوم . ولست أنكر أن ذلك الاحتراس الشديد كان ضرباً من الوسواس في نفسي . لأن السنوسي أبا حسن كان لا يخطيء غرضه كأنه حمامة تقصد وكرها، وإن كان يصيبه وسط النهار بعض الحيد عن جادة السبيل، لأنه يعتمد على ظله في السير فيخونه في الظهيرة إذا اختفى تحت قدميه .

ويحار الدليل في ساعة الغسق، وهي وقت انتشار الشفق بين غروب الشمس وطلوع النجوم. لأن الجهات الأصلية تلتبس عليه إذ ذاك في منبسط الصحراء . ولذلك كانت البوصلة نافعة في بعض الأحايين ؛ كما حدث يوماً في إحدى رحلاتي عند الغسق، إذ رأيت بفضلها الدليل وقد حاد ما يقرب من التسعين درجة عن سواء السبيل . ومع هذا، فدقة الدليل الماهر في ملاحظة الاتجاه الصحيح حذق خارق للطبيعة .

نفرغ من مشاورة بعضنا البعض في أمر الطريق الذى سنسلكه في يومنا . وننتهي من تحميل آخر جمل من جمال القافلة، فيتقدم الدليل وتتبعه الجمال واحداً بعد الآخر ، ويدفيء الرجال أيديهم وأرجلهم آخر مرة على صهيد النار الخابية ، ثم يلبسون أحذيتهم البدوية ويسرعون إلى اللحاق بإبلهم . وهم يغنون جذلين ينعش نفوسهم نسيم الصباح، ويبعث فيهم النشاط والهمة .

وتشتد حرارة الشمس بعد ذلك ، فإذا لم تكن هنالك ريح تكسر من شدة حرارتها ، نزع الإنسان ما التحف به من الغطاء حول أذنيه وعنقه ، وانتهى به الأمر إلى خلع جرده ووضع مانضا من الثياب على ظهور الجمال . ثم أخذ الجميع يتبادلون النُكت ويتسابقون في العدو ، وهم فرحون ناشطون ثم يلتئمون بعد ذلك جماعات ، على طول القافلة ، ويتساجلون الحديث في مختلف الشؤون . وكثيراً ما كنت أتقدم القافلة، أو أتعقبها على مسافة، كي ألاحظ دقة اتجاه المسير بالوحدة، وأشعر بالوحدة وأنعم بجمال الصحراء .

وينتصف النهار ، فتخامرني بعض الأحيان ذكريات بعيدة تقطع عليَّ خط التفكير في جمال الطبيعة . فيتمثل لي غشياني المطاعم المألوفة في المدن البعيدة ، واستمتاعي بمختلف ألوان

الأطعمة التى أتشهّاها فى تلك الساعة من النهار ، فيبغتنى أحمد أو عبد الله فى هذه الآونة فيضع فى يدى كيسًا من البلح يمحو هذه الأحلام . وإن كنت ألتهم ما فيه بشهية، لا أقبل بمثلها على طعام فى بلاد الحضارة والمدنية والرفاهية

ولا نقف السير لتناول الغذاء لأن الجمال تأكل مرتين فى النهار .

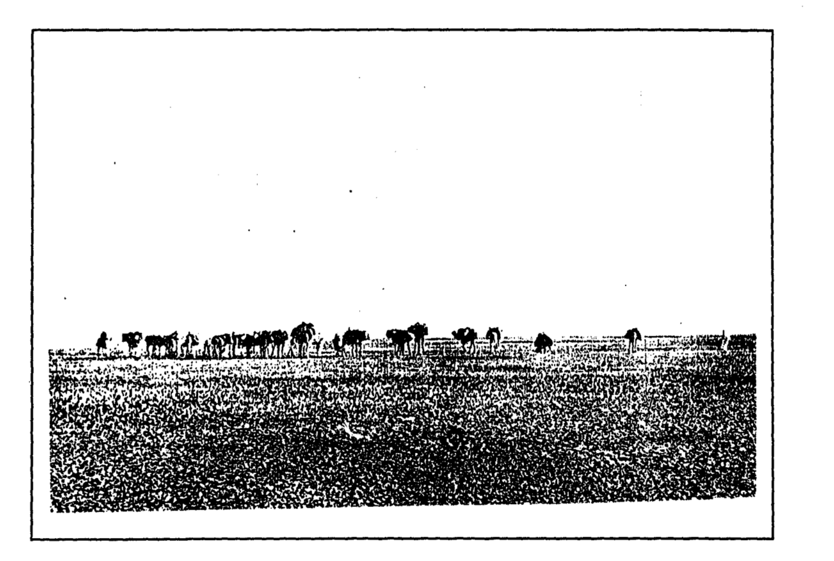
ومتى حللنا بواحة عمدنا إلى أخذ حاجتنا من الخبز . ولذا فإنه يكون طريًا عادة عند خروجنا من الواحات . ويصيب كل منا رغيفًا أو نصف رغيف . حتى إذا طال بنا السير بين واحة وأخرى جفّ الخبز أو نفد، فقنعنا بالبلح الذى لا ينقطع عنا مورده .

وكان من عادتى أن أضع خيمة مطوية على ظهر جمل من جمال القافلة، حتى يرقد عليها كل متعب من السير فيستريح، وكان يسميها أحمد « الكلوب » . وإنى لأذكر أن عبد الله التمسنى ذات يوم ليعطينى نصيبى من الخبز والبلح فسأل أحمد « أين البيك ؟ » فقال له أحمد وهو يغمز بعينيه « إن البك يتناول غذاء اليوم فى الكلوب » وقد يمتطى الإنسان بعيره فيغفو قليلاً على ظهره ، ولكنه يفضّل المشى، لأن سير الجمل بطىء يمكن صاحبه من ملازمة القافلة وكثيرًا ما يكون السير على الأقدام، أقل إنهاكًا للقوى من الركوب

وقد يلوح طول اليوم مجرى من الماء يبرق أمام القافلة عند الأفق . ولكن هذا المجرى الموهوم لا يقرب من رائيه، ويظل يغريه ببرودة مائه وعذوبته، حتى إذا جنحت الشمس للغروب انمحى السراب الذى خدع الأبصار طويلاً .

ويلوح نوع آخر من السراب فى بكرة النهار، فتتراءى البلاد النائية معكوسة فى السماء على مقربة من خط الأفق . وليس هذا النوع من السراب خداعًا للبصر كسابقه ، ولكنه صورة منعكسة للبلاد الواقعة على مسافة عشرات الأميال ، قدّام رائى السراب . وتنمحى هذه الصورة بغتة إذا توسطت الشمس كبد السماء .

ويؤثر انعكاس الأضواء تأثيرًا عجيبًا فى نواحى الصحراء، فيبدو الحجر الصغير على بعد ميل، صخرة كبيرة قائمة كأنها علم من أعلام الطريق . ويتشكل هيكل الجمل أو الإنسان أو جزء من ذلك الهيكل بأشكال غريبة . ولا تخدع البدوى هذه المظاهر لأنه خبرها طويلاً . أما القول بأن السراب يغر البدوى ويضله طريقه ويورده موارد الهلاك فقول مبالغ فيه . لأن المتعود قطع الصحراء يميز السَّراب الحقيقى وقد يتبين البلاد من رؤية صورها المنعكسة فى صفحة السماء فيساعده هذا على السير .



القافلة فى عرض الصحراء بين بئر بو الطفل ومنطقة الظيعن

وتشتد الحرارة بعد الظهر فَيبطؤ سير الإبل ويغشى القافلة هدوء وفتور . فإذا قرب المساء وبرد الجو جدّت الإبل فى السير، واندفعت قبل أن تحين ساعة ضرب الخيام وحداها الرجال بالغناء يستحثونها للمسير، فأسرعت هاشة لهذا التشجيع

وأغانى البدو بسيطة شعرية تنم عن حياة الصحراء . فتمثل إحداها بدويًا ينتظر القافلة المنشودة فى إحدى الواحات ويغنى إبلها المقبلة بما يأتى :

الليل هَوِّد والمرازم(١) تاقت   وأنتِ لفيتى(٢) والخواطر راقت

ثم يغنى بجماله فيقول

كم مَنهل فى ذرا غرد(٣)   عاميه سفو التراب

جئتيه بالجوز والفرد   ساهره كل غابى

ويخاطب جماله فينشد

كم مَنهل بين جارات(٤)   عافية(٥) مَيّه ما لها تهيه(٦)

تجيه حنى كيف السوارات   إللّى تدق فى الخارجيه(٧)

ويحدث آخر جماله فيقول

كم علو قابلها وفيه مواير(٨)   جاءتك كما فِرَق الحمام الطاير

أما الأغنية التى أنقلها فيما يلى : فتمثل مكان الجمل من نفس البدوى ، فهو أعز ما يملك وأضن ما يجود به ، وهو لا ينزل عنه حتى يموت فى سبيل المحافظة عليه . وقد يتحين البدوى الفرص للثأر من قاتل أخيه أو ابنه . ولكنه إذا ضاع جمله هام على وجهه فلا يقر له قرار ، حتى يسترجعه ولو سفك فى سبيل ذلك دمه . والمثل البدوى يقول « اللى ما يصونها ما هى له» وهذا ما يحدو به البدوى تنويهًا بجمله وافتخارًا به

---

١ – ثلاثة نجوم
٢ – وصلت
٣ – تل من الرمل
٤ – تلال حجرية صغيرة
٥ – به
٦ – حد
٧ – أى مثل الأسورة المصوغة فى الخارج
٨ – أمارات

فــى شـــــــــائك ضـنـا(١) الأجــــــــواد يا حنّـانـه
باتـــــــو مـــــــــرامى مـــــاهو واجــبّــــانه(٢)

والبدوى ينشد من الأغانى ما يوافق الظروف التى يتغنى فيها . فينشد الأغنية الأولى إذا طالت عليه الشقة إلى الواحة التى ينشدها ويغنى الثانية إذا قرب من الأصقاع التى تتناثر فيها تلال الرمل وينشد الثالثة والرابعة إذا أشرف على بئر، ويتغنى بالأخيرة إذا دخل أرضًا يسكنها أعداؤه

وكان من دأبى إذا حل وقت الغروب ، أن أسير على مقربة من الدليل ، حتى أعينه على السير فى الطريق السوىّ بواسطة إبرة البوصلة . لأنه قد يخطئه قبل أن تطلع النجوم فيهتدى بها - ثم ينتشر الظلام فيُعطى الدليل سراجًا نسير على نوره الضئيل فى تلك الحلكة الشاملة. وكان كلما ابتعد عنا نوره وراغ منا ، ازددنا إسراعًا فى محاولة اللحاق به . وتحب الجمال خاصة أن ترى السراج ينير فى أبصارها وتندفع إلى الأمام فى أثره .

وهكذا، تمضى بنا اثنتا عشرة ساعة أو ثلاث عشرة ساعة ونحن سائرون . وقد تعاكسنا المقادير فلا نسير هذا الزمن الطويل . ثم تنتهى مرحلة اليوم ، وتحين ساعة حط الرحال ، فينادى الدليل « الدار يا عيّان » ويكرر هذا النداء بعده جميع رجال القافلة . ثم يضمون جمالهم ويقسمونها جماعات بين حاملات الماء ، وناقلات الخيام، وحاملات الحوائج المعّدة لعمل المتاريس . وتبرك الجمال راضية عن دنو الساعة التى ترتفع فيها الأثقال عن ظهورها . وتأخذ الرجال فى رفع أحمالها ، فأشرف على ذلك بنفسى ، خوف الإهمال ، فقد تتهاون الرجال بعد جهد السير فى إنزال الصناديق التى تحوى أجهزتى العلمية وآلات التصوير . فيحطمون ما فيها . وتُصَف الحوائج على شكل سدّ يدفع الريح إن كانت شديدة الهبوب، وتنصب الخيام على شكل مثلث . إلا إذا كان الجو صحوًا والريح رخاء . ولست أدرى أى الوقتين أحب إلى نفسى وأمتعها . أهو وقت ضرب الخيام بعد سفر يوم طويل، أم وقت فكّها فى الصباح استعدادًا للمسير .

ثم توقد النار وتتصاعد ألسنة الوقود فتلقى ضوء لهبها على الرمال وتضطرم ، فيكون أول همنا الشاى الذى أقدر فائدته وأذوق لذاته ، رغم اسوداد لونه ومرارة طعمه . فإن البدوى

---

١ - أولاد

٢ - أى قتلوا فى سبيل الدفاع عنها ولم يدفنوا

يأخذ « حفنة » من أوراق الشاى وأخرى من السكر، ويلقى بهما فى وعاء الماء حتى إذا غلى ما فيه، رفعه عن النار ووزع أكوابه على إخوانه فجدد نشاطهم وأنعش نفوسهم وقَوّاهم .

ويشرب الرجال الشاى ثم يعدون العشاء ويتناولونه ويعلفون إبلهم ويستعدون للنوم . أما أنا فأكون فى ذلك الوقت منهمكًا فى مقارنة الساعات الست التى أحملها، وتقييد الصور التى أخذتها سحابة اليوم وتغيير « أفلام » السينما فى الظلام، ووضع أسماء العينات الجيولوجية التى جمعتها، وترتيب مواضعها، وكتابة يومياتى وملاحظاتى العلمية وغيرها . ولم أكن لأقوى على القيام بعمل كل هذا، لولا ما دبّ فى أوصالى من تأثير الشاى . وربما نشطتنى أكوابه فأحسست ميلاً إلى التجول فى الصحراء ، فإذا لم تكن الريح باردة سرت نصف ميل، وأنا أدير البصر من وقت لآخر، فأرى أشباح الرجال فوق أديم السماء عند الأفق . ويبدو لعينى فيملك لبى منظر الخيام المتقاربة والحوائج المكدسة والجمال الباركة، ينعكس على كل ذلك بصيص النور المنبعث من النار الخامدة، فى وسط ذلك المنبسط المنتدح من الرمال . ويغمرنى السكون من جميع نواحىّ، فلا أسمع همس النسيم بين الأغصان، ولا خرير الماء فى الغدران كما يسمعها المنفرد فى الأحراج الملتفة الأشجار . ولا يقع فى أذنى صوت الأمواج وهى تتكسر على جوانب السفينة، كما يصغى إليها راكب البحر

غمرتنى سكينة الكون حتى   كدت أصغى إلى حديث السكون

الفصل الحادى عشر

الطريق إلى بئر الظيغن

سأقيد من الآن فصاعداً ما كتبته فى يومياتى يومًا بعد يوم

(١) الأحد ١٨ مارس :

قمنا الساعة التاسعة صباحًا ووقفنا الثامنة والنصف مساء . قطعنا ٤٦ كيلو مترًا . وكانت أعلى درجة للحرارة ٢١ وأسفلها ٣ كان اليوم غائمًا والمساء صحوًا . أمطرتنا السماء رذاذًا بعد الظهر . وثارت ريح عاصفة من الشمال الشرقى تحولت إلى زوبعة رمال فى منتصف الساعة الثالثة . وسكنت الريح عند الغروب ، ثم ثارت ثانية فى الثامنة مساء . الشمس غائبة والدليل حائر بعض الحيرة فى تحديد الجهات، كما أتبين ذلك من ملاحظة البوصلة . ظهرت الشمس فى منتصف الساعة السادسة، فأقام الدليل معوج سيره . ظهرت نجمة القطب فى السابعة والنصف فاهتدى بها . ويسمى العرب هذا النجم (الجدى) . الأرض منبسطة كعهدنا بها أمس، ولكنها متموجة الأديم قليلاً، يتناثر عليها (أكوام الصَوّان) الكبير القاتم اللون

وأصبح الصباح فطرب رجال القافلة حين رأوا عند الأفق عقداً من الأشباح ينبئ باقتراب طليعة قافلة . وتحققت القافلة بمنظارى ، وأدرته على الرجال فنزعنا البنادق من أماكنها على ظهور الجمال ، وأسرع رجال (التبو) إلى رماحهم، واصطف الجميع على ناحية القافلة القريبة من القادمين، وصوبوا الأبصار يقظين يتأكدوا من سلام القادم أو عدائه .

ولم يمض بنا القليل حتى تيقنا صداقة القادمين فتلاقى رجال القافلتين وجلسوا القرفصاء يتبادلون الأخبار، تاركين جمالهم تسير بطيئة الخطو . وكان الحديث دائرًا عمن تزوج أو مات أو أثرى متناولاً ما نشأ من طلب ثأر جديد ، ومَا قَرّ من عداء قديم . ثم قام الرجال مودعين داعين بالتوفيق . ولحق كل فريق بقافلته . ولعمرى إن هذه المقابلة الهفافة فى صميم الصحراء هى عند العرب بمثابة البرقيات اللاسلكية.



بئر الحرش فى الكفرة منطقة الظيغن

(٢) الإثنين ١٩ مارس

قمنا الساعة الثامنة والربع صباحاً وقفنا فى الثامنة والنصف مساء وقطعنا ٤٩ كليو متراً وكان أعلى درجة للحرارة ٢٢ وأقلها ٥ . وكان الجو صحواً جميلاً، وقامت ريح قوية من الشمال الشرقى ، وقرت عند الظهر ، وانتشر فى العصر سحاب صبير. وكانت الشمس شديدة الحرارة تعوقنا عن الإسراع فى السير، حتى إذا حل المساء، رطب الجو، فجددنا فى السير . وكانت الأرض منبسطة صلبة يكسوها بساط من الحصى الرقيق . وفى السادسة مساء قطعنا منخفضاً من الأرض قد قامت على جانبه الأيمن صخرة رمادية اللون ، وقامت على بعد كيلو متر منها إلى اليسار صخرة بيضاء

كنا فى هذه المرحلة نَخُبّ فى السير، وكان البدو والعبيد يتسابقون ويقفزون . وعبيد التبو سذج على الفطرة سليمو النية فقراء . حريصون على ما يملكون فيلبسون قميصاً من القطن وسروالاً يحافظون عليهما كل المحافظة ، ويتمنون لو ظلاً على أجسادهم أبد الدهر . فإذا امتطى أحدهم جملاً خلع سراويله خشية أن تبلى أو تتقطع ثم علقها على ظهر الجمل ، فإذا أراد النوم خلع ملابسه خيفة أن تحتك بالرمال فتبلى، ويكتفى بالالتحاف بمعطفه الفرو . وحدث أن البدو أخذوا سراويل أحد العبيد وهو على ظهر جمله ثم أخفوها فلما ترجّل والتمسها فلم يجدها، خاف أن تكون قد زلت عن الجمل وسقطت على الأرض فى بعض نواحى الطريق ، فأسرع بالعودة جارياً ملء ساقيه يبحث عن ضَنائنه، وأوغل فى الصحراء حتى لم يبن منه إلا شبح ضئيل فى ذلك المنبسط الممتد من الرمال . فأشفقنا عليه وأطلقنا النار ندعوه، فعاد بعد تردد وانضم إلى القافلة كاسف البال . غير أن طرب المازحين به كشف له سر الأمر فردّت إليه سراويله، وكان سروره باسترجاعها شديداً فلم تغظه تلك المداعبة الثقيلة .

وحدث فى الليلة الماضية أن أغار الجمال على خيمتى وهددتنى بهدمها علىّ . والإبل دواب شديدة الذكاء تحب أن تحك رقابها على حبال الخيام فإذا نام رجال القافلة ، جاست خلال الخيام تطلب ذلك، فيدخل أحدها رأسه من ثنايا الخيمة حتى يتحقق نومى ، فإذا لم يسمعنى أنهره ، علم أنى غارق فى سبات عميق ، فأخرج رأسه ثم بدأ فى حك رقبته على الحبال . وبعد قليل ينضم إليه الكثير من إخوانه، ثم يأخذ الجميع فى هذا العمل حتى أفرغ من نومى ظناً منى أن العواصف الشديدة تزعزع أركان خيمتى

ومرت بنا الأيام فما ازددت إلا وثوقاً بأبى حليقة وتقديراً له . فقد كان رجلاً قليل الكلام ذا قلب كبير ونفس خيّرة . وكان موضع احترامنا جميعاً لكبر سنه وشيبه . لأن رجال الصحراء يجلون رجل التجاريب الذى لقنته السنون دروس الحكمة . ولذلك كنت أنا والسيد الزروالى

نستضيء برأى أبى حليقة من وقت لآخر . وكان حاذقًا فى عرض آرائه علىّ . وكانت من العقل بحيث أقدرها حق التقدير . وكان دائم العناية بجماله، لا ينى سحابه يومه عن إرسال صوته الرنان فى الفينة بعد الفينة يخاطب رجاله أو جماله ، فيقول لعبده إبراهيم « إن الجمل الأبيض تعب فلتخفف بعض أثقاله فى الغد وتضعها على ظهر الجمل الأسمر » ثم يلتفت إلي بقية الرجال فيقول « ناجوا الجمال أيها الرجال وغَنِّها صوتًا يا إبراهيم » وما أصدر أبو حليقة هذه الأوامر إلا لعلمه أن التشجيع يدفع الإبل إلى الإيجاف فى السير ثم ينادى جماله فيقول « اتبعى الدليل أيتها الإبل العزيزة » وينظر إلى حمد فيقول « ناشدتك الله يا حمد إلا عدلت سرج هذا الجمل فإنه يؤذيه » ويظل على هذه الحال من الإشراف على القافلة ، حتى إذا انتشر الشفق قال : أوقدوا السراج فإن الجمال تحب النور .

وإنما تظهر قيمة الجمل بعد اختبار طويل، فهو ذكى كالجواد إن لم يكن اذكى منه وهو أطيب منه نفسًا فى بعض الأحايين . فإن العرب تقول بحق « هذا الرجل صبور كالجمل » وإن آذى رجل جملاً حمل الأذى فى نفسه . ولم ينتقم على الأثر ويصبر له حتى يتكرر الأذى منه ، فيفكر فى الانتقام ولا يوقعه به والقوم حوله ، بل ينتهز فرصة انفراده به ليجزيه الجزاء الحق . فيغير عليه ويلقيه على الثرى أو يرفسه ثم يطأه بخفيّه .

وقد حدث أن جملاً داس أحد الرجال ثم برك عليه وأبى أن يتحرك عنه، رغم ما لاقى من ضرب رفقاء ذلك التعس الذين جروا لإنقاذه ، وظل الجمل باركًا فوقه حتى مات

وقد يظن البعض أن جمال القافلة يُربط بعضها إلى بعض ويقودها الدليل . ولكن الواقع أن الجمل يصعب إبعاده عن بقية القافلة ، لأنه يعرف بغريزته أن تركه وحيدًا يجلب عليه الموت . ولذلك يظل ملتصقًا بالقافلة جهد الطاقة ، وإن لم يربط إلي سائر إخوانه

ومن آلم المناظر رؤية جمل جهد فى الطريق ، وهو يحاول اللحاق بالقافلة ، فإنه يحكى إذ ذاك الجندى المحارب أثناء التقهقر ، يعتريه الجهد والإعياء فلا يستطيع مسايرة إخوانه الجنود، وهو فى الوقت نفسه يعرف أنه ليس فى ميسور أحدهم أن يحمله ويسير له كما يعرف أن فى التخلف عنهم موته المحقق .

ويظهر الجمل ذكاء شديدًا بعد إخراجه من الواحة والقذف به فى الصحراء فإنه يحاول فى المساء أن يتسرب فيعود إلى الواحة، وإن مر على تركها ثلاثة أيام أو أربعة . وقد وقعت غير مأساة للقوافل التى تركها جَمّالها ليلاً ضاربة فى أحشاء الصحراء، أو قافلة إلى معاطنها والرجال على بعد أيام من البلد الذى يقصدونه. وربما حدث حادث للقافلة يمنع رجالها من إتمام رحلتهم ، فتتمها الإبل التى طرقت تلك السبيل سنين عديدة وخبرت دروبها .

وادى الكفرة

وقد حدث بينما كنا نقترب من جالو بعد تركنا خيام البدو الذين استكرينا ثلاثة من جمالهم، أن جملاً فتك به الداء وانقطع أملنا منه، فقسم أصحابه حمله على الجملين الآخرين ، وترك فى الصحراء رغم إلحاحى عليهم بقتله ليرحموه من آلام الموت البطئ . وقد عرضت عليهم ثمن الجمل، إن سمحوا لى أن أقضى عليه ولكنهم رفضوا قائلين : إن هذا الجمل كريم الأصل ، وهو منهوك القوى لا يلبث أن يعود إلى خيامه بعد أن يستريح » وقد علمت بعد ذلك أن الجمل عاد فعلاً إلى معطنه وأنه أجود صحة

ويحس الجمل أن له دليلاً ، فإذا وقفنا فى وسط الصحراء نتناقش فى أمر السبيل الذى نسلكها ، اجتمعت الجمال حول الدليل حتى يسير، فتتبعه غير حافلة بسائر رجال القافلة .

ولا يتقدم الجمل الدليل فى العادة، فإذا سار قدامه غير حافل به، فاعلم أن الصلاح فى اتبا ع ذلك الجمل. إذ من المحقق أنه يعرف المكان الذى تريده القافلة .

ويقول البدو : إن الجمل الذى رعى مرة فى واحة لا يخطئ السبيل إليها ، وإن فصلتهما الأيام الطوال . وللبدو قصة منافسة مشهورة يزعمون أنها وقعت بين قطاة الصحراء والجمل . تقول القطاة « إنى لأضع بيضى فى الصحراء وأطير أيامًا ثم أعود لفقسه » ويجيب الجمل «إنى أمى إذا شربت من بئر ولم أزل فى بطنها سافرت أيامًا ثم عدت فشربت من نفس البئر»

وقد رأيت بعينى جملاً تقدم القافلة ونحن على مسيرة أربعة أيام من بئر ذاق ماءها قبل ذلك بأربع سنوات . ويعرف الناس قصة عن جمل أنقذ قافلة فى سفرها من الواحات الداخلة إلى واحة العوينات . كان دليل تلك القافلة موغلاً فى الصحراء متبعًا فى سيره وصف أحد أصدقائه فأخطأ السبيل . لأنه لم يطرقها من قبل وهامت القافلة على وجهها إثنى عشر يومًا . ونفد الماء وفقدوا الرجاء، فاندفع الجمل بغتة وتقدم القافلة، فسارت فى أثره ونجت، لأن ذلك الجمل سافر إلى العوينات قبل ذلك ببضع سنين، فنشق الماء، كما يقول البدو، على مسيرة يومين وأوصل القافلة إلى إحدى الآبار .

ويستطيع الجمل المتدرب أن يسافر أسبوعين فى الشتاء من غير أن يذوق الماء وقد يصبر فى الصيف اثنى عشر يومًا . ويعلف البدو جمالهم حشيشًا إذا أمكنتهم الفرص حتى إذا رموا بها فى الصحراء أطعموها بلحًا جافًا أو شعيرًا . وأغلب جمال برقة إبل « حملة » وأسرع الإبل عدواً جمال قبيلتى (التبو) و (الطوارق) التى تمتاز ببياضها ونحافة أوصالها ورشاقتها . ويقطع جمل الحملة ٢٥ ميلاً فى اليوم ويسير الهجين الطوارقى أربعين ميلاً وربما قطعن ستين دفعة واحدة .

وقد يكون الجمل مخلصًا لصاحبه محبًا له ، فإن الناقة الكريمة لا ترضى ممتطيًا لها غير صاحبها . والعادة أن يحمل الماء على ظهور الجمال المسنة الرزينة التى لا يخشى من نزاقتها على ما تحمل من القرب . وهى تعلم أنها تحمل أعز حوائج القافلة . فإذا انتهى سير اليوم ، وحانت ساعة رفع الأحمال ، انتحت ناحية بعيدة عن بقية الجمال، خوفًا على القرب التى تحملها من الاصطدام وانبجاس ما تحمله من الماء .

وقد رأيت جمالاً تحوم حول الخيام ثم تقترب من قرب الماء الملقاة على الأرض بعضها إلى بعض، وهى مغطاة بحيطة وتحفظ، حتى لا تطأها بأقدامها ، كأنها تشعر بقيمة تلك القرب، وأهمية ما تحويه من المياه فتدور حولها . وقد اخترت جملاً فأخذته مدة طويلة يحمل خيمتى وكتبى وأجهزتى العلمية . وإنما وقع اختيارى عليه لقوته وكبر سنه . وكان من عادته إذا أصبح الصباح وبدأت عملية التحميل أن يقصد خيمتى من تلقاء نفسه ، ثم يبرك بالقرب منها ، انتظارًا لوضع الأحمال فوق ظهره .

والجمل بعل غيور والناقة زوج مخلصة . والناقة لا تترك سيدها ووليها من الجمال فتتبعه أينما ذهب . والويل للجمل الذى تحدثه نفسه بالاعتداء على ناقة جمل آخر

وقد اعتدت كل صباح ومساء أن أساير أبا حليقة وأحادثه عن الجمال والصحراء وتاريخ البدو، فكنت لا أجبهه بالأسئلة تفاديًا من إساءته الظن بى . لأن البدو سريعو الريبة يشكون فى الدافع إلى سؤالهم . وكنت رغم حبى للعرب وبلادهم، أجد نفسى مضطرًا إلى تجنب ما يثير الشكوك، والتحايل فى الحديث على فهم الكثير من الآراء والمعلومات.

وقد قال لى ذلك الشيخ الوقور : « أتى على قومنا حين من الدهر كانوا يجهلون فيه الكفرة. ولاحظ بدوى من قبيلة الغوازى فى الأبيّض – وهى واحة صغيرة قريبة من بئر أبى الطفل – أن غرابًا دأب على الطير صوب الجنوب، كلما أشرقت الشمس، والعودة ثانية بعد ذلك، فراقبه البدوى زمنًا طويلاً ، ثم قام يتبعه فى مطاره إلى الجنوب ، وأوغل فى الصحراء حتى وصل واحة « تيزربو» فقضى يومًا فى ظاهر الواحة. ولقى الماء الذى يرجعه إلي وطنه فرجع وأخبر إخوانه بوجود نخيل وماء فى صميم الصحراء . فاجتمعوا وأغاروا على « تيزربو » وافتتحوها. ثم تقدموا إلى « بوزيمه » و « ربيانه » و « الكفرة » وهذه هى الطريقة التى وصل بها البدو إلى الكفرة » .

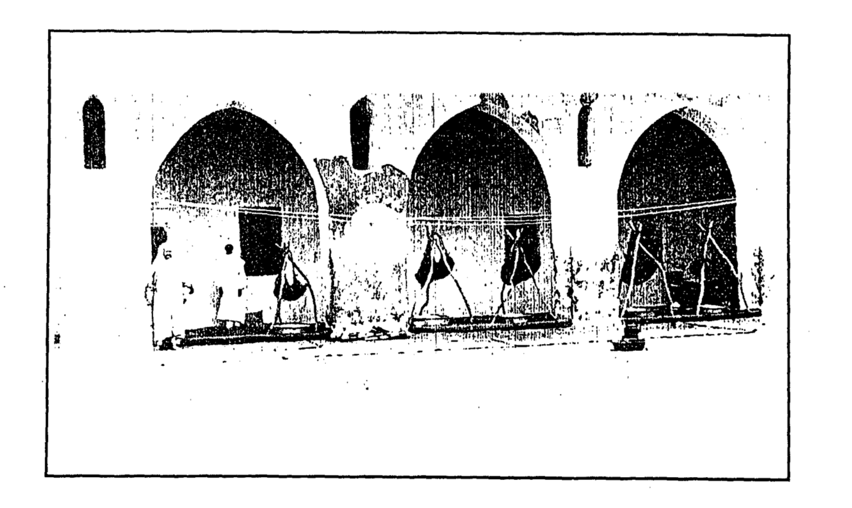
وراقنى جواد أبي حليقة منذ رأيته أول مرة فى جالو فتاقت نفسى إليه. وسأل عبد الله إن كان فى الإمكان شراؤه ، فطلب فيه صاحبه ثمنًا باهظًا . ولذلك أظهرت عدم الاهتمام وتركت الأمر للظروف . وكان أبو حليقة لا يسمح لأحد من أفراد أسرته بركوب هذا الجواد . لأن كرامته لا ترضى ذلك ولكنه تفضل فسمح لى أن أمتطيه كلما أردت الركوب، فأكثرت من ركوبه حتى خيِّل أنى صاحبه دون أبى حليقة

وتعب ثلاثة من الجمال فبركوا من غير أن يأذن لهم أحد . وليس من عادة الجمال أن تفعل هذا ، ما لم يكن هناك سبب قوى ، فرفعنا أثقالهم طلبًا لإراحتهم، وأضعنا بعض الوقت فى ذلك ، ولكنا استعضنا ما فقدناه فى نسيم المساء

وقد وضعت نُصب عينى أن أحادث يوميًا كل رجل من رجال القافلة فسهل ذلك مجرى الأمور ومكننى من استقاء بعض المعلومات من وقت لآخر . فعلمت أن البدوى يميز أثر جماله ويمكنه أن يتبين إن كانت الجمال التى سبقته فى الطريق ملكًا لرجال قبيلة مجاورة له أم لا . ويعرف أيضًا جمال التبو من شكل أخفافها واقتفاء خطواتها . وجمال التبو أصبر جمال البدو على السير . ويمكن استخدامها فى الشمال بصحراء برقة، وفى الجنوب بأراضى السودان . والكفرة محطة لاستبدال جمال القوافل التى تسير شمالاً وتنحدر جنوبًا

وقد أخبرنى الدليل أبو حسن بحيلة يعملها البدو حين يطلقون جمالهم أو ماشيتهم ترعى، فإنهم يحلبون الإبل والماعز فى الصباح ويدفنون قرب اللبن حتى يظل رطبًا . ولكن لصوص الصحراء من المهارة بحيث يعرفون مخابئ هذه القرب ولذلك يدفن العربى الماكر قربتين إحداهما تحت الأخرى . ويملأ السفلى منهما لبنًا عذبًا والعليا لبنًا حامضًا . ويقع اللص على القربة العليا فلا يبحث عن غيرها . وهكذا يجد صاحب القرب لبنه العذب سالمًا عند عودته مساء

ورأينا أسرابًا من صغار الطير تخف إلى الشمال . وكان بعضها من التعب بحيث أقبل على ما قدّمنا له من الماء وقد جثم أحدها على يدى ليشرب . ويرى الإنسان على مقربة من الآبار النزرة الماء ، نثارًا من الأجنحة والريش والعظام ، يفصح عما حدث لأصحابها من مأساة . فقد تكون هذه البقايا آثارًا لبعض الطيور الرحالة، التى وقعت على البئر وقضت أيامًا على حافتها تسترد قواها لاستئناف المطار، وتعيش على الماء الذى لم تجد صعوبة فى الوصول إليه، نظرًا لأن بعض القوافل حفرت تلك البئر حديثًا . وتأنس الطيور إلى تلك البئر ثم



منزل السيد العابد السنوسي بالكفرة

تنهال الرمال عليها شيئًا فشيئًا حتى تملأها فيجف الماء ، ولا يبقى من البئر إلا ثرى من الرمل ندىّ فتموت الطيور عطشًا . وربما وصلت الطيور إلى تلك البئر الجافة وقد أنهكها التعب فعجزت عن الطيران مائة ميل أو مائتين للبحث عن الماء فظلت مكانها حتى تموت عطشًا

ومررنا في الساعة العاشرة والنصف صباحًا بتلال من الرمل تسمى « الخويمات » . على بعد ثمانية أو عشرة كيلو مترات من يسارنا. وكانت هذه التلال، كاسمها، تحكى خيامًا صغيرة بيضاء قد نصبت على رمال الصحراء. وفي منتصف الساعة الخامسة مساء رأينا عن يسارنا ، على بعد ثلاثين كيلو مترًا، علمًا يسمى « الفريِّق » أي فريق صغير من التلال المتجاورة ، وهو عبارة عن أربعة تلال رملية على صف واحد . وفي الساعة السادسة وربع لحظنا قمة علم آخر في الجهة الجنوبية الشرقية يسمى (المعزول) وقد سمى كذلك لأنه بمعزل عن بقية التلال . وكان هذا العلم غير واضح لبعد المسافة

وقد أنعش نفوسنا رؤية هذه الأعلام، واستدللنا منها على تقدمنا في السير وزاد فينا اليقين أن دليلنا رجل قادر بالرغم من أن البدو يقولون في أمثالهم : « لا يعرف الدليل الماهر إلا بعد الوصول إلى البئر » ولهم الحق في ذلك ، لأنهم في الطرق الخالية من الأعلام لا يتحققون صدق الطريق إلا في نهاية المرحلة .

وأظهر السنوسى أبو حسن حدة بصره العجيبة ، حين أخبرنا في بكرة الصباح قبل حل خيامنا أنه رأى علم (الخويمات) رغم ضباب الصباح . ولم يتمكن رجال القافلة من تحقيق هذا الخبر حتى رأوا العلم بأعينهم بعد ذلك ببضع ساعات . ومررنا في طريقنا في العصر بهياكل بيضاء لبعض الجمال ، فكان لذلك في نفوسنا فرح شديد . ولا عجب في ذلك فالبدوى يحب رؤية عظام الجمال لسببين أولهما أن أى شارة تدل على مرور أحد قبله تشجعه على السير في تلك المفاوز المتشابهة . وثانيهما أن عظام الجمال أكثر ما تكون على مقربة من الآبار، لأن الجمال أكثر ما تكون تعرضًا للموت في نهاية الرحلة، حين يرهقها أصحابها وقد عز الماء . ولا يحب البدو أن يستعملوا كلمة هيكل للدلالة على بقايا تذكرهم بالموت فيطلقون عليها كلمة غزال .

(٣) الخميس ٢٢ مارس :

صحوت في منتصف الساعة السادسة صباحًا فشاهدت شروق الشمس عند الساعة السادسة و ٢٧ دقيقة وقيدت ذلك . وبدأنا السير في الساعة الثامنة فقطعنا ٤٨ كليو مترًا في

أراضى منبسطة من الرمل المتماسك والحصى . وقد ظلت تلال (المعزول) طول الصباح عن يسارنا على بعد ٢٥ كيلو متراً ولكنا تجاوزناها بعد الظهر .

وقد سمعت فى الصباح مناقشة بين الزروالى وعبد الله فى أمر تلك الأصقاع الممتدة التى كنا نقطعها

قال الزروالى « إن أرضنا مقدسة »

فرد عليه رجل مصر ساخراً قائلاً : « نعم إن لها مستقبلاً عجيباً وإنى لأعتقد أن سيكون فيها موقف الحشر لأنها المنطقة الوحيدة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى حفراء قفراء واسعة بحيث تسع العالمين »

وكان عبيد التبو يجرون يميناً ويساراً ويتقدمون القافلة للبحث عن روث الجمال ، ليتخذوا منه وقوداً . فقد اعتادوا أن يعيشوا بمعزل عن بقية أفراد القافلة ، ومالت نفوسهم إلى الاستئثار بنار خاصة ، يوقدونها ليلاً علي مسافة قصيرة من مضرب الخيام . وكان روث الجمل كل ما تصل إليه أيديهم من الوقود . فكانوا يستفيدون من سرعة عدوهم، ويحيدون عن طريق القافلة مسافات، بلغت أربعة أميال فى بعض الأحايين للبحث عن هذه المادة الثمينة !

وكان البدو لا يرضيهم عادة هؤلاء العبيد من سبق القافلة وجمع الروث . ولكن العبيد لم يخرجوا فى ذلك عن قوانين الصحراء التى تقول : « إن أول من يضع يده على شىء فى الطريق مالك له بدون منازع » . ولكن البدو كان لهم حجة يدفعون بها هذا الحق، فكانوا يقولون للعبيد : « ليس لكم دليل يتقدمكم، ولا أنتم راضون أن تتقدموا القافلة خوفاً من حمل جمالكم علي السير بضرب العصى، وتنتهزون الفرصة فتتركونها لأنها تتبع جمالنا، وتجرون لجمع الروث ؟ » . ويقول العبيد « تريدون أن نقود جمالكم فتسبقونا إلى جمع الروث الذى هو ملك لنا لأننا أول من يعثر به وأنتم سائرون إلى جنب إبلكم » . واشتد النزاع بينهم فسألونى حكمى فقضيت أن الحق فى جانب البدو، وأن ليس للعبيد حق فى الاستئثار بالروث . ولكنى مع هذا كنت لا أمنع أعطاء العبيد طعاماً ساخناً من المؤن العامة كل مساء ،لفقرهم المدقع ولقلة ما لديهم من المؤن التى جاءوا بها لأنفسهم .

ويختلف عبيد التبوعن البدو فى كثير من الخصال والعوائد . فالعبيد قلما يستعملون النار فى تحضير طعامهم، وإن أنسو إليها وفرحوا بها وهم يجففون لحاء النخلة عند قمتها

ويطحنونه ويصنعون من ذلك مسحوقًا يضيفون إليه بلحًا وجرادًا مسحوقين . وهم لا يدعون أحدًا إلى اقتسام طعامهم كما يفعل البدو . ولا يتأخرون عن تلبية الداعى إلى طعامه . والبدو يأخذون عليهم هذه النقيصة .

وعبيد التبو يتعمدون أن لا يتركوا فى طريقهم شيئًا من أشيائهم، لأنهم يخافون خرافة مؤداها : أن من يلتقط شيئًا سقط منهم ، لابد أن يستولى عليهم يومًا من الأيام .

وهم قوم ذوو أجسام متينة البناء، أهل جد وعمل . ولكنهم شديدو السذاجة فى نظام معيشتهم وتفكيرهم . على أنهم الآن آخذون فى الاختلاط بالبدو ومحاكوهم فى كثير من طبائعهم

ومرض أحد الجمال فى ذلك اليوم فلازمه أبو حليقة ثم حجمه عند ذيله ، ورجونا أن يكون أتم صحة بعد راحة الليل

وكان معنا المقدار الكافى من الماء ، فاتفقنا أن نتناول كوبًا من الشاى فتقدمت القافلة مع أبى حليقة والزروالى وعبد الله، وأخذنا الدليل حتى يحدد لنا الطريق السوىّ حتى إذا صرنا على مسافة كافية ، أسرعنا فى إيقاد النار ، وغلينا الشاى ، ولحقت بنا القافلة . فناولنا كل رجل يمر بنا كوبًا من الشاى . ولم تقف القافلة عن السير أثناء ذلك حتى إذا مر بنا آخر الجمال ، جمعنا حوائجنا ولحقنا بالقافلة . وهى تسير سيرًا بطيئًا ، وكان أبو حليقة يمتطى جمله والزروالى وعبد الله يركبان جملاً واحدًا، وكنت معتليًا ظهر الجواد .

ولا يسعنى هنا إلا الإقرار أن الجواد « بركة » كان شديد النفع لى فى كثير من المواقف. فكنت أجمع به الإبل من مراعيها التى لا تتركها إلا بعد تردد وامتناع شديدين . وكنت أركبه لزيارة الأماكن الشيقة إذا وقفنا فى واحة من الواحات، تاركًا الإبل تستريح أو ترعى . وكنت أتقدم به القافلة وأتخلف عنها، لعمل بعض الملاحظات أو الحصول على بعض العينات الجيولوجية، وكنت أظهر فوق متنه بمظهر لائق بشيخ فى طليعة قافلته حين تدخل واحة أو تتركها .

(٤) الجمعة ٢٣ مارس :

قطعنا ٣٦ كيلو مترًا وهبّت فى ليلة الأمس ريح قوية من الشمال الشرقى ، بدأت فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وظلت الريح تهب طول النهار واشتدت بين الساعة



السيد العابد السنوسي وكيل السيد إدريس وابن عمه بالكفرة

الواحدة والثالثة ولم تقر إلا عند المساء . وكان الجوّ معتدلاً صحواً قرب المساء ورأينا فى الساعة الخامسة مساء تلال الرمل المسماة « المعازيل » على مسافة ٢٥ كيلو متراً فى الجهة الجنوبية الشرقية

وراق الرجال أن يسيروا عامة اليوم فأبدوا مجهوداً كبيراً للبدء بالسير فى الساعة الثامنة قاصدين أن يمشوا ١٢ ساعة . ولكن الجمل المريض عاقنا عن تحقيق هذه الفكرة ، فقد ضعف حتى اضطررناه إلى النهوض حين حان وقت الرحيل . وهز أبو حليقة رأسه ثم قال : «سيكون لحم هذا الجمل طعامًا لنا قبل انتهاء اليوم » وبعد ذلك بساعتين برك الجمل وأبى أن يقوم فذبحه رجال أبو حليقة بعد ذلك بقليل وتركنا ثلاثة رجال وجملين لحمل لحمه واللحاق بنا، ولم نكد نسير قليلاً حتى جاءنى أبو حليقة يتخطر على ظهر جمله . ثم قال : « إنه جمل سمين فلنقف قليلاً » .

ووقفت القافلة لعلمى بميل البدو إلى أكل اللحوم، وأوقدت النار وأديرت الشواء على الرجال، فأكلوا إلا أنا وخادمى المصريان . وسألنى أبو حليقة عن امتناعى فأخبرته أنى لا أميل كثيراً لأكل لحم جمل مريض . فقال « إنه خير من السمك الصغير (يريد علب السردين التى كانت معنا) فقد رأينا الجمل يذبح ولكن من يدرى ماذا أصاب هذا السمك الصغير بعد إخراجه من البحر » .

وجفف البدو ما بقى من لحم الجمل ثم نسلوه خيوطًا دقيقة يضعونها فى أرزهم وعصيدتهم بعد ذلك . وعند استئنافنا السفر بعد الظهر ، قال لى أبو حسن : « سنسير حتى يغيب الهلال فنتمكن بذلك من تناول غذاء باكر عند البئر » ولكن (الجدى) حجبته السحب قبل أن يغرب القمر ، فاضطررنا إلى الوقوف وضرب الخيام عند الساعة العاشرة والنصف مساء خيفة أن نضل الطريق »

ولم يكن فى هذا الجزء من الصحراء شىء يستكشفه الإنسان فيما يرى حوله . ولكنه يسمع فى ذلك السكون نجوى نفسه، فتستجيش عواطفه . ويزيد هذا الشعور فيه أن نَسِى المدن والتفكير فى العودة إليها ، وعاش للساعة التى هو فيها فاستمد منها كل سرور وطرب .

ورأيت السيد الزروالى عند الغروب يخط فى الرمل لمعرفة البخت كما يقول البدو . وكان يرفع عينيه من وقت لآخر، فيتركهما تهيجان بين ثنايا ألوان الغروب الزاهية . لأن البدوى لا يتمالك نفسه من أن يحب الطبيعة ويقدر جمالها.

وتعاقبت الأيام متشابهات . وكانت الصحراء خالية من الأعلام ليس فيها إلا بعض هياكل الجمال أو الحصى الصغير ، حتى إنه ليخيل لرائى الصور التى أخذتها فى تلك الجهات فى بحر سبعة أيام، أنها تمثل مضرب خيام واحد صوّر من جهات مختلفة . وهكذا لم يكن هنالك شيء يشغل العقل، أو يقطع خيط التفكير

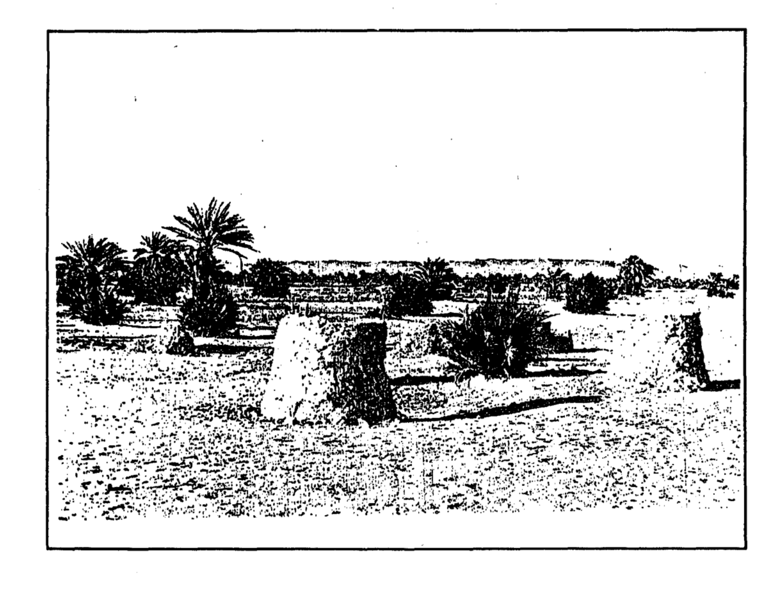
يا لها من صحراء خلّابة ساحرة، تستهوى العقول بما فيها من وحشة وعزلة . ففى تلك الفيافى المترامية، وذلك القفر الموحش، يتجرد العقل والجسم من أدران الحياة . وفى ذلك الفضاء الشاسع تقضى اليوم بعد اليوم وتقطع الليلة بعد الليلة ... ويخيل لك أنك ستستنفد سنوات حياتك، السنة بعد السنة، والعقد بعد العقد دون أن تجد منه مخرجًا أو له آخرً. وفى تلك اللانهاية، ترى نفسك وقافلتك ذرّة من ذرات الرمال التى تطؤها قدماك، وتتجلى لك عظمة الله وقدرته ، وتتضاءل نفسك فى عينيك، وتشعر بأن وسائلك فى المدن لا تغنى فتيلاً فى الصحراء وتحس أنك ضعيف الحول، قليل الحيلة ، لا سبيل لك إلا أن تهديك يد القدر

(٤) السبت ٢٤ مارس :

صحونا متْعَبين فى الخامسة والنصف صباحًا لأننا لم ننم ليلة أمس إلا الساعة الثانية صباحًا . وكان اليوم صحواً . وهب نسيم من الشمال الشرقى فى الصباح، وقرّ عند الظهر فزاد فى دفء الجو . وقامت ريح شديدة من الشمال الشرقى فى العاشرة مساء

وأخذت نواحى الصحراء تتغير قليلاً منذ التاسعة والنصف صباحًا فزادت نعومة الرمل وتجعد أديم الصحراء قليلاً، ومررنا فى الساعة العاشرة بأكوام من الحجارة السوداء فى تلك الهشمة التى ظللنا نراها سحابة اليوم . ورأينا عند الظهر عن يميننا أول أكداس الحطب فى وادى الظيغن . وحططنا الرحال فى الساعة الثانية إلا ربعًا لتناول طعام ساخن، وكان ذلك على مقربة من الحطب الذى لقيناه فى تلك الساعة . لأن وقودنا كان قد نفد فى اليوم السابق، فلم نتناول شيئًا ساخنًا منذ صباحه . وشاهدنا فى الساعة الخامسة والربع تلالاً من الرمال على بعد ٤٠ كليو مترًا فى الجهة الجنوبية الشرقية . وكانت هذه التلال على هيئة خط منحدر إلى الجنوب صوب وادى « الظيغن » وفى منتصف الساعة التاسعة لاحظنا ازدياد أكداس الحطب فى تلك المنطقة

وقد رجونا عند بدئنا السير فى الصباح أن نصل « الظيغن » ذلك اليوم ولكن رجاءنا خاب. واختلفت الآراء فى معرفة السبب الذى دعا إلى ذلك التأخير . فقال أبو حليقة « إن الدليل قد



مبان صغيرة فى الكفرة يستعملها البدو لخزن غلالهم

حاد غرباً عن جادة السبيل وإلا كنا وصلنا البئر قبل هذا » . ولكن السيد الزروالى الذى اختار الدليل دافع عنه فقال : « إنَّا أضعنا وقتًا فى ذبح الجمل وشيِّه وأكله » وفسر حامد ذلك التأخير فقال . « إن الرجال لا تستحث الجمال للسير فإن بعضهم يغفى طويلاً فى الطريق ثم يصحو على مهل فيرى القافلة لم تغب بعدُ عن بصره » . وإنما قال حامد هذا لأن بعض البدو كان يخرج عن خط القافلة ، ثم يغفى نصف ساعة أو أكثر . حتى إذا صحا لحق بالقافلة ، من غير جهد شديد ، نظراً لبطء السير ووجود أثر القافلة على الرمال

وقد ذكرت إذ وقفنا النار لطَهى أول طعام ساخن نتناوله بعد مرور ثلاثين ساعة ، أن تلك الجهة هى التى ضللنا فيها الطريق فى رحلتنا السابقة إلى الكفرة سنة ١٩٢١

وبعد الفراغ من تناول الطعام تركنا داود عم الزروالى إلى « تيزربو » التى تبعد عن «الظيغن » مسيرة يوم إلى الغرب . وكان قصده أن يعود بزوجه وبنته إلى برقة حيث يمكنه أن يجد عملاً أوفق له . وزاد أمله أن السيد الزروالى رضى أن يمد له يد المساعدة فى مركزه الجديد . ولم يكن من السهل على ذلك الرجل المسن أن يعود بامرأتين فيخترق الصحراء شمالاً إلى برقة وليس معه إلا جمل واحد . وقد سألته كيف يدبر الأمر فأخبرنى أن ثلاثتهم يمشون أول يوم حتى إذا خف الماء على الجمل امتطته بنته ثانى يوم ثم ركبته زوجه في اليوم الثالث . فقلت له هب أن الجمل أصابه شىء فى الطريق فقال « الحماية من الله » وأعطيته أرزاً ومكرونة وشاياً وسكراً ، فتركنا وهو سعيد بعد أن قرأ لنا الفاتحة

وتناول البدو طعاماً شهياً من الأرز ولحم الجمل وانقلبوا إلى فراشهم راضين . وكانت الليلة بديعة فتركت خيمتى وقضيت أويقات هادئة فى ضوء القمر الذهبى ، والنجوم الباهتة فى غمرة نوره الوضىء ، وملأت نفسى سروراً بذلك المنظر الممتع ، وازددت شجاعة بنجواها الصامتة فعدت إلى فراشى ملآن ثقة وأملاً

(٥) الأحد ٢٥ مارس :

قمنا الثامنة إلا ربعاً ووقفنا الثانية إلا ربعاً وقطعنا ٢٤ كليو متراً . أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١٤ . وهبت ريح قوية من الشمال الشرقى طول الليل، فلم تسكن إلا فى منتصف الساعة الخامسة . وكان الغيم يحجب الشمس فى الصباح ، وأمطرتنا السماء رذاذاً عند الظهر ، وتبددت السحب بعد الظهر ، وكنا نمر طول الطريق بأكداس الحطب التى ازداد ارتفاعها كلما قربنا من البئر . وكان يتخلل تلال الحطب، بقاع رملية تتناثر عليها قطع صغيرة

من الحجر الأسود . وأخذ الرمل يزداد نعومة حتى صار ندياً على عمق بضع بوصات من سطح الأرض. وفى التاسعة وربع رأينا فى الجنوب الغربى على بعد ٣ كيلو مترات تلال (الوشكة) وهى بئر صغيرة من مجموعة آبار « الظيغن » وفى التاسعة والنصف اجتزنا على اليسار « معطن بو حوّاء » وهى بئر ظيغن القديمة . ثم نصبنا الخيام على مقربة من أيك النخيل القائم على بئر الحرش . وهى أعذب آبار الظيغن . وليست بئر الصحراء تلك العين الجيدة الحفر المتينة الجوانب، التى ربط إليها دلو أو أقيمت عليها مضخّة . ولكنها حفرة قد قرب الماء من سطحها فسهل الوصول إليه بعد الحفر ، لأن القافلة إذا تركت بئراً فى الصحراء، تراكمت الرمال عليها، وسدت منفذها فيتعب القادم الجديد فى تطهيرها ولم يضره ذلك . لأن سروره يكون شديداً بنصيبه الوافر من الماء العذب ، بعد أن ظل أياماً لا يجد منه ما يزيد عن حاجته ، بعد عمل الشاى ليتمكن من الاستحمام أو الحلاقة .

ولا يتخيلن القارئ أن بئر الصحراء ذات حوائط يقوم عليها علم من الأعلام . فما هى فى غالب الأحيان إلا بقعة ندية من الرمل يحفرها البدوى فيخرج الماء منها على عمق ٣ أو ٤ أقدام.

وبعد مثل هذه « المرحلة » الطويلة يكون أول همّ رجال القافلة أن يسقوا الجمال ويطعموها ثم يكون أكبر همهم بعد ذلك غسل الأجسام والملابس . ويرجئون غسل الملابس إذا كان الماء قليلاً حتى يصلوا بئراً ثانية . فإذا استراح الرجال ملأوا القرب وتركوها طول الليل، ثم تعهدوها فى الصباح لمعرفة الناضح منها وفحص العيب فيها، ففصلوا رديئها عن جيدها، وبدأوا بشرب ما فى الأولى يقينا منهم بصلاح الباقى.

وتكون أولى الليالى التى تقضيها القافلة عند بئر – مهما كان نصيب أفرادها من التعب – ليلة أنس وسرور ورقص وغناء

ويشعر الإنسان قبل الوصول إلى البئر أنه سيقيم عندها أربعة أيام أو خمسة ، ناعماً بوفرة الماء بعد حرمانه منه طويلاً . ولكن العجيب فى الأمر ، أن الإنسان إذا قضى يوماً فاستراح، تملكته حمى القلق وغَنِيٍ عن الراحة والنعيم بجهل الطريق وقلة ما فيها من مناعم الحياة . واكتفى بالبلح الجاف، فأكله هنيئاً لا فرق فى ذلك بين البئر الغزيرة الماء فى الواحة المخصبة الملأى بملاذّ الحياة وبين العين ذات الوشل .

ولا تزيد البئر بعد حفرها فى غالب الأحيان عن متر مربع فى مساحتها ، ويمسك الرمل الندى حيطانها فيتركها الإنسان حتى يقر الرمل ، ويصفو الماء وقلماً يصبر البدوى حتى يروقه فيشربه عكراً . وكم شربت من أكواب الماء العكر وكرعت منه فى كوية الزنك التى لا أبصر لها قراراً . ولم أستعمل الراووق (الفِلْتر) الذى اقترح علىّ حمله بعض الأصدقاء جتى وصلت السودان . فإن الماء كان من الرداءة ووفرة القذى بمكان . وقد استعملته قليلاً ثم أهملته لأنى وجدت بعض أجزائه مفقوداً . وليست قذارة الصحراء كقذارة الجهات الأخرى ، فإنها لا تؤذى الصحة . لأن الرمل شىء نظيف وثياب البدو يتخللها الهواء ، والحشرات وافرة لايمكن الخلاص منها ولكن البدوى اعتادها فأصبح لا يأبه لها .

الفصل الثانى عشر

اختلاف مناظر الصحراء وإصلاح الخريطة

(٦) الاثنين ٢٦ مارس :

عند بئر الحرش من آبار الظيغن . أعلى درجة للحرارة ٢٧ وأقلها ٦ . جو صحو وريح شمالية شرقية انقلبت عاصفة شديدة حوالى الساعة ١١ وظلت ثائرة حتى منتصف الساعة السابعة . ولم تقر حتى منتصف التاسعة

كان عزمنا أن نقيم ليلة واحدة فى الظيغن ، ولكن العاصفة اضطرتنا إلى البقاء يوماً آخر . والظيغن منطقة بها أربع آبار وهى : الاثنتان اللتان مررنا بهما يوم الأحد ، والحرش التى نزلنا عندها ، وأبو زريِّق على بعد ٢٠ كليو متراً فى جهة الشرق .

وقد حادث أبو حليقة أثناء النهار تابعى عبد الله فى أمر مجيئى إلى الصحراء فقال « إنكم جريئون أيها المصريون . فإن من الجسارة أن يحضر البك مرتين إلى بلادنا التى لم أر أجنبياً زارها . ولعمرى لماذا يأتى إلى الصحراء ويترك خيرات الله فى مصر ، إن لم يكن له غرض خفى فى ذلك السفر وأخطاره . ولست أكتمك أنى يشغلنى أمر مجيئه مرتين واهتمامه بقياس هذه الجهات ورسمها »

حتى صديقى أبى حليقة تصل الريبة إلى نفسه منى، ويخامره الشك فى أغراضى حين اخترقت بلاده . وقد وضح لى فى آخر الأمر ، الدافع الحقيقى الذى سبَّب كراهية البدو فى مجىء الأغراب إلى بلادهم . وليس ذلك الدافع تعصباً دينياً ، وإنما هو غريزة المحافظة على النفس . فإن الغريب إذا أوغل فى الصحراء إلى الكفرة، وهى مركز حياتهم المحبوب ، كان كما يقول البدو « كالجمل يدخل أنفه من ثنايا الخيمة » . ويتبعه بعد ذلك كثيرون، فتكون النتيجة تملك الأجنبى بلادهم ، وضياع استقلالهم ، وإنزالهم على دفع الضرائب . وليس لأحد أن يلومهم على الخوف من إحدى هذه النتائج .

والرأى الشائع أن الصحراء لا يتبدل فيها شىء، ولكن توالى الأيام يخلق فيها تغييراً مدهشاً . فإن الرحالة رولف عند مروره بالظيغن ، فى طريقه إلى الكفرة سنة ١٨٧١ ذكر



السيد شمس الدين
ابن المرحوم السيد الخطابى شقيق السيد العابد



السيد شرف الدين (شروفه)
ابن السيد العابد السنوسى

وجود مساحة كبيرة من النباتات فى تلك الجهة . ولكنى لم أر فيها خضرة أصلاً وإنما وقع نظرى على أكوام من الحطب الجاف .

ويؤيد قول رولف ما ذكره لى أبو حليقة من أن أباه كان يأخذه إلى الكفرة عند سفره لاستجلاب البلح . لأن البدو يعتقدون أن ماء (شخيرة)، وهى مركز الزوية بالقرب من جالو ، يضر الأطفال فى الصيف . وكان أبوه يحمله فوق ظهره معظم الطريق ، ويقطعها فى ذلك الوقت ، فى ثلاثة أيام وخمس ليال بدون وقوف فى الطريق . وإنما كانوا يقدرون على هذا بإطعام الإبل مرة واحدة بين جالو والظيغن ، حتى إذا وصلوا الظيغن تركوها ترعى فى الأرض الخضراء التى تحيط بها . وهكذا يتضح أن رولف لم يكن كاذباً فى وصفه تلك الجهات بكثرة المراعى . ولكن مرور ٤٥ سنة غيّر معالم تلك الجهات . وربما كان السبب فى ذلك ، اختلاف سريان الماء فى طبقات الأرض، وانقطاعه عن تلك الجهات اليانعة فأصبح كل ما فيها حطباً للوقود.

وكانت مرحلتنا من بئر بو الطفل إلى الظيغن مثلاً ناطقاً لمخاطر الصحراء ، فإنا احتطنا فى تلك السفرة جهد الطاقة ، ولكن وقودنا نفد ومات منا جمل ، وخارت قوى جملين آخرين حتى خيف عليهما . واستهلك طعام الجمال فاقتاتت بين الظغين والكفرة بأوراق النخيل التى جمعناها فى الظيغن ، والسعف طعام لا يغنى الجمل من جوع ، وقد حفظت عن أحد البدو مثلاً لا يخلو من لمزة تهكم وهو « صديقك كناقتك تعطيك اليوم لبنًا وتخذلك فى الغد »

وقد رصدت نجم القطب الشمالى بواسطة التيودوليت الليلتين اللتين قضيتهما فى الظيغن . ووضح لى بعد تطبيق الملاحظات وعمل الحساب، أن الظيغن واقعة على بعد ١٠٠ كيلو متراً فى الجهة الشرقية الشمالية الشرقية من الموقع الذى وضعها فيه رولف . والمعلوم أنه لم يزر الظيغن ولم يرصدها ، واعتمد على ما قاله البدو عنها . وقد لاحظت فوق هذا أن الظيغن تعلو ٣١٠ متر عن سطح البحر

(٧) الثلاثاء ٢٧ مارس :

قمنا الساعة السادسة وربعًا صباحًا ووقفنا الثامنة مساء وقطعنا ٤٧ كليو متراً . أعلى درجة للحرارة ٢٦° وأقلها ٨° . جو صحو وريح قوية من الشمال الشرقى هبت الليل والنهار وسحاب صبير . وقد أشار الدليل بعد تركنا الحرش إلى موقع الكفرة على بعد خمس درجات

من الجنوب الجنوبي الشرقي . وظللنا مدة ساعتين نمر بالحطب الممتد على مسافة ١٠ كيلو مترات من شرقي البئر . ثم دخلنا جهة كثيرة الرمل الناعم القليل التموج . وازداد تموج الأرض حتى دخلنا أصقاع التلال الرملية قرب الغروب .

وفي منتصف الساعة الثالثة رأينا جهة الشرق صفاً من التلال الرملية يتخللها تلال صغيرة تسمى أجراس من الحجر الأسود . وكان امتداد هذه التلال من ٢٠ إلى ٣٠ كيلو متراً وقد انحدرت على مدى أبصارنا صوب الجنوب الشرقي . ثم انتشرت تلال الرمل (ويسمونها عزر) بعد ذلك صوب الجنوب الغربي . وفي منتصف السادسة تقاربت هذه التلال واعترضت سبيلنا، فولجنا بينها ولكنها لم تكن من الارتفاع بحيث صعب علينا اجتيازها .

ووضح لي الفرق الشديد بين البدو والعبيد في الصبر على السير ويقول السود أنهم لايحبون الزوية وإن خافوهم . وكانت جمال التبو أكثر صيانة وانصياعاً من جمال البدو وكان كل جمل منها مربوطاً إلى « رسن » لقيادته ولا تسير متخبطة كجمال البدو

واجتزنا عند الظهر علم (جبيل الفضيل) وهذا العلم ، شأنه شأن أكثر أعلام الصحراء ، يحمل اسم من فقد حياته بالقرب منه تذكاراً له .

كان الفضيل من خير أدلاء الصحراء . وكان في طريقه من جالو إلى الكفرة فغمرت قافلته عواصف رمل شديدة أهلكت جميع أفرادها . ولم يكن هنالك شاهد على ما حدث . ولكن ما وجد بعد ذلك من أثر القافلة أظهر جلية الأمر .

قامت عاصفة شديدة سفت الرمال في وجه القافلة وآذت عيني الفضيل كثيراً فعصبهما . ولم يستطع رؤية الطريق، بل اعتمد على وصف من كانوا معه للأعلام التي مروا بها . ولكنهم كانوا قليلي الخبرة فأخطأوا آبار الظيغن . وحاولوا الانحدار إلى الكفرة، ولكنهم ضلوا في الصحراء . وفنيت القافلة إلا جملاً واحداً غالَبَ أن يرجع إلى الكفرة تقوده غريزته التي لا تخطئ فوصلها، وعرف أهل المدينة أنه من جمال الفضيل بما على عنقه من وسم . وقامت قافلة لنجدته فتبعت أثر الجمل في الصحراء . ولكن الوقت كان قد فات . فإنهم عثروا بجثث الرجال متصلبة فوق صعيد الصحراء بالقرب من العلم الذى أطلق عليه اسم الفضيل التعس الذى وجد معصوب العينين فكشف عن سر المأساة وأظهر حقيقة الفاجعة .

(٨) الأربعاء ٢٨ مارس :

كانت السحب كثيفة طول النهار يتخللها ضوء الشمس من آن لآخر ، ولم تنقشع كذلك فى المساء . وهبت ريح باردة من الشمال الشرقى ثم انقلبت فى الثامنة صباحًا عاصفة دامت ثلاث ساعات ونصف ساعة، واستمر هبوب الريح الباردة فى المساء، وسقط رذاذ فى منتصف الحادية عشر مساء

سرنا بين تلال الرمل مدة ساعتين ، ثم دخلنا أرضًا متعرجة مغطاة بالحجارة السوداء المهشمة التى آذت الجمال كثيراً . وقضينا فى تلك الحرّة ساعتين ثم سرنا ثانية بين تلال الرمل، وفى الحادية عشرة ونصف صباحًا كانت سلسلة تلال « الهوايش » عن يسارنا، وتلال الرمل والحجارة السوداء عن يميننا ، وفى الثانية عشرة وربع اجتزنا عن يسارنا، على بعد أربعة كيلو مترات علم « جور المخزن » وهو عبارة عن تلال من الحجارة السوداء يبلغ ارتفاعها من ٥٠ إلى ١٥٠ مترًا ، وفى الثانية إلا ربعًا مررنا بعلم « الحجارة وبنتها » وهو عبارة عن تلين يختلفان حجمًا بحيث عليهما الاسم الذى تسميا به

وأخبرت بعض البدو كيف ضللت الطريق سنة ١٩٢١ فلم يعجبوا لذلك، لأن أهل الصحراء ألفوا كل يوم فقد الطريق والإبل والماء والوقود.

(٩) الخميس ٢٩ مارس :

لم أتمكن ذلك اليوم من ضبط أقل درجة للحرارة لأن ترمومتر النهاية الصغرى كسر أثناء هبوب العاصفة

ظلت تلال « الهوايش » عن يسارنا حتى العصر ، وفى الحادية عشرة ونصف دخلنا أرضًا ناعمة الأديم كثيرة التلال الرملية المتموجة التى يصعب سير الرجال والجمال عليها . وفى منتصف الثانية مررنا يمينًا بأكبر الأعلام التى اجتزناها ، وهو علم « جارة الشريف » . وهذا العلم عبارة عن تل يمتد ١٥٠ مترًا ويبلغ ارتفاعه ١٠٠ متر ويجاوره ثلاثة تلال . اثنان منها فى الجنوب والثالث فى الشمال

وفى الثالثة سرنا بين تلال متعددة خرجنا منها بعد ساعتين إلى أرض منبسطة صلبه الرمل كثيرة ركام الحجارة السوداء .

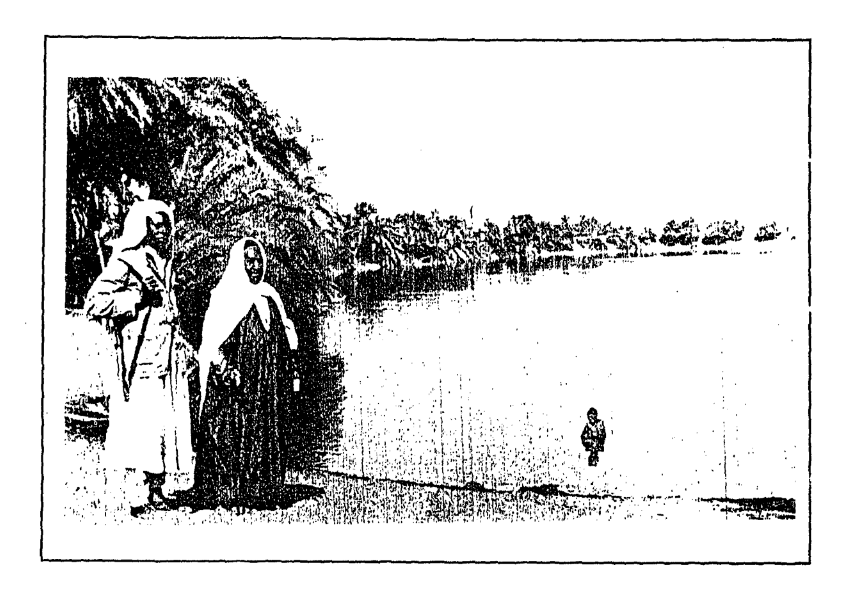
وفى منتصف الرابعة صباحاً قامت أشد عاصفة رملية ابتلينا بها فى الطريق . فاجتاحت الخيام وقوضت أركان خيمتى، وهَشَّمت بعض أدواتى، وبينها الكرونومتر الصغير.

وتهدمت الخيمة علىّ وزاد ثقلها بما انهال عليها من الرمال التى لا ينقطع تراكمها . فخفت الاختناق تحتها ، ولكنى لحسن الحظ أمسكت وتداً من أوتاد الخيمة، ورفعت به قماشها عن وجهى، وجرى الرجال لمساعدتى . ولكنى صرخت إليهم أن يضعوا أكياس الدقيق وقطع الأمتعة فوق خيامهم وخيمتى حتى لا تجتاحها العاصفة جميعاً . وأقمت فى ذلك المركز المتعب تحت خيمتى زهاء الساعتين . وكان الرمل ينفذ إلىّ من شق الخيمة كأنه يقذف من بندقية

وقاسى الرجال والجمال كثيراً ، وأوشكت العاصفة أن تفجعنى فى الكرونومتر الكبير ، لأن طنب الخيمة لو مال قيد أنملة واحدة، لهشم تلك الآلة النافعة ، وحرمنى جانباً كبيراً من النتائج العلمية للرحلة .

والبعيدون عن الصحراء لا يعلمون من أمر الرحالة إلا الخيبة أو النجاح، يفصلهما خط واضح ، ولكن المستشكف لا يميز هذا الخط .، فقد يكون ضارباً فى الطريق السوى جامعاً كل المعلومات التى أرادها، قريباً من نهاية الرحلة ، ثم تخور جماله بغتة فيضطر إلى ترك أثمن حوائجه . ويفضل الماء والزاد فيستبقيان وتترك الأجهزة الفنية والمدونات . وقد تكون مصيبته أدهى فيضحى بكل شىء حتى بحياته ولا يعرف الناس من أمره إلا أنه خاب . وقد ينصفه بعض النقاد فيقولون : إنه خاب خيبة مشرفة . فهو على الحالين خائب . وما أقرب هذه الخيبة من النجاح . فقد يكون ذلك الخائب أكثر عملاً، وأشد تحملاً لمشاق الطريق الطويل ، ممن أصاب النجاح فى رحلته . وإنما يميل الرحالة إلى أخيه الذى جاهد وخاب ، لا إلى ضريبة الموفق ، لعلمه أن أولهما لم يخب إلا بعد أن جاهد جهاد الأبطال ، فى سبيل الاحتفاظ بثمرة مجهوداته .

والبدو يقدرون ذلك . فقد كان فى أخلاقهم نزعة أدهشتنى وراعتنى فى بعض الأحيان، ثم أمكننى فهمها أخيراً . وذلك أنهم لم يكونوا يطربون ويسرون إذا انتهت مرحلة اليوم بالنجاح المرغوب ، وكأنهم يقولون : لقد وفِّقنا اليوم ولكن ماذا عسى يكون نصيبنا فى الغد ، ولذلك لم يكن من عادتهم أن يطربوا بالنجاح لأنهم لم يصلوا إليه بمهارتهم ، وإنما ساعدتهم العناية فى إصابته . فقد تكون رحلة الغد أسهل من سابقتها وتكون الخيبة فيها عظيمة . وقد عثرنا بآثار قافلة منقرضة فى رحلتى الأولى بصحراء ليبيا بين واحة لوزيمة – وهى من واحات الكفرة –



البحيرة بالكفرة

وبين الكفرة . ورأينا يداً نافذة من بين الرمال مصفرة الجلد فى لون الرقى . فتقدم إليها أحد الرجال وهو خاشع فهال عليها التراب وغطاها . وإنما ضل رجال تلك القافلة وماتوا عطشاً وهم على مسيرة ثلاثة أيام من الواحة .

وكم وجد من بقايا قافلة فنيت وهى على مرأى من البئر . وكم عرف من أخبارها المروعة ، فلم يمنع ذلك القوافل من سلوك تلك السبيل . لأن البدوى يؤمن بالقدر ،، ويعتقد أن الله قضى على أفرادها بالموت فى الطريق . وقد قال لى أحد البدو ذات مرة : « حواصيل الطيور ولا ظلام القبور » يعنى بذلك أنه يفضل أن تأكل جسده القشاعم .

وكان يومنا هذا متعباً، لما أصابنا من إقلاق الراحة فى الليلة الماضية عند هبوب العاصفة ، وما أصابنا من الجهد فى السير بين التلال الرملية . ولكن الرجال كانوا طربين بالاقتراب من الكفرة وزاد سرورهم أن أبا حليقة الذى كان يقطن الهوارى . وهى أول محطة فى ظاهر الكفرة عزم أن يذبح شاة ويولم وليمة لأفراد القافلة .

وكانت الإبل ضعيفة ناحلة ولكن ثلاثة منها كان وطنها الكفرة، فاندفعوا فى السير إليها غير مسوقين رغم صعوبة المسير بين التلال ، وتبعها سائر جمال القافلة . وفى السابعة إلا ربعاً أبصرنا « جارة الهوارية » وهو العلم العظيم الدال على الاقتراب من الكفرة .

(١٠) الجمعة ٣٠ مارس :

قمنا الثامنة إلا ربعاً صباحاً ووقفنا السادسة إلا ربعاً وقطعنا ٣٥ كيلو متراً فوصلنا الهوارى . وسقط رذاذ من المطر فى المساء . وكانت الأرض منبسطة ناعمة الرمل قليلة التعرج، تكثر فيها أكوام الحجارة السوداء والحمراء . وفى منتصف الساعة العاشرة ، دخلنا منطقة الرمل الأحمر التى تحيط بالكفرة ، واحجتزنا فى طريقنا اليوم قطعاً من الخشب المتحجر . وفى الساعة الأولى والدقيقة ٢٥ مررنا بجارة الهوارية . وفى منتصف الساعة الرابعة أبصرنا نخيل الهوارى وبعد ذلك بساعة ونصف دخلنا الواحة وضربنا الخيام فى قرية « العوازل » . وهكذا وصلنا أول مراكز الكفرة

وقد أطلق اسم الكفرة فى عهد المستشكف الألمانى رولف على الأربع الواحات المتفرقة المسماة تيزربو وبوزيمه وربيانه وكبابو التى تكون الكفرة الحالية . ولكن اسم الكفرة يطلق الآن على واحة كبابو فحسب .

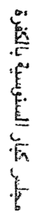
والهوارى أبعد أقسام الكفرة ناحية الشمال، وهى واحة صغيرة مكونة من ثلاث قرى وهى الهوّارى، والهواويرى، والعوازل، وتقع التاج على بعد ١٧ كيلو متراً من الهوارى . وهى مركز الحكومة المحلية كما أنها أهم موقع . وهى واقعة على ربوة صخرية تطل على منخفض الواحة الأصلية التى تقع فى الجنوب . وتضم قرى الجوف وبويمه وبومه والزرّق والطلاليب والطلاب .

وكان غرضى أن أتقدم فى السير إلى التاج . وهى أهم مدن الكفرة فى اليوم التالى، ولكن أبا حليقة طالب بحقه في الضيافة وأصر على استبقائى يوماً فى بلده . وقضينا ليلة هادئة لا يعكر صفوها هبوب العواصف، أو تهدم الخيام. واستيقظت فى الصباح فحلقت ذقنى واستعددت لالتهام الفطور الذى تفضل بإرساله بدو قافلة وصلت حديثًا من « واداى » . وفى نفس الوقت جمعت بعض معلومات قيّمة جعلتنى أفكر فى تغيير بعض خططى .

وبعثت رسولاً إلى التاج برسائل إلى السيد العابد ابن عم السيد إدريس وشيخ السنوسيين فى الكفرة، وإلى السيد الجدّاوى وكيل السيد إدريس الخاص .

ورافقنى الزروالى بعد ظهر ذلك اليوم إلى الهوّارى ، حيث استقبلنى فى زاويتها الإخوان وأشراف المدينة . وبعد أن تبادلنا عبارات الترحيب والتحية تناولت العشاء فى منزل عم السيد الزروالى . واحتج علىّ شيخ البدو لأنى فاجأتهم بزيارتى ولم أضرب خيامى خارج المدينة ، وأخبرهم بحضورى حتى يتهيأوا للقائى كما يجب . ويحتمل أنهم سمعوا بالإكرام الذى لقيته فى جالو، فعز عليهم أن لا يقوموا نحوى بمثله وزيادة ، وسمعت إشاعات عن دسائس بين بعض شيوخ الزوى الذين ارتابوا فى غرضى من المجىء مرة ثانية إلى الكفرة، واحتجوا على هذا المجىء بتخلفهم عن مشاركتى فى العشاء الذى هُيّئ لى . وكان هؤلاء الشيوخ ذوى نفوذ شديد فصممت بعد سماع هذه الإشاعات على الإسراع بالسفر إلى التاج، خيفة أن يرسلوا إليها ما يشوش الأفكار قبل وصولى .

وبعد تناول العشاء ، عدت إلى خيامى فى ليلة مقمرة ، فوجدت أمراً هاماً فى انتظارى فإن « عقيلة » أكبر أبناء أبى حليقة لدغته عقرب، وسألنى أبوه أن أشفيه، ثقة منه فيما حملت من الأدوية، فأخذت المصل المضاد للدغ العقرب ، وقصدت داره فرأيت ابنه فى أشد حالات المرض محترقًا من فتك الحمى . وكنت قد فكرت فى أخذ هذا المصل، فى آخر لحظة قبل قيامى من القاهرة . وكان بين مودعىّ طبيب من أصحابى فأرشدنى، وهو يشد على يدى، إلى طريقة استعماله ، بينما كنت أتبادل كلمات الوداع ، مع من كان حولى من الأهل والأصحاب . وكانت



مجلس كبار السنوسية بالكفرة

هذه أول مرة حاولت فيها أن أقوم بإعطاء هذه الحقنة ، فأجهدت فكرى فى جمع الإرشادات التى أعطانيها صديقى الطبيب فى موقف التوديع . ولكنى لم أبصر فى صفحة خيالى إلا الفرق الشديد بين غرفة المريض المظلمة ملأى بأهله وإخوانه يتعقبون جميع تحركاتى ، وبين موقف التوديع الحار ساعة أضفت أنابيب المصل إلى حوائجى . ومع هذا، وبالرغم من شكِّى فيما إذا كان الإسعاف قد فات وقته ، فقد أعطيت الشاب تلك الحقنة وعدت أدراجى إلى خيمتى مشغول الخاطر بما عسى أن تكون النتيجة .

ولم يمض وقت طويل حتى سمعت جلبة جمهور يتقدم إلى خيمتى وهو يرسل فى الفضاء صراخًا عاليًا وقع من أذنى موقع العداء، فظننت أن الصبىّ قد قضى، وأن تبعة موته ستقع على عاتقى بدل أن ينسب إلى لدغ العقرب، ففكرت فى جمع رجالى للدفاع عن صندوق الآلات الذى حسبت أن سيكون هو أول ضحية لسوط غضبهم . واستعددت للدفاع عن نفسى، وكانت ساعة عصيبة لم تدم طويلاً، فقد هَدَأتُ بعدها لأنى مَيَّزْتُ فى صراخ القادمين رنة سرور .

ولم تمض دقائق حتى دخل علىَّ أبو حليقة وشكرنى من أعماق قلبه ، لأنى شفيت ابنه من دائه العضال ، قائلاً بحرارة وحماس « الله أكبر لقد كان سحرًا ما فعلت ، إن شفاء ابنى كان فى الدواء الذى أعطيته له » . وكانت حمى الصبى قد هبطت وتولد الأمل فى شفائه ، فشكرت الله فى نفسى على التوفيق الذى أصابه عملى . لأن موت الطفل كان يحرج مركزى ويضعنى فى أخطر المواقف .

وتركنى زوّارى فخرجت فى ضوء القمر أستريض بين أجمات النخيل .

الفصل الثالث عشر

الكفرة – الأصدقاء القدماء – تغيير خطة الرحلة

(١١) الأحد أول أبريل :

قمنا العاشرة إلا ربعًا صباحًا ووقفنا الثانية بعد الظهر وقطعنا ١٧ كيلو مترًا . ووصلنا التاج . وفي الساعة الحادية عشرة وربع دخلنا أرضًا مهشمة الصخور كثيرة التعاريج ، تغطيها أكوام من الخراسان الأسود والأحمر على طول الطريق إلى التاج .

وجاء « عقيلة » يساعدنا في تحميل الجمال . وكان قد أبلّ من مرضه وعزم على السفر معنا إلى التاج . وأرسل أبو حليقة الفطور إليَّ وإلى رجالي ، وأخذت عليه شدة اهتمامه بي فأجاب على هذا : أني حرمته حق ضيافته لنا مدة الثلاثة الأيام المألوفة . وبعد قليل جاءت جارية من بيته تحمل صحفة كبيرة من الأرز ودجاجًا وبيضًا . وقد ظهر لي أن سيدها ألبسها لباسًا خاصًا لهذه المناسبة . فقد راقني ثوبها الرشيق ذو القماش الأزرق والنطاق الأحمر الملتف حول خصرها النحيل .

وأخبرتها أنَّا مسافرون في التوّ ، وأنَّا لسنا في حاجة إلى الطعام فقالت في خفر « ربما مست الحاجة إليه في الطريق » لقد طهيته بنفسي فقلت لها : « إذا كان الأمر كذلك فأنا أتقبله بكل سرور » . فبان عليها الفرح، ورجعت فأتتنا بصحفة أخرى لا تقل عن تلك حجمًا ولا تحريكًا للشهية . وشكرت لها لطفها وزودتها بشكري لسيدها الكريم .

وودعنا أهل « العوازل » توديعًا حارًا ، وتقدمتُ القافلة على جواد أبي حليقة ولم نكن في حاجة إلى دليل لمعرفتي بالطريق . ولم تفت السنوسي أبا حسن ملاحظة ذلك فقال : « إن البك يعرف الطريق حق المعرفة ولا أحسبه إلا صائرًا دليلاً قادرًا في بلادنا »

والطريق إلى الكفرة من جهة الشمال فيه شيء من المفاجأة تجعله ممتعًا ، فقد سرنا في أرض قليلة التعرج ، يكتنفها مرتفع من الأرض قليل العلو كان لنا بمثابة الأفق ، ثم انقلب ذلك التل فجأة فأصبح طائفة من الأبنية لا تكاد العين تميز عن بعد فرقًا بين جدرانها وبين الصخور والرمال التي تماثلها تلك الأبنية لونًا وشكلاً .

وكانت هذه المحلة مدينة « التاج » مركز الأسرة السنوسية في الكفرة .

ودخلنا المدينة فرأينا الأرض التى خلفنا قد هبطت فجأة فى وادى الكفرة وهو واد بعيد الغور ، يكاد يكون بيضاوى الشكل يبلغ أقصى قطريه ٤٠ كيلو متراً وأدناهما ٢٠ كيلو متراً . ويتناثر فيه النخيل ، وتمتد فيه على شكل خط متعرج من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، القرى الستّ المعروفة بأسماء بويمه وبومه والجوف والزرّق والطلاليب والطلاب .

وتقع بالقرب من الجوف بحيرة متوسطة الحجم زرقاء اللون متألقة الماء ، هى فى وسط تلك الرمال الموحشة عطية من عطايا الله . فإن مياهها المنبسطة تبعث السرور إلى العين المتعبة من رؤية الرمل الدائم . ولكن مياه هذه البحيرة المْلِحة أشد غصة فى حلق الظمآن من قذى السراب فى عينه

وقابلنى عند دخول مدينة « التاج » أصحابى القدماء . وكان السيد العابد ابن عم السيد إدريس وشيخ السنوسيين فى الكفرة مريضاً بالروماتزم فتفضل بإرسال تحياته إلىَّ مع سيدى صالح البسكرى القائمقام، والسيد محمود الجدّاوى وكيل السيد إدريس وجمع من الإخوان .

وصحبنى هؤلاء إلى منزل السيد إدريس الذى أعدّ لإقامتى ، وكانت إقامتى فى رحلتى الأولى إلى الكفرة منذ سنتين فى نفس هذه الدار فأحسست كأنى فى دارى . وأراد السيد البسكرى أن يمازحنى فقال : : « علّم يا بك رجالك دروب الكفرة فإنى لأحسبك أخبر بها منهم جميعاً بما فيهم السيد الزروالى الذى لم يطأها منذ ١٣ سنة »

وبدأت دلائل الضيافة فى الحال فقدّم لنا الشاى قائد الجند . ولم أكد أستريح قليلاً حتى جاءنى أحد العبيد يدعونى إلى تناول الغداء فى دار السيد العابد . وكان نفس الرسول الذى قادنى منذ سنتين . وسرت معه فى نفس الدروب ودخلت نفس الدار العجيبة التى يقيم فيها قائد السنوسيين . وأنا أشعر كأنى أعيش فى عهدى الماضى أو كأن العمر لم يتخطّ بى السنين..

ودار السيد العابد ذات طرقات متعددة متوشّحة ، ملأى بأبواب الغرف التى يقيم فيها أفراد أسرته وحشمه . ودخلنا الغرفة المعهودة التى زاد زينتها عن قبل ، ما أضيف إليها من السجاجيد الثمينة والوسادات ذات الألوان المزركشة . وقد علّق على جدرانها تلك المجموعة من الساعات والبارومترات التى يحب جمعها صاحب الدار . وكانت الساعات سائرة بدقة وهى لا تقل عن اثنتى عشرة ساعة مختلفة الشكل والحجم .

وجاء السيد صالح يسامرنى ويعتذر عن غياب السيد العابد القهرى . ووضعت أمامى مائدة تصلح للملوك وتهيج شهية مَن قضى الأيام الطوال فى الصحراء . وتنوعت فيها ألوان الطعام والحلوى ، وختمت بثلاثة أكواب من الشاى معطرة بالعنبر وماء الورد والنعناع .

وعدت إلى دارى بعد انتهاء الوليمة . فلم أكد أتعهد حوائجى وأتحادث فى أمر الجمال اللازمة للمرحلة الثانية ، حتى جاءنى عبد صحبنى ثانية إلى منزل سيدى العابد لتناول العشاء. فاستقبلنى السيد البسكرى ، ذلك الشيخ الوقور الرضى فى جبة ذهبية اللون . وكان قد خلع عن رأسه طربوش البدو الطرىّ، ولبس كوفية بيضاء من الحرير ، وعقالاً اختلطت فيه الخضرة بلون ذهبى . وبعد أن فرغنا من تناول الطعام ، أديرت أكواب الشاى المعطر وأحرق البخور . وهنا بدأت ساعات الغرفة تدق أنغامًا مختلفة مؤذنة بحلول الساعة الثالثة من الزمن العربى، فأغمضت عينى لحظة وأحسست كأنى فى أكسفورد أسمع الدقات المتنوعة تنبعث من ساعات أبراج الكليّات والكنائس .

وخرجت فى ضوء القمر يغشانى عبق ماء الورد ويحيط بى نشر البخور ، فعلوت التل المشرف على مياه البحيرة، وذكرت زيارتى الأولى أيام كانت الكفرة غاية رحلتى السالفة . وفكرت فى شأنها اليوم ، وهى مبدأ القسم الشيّق من رحلتى الثانية

ووقفت أسمع أصوات الإخوان والطلبة ترتل الحزب فى سكون الليل ، فطفر عبد الله من بين الظلال ، ووقف إلى جانبى ثم قال بصوت خافت عميق : « هذه ليلة النصف من شعبان يحقق الله فيها أمل من يدعوه » ، ثم سكت . وظللنا وقوفًا صامتين بضع دقائق . وكان وجهى صوب الجنوب الشرقى ، حيث تقع سبل غير مطروقة وواحات مجهولة . ودار عبد الله بوجهه صوب الشمال الشرقى حيث توجد مصر وفيها أسرته وأولاده . ثم تمتم دعاء خافتًا . ولم تكن ثمة حاجة لأن أسأله لم الدعاء .

(١٢) الاثنين ٢ أبريل :

أخبرنى أثناء إقامتى بالهوارى بدو القافلة المسافرة من واداى ؛ أن فرقة فرنسية سارت شمالاً حتى وصلت بئر ساره ، متبّعة فى سيرها الطريق التجارية الأصلية من واداى إلى الكفرة . وكانت هذه الطريق هى التى صممت على أخذها بادئ بدء ، ولكنه وضح لى أن الذى لم يستكشف منها بعد ، هو الجزء الصغير الواقع بين ساره والكفرة . وكنت قد سمعت قبل ذلك بعض حكايات غامضة عن واحات مجهولة ، فى الطريق الجنوبى الذى دار بخلدى أن



بدوي مع جاريته

استكشفه يومًا من الأيام . رغم علمى أن الطريق المستقيم إلى دارفور لم تطأه قدم بدوى أو سودانى ، لما توّهم الناس فيه من الصعاب والمخاطر . وغيّرت قصة الفرقة الفرنسية وجهة تفكيرى صوب هذه الواحات ، وفضّلت أن أسعى لاكتشافها عن أن أتبع خطتى الأصلية .

وكان عزمى من البداية أن أفرغ قصارى جهدى فى استكشاف الواحات المجهولة ، حتى إذا خِبْتُ فى هذا قطعْتُ صحراء ليبيا سائرًا فى الطريق المعروفة ، فاخترقت واجنجا ووادای ، ثم انحدرت جنوبًا إلى دارفور . وجاءنى السيد الزروالى وسليمان أبو مطارى يناقشانى فى أمر السفر إلى الجنوب فكانت نصائح أبى مطارى مثبطة لهمتى إذ قال : « إن آخر قافلة طرقت هذا السبيل منذ ثمان سنين، وكان قائدها أخى محمود ذبح أفرادها وقطعوا إربًا على حدود دارفور . على أنهم لم يسيروا فى الطريق التى تريد اتخاذها أنت الآن ، وإنما أخذوا الطريق الأسهل من العوينات إلى واحة « مرجه » (وهى واحة صغيرة على بعد ٢٩٠ كيلو مترًا من الجنوب الشرقى للعوينات) .

أما الرحلة التى تزمع القيام بها فترمى بك فى أصقاع لم تطأها قدم بدوى من قبل . والمرحلة بين العوينات وأردى بعيدة الشقة، كثيرة المخاطر، والله يلطف بالقافلة التى تقاسى حرها الشديد . وأكبر ظنى أن جمالك تسقط كالطيور فى الطريق أمام ريح السموم الجنوبية . ولو فرضنا أنك اجتزت تلك النواحى سالمًا ، فمن يدرى كيف يعاملك سكان تلالها الموحشة . ونصيحتى لك أن لا تدع شوقك إلي السفر السريع يتغلب على حكمتك، فيمنعك اختيار الطريق الآمنة التى يأخذها التجار إلى واجنجا « وابشه » . وكان بهذا يخلص لى النصح رغبة منه فى عدم تعريض حياتى للخطر ، فشكرته على نصائحه، ولكنى كنت موطد االعزم على تنفيذ خطتى.

وبعد تناول الغداء الفاخر الذى قدمه لنا السيد العابد ، ذهبت لزيارة ابنه السيد شروفه . وهو شاب يتوقد ذكاء وتشوقًا لتحصيل العلوم . وقد سافر إلى بنغازى فكان رأيه أنها خير مدن العالم ، على ما بها من صغر الحجم وقلة انتشار المدنية . واعتذر لى عن مرض أبيه فعرضت أن أرسل إليه بعض الدواء الذى أتمنى فيه الشفاء له .

(١٣) الثلاثاء ٣ أبريل :

كانت حرارة الجو شديدة، والسماء ملبدة بالغيوم، والريح تهب بقوة من الجنوب الغربى . وذهبت بعد تناول الغداء كالعادة لزيارة السيد شمس الدين ابن عم السيد شروفه وزيارة أخيه

الأصغر . وكان أكبر هذين ذكيًا ذا عينين براقتين تنمان عن حب الاستطلاع ، كما تبدو على أخيه الأصغر علامات النجابة والذكاء . وقدم لى ثلاثة أكواب من اللبن ولوزًا مقشورًا ومربّى فأشبعت نفسى إكرامًا لخاطر ضائفىّ وخرجت ممتلئًا . ولم يمنعنى ذلك من تناول العشاء فى منزل السيد العابد .

وتناقشنا مرة أخرى فى خطة السفر بطريق أركنو والعوينات ، فرأيتنى أثبتْ ما أكون على رأيى . وانتظرت أن آخذ رأى أبا حليقة بعد عودته من الهوارى .

(١٤) الأربعاء ٤ أبريل :

أيقظنى السيد الجداوي فى الصباح وأحضر لى إبريقًا من الشاى المعطر ، وأحضر لى أحمد أدوات الحلاقة فشعرت بشىء من عيشة المدن بعد حياة الصحراء . ولست أكتم القارئ أن هناك لحظات يشعر فيها الإنسان بهشاشة إلى ملاذ المدن وأسباب راحتها، ولكن نفسه تطيب بالسفر الطويل فى الصحراء أثناء السير أكثر مما تطيب زمن الإقامة فى واحة من الواحات .

ومضى القسم الأول من النهار فى تصغير أكثر الصناديق الخشبية، وفى ترتيب الحوائج من جديد تحضيرًا للمرحلة الطويلة إلى الجنوب . وكانت العناية الشديدة لازمة في تحضير كل شىء لأنه لم يكن هناك أى فرصة لاستبدال الجمال حتى نصل الفاشر، وهى على بعد ١٥٠٠ كيلو مترًا تقريبًا .

واهتممت باستحضار « أخفاف » جديدة لرجال القافلة . لأن الأخفاف التى شريتها لهم فى جالو قد بليت .

وزارنى قبل الغداء بعض شيوخ زوىّ يقدمون لى واجب الترحيب . وهم مدفوعون فى الحقيقة بدافع الارتياب والتشوف إلى معرفة عدد القافلة وحوائجها ، والاهتمام بقدر الطاقة باستكشاف الخطط التى دبرتها للسفر إلى السودان

وتغديت عند السيد العابد كالعادة ، وسرّنى علمى أن الدواء الذى قدمته له نجع فيه . وقضيت بعد ظهر اليوم فى تهيئة الأسلحة والذخيرة ، وخرجت أتريض فى المساء لعمل بعض الملاحظات بواسطة بوصلتى عن النواحى المجاورة لبلدة « التاج » .



مشايخ قبيلة زوى بالكفرة

(١٥) الخميس ٥ أبريل :

كان الزروالى قد أطال فى محادثة أبى حليقة الذى وصل أثناء الليل من الهوارى . وكان رأى الأخير الرفض الصريح فى تنفيذ فكرة السفر إلي الفاشر بطريق العوينات ، وجاء لزيارتي وحاول أن يحملنى على السفر بطريق واداى، ولكنى لم ألن لنصائحه فداخله اليأس . لأنى صرّحت له أن لا شىء يزعزعنى عن تنفيذ رغبتى فى السفر إلى الفاشر بطريق العوينات.

ودار بيننا الحديث الآتى . قال أبو حليقة : « والله إنها لطريق مخوفة وكم من قافلة أكلها سكان التلال الواقعة فى تلك الطريق . إنهم قوم لا يخشون الله ولا يخضعون لسلطة إنسان . وهم كالطيور يعيشون على قمم الجبال . ولا محيص لك عن الوقوع فى مناوشات معهم » . فأجبته : « إنا رجال مؤمنون نوقن أن مصيرنا فى يد الله جل وعلا. فإن قدّر علينا الموت دهمنا فى طريقنا إلى أقرب بئر »

فقال أبو حليقة : « كم من شيخ زوىّ واراه التراب فى تلك الأصقاع المجهولة . إن سكانها خائنون لا يخافون الله ولا يخشون الناس »

فأجبته : « رحم الله من قضى فى تلك البلاد من شيوخ الزوى. إن حياتنا ليست أعز وأغلى من حياتهم . ولا يليق بنا أن نكون أقل منهم إقداماً » .

فقال : « إن الماء فى تلك الطريق نادر وردىء » وقد قال الله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »

فأجبته : « إن الله يطفىء ظمأ المسلمين المؤمنين ويلحظ بعنايته الصادقين من عباده » .

وشعر أبو حليقة أنى سأحجه فى المناقشة ، فغير مجرى الحديث . وقال : « ليس بين رجالى من يرضى مرافقتك فى تلك الطريق . وليس فى مقدورى أن أرمى بجمالى ، فى تلك المفاوز التى يدهمها فيها الموت المحتوم . فإن وجدت من يكرى لك جماله ، فإنى مستعد لدفع الأجرة المطلوبة . ولكن رجالى وأنا لا نرضى بمرافقتك فى تلك الطريق »

فأجبته وأنا ملآن حمية : « أفعل ما بدالك إني سائر إلى الفاشر من تلك الطريق . وسيكون الأمر بينك وبين السيد إدريس حين يعلم أن أبا حليقة لم يحافظ على كلمته »

وانتهت بيننا المناقشة عند هذا . وعلمت أن أبا حليقة دفع أصحاب الجمال فى الكفرة إلى عدم الرضا بمساعدتى فى تنفيذ خطتى ، أملاً بذلك أن يضطرنى إلى قبول السفر إلى واداى بالطريق المأمونة .

وانتهت أيام الضيافة الثلاثة فى دار السيد العابد ، فأرسل لى الغداء من دار السيد الجداوى وكيل السيد إدريس فى الكفرة . وكان أبو حليقة على وشك الرحيل . ولكنى دعوته إلى مشاركتنا فى تناول الغداء فرضى آملاً أن يحملنى على تغيير خطتى . وكنت آملاً من الناحية الأخرى، أن أقنعه أن تلك الطريق لم تكن من الخطر بحيث تصور .

وفرغنا من تناول أكواب الشاى وافترقنا وليس منا منتصر على أخيه . ولكنى شعرت أن كلماتى الأخير كان لها تأثير شديد فى نفسه .

وجاءنى بعد الظهر السيد العابد يحمل إلىَّ رغبة سيده فى رؤيتى . ولم أكن أحدِّث نفسى بإسراعه فى مقابلتى . لأنى علمت أنه يشكو نقرسًا قاسيًا ، وأن من الصعب عليه أن ينزل لمقابلتى فى غرفة الزائرين . ولكنه لم يرد أن يداخلنى الظن فى عدم اتباعه قواعد الضيافة ، بتأخير مقابلتى، فسمح لى أن أراه بالرغم من تألمه . وكانت هذه أول مرة رأيت فيها السيد العابد فى هذه السفرة، فشعرت حين دخلت عليه أنى أرى صورة حيةً لرسم فاخر من رسوم ألف ليلة وليلة . وكان يلبس قفطانًا من الحرير الأصفر مطرزًا بجدائل حمراء ، وبرنسًا من الحرير الأبيض ملقى على منكبيه . وكان على رأسه عمامة بيضاء، يتهدل على جوانبها غلالة ناصعة البياض، هى شارة شيوخ الأسرة السنوسية . وأمسك فى يده عصا غليظة من الأبنوس ذات قبضة من الفضة . وكان فى هيئته وقار البساطة واللطف ، لا يشعر من رآه أنه ذلك الفارس الباسل الذى تعرفه المواقع .

وكان يجلس حين قدمت عليه على كرسى كبير حسن التنجيد ، فحاول أن يقف ، ولكنى أسرعت إليه، وأمسكت يده، ورجوته أن لا يكلف نفسه مؤونة القيام لى . وكان يشكو مر الشكوى من داء النقرس ، فبدأنا الحديث فى أمر مرضه الذى لزمه السنين الطوال قال : « إنى لأضرع إلى الله إذا اشتدت علىَّ وطأة المرض فى بعض الليالى ، أن يقصر أيامى فى هذه الدنيا ، لأنى لا أطيق أن أقوم بالصلاة كما يجب علىَّ » . ثم تناولنا أمر رحلتى إلى السودان فرأيت من حديثه أنه يفضل لى أخذ الطريق المأمونة التى تمر بواداى . فقلت له : « إن السيد إدريس فى مصر الآن وأود أن أسرع بالانتهاء من رحلتى والعودة إلى وطنى حتى أرد له بعض جميله فيما لقيت من كرم الأسرة السنوسية . ولا يبلغنى هذه الأمنية إلا السفر إلى السودان بطريق العوينات لأنها الطريق الأقصر » فقال : « إنك صديق حميم لنا وأظن أن السيد إدريس يفضل لك أن تصل سالمًا إلى مصر ، وإن تأخرت عودتك عن أن يسمع بأى أذى نالك »

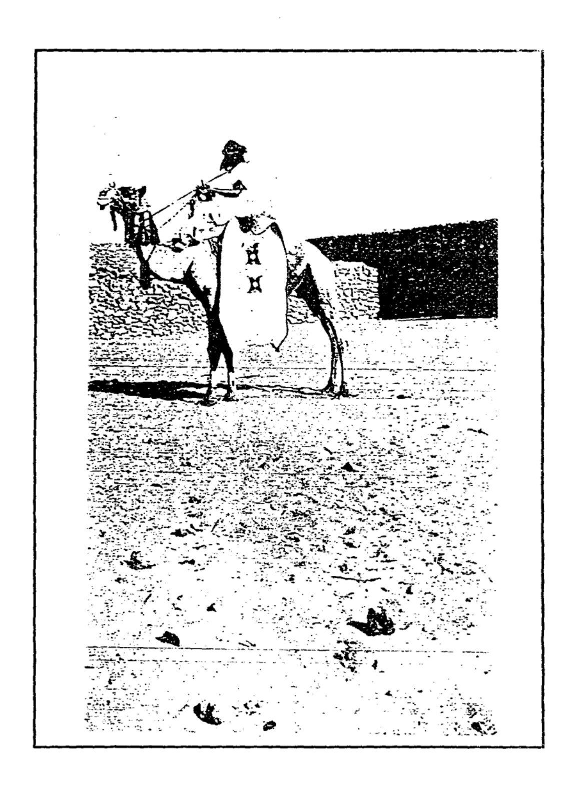
فأجبته قائلاً : « إن مصيرنا فى يد الله، وقد قدر علينا مساعينا، وإنى لأحمل معى مباركة شيوخ السنوسيين » .

وكان فى كلامى لهجة القطع فى الأمر، ففكر قليلاً ثم رفع رأسه ببطء ، وبسط كفيه إلى السماء ثم قال : « نجح الله مسعاك وأردك سالمًا إلى أهلك . لقد زرت قبر جدنا فى جغبوب ودخلت قبة سيدى المهدى فى الكفرة فنلت بركتهما والله فى عون من سعى وأمن » . ثم قرأ الفاتحة وباركنى وتضرع إلى الله أن يسدد خطاى وأن يهبنى ورجالى القوة والثبات .

وتركته وسرت فى منعطفات الدار وأنا أحس فى نفسى سعادة عظيمة . وأراح بالى أن لى عَضُدًا من السيد العابد، وأنه لا يكون عقبة فى سبيل تنفيذ خطتى الجديدة فى السفر إلى السودان بطريق العوينات .

ودخلت دارى فلقيت جميع رجال قافلتى ورأيت فى وجوههم من أول نظرة ، شوقهم إلى معرفة ما قر عليه رأي السيد العابد فى أمر السفر . ودلفت إلى غرفتى ثم ناديتهم لأسكن خاطرى أنا الآخر ، وأقر شوقى إلى النجاح الذى أنتظره .

ومرت بى برهة طويلة لزمت فيها السكوت قبل أن أتمكن من ضبط لهجتى ، وأظهر عدم الاهتمام بهذه المسألة الكبيرة ، ثم فاجأتهم بقولى : « لقد بارك السيد العابد رحلتنا إلى العوينات وقرأ الفاتحة ابتهالاً إلى الله بتوفيقنا » وأشحت بوجهى عنهم غير مجترئ على توسم وجوههم ، وأردفت قائلاً : « ولقد حلّت علينا بركة السنوسيين وزادها السيد العابد توثيقًا . والله يرزقنا الثبات والنجاح ويهدينا سواء السبيل » .



طارقى بمعداته الحربية فى الكفرة

الفصل الرابع عشر
الكفرة وموقعها على الخريطة

(١٦) الجمعة ٦ أبريل :

أصبح الصباح فنفحني أريج باقة من الورد تفضل بإهدائها السيد العابد فعلمت عند انتشاقها ، كيف تكذب الصحراء اسمها أحياناً وكيف تزرى أزهارها بما يينع فى الرياض النضرة من مورق الأغصان .

وكان يوم جمعة فصليناها في المسجد . وكان حضور أمراء السنوسيين متوقعًا . ودخل البدو فى أبهى ثيابهم، وغص المسجد بالمصلين الذين امتزجت فى صفوفهم قفاطين الحرير بمهلهلات الجرود . ووقفت أتفرس الداخلين إلى المسجد ، فرأيت كبار تجار الزوىّ والمجابرة ، وقد لبسوا الثياب الفاخرة التى لم تنبسط بعد غضونها ، من طول البقاء فى الصناديق . ولمحت أعينهم المكحولة ، وشممت عرف الداخلين يعبق منهم ماء الورد المقطّر فى الكفرة أو المسك ، وسائر الروائح العطرية المستجلبة من السودان .

وكان يأخذنى منظر الغنى الجليل إذا دخل فأخذ مكانه بين المصلين وتبعه أعرابى مهلهل الجرد ، أسمر الوجه مغضنه ، ولكنه لا يقل عن سابقه جلالاً . إن الملابس لا تميز الرجال فى تلك المحافل . فإن قدر الرجل فى شرف النفس وكبر القلب . وهذه الصفات تنطق فى الجرود البالية بلسان أفصح عما تنطق به، فى ثياب الخز ونفحات الطيب التى قد تضيع شيئًا من شخصية أصحابها

ويدخل أحد العبيد وقد يكون صفىّ أحد السنوسيين وموضع ثقته ، وتكون ثيابه الحريرية من بهاء اللون وجمال النسج بحيث تخفى مكانه من دائرة الرق ، ويشعر بقوة مركزه فيخترق صفوف المصلين تيّاهًا فخوراً . ويأخذ مكانه إلى جانب أحد الوجهاء أو أحد الشحاذين .

والغنى والفقير سواسية فى المسجد وربما ثار الفقراء لأنفسهم من الأغنياء فى بيت الله الذى لا يهيمن فيه غيره . وشعروا بما يشعر به الأغنياء من العظمة أو فاقوهم فى هذا الشعور. علمًا منهم بأنهم لا ينغمسون فى ترف الحياة ونعيمها ، فيلهيهم زخرفها عن الله تعالى . وإن البدو ليدخل المسجد فى جرده المهلهل لأداء الصلاة، كما يدخل الغنى فى أبهى ثيابه على شيوخ السنوسيين .

ويستعد المصلون بعد فراغ المؤذن فيغشاهم السكوت . ويدخل أمراء السنوسيين فيأخذون أماكنهم الخاصة ، وتلتفت إليهم الأنظار فيظهر عليهم حياء الشباب ، ولا يقوم لهم أحد فى المسجد . إذ لا مولى فى بيت الله إلا الله وحده لا شريك له . ثم يصعد الإمام المنبر ، ويلقى الخطبة التى تتفق فى مغزاها ، مع سائر الخطب التى سمعتها قبل ذلك فى صلاة الجمعة فى مساجد الواحات التى وقع لى أن دخلتها .

ولا تخرج الخطبة عن النصح بترك حياة الغرور والترف، والتهيؤ لأداء العمل الصالح للحياة السعيدة فى الآخرة فيقول الخطيب : « اتركوا زينة الحياة الدنيا ومتاعها الغرور فإنهما سبيل إلى الغواية، وهما إن تملكا نفوسكم ضللتم سواء السبيل وحدتم عن سبيل الله . تقربوا إلى الله بالعمل الصالح وأطيعوا أوامره . إن الحياة الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى فاعملوا لآخرتكم تسعدوا فى دار الخلود » .

والمسجد من الداخل جميل البناء رائعه ، وإن كان بسيطًا فى بنائه . نظيف الجدران البيضاء العارية . مفروش بالسجاجيد والحصر الرقيقة . ويجلس المصلون بخضوع مولين الوجوه شطر الكعبة فى صفوف لا يقل عدد أفرادها عن مائتى مصلّ . يسبح بعضهم بمسابح من حبات الكهرمان . ويسبح الفقراء الذين لا يملكون مسابح بواسطة قبض الأصابع وبسطها. ومنهم من يظهر الغنى والثراء فى جميع حركاته . ومنهم بدو الصحراء الضاربون بنظرات بعيدة يلوح فيها الهدوء والقناعة . ومنهم من تقلص وجهه وشحب لونه وفى هيئته السكينة والرضا بحكم الأقدار . يتوسم الناظر وجهه فيراه قاب قوسين من الموت جوعًا . وهو لا يتمرد على القضاء ولا يتضجر من صروفه .

وجاءنى سليمان أبو مطارى بعد فراغى من الغداء فى منزل السيد العابد فتحادث معى فى أمر الرحلة . وأخبرنى أن أبا حليقة ومحمداً الذى اخترناه دليلاً قد تقابلا وأعادا الحديث فى الأمر . ولم يزل أبو حليقة غير راض بالرحيل . وقضى عبد الله ذلك اليوم فى الجوف ، يجمع ما يمكنه جمعه من المعلومات عن طريق العوينات ، ويجتهد فى البحث عمن يرضى بتأجير جماله لنا من قبيله التبو للسفر إلى تلك الأصقاع المخوفة .

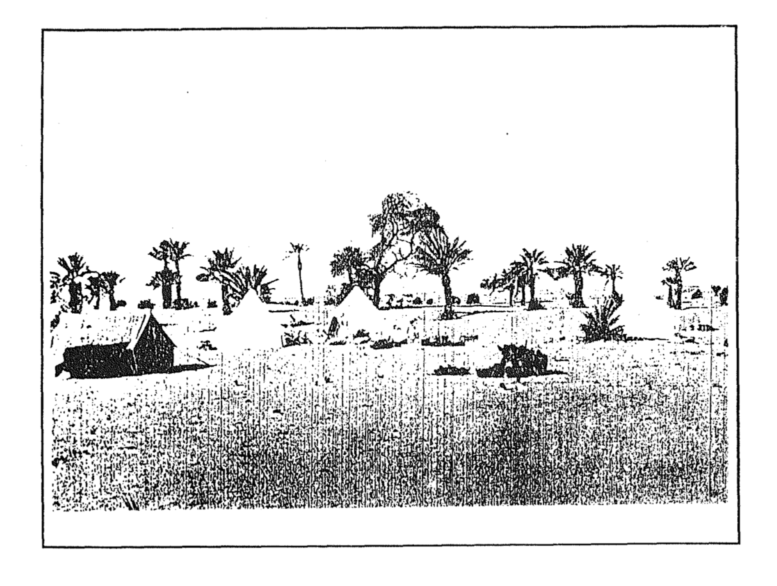
وتعشيت فى منزل السيد العابد. ثم قضيت ردحًا من الزمن فى مكتبة السيد إدريس ، الذى أمر السيد الجداوى بفتح أبوابها لى .

والمكتبة غرفة متوسطة الحجم ملأى بالصناديق التى تحوي الكتب المختلفة ، وسقفها مزين بالألوان الزاهية التى خطتها يد صانع محب للسونسيين ، جاء من تونس يؤدى خدمة ، كما كان يقف المصورون والنحاتون حياتهم فى القرون الوسطى على تزيين الكنائس . وكان كل ما فى الغرفة من الأخشاب مستجلباً من مصر أو بنغازى . وكان فى الغرفة مفتوحة ليس فيها إلا مصراعان من الخشب يدفعان عنها حرارة الشمس . والتنقل فى هذه الغرفة غير سهل لما صُف على جدرانها وفي وسطها من الكتب والنصاديق . وكان فى الغرفة صناديق قديمة يتخذ منها خزائن ، ويسهل حملها على ظهور الجمال عند الحاجة ، لما وضع فى جوانبها من مقابض وحلقات . والمكتبة قليلة النظام كدست فيها الكتب بغير عناية . لأن السيد إدريس هجرها طويلاً . وفيها عدد عظيم من المخطوطات المحفوظة فى أغلفة من الجلد ، جميلة الصنع وعدد عظيم من الكتب الحديثة المطبوعة فى مصر والهند . وأكثر مخطوطات المكتبة مستجلبة من مراكش والجزائر وتونس . وكل ما فيها مكتوب باللغة العربية إلا القليل المكتوب بالفارسية. ومن بين المخطوطات بعض نسخ القرآن الكريم المزين بالذهب

وكانت لى ميزة عظيمة على سائر الناس فى زيارتى لهذه المكتبة، لأن الدخول إليها غير مباح . ووجدت فيها مخطوطات كثيرة كتبت على الرق وتناولت علوم الفلسفة واللغة العربية والفقه والتصوف والشعر وعلم النجوم والكواكب . وقضيت ساعات طويلة أمتع نفسى بتصفح هذه المجموعة القيمة ، وأنعم بذلك الجو الهادئ البعيد عن العالم . وأشعر كأنى أتشبع بروح الأفكار الشائعة فى هذه المخطوطات ، والتقرب من الله عز وجل لما يحيط بى من السكينة ، والانقطاع عن جلبة المدن ، التى يكفى من مظاهرها دقّة تليفون تسمعه وأنت تقرأ هذه الكتب لتشعرك بقدم عهدها وعدم تمشيها مع الحاضر .

(١٧) السبت ٧ أبريل :

جاءنى حذاء بديع هدية من السيد شروفه . وزارنى بعض شيوخ الزوى فتحادثنا عند شرب الشاى فى تاريخ قبيلتهم . وعرفت من الحديث أنهم لم يكونوا أول الفاتحين للكفرة ، وإنما سبقهم إلى أخذها من قبائل التبو قبائل الجوازى والجهمه . وما اسما « الطلاب » و « الزّرق » وهما قريتان من قرى الكفرة، إلا اسمان لبعض أسر قبيلة الجهمه . وأعطيت كلاً منهم صورة للجماعة الذين صورتهم قبل ذلك بأيام ففرحوا بها كثيراً .



معسكر الرحالة فى العزيلة بالكفرة
قبل السفر إلى الواحات المجهولة

وتحققت فى ذلك اليوم أخطار الكفرة . فقد أضاع رولف حياته فيها بفتك المهاجمين ، وكدت أضيع حياتى أنا الآخر ضحية الضيافة باللطف واللين . فقد تغديت كعادتى عند السيد العبد ذلك اليوم . وأتبعت الغداء بالشاى المعطر واللبن المخلوط باللوز . وخرجت فأصر السيد شروفه على زيارتى له فى داره وقدم لى ثلاثة أكواب من الشاى المعطر وأردفها بمثلها من اللبن المخلوط باللوز . ولم أتمكن من الرفض ،، لأن فى ذلك إهانة لرب الدار فابتلعت ما فى هذه الأكواب ، رغم ما كنت أحس به من تقزُّز عند شربها .

ولم ينته الأمر عند هذا ، فقد دفعنى السيد شمس الدين إلى داره ، ووضع أمامى شيئًا كثيرًا من البسكويت والبندق وكوبًا كبيرة من الشراب الحلو . ودعانى للأكل، وليس لبشر أن يحتمل كل هذا . ولكن الرفض إساءة لرب الدار ، فنلت منها وشربت ثلاثة فناجين من الشاى . ثم قمت أترنح فى مشيتى بعد ذلك، كما يتقدم الشهيد إلى المشنقة فخورًا، وأتلوى من ألم التخمة، كما يتلوى الشاب الأسبرطى من قرص الثعلب فى أحشائه .

وانقلبت إلى غرفتى أستريح واستعرض ما مرّ بى . وفكرت فى أمر ذلك البدوى الذى انتخب رقم ثلاثة الغريب ، لإظهار الكرم البدوى . ووددت لو أنه مات قبل أن يبتدع هذه السنة . ثم رجعت فحمدت الله لأنه لم يقع اختياره على الرقم سبعة .

وقد أقبلت على الصحراء معرضًا نفسى لفتك الطبيعة أو البدو من بنى الإنسان . ولم يخطر ببالى لحظة فكرة الموت ، الذى ينشأ عن سوء الهضم وتكليف المعدة فوق طاقتها . ومع كل هذا ، فقد ذهبت فى الموعد المحدد إلى دار السيد العابد ، لتناول العشاء كالعادة ، وكان بين المدعوين بعض شيوخ البدو فتناقشنا مرة أخرى فى أمر الرحلة إلى الجنوب . وكان أبو حليقة مصرًا على رفضه الذهاب بطريق العوينات . وقد قال : « إن الشروط التى وضعها السيد إدريس تتناول رحلة إلى واداى لا إلى دارفور . ولذلك أبى أن يرمى برجاله وجماله فى تلك الطريق غير الآمنة .

وأدليت بحجتى كما يناقش المحامى فقلت له : « أما وقد اتفقت معى على قطع ٣٥ مرحلة من الكفرة إلى الجنوب ، فما الذى يضيرك إذا كنت أنزلك على السير إلى واداى أو الفاشر أو أطلب إليك العودة إلى مصر ؟

ولم تقنعه حجتى . ولكنه رأى إصرارى وعدم معارضة السيد العابد لخطتى . وعرف رغبتى فى إنقاص عدد الجمال المتفق عليها فرضى غير قاطع فى رضاه ، ولكنه أبى أن يرافقنى بنفسه أو يرسل معى أحد رجاله .

(١٨) الأحد ٨ أبريل :

حادثت أبا حليقة فى أمر جواده واشتريته بمبلغ ٣٣ جنيهًا ذهبًا . وكان الجواد قويًا صبورًا على السفر يكفيه الشرب مرة كل يومين .

وبعد تناول الغداء صورت السيد العابد وحادثته طويلاً فى أمر مرضه ، الذى يتحمله بصبر البدو وجلدهم . وتكلمنا فى شؤون برقة ومصر وتناولنا ذكر رحلتى إلى السودان .

ولم أكن موفقًا فى أعمالى الفنية بالكفرة . فإنى وجدت صعوبة شديدة فى عدم التعرض للأنظار والانتقال وحيدًا فى نواحى الوادى لاستعمال أجهزتى بدون إثارة الظنون . وكان من سوء حظى ، أن السماء ظلت كثيرة الغيوم أيام إقامتى . فلم أتمكن من رصد الشمس والنجوم بواسطة التيودوليت . وشعرت بتعب شديد بعد العشاء وكنت قد استنفدت الأقراص التى جئت بها لمكافحة سوء الهضم . وانتظرت بفارغ الصبر خروجى إلى الصحراء وتمتعى ببساطة العيش .

(١٩) الاثنين ٩ أبريل :

كان يومًا كثير الغيوم ، ولكن نسيمًا بليلاً كان يهب طول النهار . فقضيت يومًا هادئًا أقرأ فى مكتبة السيد إدريس وأحمّض « أفلامًا » جديدة وأشترى قربًا وشعيرًا لأجل الرحلة . وأهدانى السيد العابد نسخًا بخط يده لبعض رسائل السيد المهدى إلى كثير من الإخوان، وأهدانى سكينًا مغربية فى قراب من الفضة وبندقية بديعة التطعيم .

(٢٠) الثلاثاء ١٠ أبريل :

انقشعت السحب بعد الظهر فأخذت صورة الوادى . واتفقت مع صانع الأحذية على صنع أحذية لى ولرجالى ، وعمل مناطق من الجلد لوضع الرصاص . لأن الرجال أصروا على حملها لما سمعوا من الإشاعات المخيفة . وقابلت محمد سكر الذى اخترته ليكون دليلنا فى طريق العوينات لأول مرة ومالت إليه نفسى .

(٢١) الأربعاء ١١ أبريل :

سمع السيد العابد بشرائى الجواد فأهدانى سيفًا طارقيًا وبندقية إيطالية . وأمكننى أخيرًا أن أقوم بعمل بعض أرصاد وأبحاث بواسطة التيودوليت، وكنت فى شوق شديد إلى مقارنة نتائج بحثى بنتائج رولف الرحالة الألمانى الذى زار الكفرة منذ ٤٥ سنة .

(٢٢) الخميس ١٢ أبريل :

أرسلت إلى دار السيد العابد بندقيتى هدية وركبت مع السيد محمد أبى ثمانية والسيد الزروالى إلى الجوف . فقابلنا وجهاء المدينة وزرت السوق . وكان يوم انعقاده كل أسبوع . وزرت الجامع والزاوية، وهى أقدم مدارس السنوسيين فى الكفرة . والجوف مركز تجارة الكفرة . وقد شاقنى فى السوق ، رؤية ما اختلط فيها من البضائع من (خراطيش) تدل علامتها على صنعها منذ ٣٠ سنة ، وعلب تحوى توابل إيطالية مستجلبة من بنغازى ، وأقمشة منسوجة فى منشستر وواردة من مصر ، وجلوداً وعاجًا وريش نعام من واداى ودارفور . وحاصلات الجنوب قليلة فى الكفرة الآن، إلا إذا أحضرها أحد التجار من واداى ومنعه سبب من السفر بها إلى الشمال لبيعها فى برقة أو مصر .

ولم تكن الكفرة ذات تجارة عظيمة إلا قبل فتح السودان . فإن سبيلها فى تلك الأيام ، كانت أسهل لحمل محصولات واداى ودارفور من السبيل التى تفضى إلى الشرق . ولا يزال يمر بطريق التهريب إلى اليوم ، عاج إناث الفيلة والعاج الذى يقل وزنه عن ١٤ رطلاً وهما شيئان منعت حكومة السودان تصديرهما .

وليست الكفرة طريقًا للتجارة فحسب ، وإنما يقصدها من يملك العبيد من شيوخ الزوىّ لفلاحة الأرض ؛ فيزرعون الشعير والذرة . ويزرع السنوسيون البطيخ والعنب والموز والقرع وغير ذلك من أنواع الخضر التى يسر السائح رؤيتها ، ويلذه طعمها بعد حياة الصحراء . ويزرعون النعناع والورد ، فيستخرجون منهما ماء الورد وخلاصة النعناع الضروريين فى إظهار كرم الضيافة . ويستخرج الزيت من أشجار الزيتون بواسطة معاصر عتيقة .

وحيوانات الكفرة الجمال والخراف والحمير وقليل من الجياد . واللحم مع هذا غالى الثمن لعدم وجود المراعى فى الوادى . وتعيش الحيوانات على نوى البلح المطحون وهو غذاء صالح إلا أن إطعامها حشيشًا أخضر واجب من وقت لآخر . ويربى السنوسيون – وهم أكثر تقدمًا من جيرانهم فى كل شىء – الفراخ والحمام

وسمعت فى الكفرة أن أثمان العبيد ارتفعت هائلاً فى السنين الأخيرة ، لقلة من يرد منهم من جهات واداى ، نظراً لعين السلطات الفرنسية الساهرة فى تلك الجهات . ويحتال بعض البدو لاستجلاب العبيد فيعقدون الزواج على بنات واداى ثم يعودون بهن إلى الكفرة فيطلقونهن ويبيعونهن .

وقد عرضت عليَّ جارية أثناء سياحتى سنة ١٩١٦ بمبلغ ١٣٠ فرنك ولكن ثمن الجارية يتراوح الآن بين ٣٠ و ٤٠ جنيهًا وثمن العبد أقل من ذلك .

وقد يتزوج البدو من هذه الجوارى، فإذا أنجبت إحداهن ولدًا أصبحت حرة طليقة . والبدو لا يهتمون بفوارق الألوان . فإذا ولدت جارية لشيخ قبيلة ولده البكر . فإن هذا الولد يصبح ، بحكم الواقع ، رأسًا لهذه القبيلة بعد أبيه مهما كان أسود اللون .

وأبناء العبيد عبيد كذلك . أما ابن الجارية من رجل حر فهو حر كذلك مهما كان فقيرًا ولن يكون عبدًا ولو تركه أبوه يتيمًا .

واقتناء العبد المخلص شيء يفضله البدوى كثيرًا . فإن العبيد أقوى من الأحرار وأصون لسر سيدهم . وهم يعاملون معاملة حسنة ويصبحون أفرادًا من الأسرة بعد طول العشرة .

ويلبس العبيد ثيابًا فاخرة لأنهم مرآة تتجلى فيها صور أسيادهم وليس (على كجا) عبد السيد إدريس الصفى موضع ثقته فحسب ، ولكن له فوق ذلك قوة وسيطرة ، لا يملكها الكثيرون من أحرار البدو .

والعبد صادق الكلمة . فإذا حمل السيد العابد رسالة إلىَّ مع عبده أيقنت بصدقها عالمًا أن واجبه يقضى عليه بتبليغ ما حمله . وكذلك إذا أردت أن أبلغ مسامع السيد العابد شيئًا ، لا أريد اطلاع رجل آخر عليه ، أفضيت به إلى عبده بدون تردد موقنًا أن الرسالة لابد مؤداة إلى سيده دون غيره .

وللعبد الحق فى شراء جارية وقد سألت (على كجا) ذات مرة عن أثمان العبيد فقال : «إن أثمانهم غلت هذه الأيام غلاء فاحشًا ، فقد اشتريت جارية دفعت فيها ٤٠ جنيهًا ذهبًا . وقد قال لى ذلك بلهجة لا يستشف منها أنه كان عبدًا فى يوم من الأيام . وأرثّ عبيد الواحة ثياباهم المطلقون . وهم موضع ازدراء بقية العبيد وربما شعر العبد الطليق بالخجل لعدم وجوده فى حيازة إنسان .

والنخيل كثيرة فى وادى الكفرة وأكثره ملك للسنوسيين . والسبب فى ذلك ، أن الزوىّ حين دعوا سيدى ابن على السنوسى إلى الكفرة نزلوا للسنوسيين عن ثلث ما يمتلكون من أرض ونخيل . ولم تبق النسبة محفوظة بين ما يملكه الزوىّ من النخيل وبين ما يملكه السنوسيون ، فقد أسرع الأولون فى زيادة نخيلهم بما زرعوا من جديد . ولايزال يبدو لعين الرائى إلى هذه الأيام ذلك السور الذى يفصل أراضى السنوسيين من أراضى الزوىّ .

ورأيت فى طريق عودتنا من الجوف حفلة زفاف وكان العريس قائد جيوش الكفرة . ودعانى أبو العروس إلى تفريغ البارود تشريفًا للحفلة ، فسرنى أن أقوم بتأدية هذا الواجب للضابط لأنه صديق قديم لى . ولما أطلق رجال الحفلة النار تحية، ركضت بجوادى كما يفعل البدوى الصميم ، واتجهت صوب الجماعة، ثم أوقفته دفعة واحدة أمام العروس وصوبت بندقيتى إلى الأرض قدامها ثم أطلقت النار ، وقد أدهشنى جوادى « بركة » حين سمع طلقات بنادقهم وأسرع بالعدو ووقف بى مرة واحدة على المسافة المقدرة من العروس لإطلاق النار ولا بدع فى ذلك فهذا شىء تدربت عليه خيول البدو .

(٢٣) الجمعة ١٣ أبريل :

جاءنى عبد من عبيد السيد إدريس يطلب دواء لمرض لزمه شهرين ، وفحصته فوجدته يشكو سوء هضم يتخلله قىء ، وأعطيته بعض (الإتير) على قطعة من السكر ، وأمرته أن لا يتناول إلا اللبن والأرز فتحسنت حالته عن قبل .

ووصل أبو حليقة من الهوارى ومعه ١٧ جملاً فطلبت إليه أن يتمها خمسًا وعشرين كما اتفقنا من قبل . وزارنى الضابط العريس وصهره يشكرانى على ما أديت من التحية فى حفلة الزفاف .

(٢٤) السبت ١٤ أبريل :

أحضر أبو حليقة بقية الجمال وكان حائرًا فى أمر إرساله رجلاً يصحبنا فى الرحلة . وأبى أن يرسل ابنه أو عبده ظنًا منه بأنا مقبلون على سفرة قد لا نخرج منها أحياء . وكان يتوقع من الجهة الأخرى ، أن القدر قد يساعدنا وننجو من مخاوف الطريق . فحيّره أن لا يمثله أحد فى تلك الأصقاع النائية ، فيعود بجماله أو يشرف على بيعها كما هى العادة بعد مثل هذا السفر الطويل ، وقضينا عصر اليوم فى التحميل ومساءه فى عمل الأرصاد والمعاينات . وكانت الليله ثالثة الليالى التى أمكننى فيها أن أرى نجم القطب الشمالى منذ هبوطى الكفرة . وقد صممت أن لا أترك الكفرة ، قبل أن أضاعف ما أخذت من الملاحظات المتنوعة فى الليالى المختلفة .

(٢٥) الأحد ١٥ أبريل :

قضينا الصباح فى تحميل الجمال ومازال أبو حليقة مرتبكًا فى أمر إرساله رجلاً من رجاله ، ولكنى لم أهتم بأمره كثيرًا بعد يقينى من استصحاب الإبل . وقد تحسنت صحة العبد

الذى تعهدته تحسنًا غريبًا فجاءنى يشكرنى . وكنت أشد الناس تعجبًا مما وصلت إليه فى شأن معالجته .

وبدأت القافلة السير فى الساعة الثانية بعد الظهر قاصدة بئر العزيلة ، وهى آخر آبار وادى الكفرة فى الجغبوب ، حيث قررنا الإقامة أيامًا لإجراء الترتيبات اللازمة ، لتجهيز كل شىء قبل الإقدام على تلك الشقة الطويلة . واشتريت نعجتين لنحرهما طبقًا لعادة « أبى الظفر» لأنه لم يكن بين رجال القافلة من قام بهذه الرحلة من قبل . وكان جميع رجالى فى ثياب جديدة تبهر النظر ، وكانت بنادقهم التى أتقنوا تنظيفها تلمع فوق ظهورهم ، وكان يبدو النشاط والقوة على العدد الأكبر من جمالنا الجديدة .

(٢٦) الاثنين ١٦ أبريل :

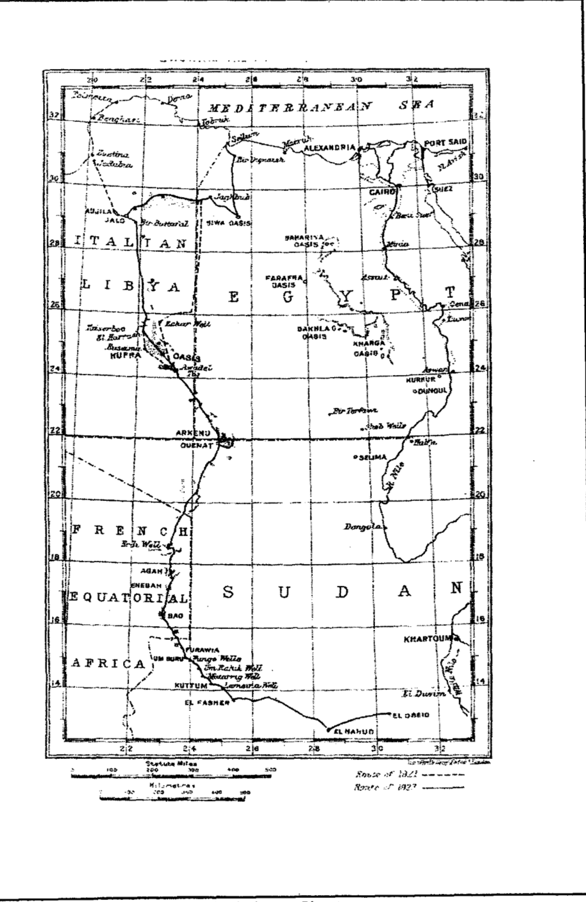
أرسلت جوادى مع عبد الله إلى الجوف لوضع « حدى » له . لأنى وجدت الأرض الصخرية صلبة الموطئ يخشى أن تؤذيه . وبعثت بصينية نحاسية إلى القائد هدية منى بمناسبة زواجه ، وأرسلت الزجاجات الثلاث الأخيرة من دواء (بوفريل) لعبد السيد إدريس وأجلنا سفرنا . لأن الدليل كان مشغولاً بقضية جمل له .

(٢٧) الثلاثاء ١٧ أبريل :

أفطرت فى دار سليمان بومطارى من كبار تجار زوىّ بالكفرة ومشهور بالكرم . وكان معنا السيد الزروالى وعبد الله والقومندان وصالح ومحمد أبى صمانية . وقد تبادل الجلوس النكات حول العريس الجديد لإمساكه عن الأكل من صحفة لحم مطبوخ بالبصل . وقال : أبو ثمانية وهو يغمز بعينه « إنهن لا يصفحن وهن شباب » أى أن زوجته الجديدة لا تسامحه إذا شمت فيه رائحة البصل . واشتريت هجينًا لى خاصة ، ودفعت فيها تسعة جنيهات . وهكذا انتهى كل شىء وأصبحنا على قدم الاستعداد للمسير .

وكنت أرجو وأنا أرصد نجم القطب للمرة الأخيرة أن أوفق فى تعيين الموضع الحقيقى للكفرة على الخريطة . وكان بى شوق شديد إلى التحقق من الموضع الذى عينه رولف لها حسب ملاحظات رفيقه (ستيكر) فى بويمه . ولم تكن التاج قد بنيت بعد فى عهد رولف . فوضح لى بعد أن قمت بعمل ملاحظاتى الأولى فيها أن النتائج التى وصلت إليها ، لا تتفق مع نتائج ملاحظات (ستيكر) فى بويمه الواقعة عى بعد كيلو مترين من التاج فى اتجاه ٥٤

درجة شرقى الجنوب الحقيقى . ولذلك صممت أن لا أترك الكفرة قبل أن أتمكن من عمل ملاحظات عديدة تمنعنى من الوقوع فى الخطأ . ولذلك رصدت النجم القطبى ست مرات بواسطة التيودوليت في ظروف قرر الدكتور بول فى فقرته اللمعية المرفقة بهذا الكتاب أنها لا تترك مجالاً لخطأ أكثر من دقيقة واحدة فى خطىّ الطول والعرض . وكانت نتيجة هذه الأبحاث عند الفراغ من فحصها بعد عودتى إلى مصر أن الكفرة تبعد ٤٥ كيلو مترًا جهة الجنوب الجنوبى الشرقى عن الموقع الذى قرره لها رولف بعد ملاحظات (ستيكر) . ووجدت ارتفاع الكفرة شديد الانطباق على ما قرّره رولف وكان علو وادى بويمه ٤٠٠ متر وارتفاع التاج ٤٧٥ متر عند التل المشرف على الوادى .



خريطة صحراء ليبيا

مبيّن عليها الطرق التى سلكها المؤلف فى رحلته

الفصل الخامس عشر

الواحتان المجهولتان – اركنو والعوينات

الأربعاء ١٨ أبريل :

وجد أبو حليقة فى آخر الأمر رجلين يصحبان جماله، وهما بوكاره وحامد . وكانا فقيرين أغواهما المال فأنساهما الخطر. وأرسل السيد العابد ثلاثة مثّلوه فى توديعنا . وقد أحضروا إلىّ خطاب توديع منه نال من نفسى كثيرا .

وجاء أبو حليقة يودّعنا كذلك. وكانت عيناه نديتّين وما أظن أن ذلك كان اشفاقا منه على جماله أو رجليه . فإن رغم ما نجم بيننا من خلاف فى الرأى ، ظللنا صديقين مخلصين يحب كل منا الآخر ويحترمه .

وجاء أصدقاء رجالى لتوديعهم فأفرطوا فى ذلك حتى كأن ذلك الموقف كان لوداع أخير. وكان ذلك التوديع أحرّ ما رأيت فى رحلتنا ، وأفعله فى النفس. وكانت كلمات الوداع الأخيرة «رافقتكم السلامة . المقدر لابد من وقوعه . هداكم الله سواء السبيل ووقاكم كل مكروه » .

ولم يكن ذلك التوديع ، مما يشعر قلوب المقيمين والظاعنين بأمل اللقاء أو اليقين من العودة. وكان فى جُمل التوديع الأخيرة، المتبادلة بين الفريقين تهدّج، لم يخف عنى مبعثه فى نفوسهم، لعلمى بما حدث فى الأيام السابقة للسفر، ويقينى من الخوف الذى تملكهم أجمعين.

وكانت أفكارى وأفكارهم فى ذلك الموقف متباينة ؛ فإنى كنت أهش إلى التفكير فى الواحات المجهولة والسير فى الطريق البكر والاندفاع صوب المجهول ، أما هم فكانوا يظنون أن هذا آخر مرة يشدون فيها على أيدى أصدقائهم ، وقد ارتسمت ملامح الاشفاق على وجوه بعض من جاءوا يودعونا ، كأنما كتب على وجوهنا الموت وارتسم على جباهنا الفناء، ولكنهم كأهل البادية ، كانوا يشعرون بأن ذلك الرحيل كان مكتوبا فى لوح القدر . وقرأنا الفاتحة ثم أردفها أحد الرجال بالأذان .

وصحبنا المودعون حتى شفا الوادى الذى تنتهى عنده الواحة وتمتد الصحراء. ثم تركونا غير ناظرين فى أثرنا ، فانحدرنا إلى الصحراء المنبسطة وتلفتت أعيننا إلى أجمات النخيل . وكانت الشمس تجنح للغروب، والغسق ينشر غلالته على الكفرة التى أخذت تختفى شيئا فشيئا فى ذلك النور الآخذ فى الانطفاء وكأنا ننظر إلى المدينة من ثقب آلة التصوير .



الرحّالة يرصد الشمس بآلة التيودوليت

وكنت أتوق إلى الابتعاد عن الكفرة حتى ينمحى شبحها فى أعين الرجال، فينسوا وداعهم الماضى ويفكروا فى المستقبل ويفرغوا إلى تأدية واجبات السفر. واختفت الكفرة فانبسط أمامى المجهول المملوء أسراراً وسحراً يتصورهما الفكر فى كل بقعة من أرض لم تطأها قدم غريب عنها .

وكان قيامنا فى منتصف الساعة الخامسة ووقفنا الساعة الثامنة وربعا وقطعنا ١٥ كيلو مترا . وكان الجو صحوا جميلا لاريح فيه، والأرض رملية صلبة قليلة التموج مغطاة بحصى دقيق.

وتركنا نخيل العزيلة والكفرة، فاجتزنا منطقة من الحطب تشابه منطقة الظيغن، ودخلنا السريرة الساعة السادسة إلا ربعا. وفى منتصف السابعة مررنا بتلال تمتد على الجانب الجنوبى لوادى الكفرة. وفى الثامنة إلا ربعا وصلنا (حطية الحويش) الكثيرة الحطب. وخلفنا رجلين فى حراسة حملين تركناهما على أن يحملهما جملان لعبيد التبو .

وكانت قافلتنا مؤلفة من ٢٧ جملا و١٩ شخصا أنا والسيد الزروالى ، وعبد الله ، وأحمد، وحمد واسماعيل ، والسنوسى أبى حسن، والسنوسى أبى جابر ، وحمد الزوىّ وسعد الأوجلى، وفرج العبد وبوكاره وأخيه الأصغر، وحامد الجمّال، وحسن ، ومحمد الدليل ، وثلاثة من عبيد التبو.

الخميس ١٩ أبريل :

قمنا فى الساعة الثانية إلا ربعا بعد الظهر ووقفنا السابعة وربع مساء وقطعنا ٢٤ كيلو مترا. أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١١ . الجو صحو جميل قليل السحاب والنسيم هابّ من الجنوب الشرقى قارّ عند الظهيرة .

ودخلنا السريرة مرة أخرى بعد اجتياز حطب الحويش. وكانت منبسطة صلبة الرمال مغطاة بحصى دقيق. وكان شرق الحطيّة سلسلة من التلال الرملية المغطاة بحجارة قائمة يقابلها مثلها جهة الغرب ، على بعد أربعة كيلو مترات .

وفى الساعة الثانية وربع وصلنا نهاية «حطيّة الحويش» وعرضها كيلو متران، وفى الساعة الرابعة إلا ربع رأينا جارة على بعد كيلو مترين من اليسار. وفى الساعة الخامسة رأينا جارة أخرى على بعد أربعة كيلو مترات من اليمين، وفى الساعة السادسة أصبح الرمل أكثر نعومة وعليه أكوام متناثره من الحجرة السوداء وصفحة الصحراء متجعدة. وقد تأخر رحيلنا لانتظار

الجملين اللذين خلفناهما. فقضينا وقتا في جمع الحطب ، وكان الجو شديد الحر بعث التعب بسرعة فى أوصال الجمال. وهذه الأرض مشابهة للمسافة الواقعة بين بو الطفل والظيغن. وقد أمكننى بفضل هجينى أن أتأخر عن القافلة فأقوم بعمل بعض الملاحظات دون أن أهيج سوء ظن رفقائى ، فيما أفعل، واضطررنا لحط الرحال فى ساعة مبكرة نظرًا لحال الجمال.

الجمعة ٢٠ أبريل :

قمنا الساعة الثانية صباحا ووقفنا فى منتصف الساعة العاشرة صباحا ، ثم سرنا فى منتصف الرابعة وانتهينا من السير الساعة الثامنة. فكان ما قطعناه ٤٨ كيلو مترا. أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١٠ وذلك بعد منتصف الليل بنصف ساعة . وكان الجو صحوا جميلا وهبت ريح باردة من الجنوب الشرقى فى الصباح، وسكنت عند الظهر، وسارت في الساعة الرابعة وفى المساء تغير اتجاهها إلى الشمال الشرقى.

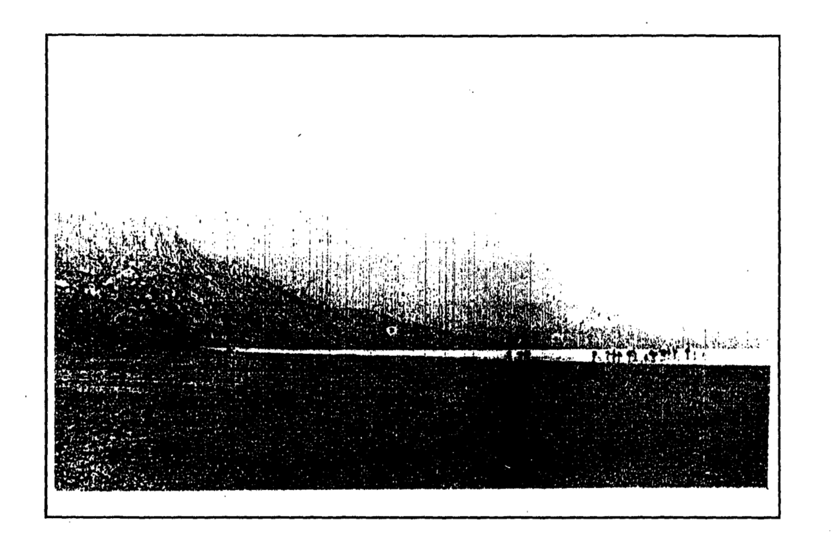
وفى الساعة الرابعة اخترقنا جهة متجعدة منثورة بالحجارة وفى الساعة السادسة دخلنا السريرة مرة أخرى فانبسطت الأرض وطلعت الشمس الساعة السادسة فرأينا ذات اليمين وذات اليسار تلالا رملية تبعد عنا من ١٠ إلى ١٢ كيلو متر . ورأيت خُطّافا فى الصباح وصقرا فى العصر. وفى الساعة الرابعة وثلث قطعنا أكواما منخفضة من الرمل، ورأينا جارة سوداء ممتدة قليلة الارتفاع على بعد ١٠ درجات من جنوب الجنوب الشرقى .

وكانت هذه المرحلة أردأ مراحل السفر . لاشتداد الحر والبرد فقد زاد الحرفى الظهر حتى عاقنا عن السير ، واشتد البرد فى الليل فصعب علينا المسير. ولذلك قسمنا المرحلة قسمين، فكنا نبدأ السير بعد منتصف الليل ونستريح فى حمارة القيظ، وضايقنا ذلك لعدم تمكننا من إتقان حزم الحوائج فى الظلام. وتحسنت حال الجمال اليوم. وكان رابع أيام الشهر العربى، والبدو يقيسون الجو على ذلك اليوم، معتقدين أن جو بقية أيام الشهر يطابق جوه وقد صدق هذا القياس هذه المرة.

السبت ٢١ أبريل:

قمنا فى منتصف الساعة الثالثة صباحا وفى الساعة السادسة دخلنا جهة صخرية امتدت بنا إلى مسافة ١٢ كيلو مترا . واجتزنا إلى اليسار جارة (كودى) ودخلنا السريرة فى الساعة التاسعة تكتنفنا عن بعد تلال الرمل ذات اليمين وذات اليسار .

ومرض أحد الجمال عقب بدئنا فى المسير ورفض أن يستمر فى سيره رغم رفع أثقاله وتركنا بدويين يحجمانه ، ولكن مساعينا فى مداواته ذهبت أدراج الرياح فاضطررنا إلى ذبحه.



جبال اركنو

وحظرت على البدو أن يأكلوا لحمه ، ولكن اثنين من التبو انتهزوا فرصة وقوفنا ظهرا، ورفعا الأحمال عن جمليهما ثم رجعا لتجفيف لحم الجمل وتركه حتى يعودا من العوينات . فكان ذبح الجمل وانتظارنا العبدين سببا فى تأخيرنا ساعة.

ولم ينم رجالى الليلة السالفة إلا قليلا وظهر عليهم التعب بعد شروق الشمس . ولكن الذى أنهك قوى الرجال والجمال لم يكن فى الحقيقة إلا اشتداد الحرارة بين الظهر والساعة الرابعة. وبدأنا السير فى منتصف الساعة الخامسة . وكل أفراد القافلة متعبون بطيئو الخطو . ورأيت صقرين ومراقد حديثة للطير فوق الرمال .

الأحد ٢٢ أبريل :

كان سيرنا فى أرض منبسطة صلبة الرمال، نعثر فيها من وقت لآخر ببعض التلال الرملية المغطاة بالصخور السوداء، التى يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة أمتار وعشرة. وفى منتصف الساعة السادسة، رأينا سلسلة من التلال على يسارنا ، تقطع سبيلنا فى امتدادها من الشمال إلى الجنوب الغربى. وفى الساعة الثامنة دخلنا أرضا جميلة ظللنا نسير فيها عامة اليوم. وعثرنا فيها على بيض نعام مهشم واسم هذه الناحية (وادى المراحيج) .

وقد أتقنا تحميل جمالنا . ذلك اليوم، ولكن الرجال ما زالوا مجهودين ، وقد تخلف الكثيرون عن القافلة ليغنموا نصف ساعة يغفون فيها ثم يلحقون بها عند استيقاظهم . وأحضر لى بوكاره نسرين صغيرين لقطهما من عشهما فى قمة جارة ، فأمرته أن يرجعهما وأشرفت على ذلك بنفسى .

ومرضت هجيبنى فاضطرتنى إلى رفع حملها وسرجها طول بعد ظهر اليوم. وحططنا الرجال عند الظهر فنام رجالى ملء جفونهم وغط غطيطهم، ولم يرقنى هذا النوع من السفر الممل، ولكنا كنا مثابرين على كل حال.

الإثنين ٢٣ أبريل :

قمنا فى منتصف الساعة الثالثة صباحا ووقفنا الساعة التاسعة وربع صباحا . وقمنا الساعة الرابعة إلا ربعا ووقفنا الساعة التاسعة مساء فقطعنا ٤٦ كيلو مترا. وكانت هذه المرحلة أشد المراحل إنهاكًا لقوانا . فإنا لم ننم فى اليوم أكثر من أربع ساعات مدة ثمانية أيام . ولم نكد نبدأ السير، حتى تخلف الرجال دفعة واحدة، لاغتنام نصف ساعة إغفاء تاركين جمالهم تتبع النور الضئيل الذى ينبعث من مصباح الدليل. ولم أتمكن من الاستمتاع بهذه

الغفوة خشية منى على أجهزتى أن يصيبها شئ . وكنا قد حَمَّلْنا الجمال فى الظلام فلم أكن واثقا من دقة التحميل ، وخفت أن تنحل بعض الأربطه فيتكسر من حوائجى جهاز علمى أو آلة تصوير .

وحدث فى فترات متتابعة، أن تقف الجمال واحداً بعد الآخر فتبرك وترفض النهوض ، فيأتى أحد عبيد التبو، ويضغط بإبهامه على عرق خاص فى جبهة الجمل فيعيد إليه قواه ويبعثه على السير. وكنا نجهد فى قطع تلال الرمل العالية الشديدة الانحدار ، فرأينا أمامنا بغتة جبالا قائمة كقصور القرون الوسطى، وقد أحاط بها ضباب الصباح حتى كاد يخفيها عن الأبصار. وسطعت الشمس بعد قليل على هذه الجبال ، فصبغت لونها الرمادى بلون الورد. وتخلفت عن القافلة، فجلست مدة نصف ساعة على تل رملى، ثم تركت عقلى وقلبى يشربان حسن هذه الجبال البديعة.

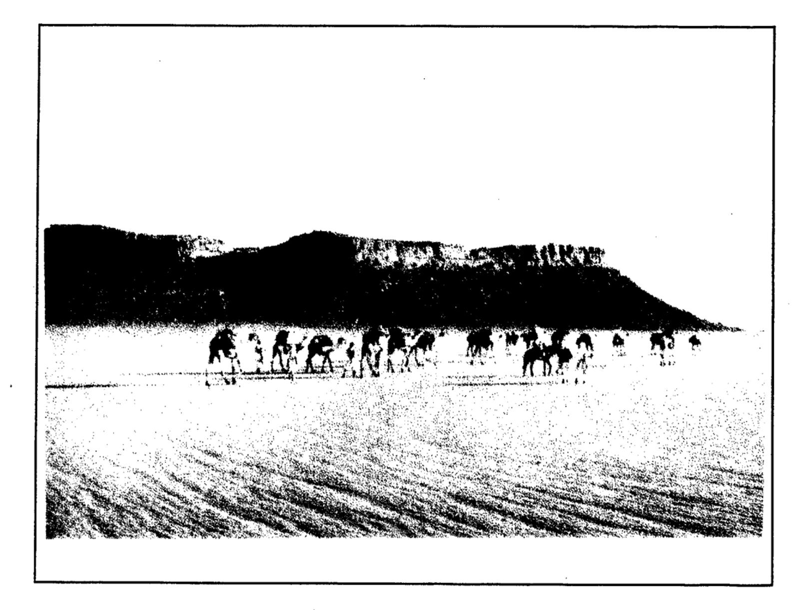
لقد وجدت ما كنت أنشده ، فقد كان ما رأيت جبال «أركنو» وكانت تلك الساعة مشهودة فى تاريخ رحلتى. فيها نسيت ما لقيت من المصاعب وما أتوقعه من المخاطر . فى تلك الساعة بل فى تلك اللحظة، نسيت ساعات طويلة من الألم ، بل أياما عديدة أضنانى فيها الجهد والتعب. فى لحظة واحدة نسيت الأهوال التى تجشمتها والعقبات التى ذللتها لأصل إلى تلك الواحة المجهولة المفقودة . إلى تلك البقعة الصغيرة المنيعة الضائعة ، فى هذه الصحراء الفسيحة، القاسية ، الجافة القاحلة.

رأيت جبال «أركنو» عن بعد ، فرأيت طلائع النجاح والتوفيق فقد كانت واحتها إحدى الغايات التى رميت إلى اكتشافها.

وظللنا نتصعد ونتصوب بين تلال الرمل فى ساعات الليل الباردة ، السابقة لطلوع الفجر. حتى إذا بان خيطه وأصبحنا عند آخر تل من تلال الرمل، اختفت جبال أركنو بغتة كأن ستارا أسدل عليها دفعة واحدة، فزال باختفائها عن عينى، ذلك المنظر الرائع الذى لم تر عينى مثله فى صحراء ليبيا منذ تركت السلوم. فقد كانت جبال أركنو فريدة فى جمال مناظرها خلبت لُبّى حتى خيل لى إننى لا أسير فى الصحراء .

الثلاثاء ٢٤ أبريل :

كان اليوم الحادى عشر بعد المائة من تركنا السلوم والأربعين بعد المائة من تركنا القاهرة. وكان سيرنا فى أرض حرّة متموجة . وفى الساعة الخامسة صباحا اجتزنا تلالا رملية ثم سرنا فى أرض حجرية صلبة مغطاة بالحصى. وكان على بعد مائة متر من شمال أركنو تل



صورة جبال العوينات

عظيم من الخراسان يبلغ طوله كيلو مترين وارتفاعه زهاء المائة متر . وبزغت الشمس فكان شروقا بديعا، امتزجت فيه الظلال الذهبية بقطع من السحاب رمادية اللون، وهدأت ريح الصباح الباردة فدفئ الجو.

وجبل أركنو كتل من الجرانيت، خالط سطحه الرمادى اسمرار يضرب إلى الحمرة . وهذا الجبل قائم فى مدى طوله علي ارتفاع واحد يبلغ ٥٠٠ متر من سطح الصحراء، وهو مكوّن من سلسة كتل مخروطية الشكل متلاصقة القواعد . وقربنا منه من أقصى جهاته الغربية . وكنا فى تقدمنا إليه لانستطيع معرفة مدى امتداده . وكانت أبعد نقطة نراها منه فى ذلك الاتجاه قنة مرتفعة، وسرنا حوله من جهة الركن الشمالى الغربى، فأصبنا مدخل الوادى الممتد إلى جهة الشرق. وكان في هذه الناحية من الصحراء، شجرة منفردة من النوع الذى يسميه الجرعان «أركنو» ويسميه البدو «صرخه» ومن هذه الشجرة اتخذت الواحة اسمها

ونصبنا خيامنا على مقربة من الشجرة، ولم يكن ذلك بالموقع الحسن، نظرا لكثرة «قرد» الجمال التى تعيش فى ظل الشجرة والتى وفدت علينا أسرابا عند اقتراب الجمال. واضطررنا إلى ضرب خيامنا على مسافة من الشجرة تفاديا من «القرد» . وإن آثرت البقاء فى ظل الشجرة عن الفتك بالجمال. وقد لقطت ذات مرة قردَة من هذا القرد فكانت كقطعة من الخشب المتحجر وضربتها بعصا فتكّت كأنها قطعة من الحجر. أوشحت بوجهى عنها مدعيا الانشغال بشئ آخر، فمضى عليها زهاء الأربع دقائق حتى بانت الحياة فى حركتها. لأن القردة تعلم بغريزتها أن سلامتها فى ادعائها التحجر. ثم انتهزت فرصة غفلتى عنها فمرقت فى سرعة البرق. وتغنى القردة عن الجمال إذا عز الوصول إليها. لأنها تمتص دم الجمل حتى تنتفخ ثم تعيش على ذلك سنينا، كما يقول البدو، ولكنى لا أظن ذلك يتجاوز بضعة أشهر .

وما كدنا نستقر ، حتي أرسلت الجمال إلى الوادى لتشرب وتحمل إلينا الماء. وكنا فى حاجة شديدة إليه ، ولحقنا بعد ساعتين من ضرب الخيام ذالك العبدان اللذان تخلفا. وأحضرا جانبا من لحم الجمل المذبوح . فكان منه عشاء شهى لرجال القافلة . وَهبَّت ريح شديدة ساخنة استمرت طول النصف الثانى للنهار .

وحدث لى أنى بينما كنت أستريح فى خيمتى، شعرت بغتة بشئ يلمس أذنى، فحاولت أن أذوده دون أن أتعرفه، وبعد ذلك بدقائق هبت عاصفة ريح من خلال جوانب الخيمة . وكنت قد رفعت جانبا منها بقصد التهوية ، فأحسست شيئا يمرق محتكا بجسمى فقبضت عليه، ولكنه أفلت من يدى، لحسن حظى وراحة بالى ، فقد كان ثعبانًا طوله زهاء الأربعة أقدام. وقد أمسكه رجالى بعد ذلك وقتلوه .

وأقام الرجال بعد ظهر اليوم مسابقة فى إصابة الأهداف، بدأت تسلية ، وصارت كبيرة الأهمية حين وضعت ريالا مجيديا للفائز. ونال الجائزة ، السنوسى أبو جابر، على قصر نظره. وعبّر حامد عن شعور المتسابقين حين قال عن نفسه : «لقد كان للمجيدى تأثير شديد فى نفسى، وهاج أعصابى فلم أصب الهدف الذى لم أخطئه من قبل». وقمت بعمل بعض أبحاث، وأخذت صورا فتوغرافية وداويت أسنان الدليل.

وبغتنا منظر الجرعان، وهم قبائل السود الذين يعيشون فى تلك النواحى، فقد ظهروا فجأة من الوادى وتقدموا إلينا فحجزناهم للعشاء .

ولم يكن أحد منا يحلم بوجودهم قبل أن يظهر . فإن الجبل يبدو موحشا خاليا، حتى لايظن أحد أنه يحوى واديا خصبا مأهولا. والحقيقة أن أركنو لاتظل مسكونة طول السنة. لأن واديها يحوى خضرا يانعة ، ترعاه الإبل بلا راعى. وتفسير ذلك أن البدو وعبيد التبو والجرعان يحضرون جمالهم إلى ذلك الوادى فى فصل الكلأ، فيسدون منافذ الوادى بالصخور ويتركونها ترعى مدة ثلاثة أشهر بغير رعاة. وقد قال لى محمد الدليل : «إن أصحاب الجمال إذا عادوا إليها بعد تركها فى ذلك الوادى كان شحمها فى سمك قبضتى اليدين».

الأربعاء ٢٥ أبريل :

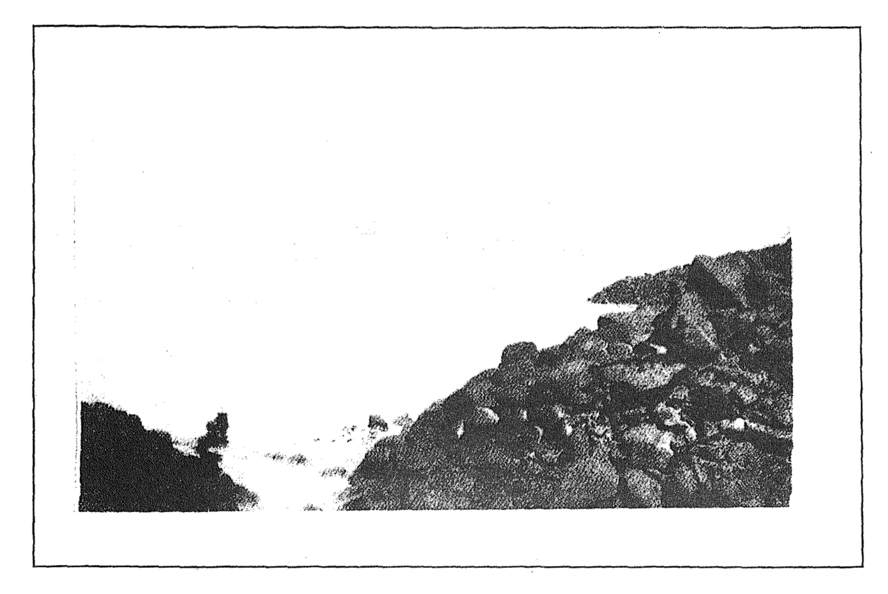
أحضرت لنا قبيلة الجرعان التى تعيش فى الوادى نعجة ولبنا وسمنا بمثابة ضيافة . وجاءوا بقطيع أغنامهم إلى مضرب خيامنا حتى يحلبها الرجال. وركبت بعد الغداء مع السيد الزروالى، وبوكاره ، إلى وادى اركنو وهو (كركور) أعنى وادٍ ضيق متعرج يمتد فى الجبال مسافة ١٥ كيلو مترا ويحوى الحشيش والعوسج وبعض الأشجار. وزرنا كوخ الجرعان، حيث صورت بنتا وولدين من أفراد الأسرة . وكان الولدان فى ثياب بيضاء ، وهى شارة أبناء الشيوخ . وعدت إلى خيامنا فأرسلت قماشا ومناديل وأرزا هدية منى للأطفال الثلاثة.

وعزمت على الإقامة ثلاثة أيام أخرى فى اركنو. لأن المرعى كان خصيبا، والجمال لم تزل متعبة من ذلك السفر الشاق، إلا هجينى فإنها كانت على ما يرام.

والتقطت بعض الحجارة كعينات جيولوجيه ، فهجت بذلك ريبة بعض رجالى. لأنهم ظنوا أن هنالك ذهبا فيما التقطت من الحجارة، وإلا لما كلفت نفسى مشقة حملها إلى وطنى.

الخميس ٢٦ أبريل :

فى اركنو . أعلى درجة للحرارة ٣٦ وأقلها ٩ . الجو صحو معتدل والريح ساخنة قوية تهب



معسكر الرحّالة بالعوينات

من الجنوب الشرقى، وقد هدمت الخيام مرتين. وأرسلنا الجمال ترعى وتشرب. وكان يوما شديد الحر بلغت درجته داخل الخيمة ١٠٠ درجة فهرنيت. وكان قيامى بالأبحاث والأرصاد صعبا نظرا لاشتداد الريح. ولم أمل إلى القيام بها مستترا خلف الخيام، خوفا من إثارة الفضول والريبة . وسكنت الريح فى المساء . فأعاضتنا الطبيعة عن اليوم الحار المحرق ليلة رطبة النسيم باهرة القهر. ورقص بوكاره وبقية الرجال وغنوا حتى منتصف الليل .

الجمعة ٢٧ أبريل :

إن أركنو أولى الواحتين المجهولتين اللتين كان من حسن حظى أن أحدّد موقعهما على الخريطة . وكان هنالك قبل ذلك إشاعات متواترة بوجود واحتين قريبتين من ركن مصر الجنوبى الغربى. ولكن المكان الذى وضع لهما بالحدس والتخمين ، كان بعيدا عن موضعهما الحقيقى بمسافة تتراوح بين ٣٠ , ١٨٠ كيلو مترا . ولم يكن حدد موضعهما أحد بعد أن رآهما رأى العين .

ثانية دقيقة درجة

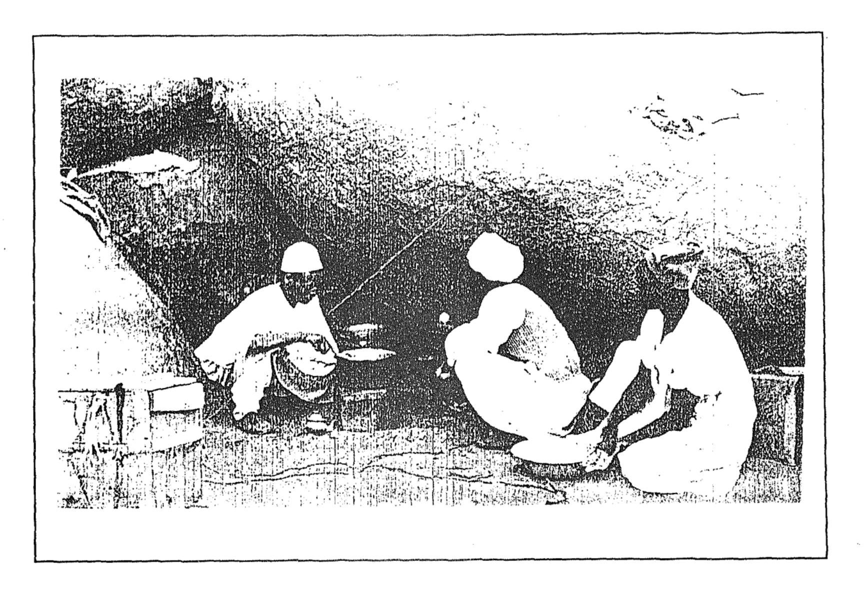
وقد أظهرت ملاحظاتى أن أركنو تقع على ٣٢ ١٢ ٢٠ من خط العرض

ثانية دقيقة درجة

الشمالى وعلى ١٥ ٤٤ ٢٤ من خط الطول الشرقى. وأن ارتفاعها عن سطح البحر ٥٩٨ مترا عند سفح الجبل. فهى والحالة هذه ، داخلة فى **الحدود المصرية** . والأهمية العظيمة لهذه الواحة – ولواحة العوينات كذلك – فيما تمهده فى سبيل استكشاف الركن الجنوبى الغربى لمصر، الذى لم تكن وصلته بعد أية دورية حربية أو قافلة مسافرة. ولم يكن أحد يعلم بالتحقيق بوجود موارد للماء يعتمد عليها فى قطع ذلك الجزء من الصحراء .

ويظهر أن مياه اركنو دائمة وصالحة للشرب ، وإن لم تكن من الجودة بحيث يتمنى واردها. ولأركنو ميزة حربية يمكن الاستفادة منها فى مقبل السنين، نظرا لوقوعها فى ملتقى خطى الحدود الغربية والجنوبية لمصر . واركنو والعوينات تختلفان عن بقية واحات الصحراء المصرية الغربية فى أنهما ليستا منخفضتين فى الصحراء يتسرب إليهما الماء من باطن الأرض . لأنهما بقعتان جبليتان ، تجتمع مياه الأمطار فى حيضانهما الصخرية.

وسلسلة جبال اركنو حسب ما رأيتها تمتد ١٥ كيلو مترا من الشمال إلى الجنوب و٢٠ كيلو مترا من الشرقى إلى الغرب. ولكن الفرص لم تتح لى فاستكشفها من الجهة الشرقية. ولذلك لايمكننى أن أجزم بعدم امتدادها فى تلك الجهة إلى أبعد مما ذكرت ، لأنى عاينتها بقدر ما وصل إليه بصرى من موقفى فى الصحراء، عند سفح الجبل الغربى. وربما كانت جبال



مطبخ القافلة فى مغارة العوينات

اركنو من جهة الشرق مستمرة الامتداد على شكل سلسلة من التلال، تبدأ جبال العوينات عند نهايتها من الجنوب . وقد تمكن الفرص غيرى من استكشاف الأجزاء الشرقية لهاتين الجهتين الصخريتين أكثر مما أمكنتنى حين زرتها مزودا بما كان معى من الوسائل .

وأقرب الأصقاع المعروفة إلى اركنو والعوينات من الجهة الشرقية –أو الجهة الشمالية الشرقية على الأصح– هى الواحات الداخلة على بعد ٥٠٠ كيلو متر أو ما يقرب من ذلك . ويزعم الناس أنه كان لك طريق قديم بين مصر وتينك الواحتين ولكن السفر من الواحات الداخلة إلى اركنو والعوينات مشروع كبير يستغرق ١٤ يوما تقريبا .

الفصل السادس عشر

إلى واحـة العوينـات

السبت ٢٨ أبريل :

قمنا فى منتصف الساعة العاشرة مساء وقضينا لأول مرة طول الليل فى السير، وحططنا الرجال الساعة السابعة من صباح يوم ٢٩ أبريل فقطعنا ٤٠ كيلو مترا. وكان الجو صحوا جميلا ، وهبّت ريح ساخنة قوية، طول النهار من الجنوب الشرقى، واستمرت الريح تهب من هذه الناحية طول الليل. ولكنها كانت دافئة . وكانت الأرض سريرة كثيرة الحجارة الكبيرة فآذت الجما فى السير. وفى الساعة السادسة صباحا ، وصلنا الركن الغربى لجبال العوينات وحططنا الرحال بعد ساعة .

قضينا اليوم هادئين، فاسترحنا استعدادا لمرحلة الليل ، وأرسلنا فى المساء رجالا يجلبون الجمال من مراعيها. واستأجر بوكاره جملا من أحد العبيد التبو ، وكان قصده من ذلك، أن يريح جمله الذى أراد أن يبيعه بثمن غال فى نهاية الرحلة. وقد استخدمت ثلاثة من عبيد التبو. واستأجرت جمالهم لمرافقتنا فى هذه الرحلة. لأنى رأيت وسائل النقل غير وافية، فقد لاحظت أن حوائجنا كانت ثقيلة أنهكت قوى الإبل بعد تركنا الكفرة.

وجاءت الجمال فى الساعة الثامنة ، وبدأنا السير بعد ذلك بساعة ونصف ساعة . وكانت الأحمال خفيفة على الجمال هذه المرة ، لأنّا لم نحمل ماء من أركنو لأنه ردئ الطعم عسر الهضم ، أحدث ثلاث إصابات من الدوسنتاريا بين رجال القافلة . وقد امتطى المرضى ظهور الجمال منذ بدء المرحلة، وتناوب بقية الرجال الركوب أثناء الليل. وبدأنا المسير أمرح ما نكون خاطرا ، وانبعث الغناء من نفس طروبة، فانضم إلى صاحبها بعض الرجال، وغنّى الجميع ورقصوا وصفقوا بأيديهم متوافقين، بينما كانت الإبلَ تَجدُّ فى المسير . وكانت الأغنية كلمات مرددة ترجع بصوت قوى النبرات تختلف أنغامه فى الشطرين وهى :

إن كـــان عـــزيز عليـــه الأنظار حـــتى لو بـاعـــدْ بالـــدار

وظل الرجال يطيلون فى ترجيع هذه الأغنية حتى انتهوا منها بصرخة فجائية . وكنت أنصت إلى انشاد الرجال، وأنا أوقع ضروبه بسوطى ، فلما فرغوا صِحْتُ على الرجال«فرّغوا

بارود» أى أطلقوا النار إعلانا للسرور، ثم أخذنا بعد ذلك مواضعنا من القافلة وسرنا مبتهجين.

وللسفر بالليل ميزات خاصة ، فإن المسافر إن لم يكن منهوك القوى، يشعر بسرعة فوات الوقت أكثر مما يشعر به أثناء النهار. والنجوم رفقاء مسلّون لمحب الطبيعة. وبدت لنا بعد ذلك عند الأفق قطع جبال العوينات القاتمة . وإنه لأسهل على المسافر أن يسير إلى قصده وهو ماثل أمامه من أن يضرب فى ذلك المنبسط من الصحراء ، الذى تتشابه فيه جميع الجهات، ويظل فيه الأفق على بعد سحيق لايقرب مداه .

وظللنا نقترب من تلك الجبال، حتى بزغت الشمس، فصبغت قممها، وذهبّت حواشيها وألقت خلفها من ناحيتنا ظلا كثيفا أخذ يتقاصر، ويرتد إلى سفحها شيئا فشيئا ، بينا كنا نتقدم إليها.

وبعد طلوع الشمس بقليل ، كنا أمام الركن الشمالى الغربى لهذه الجبال. وبعد ذلك بساعة حططنا الرحال فى ظل جوانبها الصخرية. وأمكننا فى هذه الجهة من الجبل، أن نتحقق [من] وجود بئر فى نهاية أحد الكهوف ، فنصبنا الخيام فى مدخل ذلك الكهف، ولم تمض منا عشر دقائق حتى كنا غارقين فى سبات عميق. لأنا كُنَّا فى حاجة شديدة إلى النوم بعد سفر استغرق منا طول الليل. ومع هذا، فإنا لم ننل من النوم بقدر ما انتظرنا ، لأنا صحونا عند الظهر نهيئ أسباب الغداء . والمثل الفرنسى «من ينم يغن عن العشاء» ينطبق فى بعض الأحوال، ولكنا نحن أهل الصحراء ، نظن أن النوم والتغذية معا أمتع للنفس إذا نالهما الإنسان فى وقت واحد. وكان لنا شغل شهىّ فى الاهتمام بشىّ قطع من الشاة التى ضافنا عليها الدليل محمد احتفالا بالوصول إلى العوينات .

وقضيت اليوم فى زيارة البئر الواقعة فى الكهف الموجود على جانب الجبل، وفى عمل بعض الأبحاث والاستطلاعات والتفرج على الجهات المجاورة. وفى هذه الجهة يزيد ارتفاع الجبل حتى يصير صخرة قاتمة قد تكدست عند قاعدتها الحجارة المتناثرة من كبيرة وصغيرة . وقد توالد على هذه الحجارة لطمات الرياح ومياه الأمطار فى ماضى السنين، وتتابعت عليها سافيات الرمال حتى أصبحت ناعمة الملمس، مستديرة الأشكال، أحق بها أن تكون فى مقاليع رماة القرون الخالية. يصيبون بها ضاريات الوحوش أو يتقاذفون بها فى ألعابهم الخشنة.

وتقع عين الماء على بعد أمتار من مضرب الخيام ، فى ثغرة اتخذت من الصخور العظيمة ، التى تحيط بها حوائط وسقفا . وهى منبع عذبُ الماء أربده الظل فكان بروداً زلالا .

وفى الصحراء نوعان من موارد الماء ، العين ، وهى المنبع الفياض ، والبئر وهى المكان الذى ينبجس منه الماء بعد الحفر فى الرمل. وقد أطلق على منابع العوينات كلمة عين وإن كانت أحواضنا تجتمع فيها مياه الأمطار. ويقال : إن بجبال العوينات سبع عيون، رأيت منها أربعا قبل استئناف السفر. وسمعت ذلك ، أن بهذه الناحية بئرين، ولكنى لم أرهما . وحل المساء فكانت القافلة أنعش ما يكون وأبهج ، فرقص الرجال وغنوا، كأن ليس أمامهم أيام مجهدة يشقون فيها بصهيد الرمل ولفح السموم.

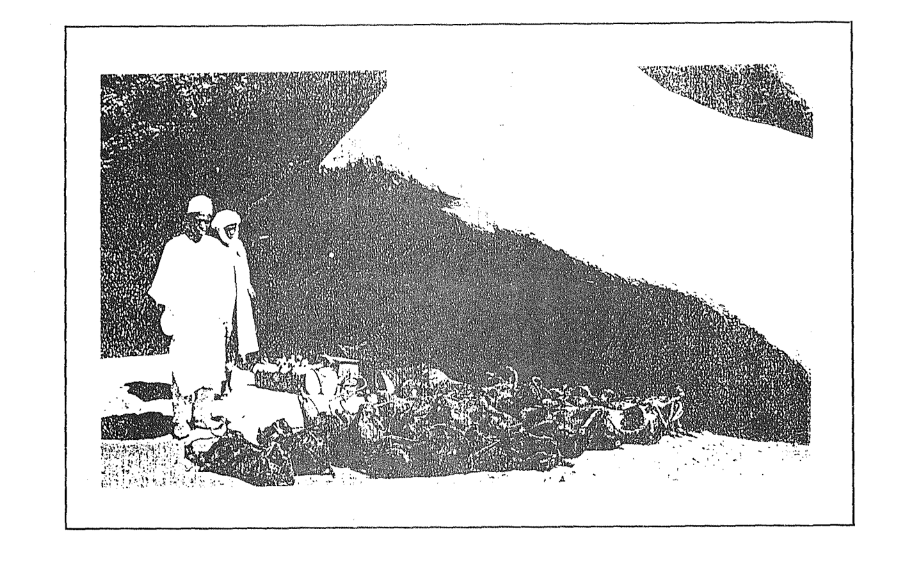
الأثنين ٣٠ أبريل :

صحوت مبكرا وذهبت مع السيد الزروالى ، وعبدالله ، ومحمد ملكنى التبوى ، إلى العين الكبيرة فى قمة الجبل، بعد أن صعدنا ساعة ونصف ساعة فوق أرض صخرية . والعين ثرّة بالماء القراح يوشع جوانبها قصب رقيق، قطعت منه قليلا واتخذت منه مقابض لمباسم التبغ تحيل الدخان باردا لذيذا . وفى المساء امتطيت هجينى وصحبنى ملكنى والسنوسى أبوحسن وسعد لاستكشاف الواحة. وكانت ليلة مقمرة ، يهب فيها نسيم دافئ من الجنوب الشرقى . وسرنا فى السريرة أربع ساعات ونحن ندور حول الركن الشمالى الغربى للجبل. ثم دخلنا عند منتصف الليل واديا امتدت فيه سلسلة من التلال عن يسارنا . وقام عن يميننا ذلك الجبل ذو المناظر الغريبة بأشكال صخوره وأوضاعها . وأرض الوادى من الرمل الناعم ، تتناثر فوقه حجارة كبيرة كانت تعوق فى بعض الأحيان سير الجمال.

ورأيت الرجال قد فترت عزائمهم فأوقفتهم بضع دقائق تناولنا فيها بعض أكواب من الشاى، الذى حملته معى فى زجاجة (ترموس) . ثم اندفعنا فى السير، وقد انتعشت قوانا وكان فى سحر الليل وضوء القمر وجمال الجبال، ما هاج خيالنا وسما بأرواحنا .

وفى الساعة الخامسة صباحا انبسط الوادى، فصار سهلا من الرمل المنداح، قامت على جانبه الشمالى الشرقى تلال، يتراوح ارتفاعها بين ١٠ أمتار و ١٥ مترا. وملنا دفعة واحدة صوب الجنوب حول قاعدة الجبل، فطلع الفجر ووجبت صلاة الصبح فبركنا الجمل وتيممنا، ثم وقفنا فوق الرمال، مولين الوجوه شطر البيت الحرام.

وليست الصلاة فى الصحراء إطاعة عمياء لتقاليد الدين، وإنما الغريزة هى التى تدفع الإنسان إليها، إعرابا عما تشعر به النفس نحو الخالق من شكر واسترحام. والصلاة فى الليل تبث الهدوء والسكينة، فإذا طلع الفجر ودب الانتعاش فى الأوصال، ارتفعت الرؤوس إلى



إعداد قرب وفناطيس المياه للسفر من العوينات لأردى

الخالق، شكرا على ما أودع الكون من جمال ، واستدرارا لرحمته وهديه فى اليوم الجديد. ولذلك، يؤدى الإنسان صلاة الصبح لأنه مندفع إليها لامسوق .

وفى الساعة السابعة دخلنا واديا واسعا يمتد إلى الجنوب الشرقى وتقوم الجبال على جانبيه . وأرض هذا الوادى منبسطة انتثرت عليها الحشائش التى ظهرت بينها أشجار (الميموزا)، وشجيرات أخرى، ينبعث منها عند سحقها رائحة زكية تشبه رائحة النعناع . وكانت الأرض تكتسى من وقت لآخر بساطا من النباتات الزاحفة، ومن الحنظل ، وهى مساحات ممتدة من الأوراق الخضراء ، ترصعها كرات صفراء شديدة اللمعان كأنها نوع كبير من الليمون الحلو ، ومن الحنظل يصنع التبو والجرعان ما يسمونه (عبره) وهى أهم أنواع طعامهم الذى يعملونه بغلى حبات الحنظل حتى تضيع مرارتها وسحقها بعد ذلك، مع التمر والجراد، فى هاون من الخشب.

وظللنا نتقدم فى الوادى مدة ثلاث ساعات ، ثم حططنا الرحال فى الساعة العاشرة مجهودين . ولكن غير ساخطين فأكلنا أرزا شهيا وشربنا الشاى، وتفيأنا ظل مرتفع من الأرض نريغ غفوة قصيرة. وكان نوما متقطعا لما أصابنا من لسع أسراب الذباب، وانتقال ظل ذلك المرتفع ، مما اضطرنا إلى تغيير مواضعنا من وقت لآخر.

وفتحت عينى، فأبصرت شبحا قائما بالقرب منى كأنه طيف حلم لذيذ. وكانت صبية فتانة من بنات الجرعان، هيفاء القد بديعة القسمات لم ينقص من رشاقة قدها ما كان عليها من ملابس بالية. وكانت تحمل جرّة لبن فقدّمتها إلىّ وجلال الخجل فى نظراتها . ولم يسعنى إلا أن أقبل الهدية، فجرعت منها شاكرا حتى إذا انتهيت من شربى ، سألتنى دواء لأختها العاقر . فأظهرت عجزى ولكنها لم تعتقد صحة قولى ظنا منها أنى أحمل فى حوائجى أنجع الأدوية ولما ضاقت بى الحيلة فى سبيل الخروج من هذا المأزق، لم أجد مخرجا غير تلك الأقراص من اللبن المركز الذى يشفى من العلل، ما لايصل إليه علمى، وأعطيتها بعد ذلك مجيديا ، ومنديلا من الحرير هدية منى إليها .

وجاءنى أحد التبو بجزور من لحم الودّان وهو ضرب من الأغنام البرّية فأعطيته شيئا من المكرونة والأرز فمضى راضيا .

وذهبت بعد الغذاء أشاهد بقايا تدل على إقامة الإنسان فى العصور القديمة بهذه الجهات . وكنت أثناء إقامتى فى اركنو قد حادثت أحد الجرعان فخرجت من حديثه بمعلومات وافية عن سكان العوينات الحاليين. ثم سألته بعد ذلك ، إن كان يعلم شيئا عن سكانها الأقدمين

فأجابنى إجابة أدهشتنى إذ قال: «لقد عاش حول هذه الآبار شعوب مختلفة يرجع عهدها إلى ما لا تعيه الذاكرة . ولايهولنك قولى إن الجن سكنت هذه النواحى فى قديم الزمان».

فسألته : «وكيف استدللت على إقامة الجن هناك».

فقال: «أو ما ترى آثار تصويرهم على الصخور؟» .

فكتمت دهشتى وسألته : «وأين ذلك؟».

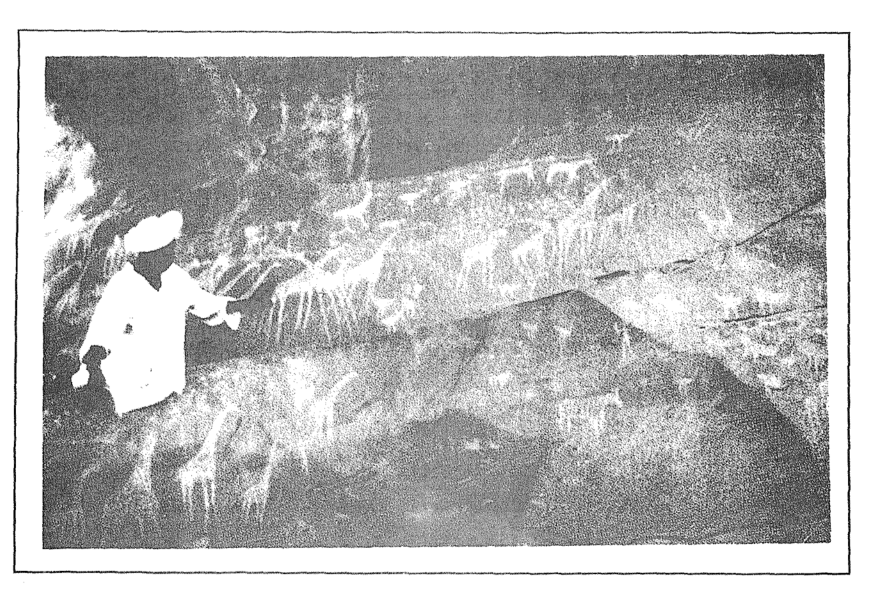
فقال: «لقد وجدت في وادى العوينات تصاوير على الصخور».

وحاولت أن أجره إلى وصف أتم من هذا : «فقال يوجد هناك كتابات ورسوم لجميع الحيوانات الحية، ولايدرى أحد أى قلم استعملوا . لأن كتاباتهم فى الصخور عميقة، لم يقو الزمن على محو آثارها».

وظللت أحاول كتمان تأثرى ، ثم سألته أن يصف لى مكان هذه النقوش فقال: « إنها في أقصى الوادى عند تعرجه فى نهايته».

ووعيت ذلك ، وبعد أن قضيت زمنا قليلا فى الحصول على الماء، وهو ألزم شئ للقافلة ، وبعد أن علوت قمم التلال أرتاد بنظرى ما أحاط بها من الجهات، رأيتنى فى شوق شديد إلى الطواف حول الواحة . وكنت أعلم أن العوينات كانت محط قبائل التبو والجرعان فى طريقهم شرقا إلى مهاجمة الكبابيش والفتك بهم. وكان موقع اركنو والعوينات صالحا لهذا الغرض لما غزر فيهما من الماء الذى تحتاجه هذه القبائل المغيرة. وكانت هاتان الواحتان من البعد عن الكبابيش بحيث لايجسرون على محاولة الانتقام أو استرداد ما ابتزّ من أشيائهم.

وتملكت رؤية تلك النقوش من نفسي، فصحبت ملكنى الذى انضم إلى القافلة فى اركنو. وقادنى عند الغروب إلى أماكن تلك النقوش. وكان موقعها فى جزء الوادى الذى ينحنى قليلا فى نهايته. وكانت النقوش على الصخور قريبة من سطح الأرض. وقيل لى : إنه توجد نقوش أخرى تماثلها على مسيرة نصف يوم. ولكنى لم أزرها نظرا لضيق الوقت، وخوفا من إثارة الشكوك. وكانت النقوش رسوما لحيوانات خالية من الكتابة وظهر لى أن راسمها كان يحاول أن يصور منظرا من المناظر، ولم تكن من الدقة على شئ، ولكنها تنم عن ذوق فنى . فقد كان مصورها يميل إلى الزخرفة لأنه أظهر مهارة فى نحتها وإن لم يبن فيها أثر كبير لدقة الصنع.



النقوش على الصخور التى وجدها الرحالة فى العوينات

وتناولت هذه الرسوم صور الأسود والزراف والنعام والغزلان والبقر، وكانت واضحة رغم فعل السنين بها . وعمق هذه النقوش فى الصخر يتراوح بين ربع بوصة ونصف بوصة . وقد قل عمقها فى نهاية بعض الخطوط، حتى إنه ليسهل مرور الأصابع على قرارها. وسألت عمن عساه يكون صانع هذه النقوش، فكان الجواب الوحيد الذى تلقيته من ملكنى إبداء اعتقاده أنها من صنع الجن. وسأل : « أى إنسان يستطيع فى هذه الأيام محاكاتها؟».

ولم أتمكن من استقاء الأخبار عن منشأ هذه النقوش الشيقة. ولم يتيسر لى العثور بما يفسر أصل وسر وجودها . ولكن شيئين شغلا بالى وهما أن الزراف معدوم فى تلك الناحية فى هذ ه الأيام . كما أنها لاتعيش فى أي منطقة صحراوية كهذه. ولم أجد صور للجمال فى هذه النقوش. والجمل هو الدابة التى ينتقل عليها الإنسان هذه الأيام، فى تلك الأصقاع التى تبعد الآبار فيها مسير بضعة أيام عن البعض . فليت شعرى أعرف سكان هذه النواحى القدماء الزرافة دون الجمل الذى يرجع عهد دخوله أفريقيا من جهات آسيا إلى حوالى ٥٠٠ سنة قبل الميلاد ؟

وبدأنا عودتنا إلى الخيام فى منتصف الساعة السادسة فصعدنا طريقا متعرجا فى جبل شديد الانحدار، لاتتسع دروبه فى بعض المواضع لأكثر من رجل واحد. والخطر شديد لمن يجتازها على ظهور الإبل . ووصلنا قنة هذه الطريق الجبلية ، ثم انحدرنا إلى الصحراء المنبسطة عند سفح الجبل. وقد رأينا من القنة التى صعدنا إليها بعض قنن أخرى انتشرت حولها، وارتفعت عنها بقدر يتراوح بين ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر. وقد أظهرت الجمال مهارة شديدة فى الصعود إلى هذه القنة والنزول عنها رغم الظلام.

ووصلنا سفح الجبل فى منتصف الساعة الحادية عشرة، فرأينا من الصلاح أن نريح الجمال، وحططنا الرحال فى الساعة الحادية عشرة، فاسترحنا ساعتين وتناولنا الشاى وزارتنا أسرة من التبو كانت تعيش بالقرب من مناخنا . وغفونا قليلا ثم صحونا منتعشين وكان النسيم رطبا والسير فى الصحراء المنبسطة استراحة طيبة بعد الجهد الشديد فى تسلق تلك الصخور. ووصلنا مضرب الخيام فى الساعة العاشرة صباحا من يوم ٢ مايو فاستقبلنا رفقاؤنا بطلقات البنادق.

الأربعاء ٢ مايو :

وجدنا عند وصولنا إلى الخيام الشيخ هرى وهو شيخ الجرعان الذى يطلق عليه لقب ملك العوينات وشعبها المكون من ١٥٠ نفسا. وكان قد جاء بالأمس يزورنى، فانتظر عودتى وكان

شيخا لطيفا مهيب الطلعة هادئها . وأحضر لنا شاتين ولبنا «وعبرة» بصفة ضيافة .وكان فى ذلك اليوم صائما رمضان ، فألححت فى بقائه لتمضية الليل معنا حتى أقوم بحق الضيافة نحوه أنا الآخر. وحادثته طويلا وكان لايزال يحن إلى وطنه فى شمال واداى يتنهد عند ذكره فى حديثنا . وهرى من أسرة الرزّى إحدى قبائل الجرعان الحاكمة فى شمال واداى . وقد اختار الكفرة منفى له عند دخول الفرنسيين واداى، وأقام فى العوينات بعد ذلك . ووجدتنى متعبا بعد سير ٢٨ ساعة لم أسترح فيها إلا ٩ ساعات ولكن قواى انتعشت فى المساء بعد حمّام وعشاء طيب وإغفاة قصيرة.

وكان بوكاره قد رتب مجلس غناء فقضينا هزيعا من الليل فى سماع الأغانى البدوية والتبوية والسودانية .

الخميس ٣ مايو :

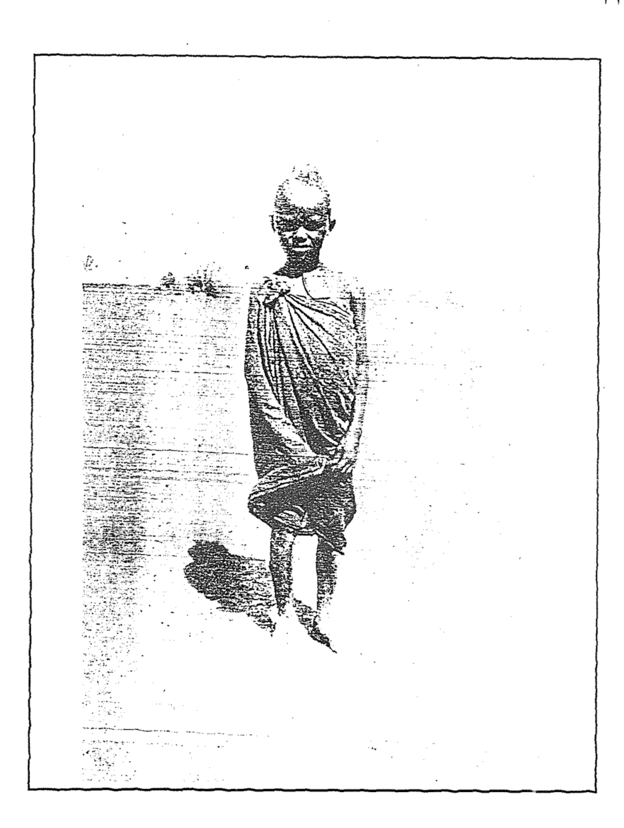
جاءنى «هرى» بطاس من اللبن عند استيقاظى وشكرته فهز رأسه حزينا وقال : «هذا كل ما يمكننى أن أقدمه وهو لايليق بك، ولكن الهدية على مقدار مهديها ، فاعذرنا إذا لم نفك حقك من واجبات الضيافة». فأكدت له أن قيمة الهدية فى المعنى الذى أريد منها، لا فى قيمتها الذاتية وقضينا اليوم فى عمل ترتيبات السفر الذى رجوت أن نبدأ به فى الغد.

الجمعة ٤ مايو:

اتفقت مع هرى على أن يصحبنا إلى اردى بصفة دليل ثان. لأن محمدا لم يطأ هذه النواحى منذ سنين عديدة وظننت أن هرى أعرف بمفاوزها . وترويضت طويلا بعد ظهر اليوم وصورت الجبال . وسمع بوصولنا أفراد قبائل التبو والجرعان الذين يعيشون فى تلك الواحة، حيث يجدون المراعى الصالحة لدوابهم . فجاءوا لزيارتى ودعوت كثيرين للعشاء، فكانت ليلة مرح وطرب عددتها ، من أبهج ليالى الرحلة .

ويجمل بى قبل أن أفرغ من وصف العوينات أن أقول شيئًا عن بوكاره، وهو من أمتع رجال القافلة صحبة وأكثرهم شاعرية .

كان بوكاره طويل القامة منسرحها صلب القناة، دائم المرح والطرب ، مثالا للبدوى الصميم. لايسكت عن الغناء فى الأوقات العصيبة من اليوم ، سواء كان ذلك فى بكرة الصباح بعد سير الليل أم فى آخر الليل حيث يجهد السير رجال القافلة ، فيكونون فى حاجة إلى ما يرفه عنهم ويشجعهم على المضى. ولم أعلم أنه يدخن حتى رأيته ذات يوم، بينما كنت أمتطى



صبى من الجرعان بالعوينات

جوادي، يجمع أعقاب السجاير من الموضع الذى قامت فيه خيمتى. فشاطرته سجائرى بعد ذلك، وكان يروق لى أن أراه يغنى ويرقص طربا، كلما قدمت إليه علبة من تلك اللفائف الثمينة.

وبوكاره من أكثر البدو الذين رأيتهم أسفارا فقد جاب واداى وبركو وبرنو ودارفور وهو لم يعدُ الثالثة والثلاثين من عمره. وقد ساعده الحظ فى ماضيه فذاق الغنى، ولكنه لايملك اليوم إلا جملا واحدا. وقد أراغ المكسب حين انضم إلى القافلة واتفق مع أبى حليقة علي أخذ شطر من أثمان الجمال عند بيعها فى نهاية الرحلة. وهو يجيد أكثر لهجات القبائل السود، ويعرف الكثير عن هذه القبائل . كما أنه مقلد مدهش . أذكر ذات مساء يوم أنه التحف بقطعة من القماش الأخضر، الذى يُكوِّن قسما من خيمتى واتخذ منها (برنسا) وتبعه سعد وحامد ، وهما يقلدان ثغاء الشاة ثم تقدم إلى مضرب الخيام، مدعيا أنه شيخ بدوى قد أحضر شاتين بمثابة ضيافة . فضحكنا ضحكا عاليا، ونضا بوكاره تلك الخرقة الخضراء وانتزع حربة من أحد التبو، ثم طفق يرقص رقصا حربيا تبويا. وساعده أحد التبو على الرقص بالإيقاع على أحد الفناطيس الخالية . وتبع هذا المنظر الغريب، مجلس غناء ترددت فيه أغانى البدو الشائقة فى برقة وفزان وطرابلس .

ورأيت بوكاره ذات يوم يرفض امتطاء جمله، فى ساعة لم يتمالك فيها إخوانه أن يصبروا على السير. فسألته «لماذا لاتركب والجمال غير المحملة عديدة؟».

فأجابنى وفى صوته نبرة سخرية وتعنيف : «وماذا عسى تقول زوجى إذا سمعت أنى ركبت بين اركنو والعوينات».

وأخبرنى أنه وكل إليه ذات مرة أن يصحب خمسين جملا إلى العوينات لترعى. وكان وحيدا ونفد منه الزاد فقضى اثنى عشر يوما لايذوق طعاما إلا حب الحنظل ، الذى أضر بجهاز هضمه ثم قال: «ووصلت الكفرة وكان الرجال الذين أرسلونى بجمالهم قد نسوا أن يتركوا لى طعاما لأنهم توقعوا وصولى قبل ذلك».

فسألته : «وما الذى منعك من ذبح جمل تقتات به؟».

فقال لى بشمم : «وكيف أسمح لرجال الكفرة أن يقولوا إن بوكاره لم يصبر على الجوع فذبح جملا من جمالهم؟»

وبوكاره شديد الوله بزوجه وقد قال لى عند وصولنا : «إنى لأشعر الآن أنى أحسن حالا. ولكنى بكيت بكاء الأطفال عند توديعى امرأتى فى الكفرة. وهذه حالى دائما عند البدء فى أسفارى غير أنى إذا أنست إلى رفقائي ، واستطيبت صحبتهم سهّل علىّ ذلك ألم الفرقة».



فتاة تبوية بملابس البدو

الفصل السابع عشر

السير ليلا إلى (اردى)

الأحد ٦ مايو

قمنا فى الساعة السابعة إلا ربعا مساء وسرنا ١٢ ساعة قطعنا فيها ٥٤ كيلو مترا ، وكان سفرا متعبا. وكان هذا أمرا متوقعا فى أول ليلة نقطعها فى السير. ولم يكن الرجال قد تمكنوا من النوم أثناء النهار، بل كانوا أكثر اشتغالا من العادة بتجهيز أسباب الرحيل . وكان علينا، بالرغم من هذا التعب ، أن نتعهد الأحمال ونصلح وضعها من وقت لآخر. وطلع الفجر فدب الكرى إلى أجفان القوم فأغفوا قليلاً.

وهرب منا أحد الجمال فعدا إلى العوينات واضطر ملكنى أن يترك القافلة عند منتصف الليل وينطلق فى أثره . وكانت ليلة مقمرة فى هزيعها الأخير، وهب نسيم بليل فى الثالثة صباحا .

ورعت الجمال وهى سائرة ما نجم فى تلك الجهة من الحشائش التى يسقيها الماء المنحدر من الجبال . وحططنا الرحال، فوجدنا قربة من أجود قربنا ، قد تمزقت وضاع منها نصف الماء الذى تحويه .

وكان ذلك من سوء حظنا. لأنه لم يكن معنا ما يفيض عن حاجتنا من الماء فى قطع هذه المرحلة، التى كان علينا أن نسير فيها عشرة أيام قبل أن نصل إلى أول بئر فى الطريق. ولم يظهر ملكنى مع الجمل الهارب أثناء النهار.

الأثنين ٧ مايو :

كانت السماء ملبدة بالغيوم طول النهار، وهبت ريح قوية من الشمال الشرقى وقرت عند الظهر. أعلى درجة للحرارة ٣٨ ولم أتمكن من معرفة أقل درجة ، نظرًا لسفرنا بالليل، والجو أبرد ما يكون فى الساعة الثانية أو الساعة الثالثة صباحا . وبدأت السير فى منتصف الساعة السابعة مساء، ووقفنا قبل منتصف الليل بنصف ساعة قطعنا ٢٠ كيلو مترا. وكانت الأرض ناعمة الرمل متموجة كثيرة (السبط) الجاف الصالح لرعى الإبل.



تباوى بمعطف من الفرو

ولحقنا بعد الظهر أحد عبيد التبو على جمل يحمل الحوائج التى كانت على ظهر الجمل الهارب. وأخبرنا أن جمل ملكنى رمى بحمله على الأرض وجرى إلى مراعى العوينات ، وأن ملكنى جادّ فى طلبه. وحططنا الرحال ننتظر المتخلفين فى جهة ناعمة الرمل، متناثرة الصخور والمراعى بالقرب من (جارة شِرُّو) ولحق بنا ملكنى بعد وقوفنا بقليل ، ولكنى صممت على عدم السير تلك الليلة. لأنا كنا فى حاجة إلى الراحة.

الثلاثاء ٨ مايو :

قمنا فى الساعة الخامسة إلا ربعا مساء فى جو مقبض وسحاب كثيف، وأمطرت السماء قليلا بعد ذلك بساعتين ، فهلل البدو سرورا وغنوا جمالهم لأن عماد حياتهم الأمطار .

وكانت الأرض متموجة صلبة مغطاة بالحجارة والزلط الكبير، واجتزنا غرودا صغيرة بعد قيامنا بقليل . ثم انبسطت الأرض بعد ذلك، ونعم رملها وفى منتصف الساعة الرابعة صباحا دخلنا جهة تكثر فيها كثبان الرمل العالية فقطعناها فى ساعة ونصف وبعد ذلك ، انبسطت الصحراء ودخلنا السريرة ، ووجدت فى تلك الجهة قطعا من بيض النعام .

وفي بكرة اليوم أخذ (أرامى) أخو ملكنى كيسا وذهب يلتمس الحطب . واسمه ينم عن قصته لأن قبائل التبو والجرعان تطلق اسم (أرامى) على من قتل آخر. وكان قد أخبرنا أنه سيلحق بنا بعد ذلك، فلم ينشغل بالنا عليه، وزاد طمأنينتنا أنه يعرف الطريق حق المعرفة.

ولكنا بعد أن سرنا ساعتين ، وأخذ الظلام يرخي سدوله شغلنا أمره . ووقفنا ننتظره وأطلقنا بنادقنا مرات عديدة، ننبهه إلى موضعنا ونادى الرجال باسمه بصوت عال. فكان كل ذلك بلا جدوى فالتفت إلى ملكنى وسألته ماذا يزمع أن يعمله ؟ فقال : «إن أخى مجنون ولم يكلفه أحد بجمع الحطب، وقد ترك مضرب الخيام بدون أن يتناول فطوره، وربما دعاه الله إلى جواره. وإنى إذا طلع القمر تركت أحمال جملى وعدت أبحث عنه، فإن كان حيا جئت به، وإن وجدته ميتا دفنته ثم لحقت بكم» .

وكان يقول ذلك بلهجة طبيعية كأنما يتكلم عن أمر عادىّ ورفعنا أثقال جمله فوضعناها على ظهر جمل آخر ورجع يلتمس أخاه .

وكان أرامى قد تخلص من بين براثن الموت مرات عديدة ، فأمل الرجال أن يسلم هذه المرة كذلك ، ولكن محمدا كان يشك فى سلامته إذ قال: «إن الله رحيم ولكنى أظن أن أرامى قد سعى إلى حتفه». وأشفقت أن يكون محمد صادقا فى نبوءته . لأن أرامى كان غريب الأطوار

منذ بدء الرحلة. وسمعت أن ماءه نفد فى بعض رحلاته من اردى إلى العوينات فأحس عطشا قاتلا ووصل العوينات نصف ميت . ومثل هذه الحادثة تترك أثرا فى صاحبها لاينمحى فلايعود إلى حالته الطبيعية إلا بعد زمن طويل .

وكنت قد لاحظت نظرات أرامى الغريبة الحائرة فعجبت من أمره وخفت إن لم يعد أن تكون الصحراء قد تملكتها القسوة فطالبت بحقها منه .

وقد تطيح رؤوس الرجال فى السفر الطويل الخالى من الماء ، من أثر الكلال، والعطش والتعب والأرق، فيسعون إلى حتفهم كما يقول البدو. ومعنى ذلك، أنه إذا غفل عنهم أصدقاؤهم ولم يسهروا على إبقائهم منضمين إلى القافلة، ضربوا فى أحشاء الصحراء ، غير أبهين حتى بالغريزة التى تدفع الجمل إلى الالتصاق ببقية جمال القافلة . فإذا عاد الهائم بعد ذلك بغتة إلى رشده، جلس حيث صحا، ولم يتحرك علما منه بأن أصحابه إذا التمسوه ، فلم يجدوه تعقبوا أثر القافلة، ثم أثره وسعوا لانقاذه . وكنت قد قابلت فى الكفرة رجلا انقطع عن القافلة وهام على وجهه مدة ١٨ ساعة ، ثم أنقذ غائب الرشد شديد التألم من العطش. قال لى ذلك الرجل : «إن الله كريم فإنى لم أكن من القوة إلا بحيث أديت صلواتى مبتهلا إليه جل وعلا قبل أن يدهمنى ما توقعته من الموت المحتوم» ثم أضاف باسما «ولكن الحياة والموت بإرادة الله» .

الأربعاء ٩ مايو :

قمنا الساعة الرابعة وربعا مساء ووقفنا الساعة العاشرة وربعا وقطعنا ٢٤ كيلو مترا. أعلى درجة للحرارة ٣٧ . سحاب صبير وريح ساخنة قوية من الشمال الشرقى تهب طول النهار، ثم تنقلب عاصفة رمل شديدة فى الليل. رذاذ فى الساعة السابعة مساء واستمرت العاصفة من الساعة الثامنة إلى الساعة العاشرة وكانت الأرض سريرة ناعمة الرمل فى بعض المواضع، خالية من الأعلام والحشيش الجاف. ورأينا فى بكرة الصباح أكوام رمل بعيدة عن يميننا . سرنا ١٤ ونصف ساعة فى الليلة الماضية، ولكنا لم نكن شديدى التعب . ثم أفطرنا وغفونا أربع ساعات ، فانتعشت قوانا وأراد محمد أن نسير مبكرين نظرا لوجود (غرد) وعرفى سبيلنا لايمكننا اجتيازه فى الظلام ، فقمنا الساعة الرابعة وربعا نسير فى سريرة منبسطة ويهب علينا نسيم بليل من الشمال الشرقى.

وشعرت فجأة فى الساعة الثامنة بريح تهب فى وجهى فذعرت لأن الريح لايتغير اتجاهها فى العادة بغتة بهذه الصفة. أضف إلى ذلك أن درجة حرارة الريح لم تتغير. وبالرغم من هبوبها من الجنوب، فإنها لم تكن دافئة . وهكذا كان فى الأمر شئ من الغرابة ، فرفعت بصرى إلى

القافلة تجتاز غرود الرمال بين العوينات واردى

النجوم، ولكن السماء كانت متلبدة بالغيوم من جميع نواحيها ، فأخرجت بوصلتى وفزعت ، إذ رأيت أننا نسير صوب الشمال الشرقى بدلا من الجنوب الغربى ، فوضح لى أن محمدا طاحت رأسه كما يقول العرب ، فقادنا فى الاتجاه المضاد. وكانت ساعة عصيبة تتطلب حذقا وحسن تصرف، فإن من الخطر أن تهدم الثقة فى نفس الدليل. ونزلت عن جملى ثم امتطيت جوادى وغدوت إلى محمد فى طليعة القافلة، وأدركت فى طريقى إليه أن رجال القافلة وبينهم الكثيرون ممن اعتادوا المسير في هذا النوع من الصحراء وألفوا هذا الضرب من الطقس، كانوا يشعرون بأننا أخطأنا الطريق ، ولكن آداب الصحراء تقضى أن لايتداخل أحد فى شأن الدليل بأية حال من الحالات . لأن الدليل فى الصحراء كربّان السفينة. مطلق التصرف فى اختيار وجهة السير، ويجب استشارته كذلك فى تعيين أوقات السير الوقوف .

وكنت لحسن الحظ قد سألت محمدا قبل تركنا العوينات عن الاتجاه الذى سنتخذه وضبطت البوصلة على ذلك . وتقدمت إلى الدليل فوجدته مضطربا تنقصه ابتسامته المألوفة، ولايبدو عليه ما اعتدنا رؤيته من مظاهر ثقته بنفسه واعتماده عليها. وأريته البوصلة ثم أفضيت إليه بشكى فى صحة الاتجاه ، فلم يُجبنى وذرع السماء بعينين متفرستين يتعرف موقع (الجدى) بلا جدوى. لأن السحاب كان يغطيه .

وفى هذه اللحظة أطفأ سراجه هبوب العاصفة الآخذة فى الثوران . وكانت القافلة قد لحقت بنا وعرف كل رجل فيها أنَّا ضللنا الطريق . وردَّ الرجال والجمال من بعضهم إلى بعض والعاصفة تسفى الرمال فى وجوهنا .

وكانت الريح شديدة ، لايكاد الإنسان معها يسمع صوت نفسه فما بالك ببقية الأصوات . وتلاشت الثقة من نفس محمد وانعدمت انعداما تاما ولحظت أثر ذلك من وجوه رجال القافلة . فقد كانوا جميعا ممن ألفوا السفر فى الصحراء ، وعرفوا معنى فقد الطريق فى سريرة منبسطة من الصحراء ، خالية من الأعلام. فقال الجميع بصوت واحد: «لابد أن نحط الرحال حتى تصفو السماء».

ولكنى كنت أعرف خطر هذه السياسة ، فإن الحائرين فى مثل هذه الحال، يقضون الساعات يفكرون فى حتفهم، ويزدادون ضعفا ويأسا . وكان رأيى أن لانقف فقد كنت أثق ببوصلتى وتحققت مرات عديدة ، إذ ضبطتها على الاتجاهات التى أشار إليها محمد.

وسكنت الريح لحظة فقلت بصوت هادئ فيه نبرة اليقين «إنَّ هذه الريح تهب من الشمال شأنها فى الأيام الماضية لأنها لو كانت تهب من الجنوب لوجب أن تكون دافئة ، وهذا هو نجم

القطب وهذا طريقنا السوى». وأشرت إلى الموضع الذى يجب أن يكون فيه الجدى ما لم تكن البوصلة غير صادقة . ثم درت وأشرت إلى الطريق التى يجب اتباعها. فجمع محمد ما تفرق من نفسه وقال «جزاك الله خير الجزاء إن الصدق ما تقول».

وتقدم إلىّ السنوسى أبو الحسن الذى كان دليلنا إلى الكفرة ، وأكد ما قررته بصوت عال قائلا : «والله إنك لتقول الصدق . وقد فكرت فى هذا، ولكنى لم أجسر على الجهر به، لعدم وجود الدليل على ذلك، نظراً لاحتجاب الجدى خلف السحاب» واكتفينا بهذا وأضأنا السراج بصعوبة شديدة، وتقدمت القافلة بين محمد وأبى حسن .

وانبعث من الظلام صوت يقول : «فى أي اتجاه نسير؟». فأجابه بوكاره وهو يضحك «دع الريح تلطم قفاك الأسود فإنك لن تحيد عن الطريق السوى».

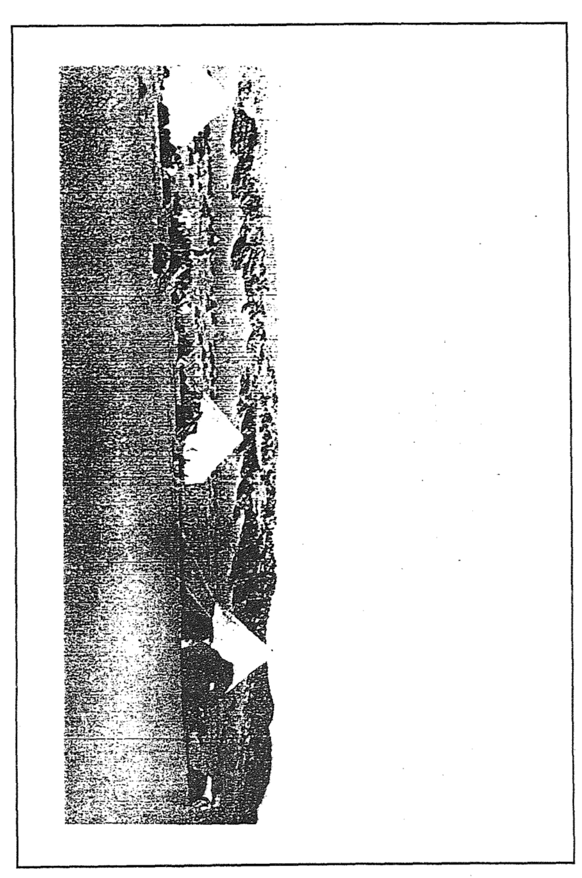
وبعد قليل من الساعات قبض محمد على يدى وصرخ فرحا وهو يشير إلى تلال الرمل التى واجهتنا ثم قال «هاكم (الغرد) الحمدلله : إن الله رؤوف رحيم» وهكذا عاد للرجل طربه وسروره .

وفرّت العاصفة بعد قليل: وكنا بين تلال الرمل ، وصفت السماء إلى حد لم يعد يتمالك معها أشد رجال القافلة تشاؤما أن يشغل باله بأى خطر . ولكن ما أصابنا فى هذه العاصفة من الحيرة والخوف، أظهر لنا ما يتعرض له قاطع الصحراء من الأخطار. ولم يكن الفضل فى نجاتنا من هذا المأزق إلا للبوصلة التى كنت أحملها. ولم ير محمد الصلاح فى قطعنا هذه التلال فى الظلام، فحططنا الرجال حيث وقف بنا المسير.

الخميس ١٠ مايو :

قمنا الساعة الرابعة وربع صباحا ووقفنا الساعة التاسعة إلا ربعا، ثم استأنفنا المسير فى منتصف الساعة الخامسة مساء، ووقفنا الساعة السابعة من صباح ١١ مايو فقطعنا ٧٥ كيلو مترا. الجو صحو معتدل، وهبت ريح باردة قوية فى بكرة الصباح ثم ضعف هبوبها بعد ذلك. أعلى درجة للحرارة ٣٨ . الأرض ملآى بتلال الرمل الناعم الخطرة فى بعض المواقع، ويمتد مسافة كيلو مترين ثم تنبسط الصحراء . وفى منتصف الساعة السادسة مساء، دخلنا منطقة تتناثر فوق أرضها ركام الحجارة سوداء وبيضاء شأن الصحراء قبل الكفرة . وفى الساعة الثالثة صباحا من اليوم الحادى عشر، دخلنا منطقة من الحشيش الجاف فى أرض منبسطة من الرمل الناعم. وفى منتصف الساعة الخامسة صباحا اجتزنا جهة تكثر فيها تلال الرمل .

وقد تحققنا حين قطعنا (الغرد) فى الصباح ، من الخطر الذى كنا نستهدف له لو أنا حاولنا قطعها فى الظلام . فقد كانت هذه التلال شديدة الانحدار ، ناعمة الرمل . وكانت



تلال صخرية فى الصحراء بين العوينات واركنو

الجمال تغوص إلى ركبها فيضطر الرجال إلى تخفيف أحمالها ومساعدتها على النهوض . وقضينا فى قطعها ثلاثة أرباع الساعة، ثم وقفنا عند الساعة التاسعة صباحا وقد فتك بنا الجوع . لأنا لم نذق شيئا منذ غداء البارحة. وكانت حاجتنا إلى الطعام أشد من حاجتنا إلى النوم نظرا للراحة التى نعمنا بها بضع ساعات فى الليلة الماضية.

وكان الطقس حارا عندما بدأنا السير فى منتصف الساعة الخامسة ولكن نسيما بليلا كان يهب من الشمال الشرقى فلطف من تلك الحرارة. وسألنى هرى أن أعطيه بضعة أمتار من القماش الأبيض يتخذ منها عمامة ، لأن حرارة الشمس آذت رأسه فأعطيته ما أراد. ولا يلبس الثياب البيض فى قبائل التبو والجرعان إلا شيوخها .

وشعرت تلك الليلة بالميل إلى المشى فركبت جملى أقل من العادة. وكنت منذ تركى العوينات أمشى بين ست وسبع ساعات كل ليله. ولكنى مشيت تسع ساعات تلك الليلة، وسرنا سيرا حثيثا حتى الساعة الثالثة صباحا، ثم شعرت فجأة بحفيف عند قدمى ، فتحسست ذلك فكان حشيشا .

وتغيرت معالم الصحراء وكانت الجمال جياعا لأننا تركنا العوينات ولانحمل من علفها إلا ما يكفيها يومين آملين وجود المراعى فى طريقنا ولذلك تركناها ترعى وهى تسير بدل أن نستحثها فى سبيلها . وكان سير تلك الليلة متعبا للجميع فقد كنا مفتقرين إلى النوم. وملاحظة سير الجمال فى أرض ذات مراع عمل لايستهان به. وركب محمد وهرى معظم الطريق وكان حسن يحمل المصباح . ثم ترجل محمد قبل الفجر بقليل فحمله عنه وأراحه ، ولم أرَ دلائل التعب على الرجال، كما رأيتها صباح اليوم عند ضمنا الجمال لتأدية صلاة الفجر.

الجمعة ١١ مايو:

قمنا عند الساعة الخامسة إلا ربعا ووقفنا الساعة الثالثة وربعا صباحا من اليوم التالى وقطعنا ٤٢ كيلو مترا. الجو صحو، لا ريح فيه. حار فى النهار والليل. أعلى درجة للحرارة ٣٩ والأرض رملية مغطاة بحشائش جافة تشبه حقلا من القمح الناضج . وفى الساعة الواحدة إلا ربعا صباحا مررنا بغرد عاديّ . وفى الساعة الأولى دخلنا أرضا منبسطة خالية من الحشائش . وفى الساعة الثالثة وربع وقفنا عند تلال من الخراسان .

وقضينا اليوم فى النوم والأكل . ثم بدأنا السير فى الساعة الخامسة إلا ربعًا مساء قاصدين أن نسير طول الليل . ولم تحن الساعة العاشرة حتى كنا جميعا متعبين ناعسين . ولم يندّعنا محمد الذى كان يمتطى جمله. وقد غلبه النعاس بعد ذلك، فكان يغفى فى فترات

ونال منه التعب، فكان لايتحقق من طريقه بملاحظة نجم القطب، وهو عماد الدليل، ومن الخطر أن يهمل ملاحظته . وتحققت أنا والسنوسى أبو حسن أن محمدا لم يكن سائرًا بنا فى الطريق السوىّ . ولكنا لم نرد أن نتداخل معه فى الأمر بعد تلك الليلة السابقة. وفى الساعة الثالثة وربع صباحا وصلنا مرتفعا من التلال فوقف محمد بغته.

وكنت سائرا حينذاك فى مؤخرة القافلة أتحقق من صحة اتجاهنا من وقت لآخر ، فلاحظت أنا كنا منذ الساعة العاشرة ، نميل فى السير صوب الجنوب أكثر من ذى قبل . ووقفت القافلة، فتقدمت إلى محمد وسألته عن سبب وقوفنا فأجاب وهو يشير أمامى : «إنى لا أتعرف هذه الطريق بين التلال ولا أدرى كيف تكون الأرض التى تليها» .

وكان فى ذلك صريحا مقرا بخطئه . ولم أرد أن أهيج الحيرة فى نفوس الرجال فقلت له : «لنحط الرحال حتى يطلع النهار فإنا متعبون هذه الليلة ».

ولم أكد أفرغ من قولى حتى بركت الجمال، ورفعت عنها الأثقال ، ولم أر النوم يستولى على الرجال بالسرعة التى نالهم بها هذه المرة فقد التحف كل منهم بجردة، واتقى الريح الباردة الهابة من الشمال الشرقى ، بقطعة من حوائج السفر ثم نام . واعتلى محمد ذلك المرتفع ليتعرف النواحى فتبعته وقلت له : «أظنك كنت تبالغ فى اتباع نجم القطب». وإنما أردت بذلك أن أقول : إنه بالغ فى المسير صوب الجنوب ولم أشر إلى نومه فوق جمله لأنى لم أرد أن أزعزع اعتقاده فى نفسه أو أن أخجله. فأجاب متمتما وهو يذرع الأفق بتشوف «حفظك الله لابد أن أكون قد فعلت ذلك. وإلا لما كنا وصلنا هذه الجبال فى هذه الساعة المبكرة . فقد قدرت أنَّا نصلها عند الفجر ، ومع هذا فعند الصباح يأتينا الفرج من عند الله».

وتركته وأنا أشعر بالحيرة، فقضيت بضع دقائق فى أرق وأنا آمل أن لانكون قد بعدنا كثيرا عن الطريق السوى. واستولى علىّ التعب فلم أفكر طويلا فى ذلك وغشينى النعاس.

السبت ١٢ مايو :

علا صوت محمد بالدعوة إلى الصلاة فى منتصف الساعة الخامسة. فاستيقظنا جميعا. ولم تمض بنا ساعة حتى كنا على قدم الاستعداد للمسير.

وتقدم محمد القافلة وصحبته . وكان لايزال مضطربا حتى إذا درنا حول التلال، قال وفى لهجته رنة تشعر بالراحة : « الحمدلله هذه طريقنا». ثم أشار إلى الركن الشمالى الغربى لسلسة التلال ، فسرنا إلى حيث أشار . وفى الساعة العاشرة إلا ربعا صباحا وصلنا ركن التلال، وضربنا الخيام، وأرسلت الجمال ترعى بين التلال على بعد كيلو متر أو كيلو مترين وكان الرجال والجمال فى حالة سيئة وكان الماء قد نزر .

أول شجرة قابلتها القافلة فى الصحراء بين العوينات وأردى

وبعد ظهر ذلك اليوم تقدمنا محمد وهرى إلى الجبال يخطان [١] السبيل فى الرمال بطنب الخيام حتى نقتفى أثرهما . وفى الساعة الخامسة تبعناهما بين أكوام الرمال ثم وصلنا التلال. ولم تكن التلال كثيرة لحسن الحظ، وإن كانت من شدة الانحدار بمكان . غير أن الأرض الجبلية التى كانت تليها، أنهكت قوانا فقد ظللنا نتعثر بين الحجارة فى الظلام، ولايقينا أذى هذه الصدمات، ما كان فى أقدامنا من الأحذية البدوية. والتعثر بالأحجار مؤلم فى تلك الساعة المبكرة من الصباح . لأن رجال القافلة يكونون ناعسين ويمشون مغمضى الأعين .

وقد كنت فى الليالى السالفة عمدت إلى تجربة موفقة ، هى أن أطلق فى الجو طلقتين أو ثلاث طلقات ، لأبعث النشاط فى نفوس الرجال، وكانت هذه التجربة ذات نتائج حسنة فإنهم كانوا يردون بصرخات الفرح ويجدّون فى السير. ولكن النظرية قد خابت هذه الليلة، فقد أرسلت الطلقات العديدة فى الساعة الثالثة، وهى أعصب ساعات السفر بالليل، ولم يجبنى أى صوت من رجال القافلة.

وكان لى تعزية صغيرة فى وسط ذلك الفضاء الساكن، الباعث على التعب والوجوم، فقد طلع الهلال فى الصباح الباكر كخيط مقوس من الفضة، وتلألأ فوقه نجم متألق . فكان من هذين قطعة جميلة من حلى السماء. وتركت عينىّ تنعمان بهذا المنظر فنسيت ما كان يصيب قدمى من ألم التعثر بالأحجار.

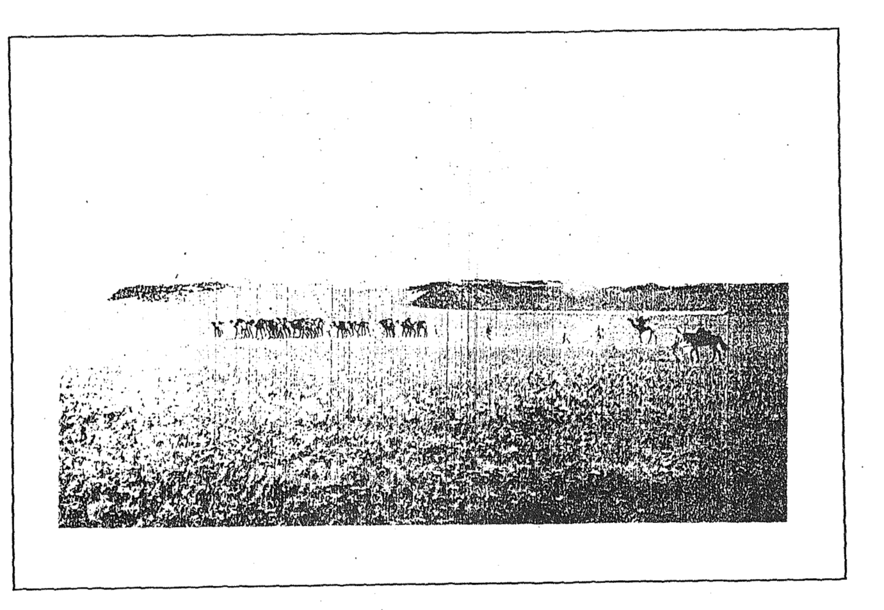
ووصلنا بعد ذلك بقليل إلى جهة كثيرة الحشيش الجاف، فتركنا الجمال ترعى قليلا ، ووقفنا نريح أجسامنا المنهوكة، وحططنا الرحال فى الفجر، لتأدية الصلاة. ولم نكد نفرغ منها حتى التحف أكثر الرجال بجرودهم وتهالكوا على ذلك الرمل الأحمر الجميل كأنهم حجارة بيضاء .

وسارت القافلة بعد ذلك متثاقلة ، ثم لحق بنا الذين تخلفوا يخلسون إغفاءة قصيرة وأرجو أن يكونوا قد انتعشوا قليلا . أما أنا فان أعضائى المتنى هذا الصباح ، ولم أتمكن من استعادة قواى. ولم أجد سبيلا للراحة على ظهر جملى رغم تجربة كل طريقة من طرق ركوبه وسواء كنت مسرعا أم متباطئًا وثقلت أجفانى.

وفى الساعة السادسة ساعدنا الحظ فوصلنا جهة كثرت فيها الحشائش الخضراء، ونصبنا الخيام بعد مسير ١٣ ساعة مجهدة . وكانت أعيننا فى حمرة الدم، ودب التعب فى جميع الأوصال . فلم تمض بنا نصف ساعة حتى غشى مضرب خيامنا سكون شامل .

---

(١) فى الأصل «يخطّون» «وأثرهم» بصيغة الجمع . «المحرر»



القافلة قرب بئر اردى وقد تبدلت الصحراء إلى أرض مرعى

الأحد ١٣ مايو :

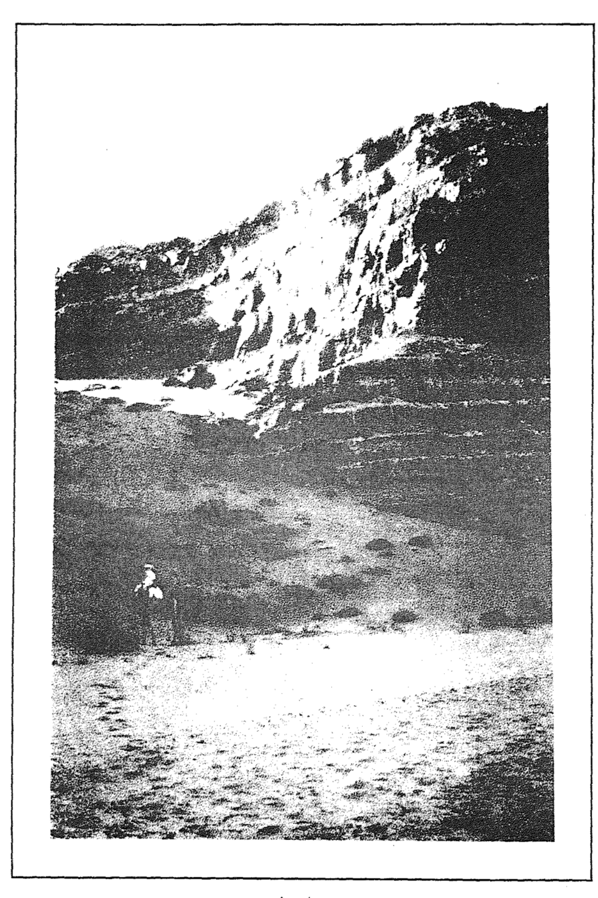
صحونا لتناول الفطور فى الساعة العاشرة صباحا ثم عاد الرجال فناموا ، ولم يتح لى النوم. وبدأنا السير الساعة الخامسة وربعا بعد الظهر . وقد ساءت الأحوال هذا المساء عن ذى قبل، فقد كانت الأرض شديدة التموج ، كثيرة الحجارة وآذت الرجال والجمال كثيرا. وكانت الجمال تضل بنا فى حلكة الظلام ، وتتخلف من وقت لآخر ، عندما كنا نتعرج فى سيرنا بين أكوام الرمل وتلال الصخور . ولم تعدم الإبل بعض الحشائش فكانت ترعى وكان من الصعب علينا أن نميزها فى تلك الرمال الحمراء ذات الصخور القاتمة المتناثرة . وسكتت أصوات الرجال عن الغناء تلك الليلة فى ساعة مبكرة وفى هذا دليل واضح على تعب الرجال.

وجاءنى السيد الزروالى يقول: إن محمدا يفضل لنا حط الرحال مبكرين، عن السير الطويل فى الليل. وكان السير فى الحقيقة مجهدا اضطرنا كثيراً إلى تغيير اتجاهنا تفاديا من المرتفعات وأكوام الصخور . وخيف علينا فى هذا التغيير المستمر أن نضل الطريق. ولكن الزروالى كان يعلم نفورى من التأخر، فقال للدليل: إنى أريد السير عامة الليل فسرنا . ولكن الطريق كانت من الوعورة بحيث كنا نترك الجمال وراءنا من وقت لآخر . فلم أر فائدة فى استمرار السير ولم أر دليلا على تعب الرجال أنصع من أن حسنا الواجنجى وهو من أصبر البدو على السير، كان قد امتطى جمله منذ بدء المساء فلم يتركه بعد ذلك .

وضربنا الخيام فى الساعة الحادية عشرة ونصف والتحفت بجردى، وأخبرت الرجال أنى لست بحاجة إلى إقامة ما يدفع عنى الريح، وأكبر ظنى أنى لم أغير موضعى الذى أخذته عندما رقدت حتى الساعة الخامسة ، واستيقظت موجع الظهر والأقدام . وكان نسيم الصباح وانيا منعشا ، وكانت رؤيتى الرجال مهتمين متشوفين للسفر سببا فى نسيانى آلامى الجسمانية ورغما من روح الانشراح التى سببها طلوع الصباح، فإن الأمور لم تكن مشجعة . فقد كانت الأرض وعرة المسالك ، وظهر على الرجال تزعزع ثقتهم بمحمد وهرى وكانت حال الجمال سيئة، وكان الماء آخذا فى النقصان بدرجة عظيمة.

الإثنين ١٤ مايو:

قمنا الساعة السادسة صباحا ووقفنا الساعة التاسعة واستأنفنا السير فى منتصف الساعة السادسة مساء، ووقفنا الساعة العاشرة فقطعنا ٣٠ كيلو متر. وكان الجو معتدلا صحوا وهب نسيم بليل من الشمال الشرقى فى الساعة السابعة صباحا وقرّ عند الظهر وكان المساء والليل هادئين. أعلى درجة للحرارة ٣٢ . وكانت الأرض ناعمة الرمل، مغطاة



وادی اردی

بالحشائش بين ناضر وجاف . وتغيرت معالم الأرض بعد استئناف المسير بعد الظهر، فأصبحت كثيرة التموج متعددة الأودية ذات المرعى «والنشا» الجاف. وكان ذلك دليلا على اقترابنا من اردى.

وفى منتصف الساعة التاسعة، صارت الأرض كثيرة التلال على امتداد أربعة كيلو مترات . ثم قطعنا بعد ذلك واديا كبيرا تكثر فيه المراعى والأشجار. وكان فى عزمى عند البدء فى الرحيل أن نسير أربع ساعات أو خمسا . ولكن الحر اشتد بسرعة فحططنا الرحال فى الساعة التاسعة واسترحنا أربع ساعات فكان لذلك تأثير حسن إذ ظللنا يقظين حتى تناولنا فطور الصباح.

وتقدمنا محمد وهرى بعد الظهر لاستكشاف الطريق السوى. لأن السبيل كانت وعرة المسالك وسارت القافلة في منتصف الساعة السادسة . وقل الماء وبدأ يأسنا وظهر على الجمال الضعف والكلال. وكنا فى شوق شديد إلى الوصول إلى وادى اردى بأسرع ما يمكن.

ولم نكد نبدأ المسير حتى وجد بوكاره وأرامى (وهو غير ذلك الذى هام فى الصحراء واختفى ولكنه مثله قتل رجلا آخر) أثر ورن (برص) كبير فتتبعناه إلى جحره، واشتغلنا بالبحث عنه فكان فى ذلك تسلية لنا ولكنا وجدنا الجحر خاليا من ساكنه، فتتبعنا أثره إلى كوم من الصخور، وظللنا ننبش الأرض عنه عشرين دقيقة حتى أمسكناه .

وتتخذ أبدو والعبيد من دهن الورن دواء للروماتزم ، ويزعمون أن من يحمل رأس هذه الزاحفة ، يأمن شر السحر، وأن جلدها إذا علق فى بيت لم تدخله الثعابين . والورن لايعض ولايلدغ ولكن ذيله الذى يشبه السوط يؤذى كثيرا . وقد سلخ أرامى ذلك الورن وأعطانى جلده.

وتبعنا الأثر الذى تركه دليلنا ولكنا فقدناه مرات عديدة فى الظلام وأضعنا وقتا في إيجاده.

ورأيت أخيرا أن خط ذلك الأثر لم يكن مستقيما فاستدللت من ذلك علي أن محمدا لم يكن واثقا من صحة الاتجاه الذى اتخذه، فأمرت الرجال أن تحط الرحال وتطلق النار فى الفضاء . وبعد ذلك بقليل انضم إلينا محمد وهرى وكانا فرحين بتقريرى الوقوف .

وأخبرنى الدليل أنه لم يكن فى مقدوره تعرف الطريق فى الظلام وإنا بالرغم من هذا لم نكن بعيدين عن البئر.

وكانت هذه أول مرة منذ تركنا العوينات نمنا فيها نوما عميقا متواصلا مدة خمس ساعات .

وقد حادثت أرامى قبل أن أنام عن أردى وآبارها فقال: «إن محمدا دليل ماهر فى النهار ولكنه مُسِنّ لايرى جيدا فى الليل، زد على ذلك أنه لم يطأ هذه البلاد منذ سنين ، وكان يجب أن نصل البئر الأولى هذا المساء، ولكنا أخطأنا موقعها والله أعلم» .

فطلبت منه أن لايخبر شيئا من هذا حتى لايفزعوا ويلوموا محمدا.

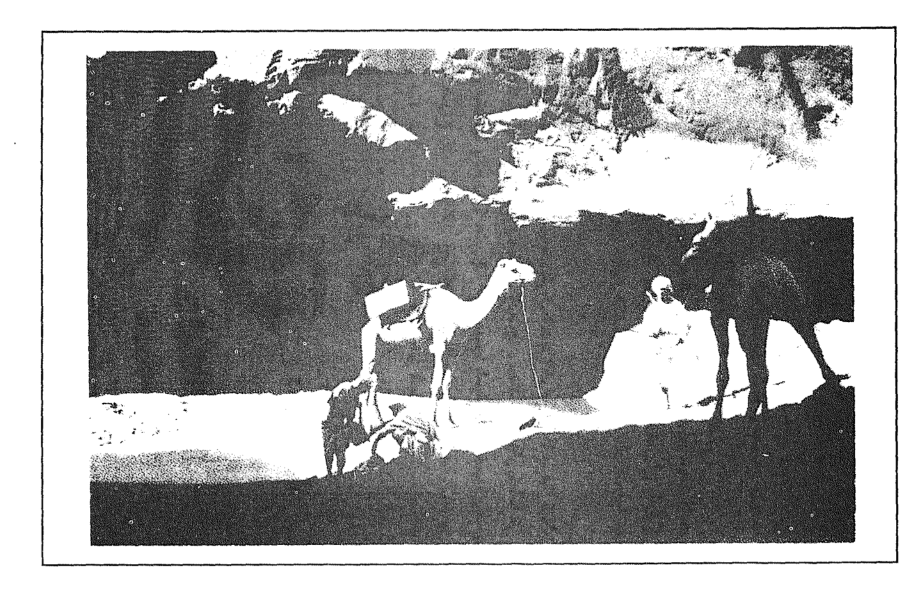
وجهزت كيس النوم وجلست أفكر فُقد كانت هذه اللحظة أكثر لحظات الرحلة بعثا على اليأس . فقد أضاع الرجال الثقة وقاسوا كثيرا من اشتداد الحر. وكانت الجمال منهوكة القوى لهذا السبب كذلك، ولم يكن الدليل واثقا من طريقه. وكان الماء نزراً آسنا . وأى ظرف من هذه الظروف كاف وحده لانشغال البال، ولكن مجموعها يهد الأعصاب ويفتك بالعزيمة والثبات والجلد أشد فتك.

وبينما أستعرض هذه المصاعب والمخاطر ، خطر بفكرى أن أرامى المجنون وأخاه ملكنى الذى ذهب يلتمسه لم يظهرا بعد . فوجدتنى فى حيرة وعجب، وخشيت أن تكون الأقدار قد أزمعت أن تحرمنى ما كنت قادرا على عمله. وكانت هذه خير فرصة مناسبة للأقدار، تفتك بى إن كانت من القسوة بحيث تريد هلاكى. فإنى لو كنت أخطأت موقعى اركنو والعوينات لما كان فقدى لهما بهذه الشدة علىّ . أما وقد قطعت أكبر شق من رحلتى ووصلت إلى غاية أبحاثى وحصلت على جل النتائج التى أردتها منها ، فقد دب فى نفسى الحنين إلى وطنى، وتعلقت بأهداب الحياة خشية على تلك النتائج أن تقبر معى، ورغبة فى العودة بها إلى بلادى. وفكرت طويلا ثم قلتى لنفسى: الله أعلم وعجبت كيف يغشانى النوم تلك الليلة ولكن سحر الصحراء بدأ يفعل فى نفسى فثقلت أجفانى وَحَلا لى النوم.

الثلاثاء ١٥ مايو :

صحونا الساعة الرابعة فصحبت محمدا وهرى وانطلقنا نتعرف الطريق، على قلة تحققنا السبيل، فأخذ أبصارنا بغتة منظر تلال اردى الحمراء ، وتأكدت ذلك بواسطة منظارى. ولم تمض بنا ساعة حتى سرنا صوبها : وتناقشنا قبل البدء فى السير، فيما إذا كان الأوفق لنا أن نضرب الخيام فوق التلال المشرفة على الوادى الذى توجد فيه البئر ، أو ننحدر إلى ذلك الوادى فنقيم فيه. وكان الانحدار إلى الوادى متعبا للجمال، ومع ذلك فقد فقررنا أن نحط الرحال فوق أرضه. فإن ذلك على الأقل، يقينا من موارد الماء إذا هاجمنا قطاع الطريق.

وأخذنا نتسلق دروبا وعرة بين الصخور الحمراء ، حتى وصلنا قنة صخرة عالية، فبدأ لعيوننا وادى اردى البديع ممتدا تحت أقدامنا وهو واد ضيق يبلغ طوله عشرة كيلو مترات



بئر أردى

وعرضه مائة متر. وتكتنفه صخور من الحجر الأحمر. وكان ذلك الوادى مثلا طيبا للواحة الواقعة فى الصحراء. فإن أشجاره وحشائشه الخضراء تبعث السرور والطمأنينة ، بعد قطع تلك الصحراء العارية ، ذات الصخور الوعرة التى قاسينا فيها الأهوال منذ تركنا العوينات.

وبينا كنا نتقدم إلى البئر سبقنا محمد وهرى لتعرف الأرض. والعبيد شديدو الاحتراس إذا وصلوا بئرًا فإنهم لايهرعون إليها دفعة واحدة ، بل يرسلون رجلا أو رجلين للتحقق من وجود أحد بالقرب منها، والتأكد مما إذا كان صديقا أو عدوا . ولذلك لم يكن تقدم الدليلين لتعيين الطريق التى يجب اتباعها فحسب، ولكنه فوق ذلك، للتحقق مما إذا كنا فى حاجة إلى التأهب للدفاع عن أنفسنا عند اقترابنا من البئر.

وانحدرنا بعد جهد شديد فى الطرق الوعرة إلى الوادى ثم ضربنا الخيام فى طرفه الشمالى .

وتقع البئر فى أقصى الجنوب والطريق سهلة إليها من رؤوس التلال إلا التى أخذناها. وتناولنا طعاما شهيا من الأرز والخبز الطازج فأضاف ذلك إلى بهجة الجهات المجاورة وشعرنا بطرب شديد كأنافى حفلة زفاف .

وبانت لى الأفكار السوداء التى تملكتنى الليلة الفائتة كأنها كابوس شديد، وإن لم تخل من حقائق كثيرة. فإن الحد الفاصل فى الصحراء بين النجاة والهلاك كثيرا ما يكون دقيقا جدا .

وبعد أن احتسينا ثلاثة أكواب من الشاى فى بطء واستمتاع ، ذهب الرجال بالإبل إلى البئر يسقونها ويستجلبون الماء للقافلة . وعادوا بالماء فحلقت ذقنى واستحممت ، وغيرت ملابسى، فاطمأن بالى وهدأ خاطرى وبسم لى وجه الحياة مرة أخرى .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر تسلقت حائط الوادى مصطحبًا التيودليت، وقمت بعمل بعض الملاحظات . وذهب السيد الزروالى مع السنوسى، أبى حسن وأرامى لاصطياد الودّان، وهو غنم الجبال ولكنهم عادوا غير موفقين فى صيدهم. وقد سألت أرامى عما إذا كانت خيبتهم فى عدم إحسان الرماية فأجابنى «أبدا والله لقد أحكمنا الرماية ولكن الله رأف بالودّان».

وأرخى الليل سدوله، على قافلة تضم جمالا مستريحة، ورجالا طربين مردّدى الغناء فشعرت أنى لابد حالم تلك الليلة أحلاما لذيذة .

الفصل الثامن عشر

دخولنا السودان

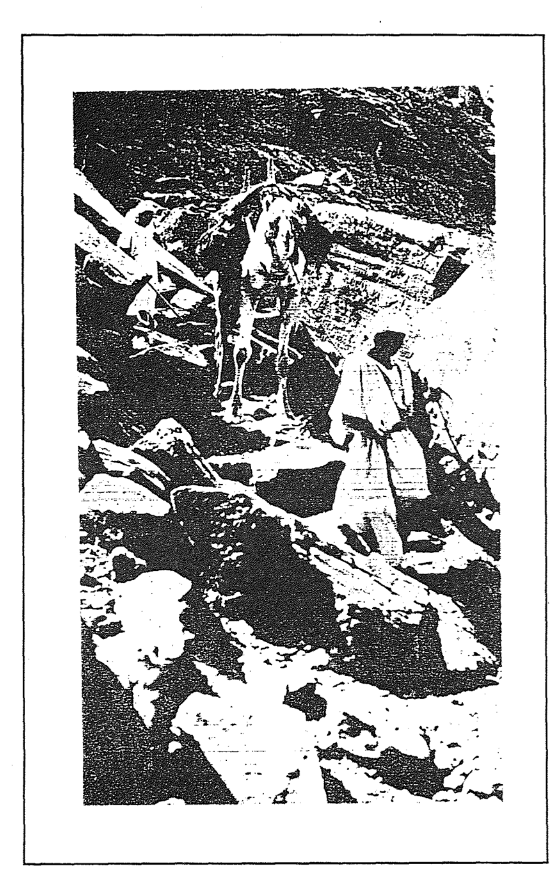
صحوت مبكرا لفتح صندوق الأفلام (الشرائط) ووضع أفلام جديدة فى آلات التصوير ، والجو ما زال باردا . وفى الساعة السابعة قصدت زيارة البئر مع محمد وحمد . ووادى أردى من النوع الذى يسمونه «كركور» وهو منخفض طويل ضيق، بين التلال متعرج كالثعبان . ويمتد صوب الجنوب على مدى سبعة أو ثمانية كيلو مترات، وينتهى بعطفة مسدودة توجد فيها البئر فى شق مظلل تحت الصخور . والعين على شكل نصف دائرة يبلغ طولها ١٢ مترا وعرضها ٦ أمتار. وهى كعيون العوينات . على أنى أظن أنها فوق ما تتلقاه من مياه الأمطار ، يمدها نبع خفى . والطريق إليها صخرية لاتخلو من الخطر، فقد عثر فيها أحد الجمال التى أرسلناها فى الليلة السالفة فناله ضرر لايستهان به.

وتسلقنا الصخور إلى العين فاسترحنا وشربنا الشاى، وعدنا تحت شمس محرقة. والوادى بديع بجدرانه القائمة من الحجر الأحمر والحشائش الخضراء والأشجار المنتشرة فى سفحه .

وقال لى محمد : إنه أوعر أودية هذه الجهات ، فدخوله شاق. ولذلك كان الدفاع عنه سهلا هينا. وعند العصر تسلقت حائط الوادى لأرقب الغروب الجميل، وأرى لعب الأضواء على الرمل الأحمر والصخور الوردية اللون.

وقص الرجال شعورهم وأصلحوا لحاهم واغتسلوا ورتقوا ثيابهم التى كادت تبلى. وكانت المراعى كافية لجمالنا، فرأينا من الحكمة أن نستريح ذلك اليوم ونستعد للرحيل . وأخبرنى محمد وهرى أن السفر بعد ذلك لايحسن فى الليل. لأن اجتياز التلال فى الظلام غير مأمون . وأثنى البدو على محمد لما رأوا أمس من قيادته الجمال من قنة الصخور العالية إلى الوادى.

وأكثر الكلب من النباح فى المساء فظننا قرب أحد منا ، وأطفأنا النار بغتة ، وجمعنا الجمال وأعددنا البنادق، ونصبنا العسس حول الخيام. ولكن إنذار الكلب كان كذبا. وقد تبدو هذه الاستعدادات- التى يتخذ مثلها عند الاقتراب من بئر— سخيفة بعد زوال الخطر. ولكن القافلة التى لاتتخذ هذه التدابير فى أرض مجهولة، تكون قافلة خطلة الرأى . فإن مهاجمة البدو المعادين أو اللصوص أمر فى حكم المحتمل.



الطريق الصخرى الوعر بعد بئر اردى

الخميس ١٧ مايو:

صحونا الساعة الرابعة وسرنا فى منتصف الساعة السادسة . وكان خروجنا من الوادى أمر لايقل صعوبة عن نزولنا إليه . فقد سقط أحد الجمال ولم يصبه ضرر كبير لحسن الحظ . وقد أدرت بصرى إلى الوادى عند وصولنا إلى نهايته، فتحققت الفرق بين أودية هذه الجبال وأودية اركنو والعوينات . فإن أرض تلك الأودية على مستوى السهل الخارجي، ويسهل على المسافر أن يدخل الوادى من مضيق يشبه ممرا. ولكن أودية هذه الجهات منخفضة عن المستوى العام للأرض ، ولاينزلها المسافر بالهبوط المتعرج فى طرق صخرية.

وقضينا ساعة فى الخروج من الوادى، ثم سرنا صوب الجنوب الشرقى، وكنا فى جهة جبلية تكثر فيها الصخور السوداء والحمراء، فوضح لنا استحالة السير فى هذه الأرض فى الظلام.

وفى منتصف الساعة العاشرة، نزلنا واديا ضيقا مخترقين طريقا سحيقا ، فوقع جملان ورميا بأحمالهما إلى الأرض . وكان أحدهما يحمل الماء . فكفانا عبدالله انبثاق القرب بحضور ذهنه. لأنه أخرج سكينة بسرعة وقطع حزام قتب الجمل. وسقطت سدادة أحد الفناطيس، فسال من مائه مقدار ثلاثة الأرباع ولكن البئر التالية، كانت لحسن الحظ على مسير ثلاثة أيام. وكان معنا من الماء ما يكفينا لأطول من ذلك شقة . وربما كانت هذه الحادثة عظيمة لنا إذا كنا فى مرحلة طويلة المسافات بين الآبار.

وحدث لنا هذا الصباح حادث فجائى كاد يجرنا إلى نتائج وخيمة ، لولا أمران ساعدنا فيهما الحظ. فقد كان أحمد ، وهو ذلك الطاهى الذى جاء معى من مصر راكبا جملا بلا رَسَن، وقد سأل حامد جمّال أبوحليقة أن يحضر له رسنا فأبطأ هذا اعتمادا منه على معرفته بالجمال، واعتقادا بأن الجمال كانت منهوكة القوى، وأنها كانت فى حاجة شديدة إلى الرعى، وهى سائرة . فرأى جمل أحمد بعض الحشاش وأسرع إليها، ومر فى طريقه تحت شجرة تكثر فيها الأشواك . ولم يسع أحمد أن يتفادى هذه الأشواك الحادة فخدش وجهه خدوشا كثيرة وآلمه الوخز . فصب لعنته على الجمل وصاحب الجمال. فأجابه حامد فى الحال بالمثل، وطلب منه أن لايعود إلى لعن صاحب الجمال الشريف. وكنت قريبا منهما، فلم يسعنى إلا الإعجاب بالجمّال لوفائه لسيده أبو حليقة.

ونزل أحمد بسرعة البرق عن جمله، ثم تقدّم متهيجا إلى حامد والدم يسيل من وجهه . واندفع السنوسى أبو حسن وحامد الآخر وسعد الأوجلى فانضموا إلى جانب أخيهم البدوى ووقف عبدالله إلى جانب أحمد يعاضده .

ولم تكن هذه أولى المشاجرات التى رأيتها بين رجال الصحراء ؛ فدفعتنى خبرتى إلى أن أتبين قبل كل شئ موضع البنادق لأطمئن من وجودها بعيدة عن أيدى الرجال. وقد أراح بالى أنى رأيتها مربوطة فى مواضعها إلى ظهور الجمال. ولم يكن فى أيدى الرجال إلا العصى يتضاربون بها. ومع ذلك ، فقد كانت الحاجة ماسة إلى التداخل السريع قبل أن يتفاقم الخطب، فحثثت جوادى بين الرجال ووقفت بين عصبتى المتخاصمين ، وأمرت عبدالله وأحمد أن يرجعا القهقرى. وكانت ساعة عصيبة أحسست خطرها وأنا أقف بين رجالى ورجال القافلة.

والتفتُ إلى السنوسى أبى حسن وحامد ، فلحظت أنهما يصوبان نظراتهما إلى موضع البنادق.

وكانت تكفى كلمة تشجيع واحدة منى لرجلىّ فيهلكا . لأن البدو كانوا أكثر عددا ، ولكن الوقت لم يكن مناسبا ، من الوجهة الأخرى، لاذلال رجلّى أمام البدو وإن كانا مخطئين ، فالتفت إلى الفريقين وقلت غير متحيز إلى جانب : «ماذا تعنون بهذه الأفعال الصبيانية . ألا تخجلون من هذا العمل وأنتم رجال».

فبدأ حامد الكلام وقال : «إنه أهاننى». وقاطعه أحمد فقال «إنه البادئ بالتحدىّ» . فأجبتهما بحدة : «لايعنينى من القاذف ومن المهين فأنتم جميعا رجالى. ومن العار أن تتخلقوا بأخلاق الأطفال».

وهنا تقدم السيد الزروالى ، فالتفتّ إلى عبدالله ، ثم إلى السنوسى أبى حسن وقلت بشدة: «وأنتما أيها الشيخان العاقلان تنضمان إلى هذه المشاجرة المزرية ، بدل أن تسعيا فى التوفيق بين المتخاصمين . وبعد فقد يكون الذنب ذنبى لأنى اخترت لقافلتى أطفالا بدلا من الرجال.

وكانت ثورة الفريقين قد أخذت فى الهدوء، وضعفت تلك النظرات الحادة، التى كانت تشعر بالتحفز للوثوب . ورأى الزروالى عدم تحيزّى لرجلىّ، وأحسبه كان يتوقع عكس ذلك فلم يجد ما يأخذه علىّ وفعل ما لم أكن أنتظره منه . فإنه أمر فرجا العبد أن ألق حامدا أرضا حتى أضربه بسوطى، فلم تمض غمضة عين حتى ألقى فرج حامدا على الأرض ، وركز عليه بركبته

فصب السيد الزروالى سوطين على حامد قبل أن أتداخل فى الأمر، ولكنى ترجلت بسرعة وأمسكت ساعد الزروالى وقلت له : «إن الأمر، لايحتاج إلى إنزال عقابك فإنا لاندرى من الملوم، وسأتفحص الأمر وأعاقب بنفسى من تظهر إدانته .. ثم التفت إلى الرجال وأمرتهم أن يتبعوا الجمال وأشرت بعصاى إلى محمد وهرى، وكانا بمنجاة من التداخل فى هذه المشاحنة وأمرتهما أن يهديانا السبيل.

وانتهى كل شئ ، وسرت وحيدا محاولا أن استبقى لمصلحة الجميع إعرابى عن عدم الرضا بما حدث.

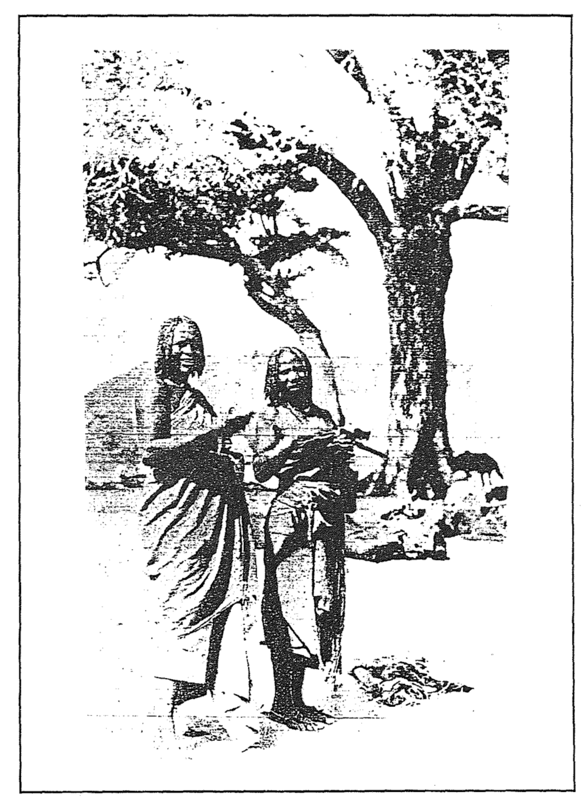
واقترب مني السيد الزروالى ، ثم سألنى وفى صوته رنة أسف «أظن أن غضب البك مما حدث قد انصرف، ويعلم الله أنى منذ استيقظت هذا الصباح ، وأنا أحس شيئا يضايق أنفاسى فتوقعت حدوث أمر كريه ، وقد رأيت ذلك الإحساس فى نفسك عندما رددت على تحيّة الصباح».

وذكرت أنا الآخر أنى كنت أشعر باحساس غريب لاباعث له. لأن كل شئ كان على ما يرام.

ولم يمض زمن طويل حتى شعر الفريقان بما يشعر به الأطفال الأشقياء بعد لوم لائم. ولاحظت أن الرجال تخلس النظرات إلىّ ليروا إن كانت ثائرة غضبى قد قرّت ، ولكننى ظللت عابسا حتى ساعة الغداء. ولايخفى على من اجتاز الصحراء تلك النتيجة السيئة التى تسببها مثل هذه الحوادث . فإن لفظا قاسيا يشمّ منه رائحة الإهانة يكفى لتبادل الطلقات إن كانت البنادق فى متناول الأيدى. وأكبر ظنى أنها لو كانت فى أيدى الرجال، وكنت على بعد قليل منهم كما هى الحال فى أغلب الأحيان ، لسالت الدماء وخرج الأمر من يدى، وقضى البدو على أحمد وعبدالله . وفى هذه الحال أسائل نفسى ماذا عسى يكون تصرفى وأنا المصرى إلا أن أثأر لنفسى من قاتلى مواطنى، مهما كلفنى ذلك من النتائج الخطرة ، ولكنى حمدت الله، على أن البنادق كانت مربوطة إلى ظهور الإبل ، وأنى كنت على مقربة من المتشاحنين.

ولم يفت السيد الزروالى أن يهوّن الأمر علىّ فقال : «إنا نقترب من نهاية الرحلة، والرجال عادة فى هذا الموقف ميالون إلى الشجار» ولم تكد تنتهى هذه الحادثة الخطرة، حتى اشتدت حرارة الشمس، فحططنا الرحال فى الوادى، فى ظل بعض الأشجار اليانعة. ورعت الجمال بينما كنا نأكل ونستريح . وجاءنى بعد الظهر ، قبل البدء فى السير، محمد والسنوسى أبو حسن وبوكاره وحامد الجمال يسألوننى أن أسامح حامدا على مهاجمته أحمد مدفوعا بغضبه.

وسامحت حامدا على الفور فتقدم إلى أحمد وقبل رأسه وجاو به أحمد بالمثل . فانتهت تلك المشاجرة كما تنتهى مشاجرات البدو على أصفى ما يكون .



امرأتان من قبيلة البديات

وانحدرنا إلى الوادى الكبير فى ثلاث ساعات ، ثم ضربنا الخيام عند مدخله فى الساعة السابعة وربع. ورأينا قدامنا قبل حط الرحال جبال «أجاه» البعيدة حيث توجد البئر التالية. وكانت الأرض أمامنا منبسطة ، فبعثت الراحة فى نفوسنا فقد خيل لنا فى الصباح، عند انحدارنا إلى الوادى، أن حوائجنا لابد محطمة ، إذا كثرت تلك المنحدرات السحيقة . وكانت المنحدرات فى بعض الأماكن من الوعورة بحيث اضطررنا إلى رفع الأثقال عن ظهور الإبل خوفا عليها من التحطيم. وكان على الرجال أن ينزلوا بالحوائج فوق الصخور المنحدرة ، التى يرتفع بعضها عن بعض فى كثير من المواضع نحو ثلاثة أقدام.

وطلع الهلال ونحن ننصب الخيام وكان عيد الفطر فى الغد. وجاءنى السيد الزروالى يبلغنى رغبة الرجال فى الاحتفال بالعيد جريا على العوائد الإسلامية فرضيت كل الرضا. لأن جبال «أجاه» كانت على مرأى منا ، وكان زادنا من الماء كافيا. وكانت مراعى الوادى كثيرة الحشائش المغذية للجمال.

وصحونا مبكرين فى اليوم التالى وكان يوم الجمعة ١٨ مايو فلبسنا الثياب النظيفة احتفالا بالعيد ، وتبادلنا التهاني ثم أدينا صلاة العيد. وكان فى نظرات رجالى ما ينم عن التفكير فى الأهل والإخوان البعيدين فى نائى الأوطان ، وأخرجت قطعا من الريالات المجيدية وأوراق مالية مصرية فوزعتها على الرجال . وكانت النقود من نصيب محمد وهرى وحسن وأرامى ، لأنهم كانوا سيتركوننا قبل أن نصل أرضا يتعامل فيها الناس بالأوراق المالية المصرية. وأخذ بقية الرجال الأوراق المالية ، ففى استطاعتهم صرفها فى الفاشر. وأعطيت الزروالي عشرين طلقة من طلقات المسدس وقنينة روائح عطرية ووزعت زجاجة أخري علي الرجال. وأعطيت بوكاره غليونا وطباقا ، فأظهر لى عجزه عن إيفائى الشكر على ما تفضلت به عليه وقال : « ليس لى إلا جملى والملابس التى أرتديها، وقد أعطانى البك قيمة جملى طباقا».

وكانت القافلة مرحة فى الصباح. وكان الرجال مسرورين من هداياى فسرنى رضاهم . وغفونا بعد الفطور، ولكنا استيقظنا بسرعة نظرا لفتك النمل الأبيض بأجسامنا . وبدأنا السير فى الساعة السادسة إلا ربعا وخرجنا من الوادى إلى السريرة بعد ذلك بنصف ساعة. كان يمتد أمامنا سلسلة تلال تجرى شرقا وغربا . وكان فى وسطها جبل «اسلنجاه» وعن يمينها جبل «أجاه» الذى كنا نقصده. وأخبرنا هرى بوجود بئر صعبة المرتقى فى جبل «اسلنجاه» . وكان الوادى الذى نصبنا فيه الخيام مميزا بوجود أشجار على الجانب الأيمن من مدخله . وكان يوما شديد الحر ، فسرنا مبطئين مدة ست ساعات ، ثم وصلنا منطقة من أكوام الرمل أوقفت سيرنا فى الليل.



امرأة من قبيلة فور

السبت في ١٩ مايو :

قمنا الساعة الخامسة وربع صباحا وحططنا الرجال فى الساعة الثامنة مساء . وهبت من التلال المجاورة ريح ساخنة من الشمال الشرقى قرت عند المساء. وكان سيرنا فوق أرض ناعمة الرمل كثيرة التموج مغطاة بالحشائش الجافة . وانبسطت الأرض أكثر من ذى قبل عند اقترابنا من التلال، وكثرت فيها أكداس الحجارة السوداء الصغيرة. واشتدت حرارة الشمس بسرعة فى الصباح ، وهبت ريح ساخنة ، فضربنا الخيام فى منتصف الساعة العاشرة فى ظل شجرة (طمطم) فحمتنا فتك الهجير. وأنست أنظارنا إلى عناقيد ثمرها الأحمر. وسرنا ثانية فى منتصف الساعة الرابعة ، بالرغم من اشتداد الحر آملين أن نصل جبال «أجاه» قبل انتشار الظلام. واضطررنا إلى ضرب الجمال لإنزالها على الخروج من ظل الشجر والسير بها في الهجير . ولم يحن منتصف الساعة الثامنة حتى كنا عند سفح التلال والهلال يبدو حاجبه .

وأرسل محمد بغتة صوته منذرا ومحذرا لأنه رأى آثارا حديثة لرجلين يسيران صوب (مردي). وكان له الحق في ذلك . لأن وجود غريب عن القافلة فى الصحراء، أمر يستلزم اليقظة حتى يتبيّن الأمان منه . وسرعان ما انتزعت البنادق من أماكنها ووضع الرصاص فيها، وجمع الرجال ما تفرق من الجمال التى ترعى وتقدم محمد وهرى والسنوسى أبوحسن إلى الوادى يتفحصون الأمر. وبعد البحث الدقيق عادوا فأخبرونا أنهم لم يجدوا أثرًا لداخل إلى الوادى. وإنما وجدوا آثارا حديثة لخارج منه فضربنا الخيام عند مدخل الوادى، فى نجوة من الأشجار والنباتات حتى لاتفوتنا رؤية من يقترب منا فى الليل.

وتعشينا مسرعين ثم اطفأنا النار ووضعت الجمال والقرب فى وسط مضرب الخيام وصفت الحوائج حوله . ووقف أربعة من حراس الليل ثم انقلبنا إلى فراشنا . وتعذر علينا النوم لشدة الحر وانشغال البال .

وصحونا مبكرين فى صباح الأحد وتقدمنا إلى الوادى محترسين ، فعثرنا بآثار حديثة لرجال وقطعان، ووضح لنا نزول أحد قبلنا فى الوادى. وسبقنا محمد وهرى. لأن سكان تلك النواحى كانوا من الجرعان فقابلتهم ثم تبادلنا عبارات الأمان . وتقدم كل منا إلى الآخر بعد أن ألقينا على الأرض ما كنا نحمله من سيوف وبنادق ، وخاطبتهم بهذه الجملة التى يوثق بقائلها : «أقسم بالله إنا مسالمون وإنا لانريد بكم ضراً وإنا لانقصد سبى نسائكم وأولادكم» وأجابنى أحدهم بمثل ما قلت. ثم أخذنا فى تبادل الأسئلة والأجوبة القصيرة من مثل «من أنتم» من أين قدمتم» أين تذهبون وأى غرض تقصدون» ثم شددنا على الأيدى وحمل كل منا

سلاحه وارتد إلى موضعه . وحاولنا أن نشترى منهم غنما فأبوا أن يبيعونا شيئا. وتركونا بعد قليل ، ثم عادوا بثلاث نعاج وقدموها لنا بمثابة ضيافة وامتنعوا عن قبول أثمانها فأعطيتهم «عتقية» من القماش الأزرق ففرحوا به كثيرا .

وأرسلت الجمال لتشرب من البئر وتحمل الماء للقافلة ، بينما كان الرجال يستعدون لتجهيز الوليمة العظيمة. واشتغلت بعد الظهر بأخذ بعض الصور، وقمت فى المساء بعمل بعض الملاحظات بآلة التيودوليت.

وقد فزع أطفال الجرعان من رؤية مصباحى الكهربائى الذى استعمله فى قراءة التيودوليت ثم شاقهم بعد ذلك.

ووادى «أجاه» بديع المناظر . وهو طريق طويل ضيق بين الصخور العالية يحوى من الأشجار والنباتات أكثر مما رأينا فيه من بعيد . وقرب منتصفه يتفرع إلى طريقين يؤدى أحدهما إلى البئر والآخر إلى الصحراء الممتدة.

وبئر «أجاه» مشابهة لبئر أردى ولكن ماءها مضطرب من فعل الغنم والجمال. والطيور كثيرة فى هذا الوادى تذكر أغانيها الشجية بمختلف الأصوات الجميلة التى تنبعث من أقفاص الطيور فى حدائق الحيوانات .

وصحونا والظلام شامل، والنجوم ساطعة فى سماء صافية وجاءنا الجرعان يودعوننا. وأبى أرامى وحسن أن يستمرا فى السير معنا إلى الجنوب أكثر من ذلك. وتركانا يقصدان العوينات على جمل أرامى وانحدرنا إلى مستدق الوادى تحمينا جوانبه حرارة الشمس وأبصرنا ثلاثة غزلان فى طريقنا فانطلق الرجال لصيدها ، ولكنها قفزت فوق التلال هاربة. وَصَوَّب حامد الزوّى بتدقيته إلى إحداها فأخطأها وسخر منه أصحابه شامتين ، ولكنه أبى أن يقر بخيبته فأقسم بعظمة قائلا : «والله لقد أصبتها ورأيت الدم يسيل منها». ولم أهتم بالأمر كثيرا لوجود فضل من اللحم الذى أهداها إلينا الجرعان.

واشتد الحر بعد ذلك فضايقنا، وأبت الجمال أن تسير ولم يمر على سقيها وقت طويل . فحططنا الرحال فى ظل شجرة ، ولم يغننا ظلها فرأينا الأفضل أن نستظل بشقوق الصخور . وانطلقت الإبل ترعى، وأخذ الرجال فى إعداد الغداء، وذبحت النعاج وانتظم لحملها فى عصى ثم أدير ببطء فوق النار ، كعادة البدو فى شىّ اللحوم . وكان طعمه لذيذا وبينما كان الرجال يعدون الطعام جرح سعد يده ورأيت الدم فسألته : من أين أصابه ذلك فأجابنى بوكارة «من رشاش دم الغزالة التى أصابها حامد» وضحك الرجال ملء أفواههم مرة أخرى.



صبية من قبيلة البديات وأختها

وملأت ساعاتي بعد الغداء واثبت ماقيد البارومتر والترمومترات ذات الدرجة القصوى والنهاية الصغرى وكتبت يومياتي. وجاءني حامد الجمال يعدو ليخبرني بوجود قطيع من النعام على مقربة منا فقبض كل بندقيته وقام مستعدا للصيد. وبعد ذلك بقليل ظهر قطيع من النعام يبلغ الأربعين عداً ، وتهيجت الرجال فلم يتمالكوا الانتظار حتى يقرب القطيع وأطلقت النار على مسافة بعيدة فاندفع النعام في واد آخر وتعقبها الرجال مسرعين وأرسلت طلقات عديدة ولكن الزروالي عاد وشيكا وأخبرني أن الرجال لم تصد شيئا .

وبعد قليل جاء حامد يحمل نعامة صغيرة وتبعه السنوسي أبو حسن وادعى كل منهما أنه صاد النعامة. وسألاني حكمي لوجود جرحين في جسمها يحتمل أن يكون كل منهما قاتلا. وسألت رأي من حضر الصيد من الرجال فاتفقوا جميعا أن صائد النعامة حامد فحكمت في مصلحته .

وقام حامد الجمّال بعد ذلك بعمل طريف شديد الغرابة . وحامد هذا ضئيل الجسم، حاد التقاطيع ، لايخاف الحيوانات ، ولايخشى الثعابين . حدث له أن عثر بنعامة في ناحية مسدودة من الوادي فقذفها بالحجارة حتى إذا لم ينل منها شيئا هجم، عليها ولف يده حول عنقها وصارعها صراع الأبطال، ولكنها رفسته برجلها القوية رفسة شديدة في جنبه وانطلقت تعدو. وقد رأيت هذه المجالدة بمنظاري، فكدت استلقى على ظهري ضحكا . وتسلقت النعامة مرتفعا من الأرض ثم ادارت بصرها بازدراء إلى حامد الذي كان واقفا يلعنها وبعد ذلك أصلحت ريشها وانطلقت فخورة بانتصارها، وهي فرحة بنجاتها تاركة حامدا ضاغطا بيده على جنبه المرضوض .

وعاد حامد فسألته : «هل آذتك النعامة» فأجابني وقد رفع يده عن جنبه بسرعة «لا» وسألته ثانية «ولماذا لم تأت بها». فقال معتذارا : رأيت من واجبي أن أطلقها لأنها كانت أنثى».

وكان مما أسفت له في هذه المرحلة أني لم أتمكن من متابعة الصيد، كما كنت أود فإن السير ليلا بين العوينات واردي لم يبق لي في الصباح من النشاط إلا بقدر ما مكنني من تقييد ملاحظاتي العلمية ، وانتهاز الفرص للإغفاء ساعتين أو ثلاث قبل اشتداد الحر.

وبدأ زادنا في النقصان فلم يسعني أن أقيم في «أجاه» حيث تكثر الغزلان والنعام والنعاج البرية. وزادني رغبة في الرحيل قلة الماء، بعد أن رأيت كدورة ماء البئر من أثر الحيوانات، ولم يكن معي إلا بندقية مصرية عتيقة من طراز «مارتيني» وأخرى من بنادق الفرسان الإيطاليه أهديت إلي في الكفرة . وهاتان وإن كانتا صالحتين في الدفاع عن النفس، إلا أنهما كانتا قليلتي الفائدة في الصيد على المرمى البعيد ولذلك حرمت نفسي لذة الصيد.

وكان الجو شديد الحر فلم نبدأ السير إلا الساعة الخامسة مساء فسرنا فى الوادى الجميل مدة ساعة ، ثم أخذنا نتسلق التلال ، حتى إذا وصلنا قممها رأينا منظراً بديعًا امتزجت فيه ظلال الأشجار والادغال بلون الرمال الوردى، وحمرة صخور التلال التى تكتنف الوادى.

وكان نسيم المساء البليل، يحمل على أجنحته أنغامًا عذابا تنبعث من أسراب اليمام. وزاد هذا المنظر بهاء وانطباعا فى الذاكرة ، غروب بديع امتزجت فيه الحمرة بلون الذهب ، فوقفت جوادى وترجلت، ثم انطرحت على قطعة من الرمل الناعم، وقضيت نصف ساعة أشرب جمال ذلك المنظر الفردوسى.

وشمل الكون الظلام وطلع الهلال. وسمعت على البعد بدو القافلة يتغنون، فعدت إلى نفسى وقمت ألحق بالقافلة ، وفى نفسى الميل إلى البقاء.

واختلفت مناظر الأرض، فأصبحت متموجة كثيرة الشقوق يحيط بها جبال شعثاء بعيدة.

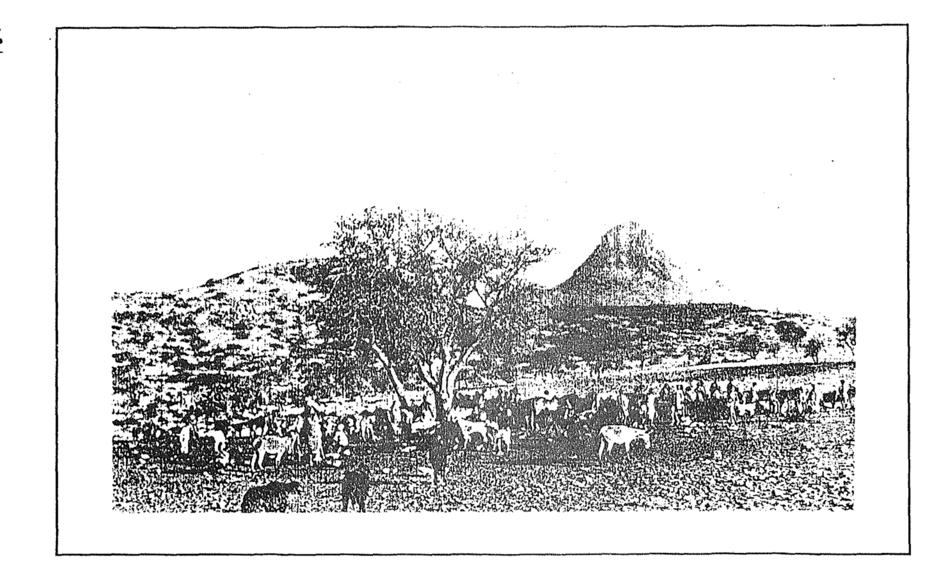
وكانت الرجال والجمال تشكو اثر ماء «اجاه» المكدر . وحططنا الرحال مبكرين لهذا السبب، ولخطورة المسير فى نور الهلال الضئيل . ونزلنا واديا ناعم الرمل يبعد عن سبيلنا زهاء مائتى متر وضربنا الخيام .

وصحونا ولم تزل النجوم ساطعة فى السماء يوم الثلاثاء ٢٣ مايو فبدأنا السير بينا يوشع جانب الأفق عن يسارنا شروق بهى الألوان. وكان سيرنا بطيئا . لأن الأرض كانت مغطاة بالعوسج ونثار الحجارة . ولأن محمدا وهريا لم يطأ هذه النواحى عشر سنين ، فكانا شديدى الاحتراس فى سيرهما. وبينا نسير التفت إلىّ حامد الجمال وأنا أمشى فى مؤخرة القافلة، كعادتى للتحقق من اتجاه المسير وتدوين مذكراتى، ثم سألته : «أظن أن محمد الدليل على ظهر جمله، وإلا ما سرنا بهذا البطء» فأجابنى ذلك الذكى بسرعة قائلا : «إن الشيخ سائر على قدميه يا سيدى البك، فإنى أرى أثره فوق الأرض».

وأدهشتنى ملاحظة البدو الدقيقة وأخصهم الجمالون ، فإن حامدا ميز آثار أقدام رجال القافلة ، ولاعجب إذا تعرف مواطئ جمالها كذلك.

وصحونا فى بكرة يوم الأربعاء، وبنا شوق شديد إلى وصول بئر «عنيباه» فان ماء «أجاه» كان أردأ ماء شربناه فى هذه الرحلة. وقد بان تأثيره السيئ فى الرجال والجمال. ولم تمض بنا ثلاث ساعات حتى كنا على حافة الوادى الذى[1] تقع فيه البئر، ونزلنا فاستدللنا على وجود

١- فى الأصل التى والصواب الذى كما يقتضى السياق . «المحرر»



بئر قرب الفاشر

سكان فيه من آثار الناس والغنم والحمير. وتقدمنا محمد لمقابلة ساكنيه ، وتبادل عبارات الأمان معهم، ثم حططنا الرحال على مقربة من البئر. وكان ماؤها عذبا نعمت به الرجال والدواب وذاقوا لذة التغيير.

وكان فى الوادى مضرب خيام كبير لرجال «البديات» يحوى مئات الغنم وبعض جياد أشياخهم .

ولم يمض على إقامتنا قليل حتى جاءنا سكان الوادى يحيوننا، وعلى رأسهم الشيوخ، وشددت على أيديهم جميعا ثم قطرت الروائح الزكية فى راحة كل منهم، وأرسلوا إلينا بعد الظهر بعض الغنم ضيافة منهم، وعرض علينا نساؤهم وكلهن محبات للمتاجرة ، سمنا وجلودا نشتريها فاستبدلناهم بها نقودا من المجيدى وقماشا.

وقمت بعمل بعض الملاحظات فى المساء.

وفزع رجال «البديات» من رؤية التيودوليت والمصباح الكهربائى وثارت ظنونهم . ودخل أحد الأشياخ علىّ فى خيمتى ففاجأنى وأنا أفتح صندوق أجهزتى العلمية، فأقفلت الصندوق مسرعا، ورأيت بعد قليل أنى لم أكن مصيبا فى ذلك فقد لاحظت فى وجهه المغبّر الجاف وعينيه المصفرتين المتقاربتين كعينى الثعلب أنه اعتقد بوجود ذهب فى صندوقى ، وبينما كان يترك خيمتى ، أمرت السنوسى أبا حسن وحامدا على مسمع منه أن يستعدا لحراسة الخيام، وأشرت إليهما وقلت للشيخ أن ينبه على النساء والأطفال بعدم الاقتراب من الخيام فى الليل، تفاديا من أن ينكرهم الرجال فيطلقون النار عليهم. وكان عملى هذا إشارة إلى أنّا يقظون وأن لا أمل فى انتهاز غفلة منا. ولم تضع هذه الإشارة عبثا .



الفصل التاسع عشر

إلى فراو – على قلة الزاد

كان وادي «عنيباه» مغطى بالرمل الناعم مرقطا بالأشجار والعواسج بين ناضر وجاف . وكنت قد نمت نوماً هادئاً ، وصحوت على أصوات نساء «البديات» يطلبن من رجال القافلة علبا خالية ، واستبدلونا بما أخذوا لبنا وشجيرات جافة يسمونها طباقا . وأهديت إلينا خمس نعاج بصفة ضيافة ووزعنا بعض الهدايا . وبدأنا السير في الساعة الثالثة وربع، في ريح باردة تهب من الجنوب الشرقي، ولكن هذه الريح قرت واشتد الحر. فبطؤ السير. وكان المساء أشد برودة فاستعضنا ما ضاع من الوقت وكان الليل قارسا . وصحونا يوم الجمعة ٢٥ مايو الساعة الرابعة وسرنا بعد ذلك بساعة. وربع . وكانت الأرض كثيرة التموج والشقوق، ولم يكن هرى واثقا من السبيل فسرنا في بطء لوعورة الطريق، وحيرة الدليل في تعرّفها . وبعد الساعة التاسعة نزلنا واديا وضربنا الخيام بعد ذلك بسرعة. وكان السنوسى أبو حسن يمشي إلى جانبي، فأعرب لي عن رأيه في الدليل الجرعاني وبدا في كلامه زهو العرب بأنفسهم فقال : «إن هؤلاء الجرعان يترنحون في سيرهم كالجمال ، أما البدو فيطيرون إلى أغراضهم كالطيور».

وكانت الشمس شديدة الحرارة عند استئنافنا المسير بعد الظهر، فسارت الجمال ببطء وكان غناء الرجال متقطعا. وأكبر ظنى أن سير القافلة كان بطيئا لأن هرى كان أشد حيرة عن ذى قبل. وقد تعقبنا أثر قطيع من الغنم تقدمنا إلى (باو) ولكن ذلك الأثر كان ينقطع بنا في جهات متعددة، لوجود الصخور المهشمة في الطريق.

وبعد الساعة الخامسة بقليل، نزلنا واديا كبيرا عرفنا بعد ذلك أن اسمه (كونى مينا) وكان ذلك الوادى يمتد شرقا وغربا وهو ملآن بالأشجار البديعة. وقبل أن نصل إليه بقليل، قابلنا أحد الجرعان ومعه بعض الغنم، فتقدم إليّ وقد ألقى سيفه وحرابه على الأرض، وخلع نعليه. فتبادلنا الشد على الأيدى والتحيات، ولم تزد عن الجملتين «كيف حالك» و«طيبين» وهما كل ما يعرفه من اللغة العربية.

وحادثه بعد ذلك محمد وهرى فعرفا منه أن بعض الجرعان ضاربون الخيام في الوادى الذى أمامنا .

ولقينا في نفس الوقت تاجر غنم حضر من (فدا) بوادای بغنمه وبقره في طريقه إلى الفاشر. وتركنا محمدا وهريا وتقدمنا إلى أكواخ القش التى يتكون منها مضرب خيام الجرعان . وقطعنا الوادى ثم حططنا الرحال في طرفه الأقصى.

وجرى خلفنا أحد الجرعان، ثم سألنا أن نعود إلى خيامهم فنمضى الليلة ونسير في الغد، فقدرت عاطفة كرمه . ولكنى رأيت أنا عاجزون عن تعقب آثارنا القهقرى ، ولو لمسافة كيلو مترين أو ثلاث كيلو مترات ، فشكرته على دعوته وأخبرته إنّا متعجلون .

وحططنا الرحال ننتظر رجوع الدليلين . وبعد ساعة عاد محمد يحمل أخبارا كثيرة عن (فدا) والفاشر استقاها من ذلك التاجر. وشغلنا تلك الليلة بفحص أمتعتنا وإصلاح ما فسد منها . وكانت الحبال قد أخذت تبلى ورثت أكياس البدو الصوفية . وأضعنا وقتا طويلا في الطريق في إعادة التحميل ونقل الحوائج من مكان إلى آخر. ولكنا نتعزى بأمل الوصول إلى الفاشر بعد أسبوعين .

ورأيت في صباح ٢٠ مايو أبدع مشارق الشمس التى شاهدتها في حياتي. فإن انعكاس ضوء الشمس الساطع على الصخور المجاورة بين حمراء وسوداء، وعلى التلال البعيدة جعل كل شئ واضحا جليًا. ثم احمرت صبغة الشروق وتسللت أشعة الشمس الذهبية بين ثنايا السحب الرقيقة وغمرت كل شئ. وكان انعكاس الظلال المستطيلة للصخور والعواسج المتناثرة فوق الأرض يوشع صفحة الرمال الصفراء. وكانت ظلال القافلة الوانية في سيرها ترسم على أديم الصحراء أشكالا غريبة. ولكن هذه المناظر البديعة تبعها ضحى ساكن النسيم راكده .

ولحقنا هرى قبل حلول الظهر ومعه شاة مذبوحة تدلت أطرافها على جمله ، وكانت ضيافة الجرعان الذين مررنا بهم. وتتبعنا آثار الغنم والجمال، وانحدرنا من واد ثم ضربنا الخيام في واد كبير تكثر فيه الأشجار الظليلة . وكان يحيرنا على الدوام التفضيل بين الإقامة في ظل شجرة نتعرض تحتها، لفتك النمل الأبيض وسائر الحشرات، وبين ضرب الخيام تحت الشمس المحرقة . ولكنى صممت أن أوثر العراء في مقبل أيامي. لأن الحشرات لاتبرح المقيم في ظل الأشجار حتى تقر حرارة الشمس، حوالى الساعة الخامسة أو الساعة السادسة بعد الظهر. وكان الوادى الذى نزلناه يسمى وادى (كاب تركو) .

واستأنفنا السير في الساعة الرابعة، وكان يهب علينا نسيم بليل من الجنوب الشرقى يخفف عنا وعثاء المسير. وكان في السماء سحاب قليل يكسر من حدة حرارة الشمس، فسارت الجمال سيرا حثيثا . ومررنا قبل الغروب بأسرة من الجرعان ، مكونة من رجل وامرأة

وولد عارى الجسد. ووجدنا بعد ذلك بئرا يبلغ عمقها سبعة أمتار وتحوى ماء سائغا ، وإن غيرت طعمه جذور شجرة قريبة نفذت إلى قرار البئر.

وحططنا الرحال الساعة الثامنة فى أرض عراء، خالية من العواسج والحجارة. وسطا علينا فى الواحدة بعد منتصف الليل ضبع . ولولا يقظة حامد الجمال لاغتال جوادى (بركه) لأنه كان مربوطا إلى وتد لايمكنه الدفاع عن نفسه . وقد أطلق حامد النار. من بعيد على هذا الضبع فأخطأه ، ورأيت بمنظارى شبحا قاتم اللون يجرى بعيداً فى ضوء القمر الساطع .

الأحد ٢٧ مايو :

قمنا الساعة الخامسة وربعا صباحا ووقفنا الساعة التاسعة وربعا صباحا ثم استأنفنا السير الساعة الرابعة إلا ربعا، وحططنا الرحال الساعة الثامنة إلا ربعا مساء فقطعنا ٣٠ كيلو مترا. أعلى درجة للحرارة ٣٨ وأقلها ٧ درجات . وكان الجو صحوا هادئا فى الصباح. وثارت عند الظهر ريح ساخنة من الجنوب الشرقى ، وقرت بعد الظهر. وكان فى السماء سحاب صبير. وكان المساء دافئا هادئا وفى الساعة العاشرة تراكمت السحب وأمطرت السماء رذاذا ومررنا بأودية ناعمة الرمل تكثر فيها تلال الخراسان التى يتراوح ارتفاعها بين ٢٠ مترا و٨٠ متراً . وكانت الأرض الرملية كثيرة الحجارة المتناثرة من الخراسان.

ولم يكن هرى الدليل عند حسن ظننا به، فقد تنبأ لنا بالوصول إلى (باو) فى الصباح. ولكن الليل أرخى سدوله، ولم نكن وصلناها بعد. وكان يعرف المواضع إذا رآها ولكنه كان يخطئ فى معرفة الجهات الأصلية. ونفد منا الماء إلا قربة واحدة وكان ماءوها ساخنا جدا. وظللنا نسير حتى الساعة الثامنة إلا ربعا ، فهبطنا أرضا صخرية لاتسلم فيها الجمال من الخطر ، حتى فى ضوء القمر الزاهى. ووصلنا شفا وادٍ كبير قال هرى: إنه وادى (باو) ولكنا لم نصدقه . وقد دلتنى التجاريب أن لا أفرّط فى البقية الباقية من الماء الذى نحمله، حتى نصل إلى البئر التالية وأتحقق صلاحية مائها للشرب . فأمرت بعدم مس القربة الأخيرة تلك الليلة، ونمنا بغير عشاء. لأن الماء لازم للطهى .

وكانت ليلة بديعة تعزيت فيها بملاحظة ضوء القمر يداعب قطع السحاب ، وأنذرتنا قطرات قليلة من المطر باقتراب موسم الأمطار فى تلك الأقاليم.

وصحونا مبكرين . لأن فراغ المعدة لايدع للنوم الطويل سبيلا، وحثثنا الجمال للسير بدرجة لم يسبق لنا استعمالها. وما كان أشدها تعبا وأضعفها. وإنما تظهر عيوب القافلة إذا كان رجالها وجمالها جياعا عطاشا .



سوق بقرية أم برو

وخفت صوت الغناء ذلك الصباح . فلم يصدع شمل السكون إلا تمتمة الرجال، تستحث الجمال للسير. وكان الهبوط إلى الوادى خطراً لشدة انحداره. وقذفت ثلاثة جمال بأثقالها فحملها الرجال إلى الوادى، ثم أعادوها إلى أماكنها فوق ظهور الإبل.

وأخيرا رأينا كوخا أو كوخين من القش وعددا قليلا من الأغنام. فوقفت وسمحت للرجال أن تشرب ماء القربة الأخيرة التى أطالوا طلب ما فيها ذلك الصباح . وتقدم محمد وهرى وقصدا الأكواخ ، وانحدرت القافلة إلى الوادى قاصدة البئر. وجاء لزيارتنا بعد قليل بعض عبيد الجرعان والبديات . فأطلقنا النار فى الهواء كأنا نحييهم، ونحن نريد فى الحقيقة أن نظهر لهم استعدادنا لملاقة الطوارئ . ولاحظت أن اتفاقا غريبا قضى أن يكون جميع من زارنا من الرجال والنساء طاعنين فى السن. فإنه لم يكن بينهم شاب أو فتاة . ولم أدهش كثيرا لذلك، ولكنى عجبت بعد ذلك بقليل، لرؤية جماعات من العذارى الهيف الحسان ، بين سمراء وسوداء، نصف عاريات فى ثيابهن المهلهلة ممشوقات القدود. وبينما يتقدمن إلينا ثلاث ورباع التفتّ إلى حامد، وسألته من أين أولئك البنات فنظر بوكاره إليهن معجبا ثم قال : «الله أكبر هؤلاء بنات القرية لقد ظن القوم أنا سننهب القرية ونسبى عذاراها فأبعدوهن يختبئن حين رأوا القافلة مقبلة. أما الآن وقد رأوا منا السلام فقد أمروا البنات أن يعدن» .

ومرت العذارى بجوارى فكن يركعن لتحيتى خفرات، كما جرت العادة عندهن ، فى تحية ذوى المقام الرفيع. وتقضى الآداب فى تلك الجهات إذا خاطب أحد العظماء أحداً أن لايظل السامع واقفا، بل يجلس على الأرض دليلا على احترام مخاطبه. وتتابعت البنات، فجثت كل منهن على ركبيتها، وردت عليهن التحية بالجملة العربية المألوفة «عليكن السلام ورحمة الله وبركاته» . وكانت كل منهن إذا قامت عن الأرض تلفتت بحياء إلى من كان معى من البدو المعجبين بهن.

وضربنا الخيام فى نهاية الوادى على مقربة من البئر وجاءنا شيخهم بعد ساعة يحيينا، فتناقشنا معه فى أمر الطريق إلى الفاشر والاتجاه الذى يجب اتخاذه. وهنا غشى هرى التفكير والحزن لاقترابنا من بلاده ، إذ كنا قد قطعنا حدود وادى الفرنسية . وكان هرى قد أبى الخضوع للفرنسيين، وهرب منهم تاركًا أملاكه وأقاربه ، وانفرد بالإقامة فى العوينات يعيش عيشة النفى المختار. وتغيرت معالم الأرض، فكثرت فيها أنواع الطيور وكان فيها الغراب والبوم والببغاء واليمام وغير ذلك من الطيور الأخرى التى لا أعرف أسماءها . وفتكت لبؤة أثناء الليل بحمارين فقبض بعض سكان الناحية على شبل من أشبالها وسلخوه . ثم أرسلوا جلده إلى (فدا) يبيعونه. وفى(باو) عدد غير قليل من قبائل الجرعان والبديات.

ونساء هذه القبائل هيف القدود بسيطات الملبس ، ولباسهن إما شملة من القماش يلتحفن. بها ويتمنطقن بشريط من القماش يحملن فيه سكينا صغيرة ، وإما يتدثرن بجلد الماعز حول الجزء الأسفل من أجسامهن . وشعورهن مضفورة جدائل صغيرة ، ويلبسن حلُيًا من الفضة والعاج، ويتحلين فى شعورهن بأطواق سميكة منها، ويتخذن عقودا من الخرز والكهرمان وصغار البنات لايلبسن إلا مئزراً من القماش أو الجلد.

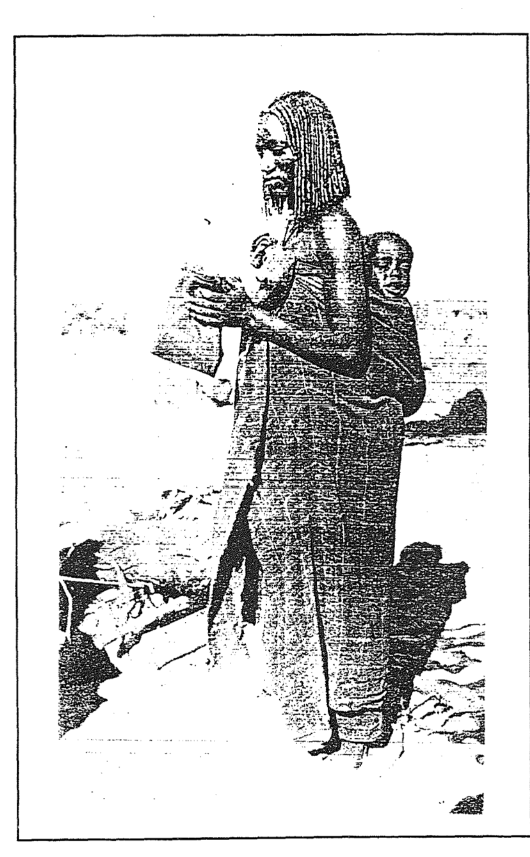
والرجال متينو البناء عارون إلا مما يستر عوراتهم. ويحمل كل منهم حربتين أو ثلاثا وسيفا وسكينا. ولايلبس العمائم الكبيرة والثياب البيضاء إلا أشياخهم . وأعطينا النساء والأطفال مكرونه، ولكنهم أبوا أن يأكلوها ونظموا قطعها فى خيوط ، ثم اتخذوا منها عقودا لبسوها معجبين . ولما رأى ذلك رجال قافلتى ، ظهر فيهم ميل البدو الغريزى إلى المتاجرة ، فصنعوا عقودا عديدة، من قطع المكرونة واستبدولوا بها سمنا وجلودا .

واضطر محمد وهرى أن يفارقانا فى هذه الناحية . لأنهما لم يجسرا على التوغل جنوبا أكثر من ذلك. ولقيت صعوبة فى العثور علي دليل يقودنا إلى (فوراويه) ولكنى وجدته أخيرا. وأهديت إلينا شاة فتعشينا فى ساعة مبكرة فى يوم الثلاثاء، عازمين على أن نسرع بالسير فى الصباح ، ولم يحضر الدليل فبدأت أشعر أن البديات يرتابون فى قافلتنا. ثم حضر فى الساعة الحادية عشرة مساء، فأيقظت الرجال عند حضوره وأمرتهم أن يحمّلوا الجمال قبل أن تحين له فرصة فيغير رأيه.

الأربعاء ٣٠ مايو :

قمنا الساعة الواحدة صباحا ووقفنا فى منتصف الساعة التاسعة صباحا واستأنفنا السير الساعة الرابعة وربعا مساء وحططنا الرحال الساعة السابعة وربعا مساء فقطعنا ٤٠ كيلو مترا. أعلى درجة للحرارة ٣٦ . الجو صحو جميل، وهبت ريح قوية من الجنوب الشرقى وتغير مهبها بعد الظهر فصار من الشمال الشرقى. وقرت عند المساء ، ولم تتغير معالم الأرض. إلا أنها كانت أكثر انبساطا ولم يكن فيها أودية كبيرة أو أشجار عظيمة. وقطعنا فى الساعة الثامنة وربع صباحا واديا صغيرا ، يمتد شرقا وغربا وسرنا الساعة الواحدة صباحا فى قمر ضاح خلق من الظلام نهارا. وسار معنا محمد وهرى قصد أن يوهما أهل (باو) بمرافقتنا إلى الفاشر وخوف أن يسطو عليهما أحد فى الطريق.

وبعد ساعة خرجنا من الوادى ووقفنا نودع الدليلين اللذين كان فى عزمها أن يعودا إلى العوينات بالاقتصار على السفر ليلا خشية العيون.



غادة من قبيلة البديات

وكنت واقفا على مسافة من القافلة حين دنت ساعة التوديع . فشعرت باتصال قلوبنا بعد الذى قاسيناه معا فى الطريق. وكان محمد منسرح القامة منتصبها ذا عيني نافذتين. وكان فى هيئته ما يدل على خصلتى الاعتماد على النفس والرضا بالأقدار وهما شيئان يميزان سكان الصحراء.

وكان هرى شيخا لطيف العشرة متواضعا ذا ابتسامة رقيقة وشمائل غراء. وكان فى حركاته ما يدل على الوقار والجلال، رغم قدمه اليسرى الموجعة ، التى كان يجرها جرّا إذا مشى ولا أغالى إن قلت: إنه كان أميرا بفطرته .

ولم يكن افتراقنا ذلك الفراق الذى يحدث بين رفقاء السفر فحسب، ولكنه كان يحوى معنى انتهاء الأستاذ من تدريب تلميذه على الشئ، وتركه بعد ذلك يسترشد بآرائه فى سبل الحياة. فقد نسينا جميعا أني كنت رئيس القافلة وأنهما لم يكونا إلا دليلين. وألقى هرى يديه على كتفى ثم قال وفى صوته رنة تأثر شديد «اسأل الله أن يرعاك ويهبك القوة. هاك الطريق بارك الله فيك».

ثم أشار إلى منفسح بين التلال البعيدة ، وتمتمت بضع كلمات بصوت لم أستطع أن أملك فيه رنة المتأثر ثم انثنيت عنه ولحقت بالقافلة. والتفت بعد ذلك فرأيت ذينك الرجلين الجليلين اللذين يبعثان الأسى بما قضى عليهما من النفى ، يذوبان فى ضوء القمر.

ووقفنا عند الفجر لأداء صلاة الصبح ثم حططنا الرحال فى منتصف الساعة التاسعة . وكان فى تلك النواحى آثار أسود. واستأنفنا السير بعد الظهر بقليل ، ولكن الرجال كانوا متعبين لأنهم لم يناموا طويلا فى الليلة الماضية، فلم نسر إلا ثلاث ساعات، وقد هربت منا الشاة التى أهديت لنا فتبعها حامد وسعد فى ضوء القمر ، وهما يقلدان ثغاء الشاة ولكنهما لم يفلحا فى استجلابها .

الخميس ٣١ مايو :

قمنا الساعة الرابعة إلا ربعا صباحا ووقفنا الساعة الثامنة مساء فقطعنا ٣٦ كيلو مترا. أعلى درجة للحرارة ٣٧ وأقلها ٥ درجات. وكان الجو صحوا جميلا هادئا وهبت ريح من الجنوب الشرقى بعد الظهر ثم غيرت اتجاهها فهبت من الشمال الشرقى وقرت عند المساء. وكان الليل ساكنا والبدر كاملا، والسماء تحوى صبيرا. وحدث لنا حادث ذلك اليوم، فإن الدليل أغفى فى الطريق وطاحت رأسه بعد سيرنا فى بكرة الجمعة أول يونيه ، فسار جنوبا بدل أن يسير إلى الجنوب الشرقى. ولم أتدخل فى الأمر حتى وقفنا نؤدى صلاة الصبح فى

الساعة الخامسة . فسألته عما إذا كان مقصده الأول أن يسير صوب الجنوب، فدهش كثيرا ولكنه أقر بخطئه بصراحة.

ولم نكن حدنا طويلا لحسن الحظ عن الطريق السوى. ومررنا فى منتصف الساعة السابعة بتل يدعى (طميره) وكان عليه شجرة ذاوية تعيّن الحدّ بين واداى والسودان.

وانحدرنا عند ملتقى الحدود إلى وادى (هور) وهو واد فسيح كثير الأشجار . يقال : إنه يمتد غربا إلى واداى وشرقا إلي السودان واسمه فى وادادى وادى (حوش) . وأرض الوادى شديدة الخصوبة، يقصد مراعيها فى الخريف أهل واداى ودافور.

وحططنا الرحال عند الظهر فى ذلك الوادى ووجدنا آثار زراف. واخترقنا بعد الظهر مساحة كبيرة من الحشيش الطويل الجاف، فكأنا نسير فى غيط من القمح الناضج . وازداد تهلهل ثياب الرجال ودب البلى فى أحذيتهم، وزاد همنا ما لقينا من (الحسكنيت) وهو شوك صغير صلب أعقف ينمو في شجيرة صغيرة ويعلق بكل ما يمسه فيصعب استخراجه منه .

وسمعت بوكاره يصف الزرافة والفيل لحامد فقال: إن للزرافة رأس الجمل، وحوافرالبقرة وكفل الجواد، ولكنه بالغ فى وصف الفيل حتى جعله أعجوبة فى مخيلة رجل الشمال.

وسرنا فى بكرة السبت ٢ يونيه حتى نتمكن من الوصول إلى (فوراويه) ذلك اليوم ومررنا فى الساعة الخامسة صباحا بعلم «حجر كمرارا» على بعد عشرة كيلو مترات عن يميننا. وبعد ذلك بساعة مررنا بعلم آخر يدعى «حجر ادرو» وهو تل يبلغ ارتفاعه ٨٠ مترا وطوله ٢٠٠مترا. وحجر لفظ سودانى معناه تل صغير. ثم بدأنا بعدذلك ننحدر إلى وادى (فوراويه) وكان أكبر الأودية التى مررنا بها وأعمرها بالسكان. وقطان هذا الوادى من الزغاوة والبديات .

وحططنا الرحال فى الساعة التاسعة بالقرب من خيام بعض أفراد البديات. وسمعنا بعد قليل أخبارا غير سارة عن استحالة الحصول على مؤن فى فوراويه . وكان ذلك عكس ما كنا ننتظره، فأسرعت فى البحث عن رسول أحمله خطابا إلى حاكم دارفور فى الفاشر أسأله فيه أن يرسل إلينا أطعمة وقماشا لرجالى الذين كانوا فى ثياب مهلهلة . وزارنا شيخ من شيوخ الزغاوه القاطنين بالقرب منا. وإنما رضى بالمجئ مدفوعا بحب الاستطلاع ، بعد تردد طويل سببه الخوف من رجالى. وكان خاضعا للحكومة السودانية فاستفدت من ذلك ، وعرضت عليه ثلاثة جنيهات إنْ حمل خطابا منى إلى سافيل باشا حاكم دارفور .

وكان الأجر باهظا وزدت على ذلك أن هددته بشدة، إذا تردد أو رفض ، وأمرته أن يسير

شيخ قبيلة زغاوة يستقبل الرحالة فى ام برو

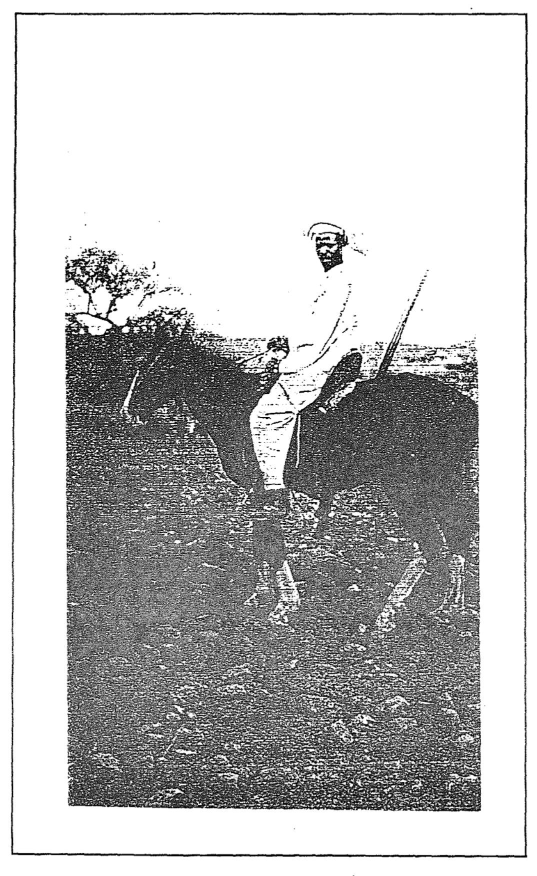
فى فجر اليوم التالى، فتمتم بضع كلمات يشكو فيها عدم وجود دابة تحمله، ثم مضى وعاد بعد قليل فأخبرنى أنه سيحمل خطابى إلى الفاشر ، وأنه سيسافر على ظهر جواد.

وسرنا هذا الخبر. لأن السكر كان قد فرغ منا منذ ثلاثة أسابيع فاضطررنا إلى تحلية الشاى على قدر الاستطاعة بالبلح المطحون. ونفد منا الدقيق والأرز وسئمت نفوسنا ما كنا نأكله من المكرونة القليلة المسلوقة بالماء الردئ.

ونقلت خيامنا على مقربة من بعض آبار الوادى، وحاولت أن اشترى شاة أدخل بها السرور على نفوس الرجال ، ولكن الظلام أخذ ينتشر فلم يقرب خيامنا أحد من سكان الوادى. ودهشت فجأة لسماع الرجال يغنون طربين، كأنهم تناولوا طعاما شهيا . فناديت السيد الزروالى وبكاره وسألتهما عن سبب غناء الرجال والسكر معدوم والغذاء قليل والحالة لاتبعث على الرضى، فأجابنى الزروالى : «لقد هدأ بالنا الآن فقد دخلنا السودان وشعرنا آخر الأمر بالأمان والطمأنينة» . «فسألته أكنتم خائفين إلى هذا الحد من الرحلة التى قمنا بها» فقال بوكاره «إن جميع أهلنا فى الكفرة كانوا يقولون: إنا سائرون إلى حتفنا بسلوك هذه الطريق. وكانوا يقولون لنا المقدر لابد واقع ولكن الله يلحظكم بعين رعايته. فداخلنا الشك فى السلامة وخفنا أن يكون مودعونا صادقين».

وقال الزروالي : «لقد رأيت بنفسك كيف شجعك بعض رجال الكفرة على أخذ هذه الطريق وكيف نصحك بتركها الكثيرون وأكبر ظنى أن مشجعيك أرادوا بك سوءا ورجوا أن لايروك أبد الدهر». وهكذا صارحنى السيد الزروالى وقد قربنا من نهاية الرحلة، فأخبرنى أن بيوت (السدايده) (والمجلولات) من قبائل الزوى فى الهوارى والكفرة كرهوا زيارتى الثانية كراهية شديدة، وعقدوا اجتماعا تناولوا فيه أنجع الوسائل للقضاء على القافلة أو منعها من العودة. وهنا وضحت لى مروءة الرجال الذين رضوا مصاحبتى فى تلك الطريق المخوفة المجهولة بدون تذمر أو ممانعة ، فداخلنى الزهو بهم جميعا .

وأيقظنى حامد فى الساعة الثانية صباحا وكان ديدبان الليلة. ثم أخبرنى أن الرسول وصل وأنه مستعد لحمل رسالتى إلى الفاشر. وكان تحت وسادتى خطابان أحدهما لسافيل باشا والآخر إلى حاكم (كتم) وهى محطة فى طريق الفاشر، اسأله فيه أن يتحقق من وصول خطابى إلى الحاكم فى الفاشر. وسرنى مجئ الرسول فى هذه الساعة المبكرة. فإن سرعة وصول المؤن والملابس التى طلبتها تسر جميع رجال القافلة، ووعدت الرسول بزيادة بضعة ريالات عن الأجر إذا أمكنه أن يوصل الخطاب إلى الفاشر فى بحر أربعة أيام، وتمنيت له السلامة ثم وقفت أنظر إليه، وهو ينطلق فى ضوء القمر على جواد قوى العضلات، وإن كان بادى الهزال.



الرسول الذى أرسله الرحّالة من فواردیه لمدير دارفور بالفاشر لإسعاف القافلة بالزاد

الفصل العشرون

نهايــة الرحلة

ودب إلى جـفنى النوم فى ليلتى الأولى (بفـوراويه) ونالنى تـأثر لم أشـعـر به منذ ودعت الضابط باثر فى السلوم عند ابتداء الرحلة.

وأحسست أنى الآن على اتصال بالدنيا الخارجية، وأن رحلتى انتهت وأنه لم يزل أمامى شهر أو يزيد حتى أترك قافلتى وأغير وجهة سفرى. لقد أصبحت واحتا اركنو والعوينات معروفتين بعد أن كان يجهل موقعهما الجميع. وأصبح فى الإمكان، إن صَحَّت ملاحظاتى، وكنت آملا صدقها ، أن ترسم خريطة دقيقة لجهات صحراء ليبيا الواقعة بين جالو وفوراويه .

وقضينا ثلاثة أيام فى (فوراويه) اعتدنا فيها جوها الرطب الذى منينا به، وحاولنا أن نصل إلى ما نتبلغ به من الطعام. وكان السحاب القاتم ينتشر فوق رؤوسنا والمطر يهطل كل يوم . وأكثر رجالى من أكل الضـأن ولكن عدم وجود السكر اللازم للشاى ، وحرمـاننا من الأطعمة الأخرى نقص من استمتاعنا بذلك النعيم .

وانحدرنا إلى الجنوب بعد ظهر اليوم السادس من شهر يونيه، وتصعدنا من الوادى فمررنا بقطعان كثيرة من الأغنام القافلة من مراعيها ، يتبعها صبيان وفتيات هيف القدود لايلبسون إلا ما يستر عورتهم من قماش وعقودا من الخرز.

وكانت هذه الأصقـاع مـختلفة عن الصحـراء التى اخترقناها. فقد كنا نسير فى سبيل مطروقة، ونمر من وقت لآخر بقرى صغيرة من أكواخ القش، ونساء يحملن الحطب ونرى غير ذلك من دلائل الإقامة والحياة. وطلبت من رجال القافلة عند اقترابنا من إحدى هذه القرى، أن يتقدمونى وأشرت لهم إلى الموضع الذى تضرب فيه الخيام وتبعتهم بجوادى. وإنما فعلت ذلك لأن هذه الجهات شـاقتنى من الوجهة الجغرافية ، فأردت أن أقوم بعمل بعض الملاحظات وسمعت عند اقترابى من الخيام أصواتاً عالية، وكانت خليطا من الغناء والعويل.

وكان أول مـا خطر ببالى أن نزاعا قام بين رجال القافلة وسكان القرية فحثثت جوادى استطلع الخبر، ولكنى لم أكد أقرب الخيام حتى سمعت دوى الطبل وغناء النساء، وكان وقت

الغسق ، فلم أتمكن من توسيم وجوه الجمهور الذى كان يتقدم إلىّ، ولم يمض زمن قليل حتى هرع إلىّ أحد رجالى وأخبرنى أنهم استقبلوا أعظم استقبال من رجال القرية ونسائها الذين أصروا أن يخرجوا إلى ظاهر القرية ليستقبلوا شيخ القافلة. ولم يكد يخبرنى الخبر حتى أحاط بجوادى سرب من العذارى يتغنين ويرقصن . فلم يسعه إلا أن يجاوبهن بالطفر والقفز كما يليق بالجواد البدوى. وزغردت النساء فطلب منى البدو أن أفرغ البارود. وأفسح الجمهور الطريق لجوادى فابتعدت به مسافة قصيرة ، ثم درت وانطلقت به عائدًا فوقفته دفعة واحدة. وكنت فى ذلك الوقت قد أخرجت بندقيتى فأطلقتها عند وقوف الجواد، على الطريقة البدوية، عند أقدام أول صف من العذارى الجميلات فأخافهن ذلك وشاقهن .

وبعد ذلك أحاط ست منهن بجوادى وطفن حوله ثم أدين لى (الشبّال) وهو أن يرسلن جدائل شعورهن ثم يلوين رؤوسهن بغتة تاركات خصلهن تدور أمامي. وأجبتهن على هذه التحية، فكنت أضع أصبعى على جبين كل منهن ، وأدير بندقيتى فى الهواء حول رأسها وأنا أقول : «أبشر بالخير» ثم التأم جمعنا فى موكب حافل، وتقدمنا إلى مضرب الخيام. ورأى رجال القافلة محاطا بالعذارى، فأطلقوا النار احتفاء وتكريمًا ووزعت عليهن بعد ذلك الروائح العطرية ، فانصرفن فرحات. وكانت ليلة أنس وطرب فى مضرب الخيام.

ووصلنا (أم برو) فى اليوم التالى وهى على بعد ٣٨ كيلو متر من فوراويه وحططنا الرحال بالقرب من البئر. وصحوت فى الصباح التالى على أصوات الغنم والماعز القادمة للاستقاء. وبعد ذلك بساعة أقيمت سوق عامرة على مقربة من خيامنا ، لأننا كنا نصبناها بدون تروّ بالقرب من شجرة كبيرة فى وسط المكان المعد لاقامة السوق. ولم يشترك فى هذا السوق إلا النساء اللاتى جلبن الزبد والجلود والحصر والشعير والقطن والملح، واستبدلن بكل هذا أشياء أخرى غير مستعملات النقود فى معاملتهن . تقوم النساء بهذا بينما يستريح الرجال ويظلون عاطلين من العمل.

وقد دار بخلدى حين أبصرت هذه المناظر وأشباهها فى قرى السودان، أن هؤلاء الجوارى السود يكن أسعد حالا وهن فى ربقة الأسر فى البيوت البدوية، فانهن وهن مطلقات يقمن بتأدية كل الأعمال، فيتعهدن الغنم والماعز ، ويشتغلن بأمور المنزل، ويجهزن الطعام، ويصنعن المريسة، وهى شراب الرجال المحبوب، ويشتغلن فى الأسواق ، ويقمن بعمل كل شئ على وجه عام. أما وهن فى ربقة الأسر فليس عليهن إلا واجبات محدودة تترك لهن من الفراغ نصيبًا غير قليل .

وطال بى التفكير فى هذه المقارنة، وأنا ألاحظهن فى السوق، فخيل لى أنى أسمع فى حديثهن وغنائهن،نبرات لم أسمع مثلها فى أصوات الأسيرات، فعلمت أن الحرية قد تبعث فى النفوس شعورا خاصًا ينعم به المطلقون فى أشد حالات العيش نصبًا.

وأقمنا يومين فى (أم برو) وزارنى عبد الرحمن جدّو وكيل محمّدين وهو رأس قبيلة الزغاوة، وقدم لى غنما ودجاجًا بصفة ضيافة. وقابلنا الوكيل فى اليوم التالى مقابلة رسمية يحف به خدمه وحشمه على ظهور جيادهم، وهم يدقون الطبول . وأرسلت لنا أسرة محمّدين فى غياب رئيسها غذاء من العصيدة والخضر والفطائر والمريسة.

وكانت مرحلتنا التالية تتطلب سفر خمسة أيام إلى (كُتُم) على بعد ١٢٩ كيلو متر إلى الجنوب . وكان الجو جيداً رغم حرارته ونزول بعض الأمطار. وسرنا كالعادة فى الصباح الباكر والعصر. وكان سبيلنا مطروقًا سهلا بين الأراضى التلية المغطاة بالحشيش الجاف والأشجار الصغيرة . وعثرنا فى الطريق بقطع من الأرض أحرقت حشائشها تمهيداً لزرعها بعد ذلك.

ورجع رسولى إلى الفاشر فى صحبة آخرين. ولم يكن عند حسن ظنى به، فقد قضى خمسة أيام بدلا من أربعة للوصول إلى الفاشر .

ولم يحضر مع ذلك رداً على رسالتى وقال لى : إن الرد فى انتظارى مع جندى عند بئر (مطرّج) على مسيرة ١٢ ساعة من محلتنا وأن ذلك الجندى يحمل زاداً لنا. ولكن ذلك الزاد المنتظر، كان قليل الفائدة، على تلك المسافة البعيدة ، فقد تناولنا عشاء قليلا عندما حططنا الرحال تلك الليلة. وبعد تناول العشاء أمرت دليلنا أن يسرع بالسفر، فيسير عامة الليل ولايقف حتى يصل (مطرج) ثم يخبر الجندى بالإسراع إلينا على قدر الطاقة.

وبدأنا السير قبل الساعة الرابعة من الصباح التالى، ولم تمض ساعة حتى هرع الرجال يخبروننى أن جندياً يتقدم إلينا على جمله. وبعد ذلك بدقائق ، سلمنى الجندى خطاباً من المستر شارل ديبوى القائم بأعمال حاكم دارفور المستقيل سافيل باشا. وَقَدَّم لنا كمية من الأرز والدقيق والشاى والسكر، وسرنى على الأخص ، أنه سلَّمنى كمية من السجائر فإنى لم أكن دخنت منذ تركنا أردى. فقد عرفت بغتة فى العوينات ، أنه لم يبق لى إلا بعض سجاير قليلة. فأخذت نفسى بتدخين سيجارة واحدة فى اليوم، أنعم بها بعد العشاء . وكان يؤلمنى الانتظار طول النهار، حتى تحل الساعة التى أدخن فيها سيجارتى. ولكنى كنت أسعد كثيرا بساعة التدخين فكنت أنتحى ركنا ظليلا ، وأشعل سيجارتى الثمينة، ثم أقيها هبّات الريح حتى

لاتهيج شعلتها فتنفد سريعا . ونفدت السجاير فلم يبق لى إلا الذكريات القديمة والانتظار المقبل. وقد كوفئت على ذلك الانتظار الطويل، وثأرت لنفسى بالانكباب على التدخين حتى احترق حلقى.

وأهديت بوكاره حفنة من تلك السجاير، فوضعها فوق طربوشه الأحمر ذى الزر الطويل، ثم امتطى جواد الدليل وأخذ طربا. ولكن السرور لم يعم أفراد القافلة فيدفعهم إلى الغناء والرقص ، إلا حين نزلنا دار راحة الحكومة فى مطرّج ، فإنّ الطرب تملك الرجال حتى وضعوا رأس السكر على الأرض ، وأطالوا الرقص حولها حتى داخَل الجندى أن بنا جميعًا مسّا من الجنون .

وقد سأل بعضنا عن مبعث ذلك الطرب فأجابه عبدالله . «إن لنا شهراً لم نذق السكر فيه وإنا قادرون الآن على تحلية الشاى الذى نشربه» وإنما يشعر بافتقاد السكر وشدة الافتقار إليه من حرمه، عهدًا طويلا. فهز رأسه الجندى مبتسما ثم قال : «يجب علىّ أن أعود فى الحال إلى كُتم وأحضر لكم شيئا من الزاد. فإنا لم نظن أنكم بهذه الدرجة من الافتقار إلى الطعام» وتفضل علينا قبل سفره بالذهاب إلى خيام قريبه، واتحافنا بشاة وزبد يدفع ثمنهما معاون كُتم. لأن البائع رفض قبول الأوراق المالية المصرية.

وتركنا الجندى بعد أن زودته بخطابات منى إلى المستر ديبوى والمعاون. وهو الحاكم المنتدب فى كُتم. وكفانا الزاد الذى أحضره الجندى . ولكن الخوف من حاجتنا إلى الاستزاده، جعلنا نقرر السفر فى التوّ فسرنا وحططنا الرحال عند الظهر فى دار «استراحة» الحكومة عند بئر (المراحيج)، وضربنا خيام الليل على بعد بضعة كيلو مترات من تلك الجهة . وكانت حال الجمال من السوء بمكان عظيم ، فقد تقرحت ظهور بعضها وجنوبها ودميت . ورفض اثنان منها أن يسيرا حتى ترفع عنهما الأحمال. وأمطرت السماء ذلك المساء مدة ساعة، ولكن ذلك لم يبل أوام نفوسنا ، وَغَّنت الرجال ورقصت حول ركيّة عظيمة من النار.

وقد ذكرتنى رطوبة المكان ورائحة الحشيش الرطب بمطافاتى فى أرياف انجلترا. وسرنا مبكرين فى الصباح التالى حتى نصل بئر مطرّج عند الظهر ، وتناولنا الغذاء فى دار «استراحة» الحكومة القريبة من البئر وزارنا شيخ مطّرج، وأحضر لنا دجاجا بصفة ضيافة . وأراد أن يستبقينا تلك الليلة حتى يقوم بواجب الضيافة نحونا فى اليوم التالى، ولكنى كنت أشعر بالحاجة إلى الإسراع فى السفر ، فقد ساءت حال الجمال عن ذى قبل، واضطررنا إلى ترك أحدها عند شيخ القرية، على أن يأخذ ربع ثمنه إذا شفى وبيع وأن يكون خاليا من المسؤولية إذا مات.



صبيتان من قبيلة فور

وظهر لنا جندى آخر على ظهر جواده ، بعد مسيرنا بساعة ونصف ساعة فى اليوم التالى، وأحضر لى خطابا من معاون كُتم، وكمية صغيرة من الأرز والسكر، وشكرنا له الهدية. لأن زادنا كان قد نزر ونفد منا السكر اللازم لتحلية الشاى. وأعطيته خطابا يوصله إلى كُتم، ثم حططنا الرحال بعد ذلك بواد صغير فى (باوو) .

وأمطرت السماء عند استئنافنا السير بعد الظهر ، وهبت ريح قوية من الجنوب الشرقى ورأيت من الحكمة أن نحط الرحال، حتى تقر العاصفة، ولكنى أطللت فى منظارى، فرأيت صف الأكواخ القشية التى تكون مركز الحكومة فى كتُم، فشجعنى ذلك على المضى فى المسير فحثثنا الإبل.

ورأينا بعد ذلك كوكبة من الفرسان تتقدم إلينا فصرخ البدو عند رؤيتها مبتهجين، وتعرفت الملابس الرسمية للجيش السودانى، فكان ذلك أبهج ما وقع عليه نظرى منذ أسابيع طويلة. وتقدم إلينا رياض أفندى أبو عقله ، ونصر الدين أفندى شداد- وهما معاونا كُتم- على رأس كوكبة مكونة من عشرة فرسان، وفى صحبة القاضى ورئيس الكتبة وغيرهما من موظفى كُتم ووجهائها، وشددت على أيديهم جميعا، ثم اخترقت القافلة القرية وهم يحيطون بها .

وحيّانا عند اقترابنا من المركز نساء متشحات بالثياب البيضاء، يغنين ويزغردن ويضربن الطبول. ووقفن صفا طويلا يغنين ويرقصن فطرب لهن البدو كثيرا، وسألونى أن أسمح لهم بإطلاق البارود ردا على تحياتهن. ولم يسعنى الرفض فتناوب الرجال، وعلى رأسهم بوكاره، إطلاق البارود عند أقدامهن. ولم تكن السودانيات متعودات تلك العادة البدوية فى تكريم النساء كأخواتهن البدويات فى الشمال، فجفلن قليلا عند اشتعال البارود على مقربة من أقدامهن ولكنهن رضين ذلك، وظللن يتمايلن ويرقصن على دق الطبول ، بينا كان رجالى يطلقون البارود عند أقدامهن على التوالى. وكان لقاء بديعا بدد سرورنا به، ما نالنا فى السفر من نصب وكلال.

وزاد إظهار الكرم نحونا فأرسل إلينا المعاونون والموظفون، أربع نعاج وزبدا وخضرا وسكرا ، فقضينا ليلة أبهج ما تكون حالا ، وكان هبوطنا كُتم فى ذلك الوقت فألا حسنا عند سكانها ، لأنا قدِمناها مع وسميِّ فصل الأمطار . وقضينا يومين فى ضيافة المعاونين فى غياب المفتش المستر أركل الذى كان فى الفاشر.

وقد تفرجنا عصر يوم من أيام إقامتنا على مباراة فى لعب الكرة بين الجنود . وأبدى اللاعبون نشاطا شديدا وإن لم يتقنوا اللعب اتقانا تاما. ولم يخل اللعب من فكاهة ظريفة ،

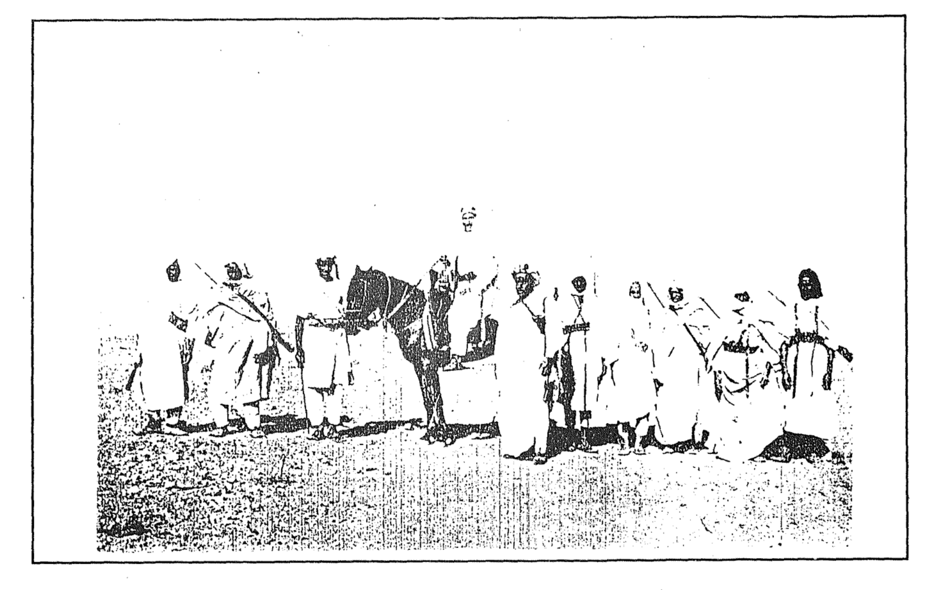
فإن كثيرين من اللاعبين الذين حاولوا أن يرفسوا الكرة رفسة قوية أخطأوها وأرسلوا أحذيتهم السودانية تنطلق فى الفضاء. وقد شاقتنا كثيراً روح التآلف التى كانت سارية بين الضباط والجنود ، الذين قاموا بهذه اللعبة التى لاتخلو من بعض الخشونة.

وتناولت عشاء تلك الليلة فى دار رياض أفندى ونصر الدين أفندى، فكان أول طعام ذقته بين حيطان المنازل منذ تركت الكفرة. وقدم لى ضائفيٌ جرائد مصرية، فكانت أول ما قرأت منها بعد مضى ستة أشهر .

وتركنا كُتم فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ يونيه منشرحين بما لقينا من دلائل الكرم والضيافة أثناء أقامتنا ، ومن مظاهر التوديع الحار عند تركنا المدينة، وكانت المرحلة الباقية إلى الفاشر،وهى تستغرق يومين ضربا من ضروب التريض .

ودب فى نفوسنا جميعا دبيب الاهتياج والابتهاج بعودتنا إلى الاتصال بحياة الحركة ولكنى شعرت ساعة انقلبت إلى فراشى ليلة ١٨ بوخزة حزن فى قلبى. لأن ذلك اليوم كان آخر أيامى فى الصحراء، وبدا لعينى آلامى المستقبلة، لافتقادى رجالى وجمالى، وحرمانى تلك الوحشة المؤنسة والجمال والوحدة ومتعة المرافقة التى ملكت نفسى فى الصحراء وعيشى بها، وشكرت الله على هديه لى فى تلك الأصقاع الرملية الممتدة غير المطروقة. ورأيتنى أضيف إلى صلوات شكرى ، دعاء خالصاً أسأله فيه، أن يقدر لى العودة إليها يوما من الأيام.

وكنت قد أصدرت أمرى إلى رجال القافلة بالسفر المبكر فى الصباح التالى، وَتملَّكهم الشوق إلى الرحيل، فبالغوا فى التبكير . ولم أكن أقل منهم هشاشة إلى الرحيل ، فلم آبه بالمسير فى منتصف الساعة الثالثة صباحًا . وحططنا الرحال على مسير ثلاث ساعات من الفاشر، نستعد لدخول المدينة، فحلقنا ذقوننا ولبسنا أفخر ثيابنا وكان المستر ديبوى قد أرسل إلينا فى كُتم، كمية من القماش الأبيض ، فأمكن رجالي أن يظهروا فى لباس لائق. وتهافتوا جميعا على القطعة الباقية من مرآتى يتوسمون فيها وجوههم . ونظفت البنادق وأُصلح من شأن حوائجنا التى أصبحت فى حال يرثى لها من البلى. وكان بودى أن أصنع شيئا للجمال فأغير مظهر هزالها ونحفها ولم يكن سبيل ذلك إلا بتعهد ظهورها المقروحة وإراحتها . ولم يكن عندنا من الوقت أو الظروف ما يمكننا من فعل ذلك. ومع ذلك. فقد خيل لى أنها تشاطرنا الشوق إلى الرحيل، فجدّت فى السير بخفة ونشاط.



الرحّالة على جواده (بركة) ورجال قافلته الذين رافقوه فى الرحلة

وارتدى عبدالله والسيد الزروالى ثيابهما الحريرية، وتقدمت القافلة إلى المدينة فرحة. ووصلنا ظاهر الفاشر، فإذا بصرخات السرور تنبعث من جميع أفراد القافلة لأنهم رأوا كوكبة من الفرسان لابسى الخاكى تتقدم إلينا وحثثت جوادى بركة فعدا راضيا وسَرَّته رؤية الجياد القادمة فنشر أذنيه وانطلق فى عدوه .

وتقدم المستر ديبوى على جواده يحييني، فتبادلنا الشد على الأيدى ، وَحَيَّانا بقية الموظفين المصريين والإنجليز، فرددنا عليهم التحية بأحسن منها، ثم ذهبنا إلى دار المستر ديبوى الذى تفضل فخصنى ورجالى بجزء منها. وتفضل البكباشى (أوداس) فتعهد الجمال المنهوكة فأطعمها وسباها وعالج جراحها. وكانت فى حاجة ماسة إلى هذا العلاج.

وقضيت عشرة أيام فى ضيافة المستر ديبوى، ولقيت شيئا كثيرا من كرم ضباط وموظفى المدينة بين مصريين وإنجليز، ومن وجهائها كذلك. والحق أقول: إن دلائل الكرم غمرتنى ومظاهر الرعاية ظلّتنى فلم أكن فى حاجة إلى شئ.

وشعرت بحياة المدنية، فاستمتعت بملذاتها وأخصها أكل الخضر والفواكه، وما كنت لاق هذه الملذات لولا ما ذقت فى صميم الصحراء، من طرف محدودة فى عيشتها، وحل يوم توديعى لرفقائى الذين صحبتهم فى رحلتى من الكفرة فجاءنى بوكاره وأخوه وحامد والسنوسى أبو جابر يودعوننى، فكانت ساعة مؤثرة شعرت فيها بألم الفراق وازدحمت فيها على خاطرى خوالى الذكريات ، ولم يتمالك أولئك الرجال الجليدون البكاء ولم أستطع منع عينى أن تندى بالدموع ، فقد صحبنا الأيام معا فى حلوها ومرها، وخرجنا من عشرتنا الطويلة أصدقاء مخلصين. ولست أتمنى على الدهر أمتع من هؤلاء رفقاء لاجتياز تلك الأصقاع الموحشة، ولا أكثر منهم قدرة ورجولة وإخلاصا .

وقرأنا الفاتحة فكانت جهشات بوكاره تخالط كل وقف من آياتها الشريفة، وشددت على أيادى الرجال جميعا للمرة الأخيرة، ثم افترقنا لنتقابل كما أرجو يوما من الأيام فى تلك الصحراء التى نالت من نفسى بقدر ما نالت من نفوس ساكنيها.

ولم يبق أمامى إلا مرحلة واحدة إلى الأُبَيِّض التى تبعد ٦٠٠ كيلو متر إلى الشرق ، فقطعتها ، وأخذت القطار إلى الخرطوم ومنها إلى القاهرة ، فوصلتها فى أول أغسطس سنة ١٩٢٣ وكنت قد غبت عن وطنى سبعة أشهر و٢٣ يوما وقطعت بالقافلة مسافة ٣٥٠٠ كيلو مترًا فى الصحراء وأمكننى بواسطة هذه الرحلة، أن أقطع فى تحديد مركز آبار الظيغن

ومكان الكفرة على خريطة أفريقيا. وكان موضع الأول قبل ذلك بعيدا عن مكانه الأصلى بمقدار ١٠٠ كيلو متر، والثانية بمقداره ٤٥ كيلو متر ونلت كذلك توفيقا عظيما، فى إثبات الواحتين المجهولتين اركنو والعوينات على خريطة صحراء ليبيا.

[تمت الرحلة]

ملاحـق

أولا : ملاحق الرحلـة

ثانيا : ملاحق المحـرر

مذكـــرة عن نتيجة رحلة حسنين بك فى رسم الخرائط

بقلم الدكتور بول مدير قسم مساحة الصحراء

ترجمة

حسن بك عبادى

بمصلحة المساحة المصرية

المقدمـــة

تتكون البيانات الخاصة برسم الخرائط التى أحضرها حسنين بك من :

أ) دفاتر محتوية على أرصاد فلكية بتعيين الوقت وخط العرض واختلاف البوصلة، أُخذت فى تسعة عشر معسكراً رئيسياً ومعها الأرصاد الخاصة بمقارنات الساعات.

ب) مذكرات يومية محتوية على بيانات مستمرة لأرصاد انحرافات البوصلة وللمسافات التقديرية من واحة سيوه إلى آبار (لامينا) بالقرب من الفاشر وهى مسافة تقرب من ٢٤٣٠ كيلو متر. وتحتوى هذه المذكرات اليومية أيضا على:

(١) عدد كبير من أرصاد انحرافات البوصلة لمعالم طبيعية ظاهرة على جانبى الطريق.

(٢) تقديرات تقديرية على قواعد حساب المثلثات لخطوط عرض الجبال التى مر بها.

(٣) عدد كبير من قراءات البارومتر المعدنى المستدير (انريد) والترمومتر الذى يدار فى الهواء ، ويستخرج منه درجة الرطوبة التى أخذت لتقدير الارتفاعات على طول الطريق.

(٤) الأرصاد اليومية لأقصى وأدنى درجات الحرارة.

(٥) ملاحظات على طبيعة البقاع التى مر فيها .

(٦) مذكرات عن الأحوال الجوية.

وهذه البيانات المرصودة تم تحليلها بمعرفة قسم مساحة الصحارى بالقاهرة ، واستخدمت فى إعداد الخريطة بمقياس $\frac{١}{٢}$ مليون المرفقة ببيان حسنين بك عن أسفاره والغرض من هذه المذكرة التى نحن بصددها هو :

أولا : إعطاؤها بيانا عن الاختبار الدقيق الذى مَرّت به هذه الأرصاد أثناء القيام بتحليلها، كى يساعد على تقدير درجة الدقة التى يمكن نسبتها للمواقع الجغرافية، والارتفاعات، والمعلومات الأخرى، التى استعملت فى تخطيط الخريطة.

ثانيا : بيان الإضافات إلى المعلومات الجغرافية الحاضرة، ببحثها عن إقليم غير معروف فى شمال أفريقيا الشرقى وكان وليد هذه الحملة.

٢- التعيين الفلكى للوقت المحلى:

أخذت الأرصاد بواسطة التيودوليت لارتفاعات الشمس والنجوم فى جميع المعسكرات الرئيسية، لتعيين الخطأ بالنسبة للزمن المحلى الوسطى الشمسى للساعة من طراز نصف

كرونومتر، التى استعملت فى أخذ أرصاد خطوط العرض . وبلغت جملة هذه التعيينات الزمنية التامة ٣٤ أخذت فى ١٧ معسكرًا. وأخذت الأرصاد بتيودوليت ٣ بوصه من صنع (تروتون وسيمس) دائرته الرئيسية يمكن قراءتها بورنيتين للدقيقة الواحدة. وكان مجهزًا بميزان حساس مركب على ذراع الميكروسكوب . وكان يوضع التيودوليت دائما فى خط الزوال المغناطيسى بواسطة بوصلته الحوضية.

وكان الغرض من الطريقة التى استعملت ، هو أخذ أوقات مرور حافة الشمس أو النجم بكل من الثلاثة الأسلاك الأفقية لتقسيم الأستاديا قارئة الميزان والدائرة عند كل تعيين على الوجهين الأيمن والأيسر. وأخذ أيضا- فى حالة النجوم- الانحراف المغناطيسى للنجم من الدائرة الأفقية. وأخذت مذكرة بلون النجم ولمعانه لتحقيق ذاتية النجوم فى هذا القلم. وبذلك يتخلص الراصد من ضرورة معرفة أسماء النجوم. وكان يقرأ البارومتر والترمومتر باعتناء فى كل رصد لعمل حساب الانكسار .

ولم تلاق أى صعوبة فى تحقيق ذاتية النجوم إلا فى حالة واحدة وجد من الضرورى فيها إلغاء الأرصاد ، نظرا لأن الراصد رصد عرضا نجوما مختلفة عند الرصد على وجهى الآلة. وقد أجريت فى أيام عديدة عمليتان للرصد أكثر فى نفس المكان . ودلت مقارنات النتائج فى هذه الأماكن، أن الأرصاد كانت بدقة فائقة بالنسبة لصغر الآلة. وقد وجد مثلا فى سبع حالات رصدت فيها الشمس وهى على وشك الغروب، ونجم عقب الغروب مباشرة أن أقصى فرق بين نتائج عمليتى الرصد هو (٧) ثوان فقط بينما كان المتوسط يقل عن (٤) ثوان. ومن الظاهر أن دقة وقت الأرصاد كافية جداً للتأكد من عدم وجود خطأ محسوس فى خطوط العرض ناشئ من أغلاط فى الزمن المحلى المفروض .

وبما أن أرصاد الوقت لم تستعمل إلا فى تجهيز الخريطة فيما يخص تعيين خط العرض، فليس من المهم إعطاء كشف عن أغلاط الساعة. غير أنها ربما تهم الجغرافيين الذين يجوبون الصحارى، للوقوف على بعض نتائج تجارب حسنين بك فى عملية نقل الساعات ، وعلى المجازفة فى التعويل على ثبات معدل السرعة لمدد طويلة، حتى مع وجود أحسن نوع من الساعات، ومن الستة الساعات التى كانت معه، لم تبق إلا واحدة منها صالحة للاستعمال حتى نهاية السفر. ومن حسن الحظ أن هذه الساعة التى قاومت عناء سفر سبعة أشهر فى جوف الصحراء، هى التى أَخَذَ عليها حسنين بك جميع أرصاده وكان يحملها في جيبه طول مدة السفر، وهى من طراز نصف الكرونومتر ذى الحجم الكبير ماركة "explorens" الإنجليزية الصنع ، ومجهزة بغطاء واق من الأتربة لجهاز ادارتها. ولقد حازت هذه الساعة شهادة خاصة

من معمل الطبيعيات الأهلى (National Physical Laboratory of England) بانجلترا وكانت أثمن الساعات الست التى استعملت فى هذه السياحة. وحتى هذه الساعة لم تستطع المحافظة على معدل سرعة ثابت حتى تصلح فى إيجاد خط الطول . ولو أنها كانت وافية بالغرض فى إيجاد خط العرض ولو أنها فى حالتين ، لما اضطر الحال للتعويل على ثبات معدل سيرها لمدة يوم أو يومين لرصد خط العرض فقط دون أخذ أرصاد عن الوقت المحلى. فنجد مثلا فيما يلى متوسط معدل سير هذه الساعة محسوبا من واقع أرصاد الوقت المحلى، فى أماكن معلوم خط طولها من قبل:

معدل سير السرعة

السلوم – سيوه ٢٩ ديسمبر – ١٣ يناير	١٥ يوما	فقدت ٨,٥	ثانية
سيوه– جغبوب ١٣ يناير – ٢٠ يناير	٧ أيام	« ٠٠,١	«
جغبوب – الفوروية ١٤ فبراير – ٥ يونيه	١١١ يوما	« ٧,٧	«
الفوراوية – أم بورو ٥ يونيه – ٨ يونيه	٣ أيام	« ٦,٦	«
أم بورو– الفاشر ٨ يونيه – ٢٦ يونيه	١٨ يوما	« ٩,٤	«
الفاشر– الأبيض ٣٠ يونيه – ١٥ يوليه	١٥ «	« ٩,٤	«

غير أن هذا الجدول لم يستطع أن يعين بالضبط اختلافات الساعة. وفى طول المدة التى بقيت فيها خمس الساعات الأخرى صالحة للاستعمال ، قام حسنين بك بعمل مقارنات متعددة بساعته الرئيسية وبين ٢١ مارس و٢٣ منه يوجد هناك ما يحملنا على التحقق من أن هذه الساعة ربحت ربحا غير عادى بلغ ٥٠ ثانية. وهناك ربح غير عادى مشابه لهذا، لوحظ فى الأربع والعشرين ساعة الواقعة بين يومى ٢٤ و ٢٥ مارس وكلا هذين الربحين غير العاديين حدث ما بين (جالو) و(الحراش) فى بدء السياحة، بينما أظهرت باقى الساعات أنها سائرة بحالة حسنة . ومن المحتمل جداً أن حدثت حالات أخرى غير عادية فيما بعد ذلك حينما تعذر وجود مراقبة مرضية للمقارنات ، نظراً لوقوف أو تلف بعض الساعات الأخرى أو كلها. ومن بين خمس الساعات الأخرى، كانت هناك ساعة إنجليزية الصنع من طراز نصف كرونومتر مشابهة للساعة الرئيسية ولكن بحجم صغير. وثلاث ساعات منها كانت سويسرية الصنع من أحسن الأصناف ذات الرافعة من طراز "Peerless" بغطاء محكم. وأما الساعة الباقية فكانت من الصنف السويسرى ذى الرافعة والتى تضئ أرقامها وعقاربها ليلا وكانت تلبس فى المعصم لسهولة معرفة مدد السير. وقد وقفت عن العمل الساعة الصغيرة من طراز نصف

كرونومتر فى ٣ أبريل بعد أن استمرت على العمل مدة أربعة أشهر. ولو أنه أعيدت إدارتها إلا أن معدّل سيرها تغير كثيراً عن ذى قبل. وأما ثلاث الساعات ذات الرافعة من طراز "Peerless" فكانت لا بأس بها ، بالرغم من عدم استطاعتها الاستمرار على العمل حتى نهاية السياحة. فإحداها وجدت معطلة ومختلفة فى ٦ مايو بعد أن استمرت على العمل ما ينيف على خمسة أشهر. والاثنتان الباقيتان استمرتا على العمل أزيد شهراً عنها.

ويُستدل من المقارنات التى عملت فى الطريق، أن اختلافات معدل السير كادت تكون فى درجة واحدة مع الساعة طراز النصف كرونومتر. وأما ساعة المعصم، فكانت عرضة لاختلافات أكثر فى معدل سيرها نظراً للطريقة التى تحمل بها. وكانت فى بعض الأحيان تضبط على الساعة الرئيسية، ولكنها استمرت على العمل حتى نهاية السياحة.

وقد وجد أن الساعات الإنجليزية من طراز نصف كرونومتر، لاتقل تفضيلا عن أحسن الساعات السويسرية ذات الغطاء المحكم . وذلك من وجهة مقاومة الأتربة ، التى هى من أهم الخاصيات التى نضعها نصب أعيننا عند اختيار الساعات اللازمة للاكتشاف فى الصحارى. ومن أهم دواعى العطل فى الساعات واختلاف معدل سيرها، هو طريقة حملها أثناء السير، فتارة تكون مع الرحالة، وفى هذه الحالة تكون عرضة لصدمات عنيفة فجائية تحدث أثناء القفز من على ظهر الجمال، أو محاولة الصعود عليها . وتارة تكون داخل الأمتعة ، وفى هذه الحالة تكون عرضة لمثل هذه الصدمات التى تحدث من حركات الجمال الفجائية . ويعزى الشرح المحتمل للتقديم غير العادى الذى ظهر فى الساعة الرئيسية فى مدد قصيرة فى الحالتينالسابقتين، إلى ارتجاج أثناء الصعود أو الهبوط يحدث منه ملامسة للفَتَّى الزمبلك الشعرى ببعضهما لمدة قصيرة ، مسببة قصراً فى مدة تذبذب الرقاص . ومما يَجدر بالذكر أن الساعة التى ظلت مستمرة طول مدة السياحة ، كانت أكبر الساعات حجماً. فكانت مقاومتها لهذه العوامل معزوة ، إلى درجة ما ، إلى قوة مقاومة أجزائها لكبر حجمها .

٣- التعيينات الفلكية لخطوط العرض :

أخذت أرصاد ارتفاعات النجمة القطبية لتعيين خط العرض لتسعة عشر معسكراً فى ٣٥ ليلة باستعمال تيودوليت بوصه٣ الذى استعمل فى أخذ أرصاد الوقت. وأخذ ثلاثة قراءات للارتفاعات على كل من الوجهين، ودونت الأوقات المناظرة بواسطة ساعة نصف كرونومتر المعلوم خطؤها عن الوقت المحلى بالضبط بالأرصاد على الشمس أو نجم أخذت قبل أخذ أرصاد خط العرض. وصرفت عناية خاصة لضبط ميزان روح التسوية ، ودون الضغط الجوى ودرجة الحرارة فى وقت أخذ الأرصاد.

ويبين الجدول الآتى نتائج الأرصاد

خطوط العرض الفلكية

السلوم	٤ ليالٍ	″٩	′٣٥	°٣١	شمالا
سيوه	١ ليلة	″٤١	′١٢	°٢٩	»
جغبوب	٥ ليالٍ	″٢٦	′٤٤	°٢٩	»
المعسكر بقرب جالو	١ ليلة	″٥٦	′١١	°٢٩	»
جاو (العرج)	١ ليلة	″٣٣	′٢	°٢٩	»
بوتافال بئر أبى الطفل	١ ليلة	″٢٦	′٥٤	°٢٨	»
الحراش	١ ليلة	″٢٩	٢٦	°٢٥	»
التاج	٦ ليالٍ	٤٧	١٣	°٢٤	»
اركتو	٢ ليلتان	٣٢	١٢	°٢٢	»
العوينات	١ ليلة	″٢٩	′٥٢	°٢١	»
اردى	١ ليلة	″٣٩	′٣٥	°١٨	»
اجاه	١ ليلة	″٣٨	′٥٢	°١٧	»
عنيبه (انيباه)	١ ليلة	′٢٤	′٢١	°١٧	»
باو	١ ليلة	″٢٤	′٢٨	°١٦	»
الفوراوية	٢ ليلتان	″٥١	′٢١	°١٥	»
ام بورو	٢ ليلتان	″٥٧	′٣	°١٥	»
القطوم (كتم)	١ ليلة	″١٥	′١٢	°١٤	»
الفاشر	٢ ليلتان	″٣	′٣٨	°١٣	»
الأبيض	١ ليلة	″٥١	′١٠	°١٣	»

ومن هذه الأماكن يوجد ستة منها معلوم خط عرضها من المساحة الرسمية لمصر والسودان- وهى - السلوم- سيوه- جغبوب- كتُم- الفاشر- الأُبَيِّض- وقد وجدت أن أرقام حسنين بك مرضية . ولو أنه لم يتيسر عمل مقارنة دقيقة، نظراً لعدم التحقق من معرفة موقف حسنين بك بالضبط . وقد أبان حسنين بك أن نقطته التى أخذ منها الأرصاد فى جغبوب تقع على بعد ٢٠٠ متر فى جغبوب الجنوب الغربى لقبة المسجد. وبتطبيق الفرق المناظر لخط العرض(ناقص ٦) ثوان على تعيينى لخط عرض القبة فى سنة ١٩١٧ الذى كان (٤١ً ٤٤َ ٢٩°) نحصل على (٣٥ً ٤٤َ ٢٥°) أى بفرق ٩ ثوان فقط من أرصاد حسنين بك فى خط العرض. وهناك اختبار آخر لدرجة دقة أرصاد خط العرض يمكن عمله بمقارنة خطوط العرض التى وجدت لنفس المعسكر بواسطة أرصاد، أخذت فى ليال متعددة . ونجد فيما يلى متوسط الانحراف لخط عرض واحد مرصود عن المتوسط لجميع المعسكرات التى أخذ فيها رصدان أو أكثر لخط العرض.

السلوم	٤ ليالٍ	متوسط	الانحراف	٨ً	ثانية
جغبوب	٥ ليالٍ	»	»	٤٠ً	»
تاج	٦ اليالٍ	»	»	١٢ً	»
اركنو	٢ ليلتان	»	»	٦ً	»
الفوراوية	٢ ليلتان	»	»	٨ً	»
ام بورو	٢ ليلتان	»	»	٢٣ً	»
الفاشر	٢ ليلتان	»	»	٦ً	»

ومن ذا يظهر أنه لايحتمل أن أول خط عرض مرصود يبلغ الخطأ فيه بمقدار ١ دقيقة . وعلى ذلك، اعتمدت خطوط العرض التى رصدها حسنين بك عند تجهيز الخريطة عن النقط غير الموجود فيها تعيينات سابقة، مثل الحراش والتاج واركنو والعوينات وأردى واجاه وعنيبه وياو- وقد اعتمدت فى الخريطة أيضًا خطوط العرض التى رصدها حسنين بك عند جالو (العرج) وبئر أبى الطفل والفوراوية لأن أرصاد أولهما من المحتم أن تفوق أرصاد رولفس التى تكاد تتفق مع مواقعه الخريطية وأرصاد ثانيتها. ولو أنها تختلف عن رقم رولفس (٢٢ً ٣٦َ ٢٨°) بمقدار دقيقتين ٢ ، إلا أنها بلاشك أضبط لأنها تتفق تماما مع خط سير حسنين بك . ولأن أرصاد ثالثتها، وهو موقع الفوراوية ، ولو أنه موضح على خرائط السدان، إلا أنه خارج عن حدود مثلثات السودان ويحتمل فيه بعض الخطأ.

وبعد كتابة ما تقدم ، وصلتنى معلومات من جناب مدير مساحة السودان أن جبل الفوراوية اعتبر كنقطة فى شبكة المثلثات السودانية ، وأن موقع القمة بالضبط هو خط عرض (٩ و٥٩ً ٢٠َ ١٥ْ) شمالا وخط طول (أو٤٨ً ٣٦َ ٢٣ْ) شرقا وارتفاع ٩٥٤ مترا فوق سطح البحر. وهذا الموقع يختلف بكليو مترين عن الخريطة المشار إليها. ولكن نظراً لعدم معرفة المسافة والانحراف من معسكر حسنين بك إلى التل ولو أن خط العرض الذى وجده حسنين بك يعين مركزه بموازاة كيلو متر ونصف شمال التل ، فلم أر أن هناك ما يدعو لعمل أى تغيير فى ضبط نتائج حسنين بك. وخط الطول المعتمد على المعسكر، ربما يكون مختلفا اختلافا بسيطاً حتى إنه لايحتمل أن يتعدىٰ الخطأ فيه ميلا أو أكثر. ولما كان الفرق بين سطح التل ونقطة معسكر حسنين بك غير معروف بالضبط فلذا لايوجد هناك ضابط لقراءة البارومتر عن نقطة المعسكر وبناء عليه رأيت من الحكمة أن استعمل الفاشر ، كالضابط الجنوبى ، فى تصحيح تعيينات الارتفاعات.

٤- أرصاد اختلافات البوصلة :

لسهولة إيجاد النجم القطبى عندما يكون السماء غير قاتم جداً أو محجوباً بالسحب احتجاجاً جزئياً ، وللحصول أيضاً على الانحراف التقريبى لنجوم الوقت لتعريف ذاتيتها، وضع التيودوليت دائماً فى خط الزوال المغناطيسى بواسطة بوصلته الحوضية، وقرئ الانحراف المغناطيسى للنجم القطبى على الدائرة الأفقية ، بعد رصد كل خط عرض، ولوحظ الوقت وبهذه الطريقة تعين انحراف البوصلة التقريبى ، لكل معسكر ، وكانت النتيجة كالآتى :

انحراف البوصلة

السلوم	ديسمبر	سنة ١٩٢٢	٣ ارصاد	٣٤´	٢°	غربا
سيوه	يناير	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	٤٢´	٢°	»
جغبوب	فبراير	سنة ١٩٢٣	٥ ارصاد	٢٥´	٢°	»
بالقرب من جالو	مارس	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	١٢´	٤°	»
جاو (العرج)	مارس	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	٥´	٤°	»
بوتافال بئر أبى الطفل	مارس	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	–	–	»
الحراش	مارس	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	٤٨´	٣°	»
تاج	ابريل	سنة ١٩٢٣	٦ ارصاد	٣٢´	٣°	»
اركنو	ابريل	سنة ١٩٢٣	٢ ارصاد	٢٥´	٣°	»
العوينات	ابريل	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	٣٢´	٣°	»
اردى	مايو	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	٥٧´	٣°	»
اجاه	مايو	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	..	٤°	»
عنيبه (انيياه)	مايو	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	٢١´	٤°	»
باو	مايو	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	٥٩´	°	»
الفوراوية	يونيه	سنة ١٩٢٣	٢ ارصاد	٣٢´	٤	»
ام بورو	يونيه	سنة ١٩٢٣	٢ ارصاد	٢٥´	٣°	»
الكتم	يونيه	سنة ١٩٢٣	١ ارصاد	٢٦´	٤°	»
الفاشر	يونيه	سنة ١٩٢٣	٢ ارصاد	٥١´	٢°	»

وبالطبع ، فإن طريقة تقدير انحراف البوصلة بواسطة التيودوليت هى تقريبية فقط. ولكن المقادير التى وجدت محتملة الصحة فى أغلب الأماكن بفرق قدره نصف درجة . وهى تبين أن ليس هناك أى احتمال لخطأ فاحش فى المقاس المباشر، نظراً للشذوذ المحلى لانحراف البوصلة. وعلى ذلك فقد استعملت فى تحويل انحرافات الترافوس للبوصلة إلى الانحرافات الحقيقية للجزء الأكبر من الطريق الذى لم يسبق وجود تعينات له ، والذى بناء على ذلك، لم يعرف بأى درجة من الدقة توزيع الخطوط المتساوية فى الاختلاف المغناطيسى.

٥- خطوط الطول

إن احتمال تلف بعض الساعات فى سفر سبعة أشهر قد أمكن التنبؤ به ، وظهر من أول الأمر عدم الاحتمال بأن هناك أية فائدة يمكن الحصول عليها من الساعات فى تعيين خطوط الطول، فى سفر طويل شاق كهذا . وعليه فقد رأينا التعويل كليا على المقاس المباشر لخطوط الطول، باذلين كل الجهد للحصول على سلسلة كاملة من انحرافات البوصلة، والمسافات المقدرة بين جغبوب وبعض الأماكن المعروفة فى السودان . ويجب أخذ الانحرافات ببوصلة جيدة بكل دقة ممكنة، وعلى مسافات متعددة. وتقدير المسافة يحسب يوميا من مدة سير جمال المهمات باعتبار معدل ٤ كيلو متر فى الساعة على طريق الصحراء، مع اعتبار اختلافات السرعة على أراض مختلفة الطبيعة. وابتدأت السياحة من الشمال إلى الجنوب. فلذلك كان من الواجب ضبط المسافات بواسطة خطوط العرض، بينما لم تتراكم أغلاط الانحراف ، وعندما كانت قابلة للتسوية من تلقاء نفسها، على أى طول كبير من الطريق. وكان السبب الأول فى أخذ ست ساعات لم يكن لايجاد خط الطول التى بها لم يستطع أكثر من إعطاء بعض مقادير قابلة للشك، وإنما للتأكد من وجود ساعة واحدة ، على الأقل تستمر على العمل طول مدة السياحة لرصد خطوط العرض ، إذ بدونها لايمكن إيجاد ضابط تام لمعرفة جميع المسافات الرئيسية.

ولقد برهن احتمال حصول التلف للساعات على صحة التنبؤ به، إذ تلفت جميع الساعات ماعدا واحدة . غير أنه لحسن الحظ ظلت هذه الساعة الواحدة مستمرة حتى نهاية السياحة، وأمكن بواسطتها تعيين خطوط العرض (ولو أنّ معدل سيرها لم يكن ثابتا على الكفاية . لأن يستعمل بدون ضابط فى إيجاد خطوط الطول) ومن الجهة الأخرى، اتبع بدقة البرنامج الخاص برصد سلسلة متواصلة من الانحرافات (زوايا الطريق) الدقيقة وبتقدير أطوال الطريق بين هذه الانحرافات من بدء القيام من جغبوب (آخر نقطة معروفة فى مصر) حتى الفوراوية (أول نقطة معروفة فى السودان) وهى مسافة ٢٤٣٠ كيلو متر . ومن هذه السلسلة المتواصلة

للانحرافات ، وتقدير الأطوال متحدة مع خطوط العرض المرصودة ، أمكن تقدير خطوط الطول لجميع المواقع على طول الطريق بدرجة عالية نوعا من احتمال الدقة.

ولتقدير خطوط طول جالو (العرج) اتبعت طريقة مخالفة قليلا عن تلك التى اتبعت فى مختلف المعسكرات الرئيسية على طول الطريق. ويرى الناظر إلى الخريطة أن اتجاه السير من جغبوب إلى جالو، كان من الشرق إلى الغرب بدلا من الشمال إلى الجنوب كباقى اتجاهات سير السياحة . وعليه لم تستطع خطوط العرض المرصودة أن تكون وسيلة صالحة لتصحيح المسافات المقدرة فى هذا الجزء من الطريق ، بخلاف الأجزاء الأخرى. ولكن لحسن الحظ ، ساعدنا خط العرض المرصود عند جالو، على تصحيح التقدير السابق، الذى أوجده حسنين بك فى سنة ١٩٢٠ عن بعد هذا المكان من الجيدابيه . وهذا مضافا إليه الانحرافات المرصودة وقتئذ ينتج منهما قيمة واحدة لخط العرض عند جالو.

على أننا إذا فرضنا صحة تقدير البعد بين جغبوب وجالو، أمكننا استعمال خط العرض المرصود عند جالو لتصحيح الانحرافات. وبذلك نحصل على مقدار آخر لخط الطول . ومن إمعان النظر فى جميع المعلومات الموجودة ، نجد أن الطريقتين متساويتان فى درجة الدقة . وتحديد موقع الجيدابية باعتبار خط عرض (١٠ً ٤٨َ ٣٠ْ شمالا) وباعتبار خط طول ٣٠ً ١٣َ ٢٠ْ شرقًا معرض لبعض الشك.

ولم يعلم أن هناك أرصاداً أخذت بدقة عن الجيدابية والموقع الذى بيُِّن هو نفس الموقع الذى اعتمدته فى تحضير خريطة سابقة عام ١٩٢١ وحصل عليه بتقدير ترافرس، عمل من مسافات وانحرافات عينت بواسطة استعمال الأوتوموبيل ، والبوصلة بمعرفة الكابتن وليمز من (زويتينه) فى سنة ١٩١٨ والانحرافات التى رصدت بمعرفة حسنين بك فى رحلته السابقة، ربما كانت أقل دقة من رحلته الحاضرة. ومن جهة أخرى، فإن تقدير المسافات من جغبوب إلى جالو كما استخرجت بواسطة الضبط بخطوط العرض عن الأجزاء الأخرى من الطريق تقرب جداً من الحقيقة . بينما يُحرك التصحيح المتساوى بمقدار نصف درجة فى زوايا الطريق المباشر بالضبط لموقع جالو ، حتى يقع على موازاة لخط العرض المرصود . ولقد اعتبرت خط طول جالو على الخريطة متوسط خطى الطول الذى وجد أولا باعتبار أن ،

أولا – انحرافات حسنين بك مضبوطة من الجيدابية ، مع تصحيح مسافاته بواسطة خطوط العرض.

ثانيا: مسافاته من جغبوب مضبوطة وباستعمال خطوط العرض المرصودة لضبط زواياه .

النتيجة

للحالة الأولى

من الجيدابية خط الطول عن جالو (العرج) (٤٨ً ٢٩َ ٢١°)

للحالة الثانية

من جغبوب خط الطول عن جالو (العرج) (١٩ً ٢٦َ ٢١°)

المتوسط المعتمد = (٣ً ٢٨َ ٢١°)

ومما يجدر بالذكر بهذه المناسبة ، أن النتيجة تُظهر جالو فى موقعها بالضبط المبين بخريطة رولفس سنة ١٨٨٠ والطريقة التى اتبعت بخطوط الطول المعتمدة للمعسكرات الأخرى على طول الطريق كالآتى :

قسّم الطريق إلى تسعة أجزاء بين المعسكرات المهمة الآتى بيانها، التى رصد فيها خط العرض وهى جالو - الحراش- تاج- اركنو - العوينات - اردى- اجاه - انيباه- باو- الفوراوية . ورسم ترافرس البوصلة عن كل قسم بمقياس $\frac{١}{\text{نصف مليون}}$ من واقع الانحرافات المرصودة ، والأطوال المقدرة. ورسم خط الزوال عن كل قسم من متوسط قراءات انحرافات البوصلة على طرفى الخط، وقيس مقدار الفرق الكلى عن خط العرض عن كل قسم، وقورن بالفرق الناتج من خط العرض من واقع الأرصاد . وهذه المقارنة أعطت بالطبع متوسط الخطأ فى تقدير المسافة على طول كل قسم، باعتبار أن الانحرافات مضبوطة . ونتيجة المقارنة عن الأجزاء المختلفة هى، كما هو مبين بالجدول الآتى :

تصحيحات عن المسافات المقدرة

جزء الترافوس	فرق خط العرض من واقع الرسم	الفرق الحقيقي لخط العرض من واقع الارصاد	الفرق فى خط العرض بين الرصد والرسم	تصحح المسافات المقدرة فى المائة
	كيلو متر	كيلو متر	كيلو متر	
جالو – الحراش	٣٧٥	٣٩٩	٢٤,٠	٦,٤
الحراش – تاج	١٣١,٥	١٣٤,٢	٢,٧	٢,١
التاج – اركنو	٢١٧,٧	٢٢٣,٧	٦,٠	٢,٨
اركنو – العوينات	٣٦	٣٧	١,٠	٢,٨
العوينات – اردى	٣٦٩	٣٦٣,٢	٥,٨	١,٦
اردى– اجاه	٧٥,٦	٧٩,٢	٣,٦	٤,٨
اجاه– انيباه	٥٧	٥٧,٥	٠,٥	٠,٩
انيباه – باو	٩٩	٩٧,٧	١,٣	١,٣
باو – الفوراوية	١٢٤,٢	١٢٢,٧	١,٥	١,٢

متوسط الخطأ للمسافات المقدرة = ٢,٦ ٪ فى المائة

وكانت أول خطوة بعد ايجاد متوسط الخطأ للمسافات المقدرة لكل جزء من الطريق، هى قياس فروقات إحداثيات خطوط الطول من الترافرس المرسوم، مع تصحيح الخطأ فى المسافات المقدرة، وتحويل فروقات إحداثيات خطوط الطول إلى فروقات . ولما تم ذلك، كانت نتيجة الفرق فى خط الطول بين جالو والفوراوية هى: (٥٥ ٢٥َ ٢ْ) وباعتبار أن خط الطول الحقيقى عن جالو هو ، كالموضح أعلاه ، وخط الطول الحقيقى عن الفوراوية هو كالمبين بخريطة بمقياس $\frac{١}{\text{ربع مليون}}$ من خرائط مساحة السودان سنة ١٩٢١ (انظر الملحوظة بهامش صفحة ٥) ينتج .

خط طول جالو ٣ ٢٨َ ٢١°

خط طول الفوراوية ١٠ً ٣٨َ ٣٥°

الفرق = ٧ً ١٠َ ٢°

وعلى ذلك يحتاج فرق خط الطول الذى وجد بالمقاس المباشر إلى التصحيح بمقدار (٤٨ً ١٥َ) . وهذا التصحيح يتضمن فرقًا فى الزوايا ، يقل مقدار متوسط الخطأ فيه عن درجة فى انحرافات البوصلة. ويتضمن أيضًا مقدارًا فى المسافات المعدلة يمكن التجاوز عنها. وقد وزع على جميع الترافرس بالنسبة لفروقات خط العرض بين المعسكرات الرئيسية. وعليه نجد فيما يلى مقادير خطوط الطول المعتمدة .

خطوط الطول المستنتجة

المقاس المباشر مصححا بخط العرض		التصحيح الآخر	خطوط الطول المستنتجة
جالو	– – – –	= –	٣ً ٢٨َ ٢١ شرقا
الحراش	٥ً ١٥َ ٢٢° شرقًا	١٠ً ٤َ	٥٥ً ١٠َ ° شرقا
تاج	٥ً ٢٩َ ٢٣° شرقا	٣٤ً ٥َ	٤١ً ٢٣َ ٢٣° شرقا
اركنو	١٠ً ٥٢َ ٢٤° شرقا	٥٥ً ٧َ	١٥ً ٤٤َ ٢٤° شرقا
العوينات	٣٤ً ٢َ ٢٥° شرقا	١٨ً ٨َ	١٦ً ٥٤َ ٢٤° شرقا
اردى	٣٤ً ٢٢َ ٢٣° شرقا	٥ً ١٢َ	٢٩ً ١٠َ ٢٣° شرقا
اجاه	٤٩ً ٢٨َ ٢٣° شرقا	٥٤ً ١٢َ	٥٥ً ١٥َ ٢٣° شرقا
عنيبه (انيباه)	٥٨ً ٢٧َ ٢٣° شرقا	٣٠ً ١٣َ	٢٨ً ١٤َ ٢٣° شرقا
باو	١٨ً ١٦َ ٢٣° شرقا	٣١ً ١٤َ	٤٧ً ١َ ٢٣° شرقا
الفوراوية	٥٨ً ٥٣َ ٢٣° شرقا	٤٨ً ١٥َ	١٠ً ٢٨َ ٢٣° شرقا

وعند محاولة تقدير الدرجة المحتملة للدقة عن خطوط الطول المستنتجة وجدت صعوبة إذ بينما نتحقق من أن متوسط الخطأ فى انحرافات البوصلة، كان أقل من درجة ، وهذا الخطأ تصحح فى التعديل، نجد أن ليس لدينا ما يثبت أن الخطأ فى الأجزاء المستقلة لم يتجاوز ذلك كثيراً . ولكن نظراً للعدد الكبير من أرصاد انحرافات البوصلة البالغ قدره ٣٣٩ الذى يُكوّن بيانات الاتجاهات عن ١٧٥٤ كيلو مترا من الترافوس من جالو إلي الفوراوية (أى متوسط ٣٨ انحرافًا مرصوداً عن كل قسم من التسعة الأقسام) ومع ملاحظة الدقة المتناهية فى تقدير المسافات، كما تعينت من أرصاد خط العرض ، يظهر أن أى خط من خطوط الطول المبينة بعاليه، لايحتمل خطؤه فى التقدير عن ثلاثة أو أربعة أميال . وهذا يتضمن درجة من الدقة كان من الصعب تحقيقها بنقل عدد كبير من الكرونومترات فى سياحة داخلية استغرقت أكثر من ثلاثة شهور. وأرى أنه يمكن الإجمال حينئذ بأنه لايمكن الحصول على نتائج لخطوط الطول أحسن من هذه بدون مساعدة إشارات الوقت اللاسلكية .

٦- الارتفاعات فوق سطح البحر

استعمل للتقدير البارومترى للارتفاعات فوق سطح البحر (انريد) بوصة ٢ً صناعة (استيورت) . وكانت هذه الآلة إحدى الاثنتين اللتين صنعتا خصيصًا لهذه الحملة ، لكى لايتأثرا من تقلبات الحرارة ، وجهزت بمقياس ضغط مفتوح ، يمثل المليمتر على مقياسه الحقيقى، ملليمتر ، كان فى الإمكان تقديرها . وقرئ البارومتر فى الصباح والمساء فى كل من المعسكرات، وفى نقط أخرى متعددة فى الطريق ودونت ، فى الوقت ذاته ، قراءات درجة حرارة الهواء بواسطة الترمومتر الذى يبين درجة الرطوبة . وقد أظهر البارومتر رضاء تامًا فى جميع أدوار الحملة. ولكن لسوء الحظ، لم تسنح هناك فرصة لاختبار الآلة قبل قيام حسنين بك. ولكنه كان بحالة جيدة عند نهاية الحملة. وقد اختبر بعد ذلك فى معمل مصلحة الطبيعيات فى مصر، ووجد أنه يحتاج إلى التصليحات الآتية فى درجة ٢٥ سنتيجراد .

الضغط بالمليمتر ٧٦٠ ٧٥٠ ٧٤٠ ٧٣٠ ٧٢٠ ٧١٠ ٧٠٠ ٦٩٠ ٦٨٠ ٦٧٠ ٦٦٠ ٦٥٠

التصحيح بالمليمتر - ٣,٢ - ٢,٣ - ٢,٣ - ٢,١ - ١,٤ - ١,١ - ٠,١ + ٠,٦ + ١,٧ + ٠,٢ + ٢,٨ + ٢,٩ .

وبقاء هذه التصحيحات ثابتة فى جميع أدوار السياحة محتمل جداً بالاتفاق التام المبين بصفحة (١٣) بين المنسوب الذى وجد عن جالو بقراءات البارومتر مباشرة (مصححًا) بالطبع

باعتبار ثبات الجدول الموضح أعلاه) وبين قيمة المنسوب ، كما تعينت من قراءات البارومتر الزئبقى فى محطة الأرصاد الجوية فى سيوه .

وكانت أول خطوة فى حساب منسوب البارومتر، هى جمع قراءات البارومتر والترمومتر، فى كل من المعسكرات التسعة التى صرفت فيها عدة أيام، وأخذت فيها عدة قراءات، واستخرج متوسط جميع الضغط المدون، ودرجات الحرارة عن كل من المعسكرات الرئيسة وصحح الضغط عن الخطأ الآلى من الجدول المبين أعلاه ، ونظراً لأخذ الأرصاد فى أوقات مختلفة من النهار، فالاختلاف اليومى عن الضغط يمكن إهماله ، حيث إنه يتلاشى عند أخذ متوسط القراءات . ولعمل حساب الاختلاف السنوى، يحوّل متوسط الضغط إلى متوسط ضغط السنة باستعمال تصحيح مبنى على الاختلاف السنوى العادى فى سيوه والأبيّض، كما هو مدون بكتاب (عاديات الطقسيات) الذى وضعته مصلحة الطبيعيات المصرية وموضح بالجدول الآتى.

جدول تصحيحات لتحويل متوسط الضغط الشهرى إلى متوسط الضغط السنوى بالمليمتر.

	يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونيه	يوليه
سيوه	-٣,٤	-٢,٠	-١,٩	+٠,٩	+٠,٩	+٢,٧	+٣,٥
الأبيّض	-١,٢	-٠,٧	+٠,٣	+١,٢	+١,٠	+٠,٦	-
المتوسط	-٢,٣	-١,٤	-٠,٨	+١,٠	+١,٠	+١,٦	+١,١

وكان من المرغوب فيه عمل تصحيح آخر للتوزيع على الأماكن ذات الضغط البارومترى ، المتساوى عند سطح البحر فى المنطقة التى اخترقت . ولكنه لم تتوفر البيانات لعمل هذا التقدير. غير أن هذا التوزيع، يحتمل أن يكون خطيا. وقد توزع بالتقريب باعتبار منسوب سيوه السابق (- ١٧) مليمتر والفاشر (٧٩٣) مضبوطا وتوزيع أى باق من الفرق بواسطة تصحيح قراءات البارومتر بين هذين المحلين، بالتساوى بين الأقسام المختلفة، وفرق الارتفاع المقابل لكل فرق لمتوسط قراءات البارومتر المصححة عمل حسابه من جداول " Barometris- che öhenstufen" فى كتاب "Jordan Mathematische und Geodatische Hulpta- feln" عن درجة حرارة الهواء المقابلة لمتوسط قراءات الترمومتر فى نهايتى الخط.

وكانت المناسيب المعتمدة عن ١٣ معسكراً، كما تعينت بالطريقة المبينة قبلاً . كما هى مبينة بالجدول بعد. ومما هو جدير بالملاحظة ، أن باقى فرق الارتفاع، الذى وزع بين سيوه والفاشر، والذى فرض أنه نشأ من ميل خط الضغط المتسلسل كان (٦٣) متراً وهو يعادل هبوطا عاديا

فى الضغط عند سطح الماء بين المحلين بمقدار (٥) مليمتر. من وجهة أخرى، فهذا محتمل قربه من الحقيقة، وأن التصحيح النهائى الذى عمل فى مناسيب أى جزء رئيسى من الطريق لايتجاوز ٥ أمتار.

الارتفاعات المستنتجة فوق سطح البحر

عدد الأرصاد	متوسط الضغط مصححا بالمليمتر	متوسط درجة الحرارة سنتيجراد	فرق الارتفاع من واقع جداول بالمتر	فرق الارتفاع مصححا بالمتر	الارتفاع فوق سطح البحر بالمتر
سيوه ٤	٧٦٢,٦	١٢	–	–	– ١٧
جغبوب ٥٠	٧٥٧,٧	١٥	+ ٥٤	+٤٩	+ ٣٢
جالو ١٨	٧٥٤,٧	١٧	+ ٣٤	+ ٢٩	+ ٦١
الحراش ٦	٧٣٢,٨	٢٣	+ ٢٥٤	+ ١٤٩	+ ٣١٠
تاج ٣١	٧١٨,٥	١٩	+ ١٧٠	+ ١٦٥	+ ٤٧٥
اركنو ١٢	٧٠٨	٣١	+ ١٢٨	+ ١٢٣	+ ٥٩٨
العوينات ١٤	٧٠٦,٣	٣١	+ ٢١	+ ١٨	+ ٦١٦
اردى ٧	٦٨٣,٣	٣١	+ ٢٩٥	+ ٢٩٠	+ ٩٠٦
اجاه ٣	٦٩٥,٢	٣٤	– ١٥٧	– ١٦٢	+ ٧٤٤
باو ٥	٦٧٧,٧	٣٣	+ ٢٣٠	+ ٢٢٥	+ ٩٦٩
الفوراوية ١١	٦٨٥,٨	٣١	– ١٠٧	– ١١٢	+ ٨٥٧
ام بورو ٨	٦٧٩,٥	٣٠	+ ٨٣	+ ٧٨	+ ٩٣٥
القطوم ٥	٦٦٠,٢	٢٤	+ ٢٥٤	+ ٢٤٩	+ ١١٨٤
الفاشر ٥	٦٨٩,٧	٣١	– ٣٨٦	– ٣٩١	+ ٧٩٣

بعد تحديد مناسيب المعسكرات الرئيسية ، عمل حساب المعسكرات المتوسطة ومحلات أخرى بنفس الطريقة، مع تصحيح كل جزء من المناسيب المعتمدة فى النهايات، وأقصى تصحيح كان يلزم لتطبيقه على فروقات الارتفاع ، الذى نتج من قراءات البارومتر بين نقطتين فى سفر يوم واحد، بلغ خمسة أمتار والمتوسط ثلاثة أمتار. واستثنى من ذلك المسافة بين جغبوب وجالو، حيث لم تعتمد مناسيب فى الطريق بينهما لعمل الخريطة نظراً لصعوبة وعدم ثبات حالة الجوّ مدة السفر بين هذين المكانين . وحدثت زوابع شديدة فى عدة أيام من السير، كان يصحبها اختلافات سريعة فى الضغط الهوائى، حتى إنه لم يمكن بالضبط الحصول على نتائج ارتفاعات من قراءات البارومتر .

وأما بخصوص درجة الاعتماد على المناسيب المستنتجة، فيحوم حولها شك، فى المناسيب المعتمدة على النقط النهائية، وهى سيوه والفاشر. بينما لم يُختبر تكافؤ الحرارة فى البرومتر. ربما لم يكن مضبوطا . وإذا اعتبرنا كل شئ ، فيمكن اعتبار المنسوب عن المعسكرات الرئيسة محتمل الصحة إلى ٢٠ متر، بينما المنسوب عن المعسكرات الوسطى والنقط الأخرى، التى أخذ فيها قراءة أو قراءتان للبارومتر، ربما كان الخطأ فيه ضعف هذه الكمية.

٧- ملخص المواقع الجغرافية الرئيسية والمناسيب

	خط العرض شمالا	خط الطول شرقا	الارتفاع عن سطح البحر بالمتر	ملحوظات
جغبوب المسجد	٢٩° ٤٤′ ٤١″	٢٤° ٣١′ ١١″	٣٢	أخذ الموقع المعين
جالو (العرج)	١٩° ٢′ ٢٣″	٢١° ٢٨′ ٣″	٦١	سابقًا بمعرفة الدكتور
بئر أبى الطفل	٢٥° ٥٤′ ٢٦″	٢١° ٥٤′ ١٥″	٩٨	بول
الحراش بئر زيغن	٢٥° ٢٦′ ٢٩″	٢٢° ١٠′ ٥٥″	٣١٠	
تاج (الكفرة)	٢٤° ١٣′ ٤٧″	٢٣° ٢٣′ ٤١″	٤٧٥	
بويمة الكفرة	٢٤° ١٣′ ٨″	٢٣° ٢٤′ ٤٠″	٤٠٠	ترافرس قصير
اركنو	٢٢° ١٢′ ٣٢″	٢٤° ٤٤′ ١٥″	٥٩٨	بالبوصلة منت من تاج
العوينات	٢١° ٥٢′ ٢٩″	٢٤° ٥٤′ ١٦″	٦١٦	
اردى (معسكر٨				
كيلومتر شمالى البير)	١٨° ٣٥′ ٣٩″	٢٣° ١٠′ ٢٩″	٩٠٦	
اجاه	١٧° ٥٢′ ٣٨″	٢٣° ١٥′ ٥٥″	٧٤٤	
(انيياه)	١٧° ٢١′ ٢٤″	٢٣° ١٤′ ٢٨″	١١٠٠	
باو	١٦° ٢٨′ ٢٤″	٢٣° ١′ ٤٧″	٩٦٩	خط الطول من خرائط
الفوراوية	١٥° ٢١′ ٥١″	٢٣° ٣٨ ١٠″	٨٥٧	السودان

٨- تكوين خريطة الطريق بمقياس ١/مليون

فى عملية استعمال المقاس المباشر فى تعيين خطوط الطول للمعسكرات الرئيسية، رصد الطريق احتياطيا بمقياس ١/نصف مليون مباشرة فى دفاتر الأرصاد، على سلسلة لوح يحتوى كل جزء منها على جزء من الطريق، وعلى رسم هذه اللوح، أضيفت المناسيب المحسوبة عن كل معسكر ، والمعالم الجغرافية تعينت بانحرافات فرعية على جانبى الطريق بمذكرات على

طبيعة الأرض، والأجزاء المختلفة التى رسمت احتياطيا بمقياس ١/نصف مليون صغرت بمقياس ١/٢مليون مع اعتبار الفروقات البسيطة فى توقيعات الرسم عن مقياس ١/نصف مليون

كما وقع من واقع خطوط العرض المرصودة. والأجزاء المختلفة المصغرة، توقعت على الخرط النهائية بين المواقع المعتمدة نهائيًا للمعسكرات الرئيسية.

ووجد عمليا بيان الطبيعة الجغرافية الرئيسية على الخريطة النهائية ولو أن المذكرات عن طبيعة الأرض، اضطر إلى اغفالها لعدم ازدحام الخريطة . ومع ذلك، فإن هذه المذكرات حفظت على خرائط قطاعية أصلية بمقياس ١/نصف مليون فى قلم مساحة الصحارى بمصر، حتى يمكن الرجوع إليها فى المستقبل ، بينما روحها أدمجت فى رواية حسنين بك عن هذه الرحلة.

ورسم الجزء الرئيس فى الطريق، وهو من جغبوب إلى الفوراوية، من واقع مذكرات حسنين بك اليومية ودفاتره. ونقلت الأجزاء الخاصة بالطريق من السلوم إلى جغبوب فى الشمال، ومن الفوراوية إلى الأبيض فى الجنوب، من واقع الخرائط الرسمية الحديثة، لمساحة مصر والسودان باعتبار أنها أدق من طريقة مساحة الطريق. وقد ساعد تحديد مواقع الحراش والتاج، من واقع أرصاد حسنين بك، على تحديد الطريق، فى رحلة حسنين بك السابقة مع المسز فوربز فى سنة ١٩٢٠– ١٩٢١ بطريقة أضبط عن الأرصاد الأصلية لتلك الرحلة التى لم تعزز بأرصاد فلكية. وقد حدد الطريق السابق من واقع تحديد المواقع الحديثة وتبين بخطوط مقطعة على الخريطة الجديدة.

٩- إضافات لمعلوماتنا الجغرافية نتيجة هذه الرحلة

جالو يتفق أول جزء قطعه حسنين بك فى طريقه من جغبوب إلى جالو بالطريق الذى قطعه رولفس فى سنة ١٨٦٩ وعند (جارماتان سيدى) فى منتصف الطريق بين جغبوب وجالو يتفرع الطريق . وقد اتبع حسنين بك الفرع الشمالى من الطريق المعروف بطريق «الزاوية» ، والذى يمر بآبار (هزيلا) ويتصل بجالو بطريق أقرب إلى الشمال، من الفرع الجنوبى المعروف بطريق المجابرة، الذى اتخذه رولفس. ويتفق الموقع الذى حدده حسنين بك بالموقع الذى حدده رولفس. ولكن هناك اهتماما خاصا فى تعيين منسوبها بمعرفة حسنين بك بمقدار ٦١ مترا فوق سطح البحر. وقد وجد رولفس عندما زارها سنة ١٨٦٩–١٨٧٩ أن البرومتر يبين منسوبًا أقل من سطح البحر فى سنة ١٨٦٩ ، وفوق سطح البحر سنة ١٨٧٩ . وبناء على ذلك، استنتج أن كل من «هزيلا» و«جالو» تقع عند سطح البحر (انظر مذكرات رولفس عن الكفرة سنة ١٨٨١

صفحة ٢٢٦) وتعتمد تعيينات حسنين بك على أرصاد البارومتر مدة عشرة أيام مع مقارنته بسيوه .

ومما يستحق الذكر، أن نفس المنسوب المستنتج لجالو هو ٦١ مترا، سواء أعملت المقارنة بالبارومتر المعيار فى محطة الأرصاد الجوية فى سيوه . فى نفس هذا الوقت أم من قراءات أخذها حسنين بك بنفس البارومتر فى ٤ أيام مختلفة فى سيوه قبل ذلك بشهرين (مع حال الاختلاف السنوى عن الضغط فى المدة بين الوقتين) . ولاشك فى دقة تعيينات حسنين بك، إذ لم تسمح الفرصة لقراءات رولفس أن تمتد مدة طويلة كهذه ومن المؤكد أنها لم تقارن فى نفس الوقت بمكان ذى منسوب معلوم. ومما يجدر ذكره أن المنسوب الذى يشير إليه رولفس. وذلك نظراً لإحاطة الرمال بالمنازل . وعليه شرع سكان العرج فى بناء منازلهم من جديد على أرض أعلى، وأخذت أرصاد حسنين بك على أحدث مسكن من هذه المساكن .

وهناك نقطة أخرى تستحق الذكر، وهى أنه ولو أن تعيينات حسنين بك، صار مراجعتها بالموافقة التامة بين الطريقتين المتبعتين فى المقارنة المذكورة آنفًا، فإن اختلافات الضغط المرصودة من يوم إلى يوم، عند جالو تزيد كثيراً عن سيوه فى نفس عشرة الأيام ، التى أخذت فيها الأرصاد وأكبر مدى أظهره البارومتر عند جالو كان عشرة مليمترات من معيار البارومتر فى سيوه. والسبعة مليمترات هى متوسط الضغط بين المحلين عن عشرة أيام المقارنة، والتى استعملت فى حساب المنسوب الجديد ، هى عبارة عن متوسط الفرق الذى يختلف من ١-١٢ مليمتر فى أيام مختلفة. والاختلاف الكبير للضغط الجوى عند جالو، يفسر عدم اتفاق نتائج رولفس فى تواريخ مختلفة ، إذ ربما له صلة بالزوابع الرملية التى يكثر حصولها فى هذه المنطقة.

بئر أبو الطفل (أو باتيفال كما سماها رولفس)

هى من الأهمية بمكان . لأنها آخر محل فى طريق القوافل التى تخترق الصحراء الوعرة بمسافة طولها ٤٠٠ كيلو متر حتى تصل إلى (زغين) . وموقع بئر أبو الطفل ، كما عينه حسنين بك يتفق بجالة جيدة مع الأرقام التى اعطاها رولفس (انظر Milt Afrik Geo Band II 1880-1881p. 17).

	خط عرض شمالا	خط طول شرقا	ارتفاع فوق سطح البحر
أرقام حسنين بك	٢٨° ٥٤′ ٢٦″	٢١° ٤٥′ ١٥″	٩٨
أرقام رولفس	٢٨° ٥٦′ ٢٢″	٢١° ٤٤′ ١٠″	٥٨
الفرق	١′ ٥٦″	– ١′ ٥″	٤٠

زغين (سرهن كما سماها رولفس)

وهى اسم للمنطقة التى بها عدة آبار، وليست آهلة بالسكان، وأهميتها تنحصر فى وقوعها فى طريق القوافل من جالو إلى الكفرة. والبئر الرئيس المستعمل للقوافل هو بئر الحراش . ولم يزر رولفس زغين، وإنما سافر من جالو إلى الكفرة بطريق أكثر غربا عن طريق (تيزربو) و(بوزيما) . والموقع المعين لزغين على الخريطة بنى تعيينه على أقوال مرشديه ، وهو على بعد ١٠٠ كيلو متر شرقا من الشمال الشرقى عن موقعيه.

وبما أن المسير لأى سائح من جالو إلى الكفرة فى المستقبل ينتظر تنفيذه فى الشتاء ، فى الوقت الذى فيه أهمية الوقود تلى أهمية المياه، فمن المهم أن يلاحظ أن أول أحطاب للوقود توجد على بعد ٣٤٢ كيلو متر بعد بير أبو الطفل وعلى بعد ٥٢ كيلو متر قبل الوصول إلى بئر الحراش . وفى حالة الطوارئ يمكن الحصول على المياه من (ماتان أبوحوش) وهو البئر القديم بزغين الذى يبعد ١٨ كيلو مترا قبل الوصول إلى الحراش . ولكن الحراش مياهها ألطف، وهى المركز المعتاد الذى ترده القوافل . ويمكن الحصول فيه على المياه بدون حفر. وعلى ذلك، فالقوافل إن لم تكن فى شدة الظمأ ، تفضل الذهاب إلى الحراش عن الوقوف عند البئر القديم. ويمكن الحصول على أحسن مياه فى جوار الحراش بالحفر إلى عمق (٣) و (٤) أقدام وتبعد الحراش عن بوزيمة بمقدار ٥٤ كيلو متراً فى اتجاه منحرف قليلا شرقا عن الجنوب، وتبعد الحراش عن التاج، وهى أهم مدينة فى إقليم الكفرة بمقدار ١٨٠ كيلو متر فى اتجاه جنوب شرقى.

تيزربو

وهى أقصى واحة فى إقليم الكفرة ، من الجهة الشمالية الغربية ولم يزرها، كما هو معلوم أحد من السواح منذ أيام رولفسن وموقعها، كما عينه حسنين بك، يقع بين درجتى ٧٠° و ٨٠° غرب شمال الحراش، على بعد بين ٦٠, ٧٠ كيو متر . وهذ التعيين يضع تيزربو فى الموقع الذى عينه رولفس . وموقع معسكر رولفس عند قصر (جيران جدى) ربما كان يقرب من الحقيقة،. ولو أنه محتمل كون الواحة فى الحقيقة أقل حجما عما بينها فى خريطته.

بوزيما

ولو أن بوزيما لم يطرقها حسنين بك فى هذه الدفعة، إلا أن تعيينه لموقع الحراش، بالاتفاق مع ترافوس البوصلة التقريبى لموقع بوزيما عند سياحته مع المسز فوربز سنة ١٩٢١ يسمح لتعيين موقعها على درجة متوسطة من التقريب . وتقديرات حسنين بك عن المسافات

والانحرافات فى سياحته السابقة ، صار تصحيحها بمقتضى خطوط العرض المرصودة عن الحراش وتاج، والتى تعين موقع معسكره فى بوزيمه على بعد ٦٠ كيلو متر من الحراش فى اتجاه خمس درجات شرقا من الجنوب الحقيقى. ومن معسكره إلى معسكر رولفس (عين النصرانى) يبلغ ١٥ كيلو متر تقريبًا فى اتجاه غربى من الشمال الغربى الحقيقى ، وباعتبار تعيين حسنين بك الحديث لموقع الحراش، يعين موقع معسكر رولفس على بعد ٣٠ كيلو مترا عن موقعه فى الاتجاه الغربى نحو الجنوب ، حسب ما عينه رولفس، كما يتبين من المقارنة الآتية :

	خط عرض شمالا	خط طول شرقا
بوزيمه (معسكر رولفس من ارصاد اشتيكر)	٢٥° ١١′ ٤٢″	٢٥° ١٥′ ٠″
بوزيمه (معسكر رولفس من تقدير حسنين بك)	٢٤° ٥٨′ ١١″	٢٢° ٥٤′ ٤٦″
الفرق	. ١٣′ ٣١″	. ٩′ ١٤″

ويتعذر القول بإمكان خطأ حسنين بك بمقدار ٢٥ كيلو متر فى تقديره السابق، لبعد يوزيمه عن الحراش. ولذا نرى حقا اعتبار حصول خطأ إما فى أرصاد اشتيكر أو فيما هو أكثر احتمالا فى تحويله لهذه الأرصاد . وهذه النقطة سيشار إليها فيما بعد عند المناقشة على موقع بويمه .

الكفرة (كبابو كما سماها رولفس)

اسم الكفرة الآن لايطلق ، على العموم ، على جميع واحات الكفرة ، كما فعل رولفس فى سنة ١٨٧٩ ولكن بصفة خاصة يطلق على الجزء الذى أطق رولفس عليه اسم كبابو . ومقر الحكومة المحلية والمستعمرة الرئيسة، هى المدينة ذات الأسوار المسماة تاج ، الواقعة على قمة جبل صخرى يشرف على أودية الصحراء الحقيقية، التى تقع فى الجنوب. وتشمل القرى جوف - بومه- بويمه- الزروق - الطلاليب - الطلاب. وقد أجرى حسنين بك خط العرض عند تاج وتقدم بنحو (٣) كيلو متر على انحراف (١٦°) درجة غربا من الجنوب إلى جوف . ومن هناك أجرى تقديرات مضبوطة عن البعد والانحراف عن باقى قرى الواحة ، وبها تمكن من توقيع مواقعها النسبية على الخريطة ، بدقة أقرب إلى الحقيقة من ذى قبل.

وتعلق أهمية عظمى بومه أقصى القرى شرقا فى إقليم الكفرة. لأنه عسكر هناك اشتيكر ورولفس، ورصدا خط الطول والعرض سنة ١٨٧٩ وقد عين حسنين بك بويمه على بعد ٢ كيلو متر من تاج فى اتجاه شرقى من الجنوب الحقيقى . وباعتمادنا تعيينه لموقع تاج، نحصل على المواقع الآتية لبويمه عند مقارنتها بأرقام رولفس.

	خط عرض شمالا	خط طول شرقًا
بويمه كما عينها حسنين بك	٢٤° ١٣´ ٨˝	٢٣° ٢٤´ ٤٠˝
بويمه كما عينها رولفس (انظر (mitt afrik Ges ., Band; 1880-1882, p. 25)	٢٤° ٣١´ ٣٨˝	٢٣° ١٢ ٤٠˝
الفرق	– ١٨´ ٣٠˝	– ١٢´

وعلى ذلك ، عين حسنين بك موقع بويمه بمقدار ٤٠ كيلو متر إلى جنوب الجنوب الشرقى من الموقع الذى عينه رولفس من واقع أرصاد استيكر.

وأهم ما فى هذا الاختلاف الكبير ، أنه يقع فى خط العرض الذى رصد مباشرة بمعرفة اشتيكر، عند بويمه نفسها وبمعرفة حسنين بك فى تاج على بعد ٢ كيلو متر من بويمه . ولم استطع شخصيا العثور على أى تفاصيل لأرصاد اشتيكر ، اللهم إلا أنه أجريت بواسطة دائرة منشورية ، ولكنى عرضت بيانات حسنين بك الأصلية عن أرصاده ، عن الوقت وخط العرض فى تاج ، إلى التمحيص الدقيق، فوجدت برهانا قاطعا أن خط العرض الذى عينه لايتجاوز الخطأ فيه ١ دقيقة واحدة. وقد رصد ارتفاع النجم القطبى عند تاج فيما لايقل عن ٦ ليالى مختلفة بساعة خطؤها بالنسبة للوقت المحلى، كان معروفا بالضبط بأرصاد على الشمس والنجم، أجريت فى نفس هذه التواريخ . ومن الفحص العميق للأرصاد ، لايتجاوز الشك فى خطأ الساعة التى رصد بها النجم القطبى عن ٢ ثانية فى الوقت . وهذا الخطأ بالطبع لايؤثر فى تعيين خط العرض. ومما يؤكد أن النجم المرصود هو النجم القطبى، هو الانحراف عن الشمال المغناطيسى، وكذلك معدل سيره فى حركته الظاهرة .

وأكبر فرق فى خط العرض المرصود عن المتوسط فى أرصاد ست الليالى لم يتجاوز ١٥ ومتوسط اختلاف أى رصد فردى عن المتوسط يبلغ ١٢ . وعلى ذلك، فخط عرض تاج، كما عينه حسنين بك هو (٤٧˝ ١٣´ ٢٤°) يمكن اعتباره صحيحا بفرق قدره ١´ . وحيث إنه لايوجد مجال فى خطأ بهذا القدر فى تقدير مسافة بويمه من تاج . فليس هناك محل للشك بأن خط عرض بويمه، الذى عينه رولفس، هو أكبر بمقدار نصف درجة ومن المدهش أن يلاحظ أن الاختلاف فى حاله بوزيمه الذى يبلغ ٣١˝ ١٣´ بين خط عرض رولفس وخط العرض المستنتج من أعمال حسنين بك الحديث، هو من نفس الدرجة والعلامة الجبرية ، مثل الفرق الذى وجد فى بويمه. وأن تصحيحا سلبيا مساويا فى القدر لنصف قطر الشمس، يجعل فى كل حالة نتائج كلا الراصدين متفقة تقريبًا. ويعزى تفسير ذلك إلى أن اشتيكر عين خط العرض برصد

الحافة العليا من الشمس ظهراً . وفى كل رصد من أرصاد بوزيمه وبويمه أغفل تصحيح الارتفاع المقاس عن نصف قطر الشمس . وبذلك جعل خط العرض أكبر من الحقيقة بمقدار (١٦َ) . وخطأ مثل هذا كما يعلم كل سائح علمى، يسهل وقوعه فى أرصاد أجرى تحويلها بسرعة فى الموقع. وفى الوقت الذى أجرى فيه اشتيكر أرصاده وعمليات حسابه فى الكفرة كان هو وقائده عرضة للخطر المحقق من ضياع أرواحهما بأيدى البدو. وتعزى مثل هذه الأسباب ، لدرجة كبيرة فى اختلافات خطوط الطول فى كلا المحلين.

وبناء على تعيينات حسنين بك يقع معسكر رولفس فى بوزيمه، على خط طول أكثر شرقا من خط الطول الحقيقى بمقدار ٩َ . ويقع معسكره فى بويمه أكثر غربا من خط الطول بمقدار ١٢َ . وما علينا إلا أن نفرض أن اشتيكر ، رصد حافة الشمس السفلى فى الصباح فى بوزيمه والحافة العليا بعد الظهر فى بويمه لإيجاد الوقت المحلى. وفى كلتا الحالتين أغفل تصحيح الارتفاع المرصود بمقدار نصف القطر. وبذا يمكننا أن نعلل تماما كلا الاختلافين فى خط الطول.

ومما يدعو إلى الحيرة فى تفسير الخطأ فى خريطة رولفس ، هو أن رولفس قطع المسافة بين بوزيمة وبويمة وقدرها بمقدار ١٢٠ كيلو متر (انظر Mitt. Afrik Ges Band; 1880-1881 p. 23) .

بينما عين حسنين بك هذه المسافة بزيادة ٤٠ كيلو متر . وبما أن أقوال رولفس عن المسافة كتبت بعد ما تعينت المواقع فلكيا ، فمن المحتمل أنه حصل على البعد ١٢٠ كيلو متر بالحساب من واقع الأرصاد الفلكية لاغيا التقدير التقريبى، الذى ربما يكون قد قدره من واقع زمن سيره. واعتبر كل من حسنين بك ومسز فوربز أن المسافة الحقيقية، كانت أكثر من ١٢٠ كيلو متر حينما قطعاها فى سنة ١٩٢١ ولكن بما أنهما لم يعينا المواقع بالرصد ، فبقى من المشكوك فيه ، ما إذا كان هناك خطأ فى تعيين مواقع بوزيمه وبويمه على خريطة رولفس. ولكن الآن برهن عمليا أن كلا هذين الموقعين على خريطة رولفس كانا خطأ.

وأما بخصوص منسوب الكفرة، فمن الباعث للارتياح اتفاق أرقام حسنين بك مع أرقام رولفس. وقد أعطت قراءات حسنين بك للبارومتر جنوب جوف عند (عزيله) أن الارتفاع عن سطح البحر، هو ٣٨٩ متر. ويقدر أن بويمه تقع أعلى من ذلك بعشرة أمتار، فيكون ارتفاع بويمه نحو ٤٠٠ متر عن سطح البحر. وهذا الرقم يتفق مع رقم رولفس . وبنى التاج على قمة جبل شمال جوف منذ أيام رولفس ، وعين ارتفاعها بمقدار ٤٧٥ مترا فوق سطح البحر، من سلسلة قراءات البارومتر فى خلال أسبوعين .

أما القرى الواقعة على حدود الكفرة فى شمال تاج، فهى منخفضة عن تاج نفسها ، غير أنها أعلى بقدر محسوس عن باقى القرى الجنوبية فى اقليم الكفرة وتعلو عوازل بمقدار ٤٣٤ متر عن سطح البحر ، وكذلك الهوارى والهواويرى يقعان فى نفس المستوى. وهناك اتفاق تام لدرجة ما فى تقدير اتساع الكفرة من الشمال إلى الجنوب .

أما خريطة رولفس فتجعل فرق خط العرض بين الهواويرى والطلاب بمقدار ٣٥ كيلو متر بينما حسنين بك يعين ذلك بمقدار ٣٠ كيلو متر. ولكننا عند معالجة اتساع البلدة من الشرق إلى الغرب، نجد فرقا فاحشًا ، فإن رولفس يقدر الاتساع من الشرق إلى الغرب بين بومه والطلاب بمقدار ٤٠ كيلو متر بينما حسنين بك يقدره بمقدار ٢١ كيلو متر. وبما أن رولفس يظهر أنه عين مواقع كثير من القرى استنادا على أقوال العرب، وليس على تقديره الشخصى الدقيق، كما فعل حسنين بك، فلا حاجة لنا للتردد فى اعتماد المواقع النسبية التى عينها حسنين بك، باعتبارها أقرب إلى الصواب. ويستنتج من خريطة رولفس أن الامتداد شرقا وغربا هو ضعف الحقيقة.

والخطأ فى الامتداد شرقا وغربا (بقدر ما يخص تعيين مواقع القرى وليس فى تقدير اتساع الزراعة) هو أكبر على الخرائط التى عملت بمعرفتى وطبعت بمعرفة مسز فوربز سنة ١٩٢١ (انظر . Geographical Journal vol . 68 (1921) p. 248) .

وهذا يرجع إلى أن المسافة بين جوف والطلاب بولغ فى تقديرها عن الرحلة السابقة . فقد أعطيت لى بمقدار ٤٢ كيلو متر ، بينما هى تبلغ بحسب تقدير حسنين بك الأخير ٢٠ كيلو متر. ومما يلفت النظر عند مقارنة حسنين بك الأخيرة عن قرية الكفرة بالخريطة التى نشرت بمعرفة مسز فوربز ، هو أن عزيله واقعة فى الثانية جنوب جوف ، بينما تقع فى الخريطة القديمة التى عملت من واقع بيانات حسنين بك وكروكياته فى شمال الهواويرى. ويعلل ذلك إلى وجود بلدتين باسم عزيله، وهذا الاسم يطلق محليا على أى بئر متعزل يحاط عادة ببعض النخيل. ويعتبر آخر مورد مياه القوافل عند مغادرتها الواحة. وعلى ذلك، فالعزيلة الشمالية هى آخر بئر للسائح من الكفرة إلى الشمال الشرقى نحو جغبوب. والعزيلة الجنوبية هى آخر بئر فى الكفرة لأى سائح متوجه نحو واداى.

ومن العزيلة الجنوبية فى الكفرة إلى اركنو ٢٦٦ كيلو مترا فى اتجاه جنوب شرقى . ولاتوجد مياه ولامرعى فى الطريق. ومن اركنو إلى العوينات مسافة ٤٢ كيلو متر فى اتجاه أميل بقليل إلى الجنوب.

واحتا اركنو والعوينات

لقد كان من أهم النتائج التى حصل عليها حسنين بك هو إثبات حقيقة وجود واحتى اركنو والعوينات وتعيين موقعيهما وارتفاعهما بالضبط تقريبًا . فلقد كان هناك رواية متداولة بأنه يوجد واحتان فى أو بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للقطر المصرى . حتى إن خريطة أفريقيا بمقياس ١/٤ مليون التى نشرها (Justus Perthes) . فى جوتا سنة ١٨٩٢ تبين واحة صغيرة غير مسماة وبئرا فى خط عرض (٥١َ ٢١ْ) وخط طول (٣َ ٢٣ْ) وواحة أخرى لايسكنها أحد وغير مسماة على بعد ٤٨ كيلو متر إلى الشرق فى خط عرض (٥٠َ ٢١) وخط طول (٢٩َ ٢٣) وكلتا الواحتين، وضعتا على الخريطة بلاشك من أقوال العرب الشائعة . ويظهر أنهما لم يطرقهما أى رحالة من قبل.

وفى الحقيقة كان وجودهما محتمل الشك جدا حتى إنهما لم يبينا على الخرائط الحربية الإنجليزية أو الفرنسية . وإنى لم أستطع العثور على بيانات نشرت عن وجود واحة اركنو، ولكنى وجدت ذكر واحة العوينات فى إحدى الرسائل الحديثة، التى كتبها هاردنج كنج ، والقائم مقام تلهو (Lieut . Col. Tilho) . وفى رسالة هاردنج كنج سنة ١٩١٣ (فى المجلة الجغرافية مجلد ٤٢ صفحة ٢٤٢) عند كلامه « على صحراء ليبيا عن لسان أهليها» يقول : «إنه سمع عن محل يسمى عوانه أو عوانات فى منتصف الطريق من (مرجا) إلى «الكفرة) وبها بئر ومراعى خضراء على أثر الأمطار . وبالخريطة التى كانت ملحقة بهذه الرسالة قدر الموقع المحتمل لهذه الواحة على خط عرض (٣٧َ ٢١) وخط طول (٤٥َ ٢٤) وتختلف بمقدار ١٣٠ كيلو متر عن أقرب الواحتين ، كما بينت على الخريطة الألمانية المذكورة . ويقول القائم مقام تلهو الذى أجرى استكشاف تيبستى واردى ويركو وعنيدى فى سنة ١٩١٢-١٩١٧ أن منطقة العوينات التى لاتزال مجهولة تقع بالتقريب بين ٢٢ و ٢٣ من خط العرض شمالا وبين ٢٤ و ٢٥ من خط الطول شرقا. وعلم أن هناك طريقا بين العوينات ومرجا (انظر مجلد ٥٦ صفحة ٩٨ سنة ١٩٢٠) .

أما أرصاد حسنين بك فعينت الموقع لمعسكره وارتفاعه عن سطح البحر فى اركنو والعوينات كما يأتى:

	خط العرض شمالا	خط الطول شرقا	الارتفاع عن سطح البحر
اركنو	٢٢ْ ١٢َ ٣٢ً	٢٤ْ ٤٤َ ١٥ً	٥٩٨
العوينات	٢١ْ ٥٢َ ٢٩ً	٢٤ْ ٥٤َ ١٦ً	٥١٦

وعلى ذلك ، فالعوينات تكون ٢٤ كيلو متر أبعد مما قدرها هاردنج كنج من واقع أقوال مرشده. ولكنها تقع خارج الحدود الواسعة فى خط العرض التى حددها القائمقام تلهو وتبعد بمقدار ١٥٠ كيلو متر عن الموقع الذى توقع على الخريطة الألمانية ، تحت اسم «الواحة التى لايسكنها أحد» بينما أركنو التى هى الواحة الصغيرة الواقعة غرب الواحة التى لايسكنها أحد، قد ثبت الآن أنها تبعد بمقدار ١٨٠ كيلو متر عن الموقع الذى تعين على الخريطة الألمانية.

ويلاحظ أن اركنو هى فى داخل الحدود المصرية، بينما تقع العوينات على مسافة قصيرة داخل حدود السودان الإنجليزى المصرى.

وأهم ما فى تلك الأماكن ، أنها تفتح مجالا لاستكشاف الزاوية الجنوبية الغربية للقطر المصرى، التى لم تصلها للآن الدوريات العسكرية ولا أجرأ المستكشفين. نظرا لعدم توفر أى معلومات أكيدة عن وجود موارد المياه المستديمة ومواقعها . والآن وقد بيَّنت بالضبط مواقع أركنو والعوينات ، وعرفت مواقع موارد المياه الصالحة للشرب ، بكميات معقولة ، فقد أصبح من الممكن على أى رحالة من مصر أن يصلها ويحصل على المياه اللازمة له فى عودته.

ولكنى لازلت أقول : إن الوصول إلى اركنو والعوينات من مصر ، ليس من السهل ، نظرا لوجود صعوبات عظيمة ولو أن كلا الواضعين للخريطة الألمانية ، والمستر هاردنج كنج، علم لهم أنه يوجد طريق قديم من مصر يصل إلى العوينات . ومن أقوال مرشد المستر هاردنج كنج أنه يوجد طريق من الواحة الداخلة بطول ٦٠٠ كيو متر يخترق صحراء بلا ماء وعلى ذلك، تكون الرحلة بين المكانين متعذرة على الجمال ، حتى فى فصل الشتاء ، بينما صلاحية الأرض لمرور السيارات ، وخصوصا فى المنطقة الجبلية حول الواحات ليست معلومة للآن.

وأهم ما يذكر عن طبيعة إقليمى اركنو والعوينات أن أرضهما ليست منخفضات طبيعية تستمد ماءها من مياه الرشح فى قاع الأرض ، كباقى واحات صحراء مصر الغربية ، ولكنها مناطق جبلية تستمد ماءها من مياه الأمطار المحلية التى تتجمع فى أحواض صخرية .

ووادى النيل فى خط العرض نفسه لاتوجد فيه تقريبا أى أمطار، ولكن هناك على بعد ٧٠٠ كيلو متر غربا فى الصحراء تنزل فيه أمطار كافية أن تكون موردا مستمرا وإن كان محدودا (وفى العوينات فهو كاف بحاجيات مستعمرة يسكنها ١٥٠ بدوى) وفى وقت ما من السنة تنبت الحشائش لمرعى الحيوانات فى الوديان المنخفضة . ومستوى الأرض فى هذه المنطقة ٦٠٠ متر فوق سطح البحر، ولكن الجبال المجاورة للواحة تعلو ١١٠٠ متر عن سطح البحر. ومن الصعب أن يكون هناك شك فى العلاقة بين الأمطار وبين نظرية تأثير الجبال ، حيث إن الجبال

تجذب السحب أو تساعد فى تكوينها . وبهذه المناسبة يجدر بالذكر أن عدم وجود الزرع فى الأراضى المستوية البعيدة فى الجنوب ، كما فى الأراضى التى فى الشمال، يبرهن على أن سقوط الأمطار فى المناطق غير الجبلية أقل منه فى المناطق الجبلية حول هذه الواحة.

ولو أنه نادر فى صحراء مصر الغربية، إلا أن هذه الأحواض الصخرية معتاد وجودها فى الصحراء الشرقية بالقرب من البحر الأحمر، حيث تسمى (Galts) انظر كتابى عن جغرافية وجيولوجية صحراء مصر الشرقية سنة ١٩١٢ صفحة ٢٤٠ - ويكون وجودها فى اردى وعنيدى من منطقة أفريقيا الفرنسية الاستوائية ، كما نعلم ، من اكتشاف تلهو وحسنين بك.

وإن العوينات التى فيها جبال أعلى من اركنو بها مياه أحسن وأغزر. وأحفظ مياه طول مدة الجفاف محكوم بعضه بطبيعة الصخور التى تتكون منها الجبال، والتى لاتتسرب منها المياه ، وبعضه بوجود البرك المشتترة، تحت حماية الصخور، فى أوعية صخرية تقلل من التبخر.

وكان امتداد جبال اركنو والعوينات لايزال مجهولا ، ولكنها نحو ١٠٠٠ كيلو متر مربع. وطريق حسنين بك واقع غرب السفح الغربى لهذه الكتل ، حتى إن حدودها الغربية تحققت، وكذلك امتدادها الشمالى والجنوبى. ولكن حدودها الشرقية فى مصر لاتزال مجهولة . ومما فيه ريب ، وجود سلسلة من التلال تربط الكتلتين من الجبال ببعضها شرقًا. وأجرى حسنين بك استكشافًا يمتد ٤٠ كيلو متر شرق معسكره فى العوينات ، دون أن يصل إلى نتيجة الكتلة الجبلية. ويمكن رؤية الجبال على مسافات بعيدة من الشمال والجنوب. وقد أمكن رؤية أركنو على بعد ٦٠ كيلو متر من الشمال، والعوينات بقيت مشاهدة على الأقل على مثل هذه المسافة من الجنوب فى الطريق. ويحتمل أن لاتكون هذه الجبال ظاهرة للرحالة من جهة الشرق، نظرًا إلى تكوينها من عدة تلال صغيرة ، غير متصلة ببعضها ، والأرض فى هذا الطرف عالية وتنحدر بالتدريج نحو النيل. وسيبقى هذا غير معلوم إلى أن يحدث اكتشاف آخر.

ومسافة السفر من العوينات إلى آبار أردى تبلغ ٤٣٠ كيلو متر فى اتجاه نحو الجنوب الغربى . وتقع الـ ٢٨٤ كيلو متر الأولى منها فى حدود السودان المصرى الإنجليزى، والـ ١٤٦ كيلو متر الباقية تقع فى حدود أفريقيا الاستوائية الفرنسية. ولايوجد على طول هذا الطريق مياه قط. ولكن يجد الإنسان من حين لآخر ، بقاعًا بها حشائش جافة، وذلك فى النصف الأخير من الطريق.

وقبل الوصول إلى أردى بنحو ٢٥ كيلو متر، كانت الأودية مكسوة بالحشائش الخضراء . وعلى ذلك، فالحد الشمالى لمنطقة الأمطار الاستوائية ، هو بالتقريب خط عرض (٥٠َ ١٨ْ) .

أردى

يظهر أن أردى تطلق على منطقة واسعة تمتد من خط طول ٢١ْ إلى خط طول ٢٤ْ شرقًا وترتفع تدريجيًا نحو الجنوب، وتنتهى بجرف متقطع شرقًا وغربيًا فى خط عرض (٣٠َ ١٨ْ) . ومنبع المياه الذى زاره حسنين بك، والذى عرفه مرشده ببئر أردى ، يقع فى خط عرض (٣١َ ١٨) هو وخط طول (١٠َ ٢٣ْ) ويعلو عن سطح البحر بمقدار ٩٥٨ مترًا . وهذا ليس ببئر، وإنما هو بركة صخرية مشابهة لآبار اركنو والعوينات ومياهه جيدة. وبئر أردى التى زارها حسنين بك قريبة من المنطقة المبينة على خريطة القائمقام تلهو سنة ١٩٢٠ تحت اسم «أرديما». ويظهر أنه بنفس العين التى زارها ذلك الرحالة.

ويقع بئر أردى على رأس واد صغير تنصرف مياهه نحو الشمال، ويضطر الإنسان إلى صعود التلال إلى ارتفاع ١٠٢٠ مترًا فوق سطح البحر ، ثم يعبر سهلا متقطعًا قبل الوصول إلى مصارف المياه الجنوبية التى تنتهى بالجرف . وقد تقدم حسنين بك مخترقًا هذا السهل فى اتجاه جنوبى شرقى ، هابطا من الجرف عند خط عرض (٢٥ ١٨ْ) وخط طول (٢٠َ ٢٣ْ) ومنسوب قدم الجرف هو (٧٩٠) مترًا فوق سطح البحر فيكون الجرف على ارتفاع ٢٣٠ مترًا.

وبعد الهبوط من جرف أردى ، اتبع حسنين بك طريقه نحو الجنوب إلى أجا مخترقًا المنخفض الرملى العظيم، الذى يفصل سهول أردى عن عنيدى (على بعد ٨٨ كيلو متر من معسكره فى شمال آبار أردى) . يظهر أن هذا الطريق، كان محاذيًا بالتقريب للطريق الذى اتبعه القائمقام تلهو سنة ١٩١٤ وعلى بعد ٢٠ كيلو متر منه شرقا.

اجاه

منبع مياه اجاه هو بركة صخرية تشبه منبع اردى، ولكن المياه رديئة لتلويثها بالحيوانات . وتبعد البركة ٦ كيلو متر فوق سطح واد ينتهى نحو الشمال بجرف يواجه جرف اردى. وموقع البركة فى اجاه يقع على بعد ٢٤ كيلو متر من ينابيع اجاه التى بينها القائمقام تلهو على خريطته. ومن المحتمل تعدد البرك والينابيع فى المنطقة المجاورة وبين هذه التلول. وكلها يطلق عليها هذا الاسم، وهذا مما يفسر الفرق الظاهر. والطريق من اجاه إلى أنيباه يبلغ ٦٥ كيلو متر ويتبع خطا متكسرًا .

وعلى العموم فى اتجاه جنوبى. ويصعد الطريق فى العشرة كيلو مترات الأولى الوادى، وبعد ذلك يعلو بسرعة حتى يصل إلى ارتفاع فوق ١٠٠٠ متر عن السهل.

انيباه - (عنيباه)

هى مستعمرة صغيرة للبدو بها بئر مياهه تبعد نحو ٢٨ كيلو متر شرقا عن آبار كيته المبينة على خريطة القائمقام تلهو على نفس السهل العالى. ومن أنيباه إلى باو مسافة ١٢٠ كيلو متر متكسر جداً فى اتجاه جنوب الجنوب الغربى على سهول تلية غير مستوية . ويلغ أعلى ارتفاع دونه حسنين بك نحو ١١٨٤ مترا فوق سطح البحر وقد وصل إليه فى نقطة على الطريق تبعد ١٨ كيلو متر عن انيباه . وهذا الارتفاع البالغ ٣٨٨٤ قدما هو أعلى بقليل من ٣٦٠٠ قدم التى دونها القائمقام تلهو كأعلى ارتفاع بلغه على نفس سهل ارديبه فى نقطة أكثر غربا ويحتمل أن هذا السهل يأخذ فى زيادة الارتفاع نحو الشرق. وقد عبر وادى (كابتاركو) على بعد ٤٧ كيلو متر بعد ذلك . ومما يجدر بالذكر، أن بيانات حسنين بك عينت موقعا لهذا يقرب جدا من كابتاركو المبين على خريطة القائمقام تلهو.

باو

باو التى زارها حسنين بك هى ليست بو التى زارها القائمقام تلهو والتى تقع على بعد ١٠٠ كيلو متر أكثر شمالا . ولكن هى المكان المعروف باسم(أوروبو) الواقعة على خريطة تلهو و (باو) على خريطة واداى ودارفور التى أرفقت بالاتفاقية الانجليزية الفرنسية فى باريس سنة ١٩١٩ ، كما يتضح من المقارنة الآتية عن المواقع المعينة بمعرفة حسنين بك. والمقاسة من الخرط هن المحلين المذكورين

	خط عرض شمالا	خط طول شرقا
باو (حسنين بك)	١٦° ٢٨´ ٢٤´´	٢٣° ١´ ٤٧´´
اوروبو (تلهو)	١٦° ٣٠´ ٠٠´´	٢٢° ٥٩´ ٠٠´´
باو (خريطة الاتفاقية)	١٦° ٢٨´ ٠٠´´	٢٣° ٤´ ٠٠´´

وتقع آبار باو عند رأس الوادى الذى يصرف مياهه شمالا وتكثر فيه الشجيرات والأشجار وبه عدة آبار مستديمة. ولو أن المياه تقل فى فصل الجفاف ويضطر حينئذ إلى تعميقها . والطريق من باو إلى الفوراوية يبلغ ١٤٥ كيلو متر فى اتجاه جنوب الجنوب الشرقى، على

أرض مكسوة بالحشائش والشجيرات . ومر حسنين بك على بعد ٥٥ كيلو متر من دخول الفوراوية بالقرب من تل معروف بالتميره ، عليه جزع شجرة يابسة معتبرة كعلامة حد ، بين الأملاك الفرنسية وبين الأملاك الإنجليزية المصرية. ولم تؤخذ أرصاد فلكية هناك. ولكن نتائج حسنين بك المضبوطة بالترافرس الذى عليه، تعين الموقع التقريبى للتل فى خط عرض (٤٨َ ١٥ْ) شمالا وخط طول (٢٧َ ٢٣ْ) شرقا ووادى هور المسمى (هوه) على خريطة الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية عبر على بعد ٧ كيلو بعد تل التميره.

الخلاصـة

وبالحصول على تحليل نتائج حسنين بك الذى استغرق زمنًا كبيرًا من وقتى، لمدة تزيد عن شهرين، ربما يسمح لى أن ألاحظ بأن رحلته ، كما يخيّل لى، هى فوز يكاد يكون فريدًا فى تاريخ الاستكشاف الجغرافى. والطريق من السلوم إلى الأبيّض مسافة ٣٣٤٥ كيلو متر أغلبه يتخلل صحراء غير مأمونة، يسكنها نفر قليل من القبائل القديمة المتعصبة ، والتى لايمكن لأحد أن يجتازَها بدون حرس عسكرى قوى، ما لم يكن مسلما، وذا ارادة قوية وحكمة صادقة، وثبات متين.

ولكن حسنين بك لم يقم فقط بهذه الرحلة الشاقة، وأتى بأوصاف هامة، وصور شمسية عن البلاد التى مر بها فى طريقه. وإنما أجهد نفسه قبل القيام من مصر بعدة أسابيع للتمرين على سهولة استعمال التيودوليت ، وفى الحصول على معلومات عن أحسن طرق مساحة الاستكشاف التى تستعمل فى استكشاف مثل هذا الذى عزم على القيام به. وقد برهن فى طول سياحته ، على حسن تطبيقه للمعلومات المساحية التى حصل عليها. وإن الدقة والضبط فى ارصاده يشهدان بذلك عند تحليلها السابق.

وأهم شئ جدير بالذكر، هو قدرته على القيام بهذه الأرصاد بلا مساعد ، واستمراره فى التحفظ على الدقة والضبط فى مقاساته وبياناته لمسافة تزيد عن ٢٠٠٠ كيلو متر والتى تفصل نقطتين فى طريقه معلومتين من ذى قبل. ومما يستحق الشكر عليه ، ترتيب وتفصيل طبيعة أرصاده التى جعلت أمر تحليلها ، عملا مقبولا لا غضاضة فيه. وجعلت من السهل تخطيط طريقه وتعيين المواقع المستكشفة حديثًا ، على طول طريقه على الخريطة بدرجة عظيمة من الدقة.

وأهم الإضافات إلى معلوماتنا عن الشمال الشرقى من أفريقيا، والتى كانت وليدة أبحاث حسنين بك هى ما يأتى:

(١) الموقع الحقيقى لآبار الظيغن والكفرة الناشئ عن التغيير نحو ١٠٠ و ٤٠ كيلو متر على التوالى من الموقع السابق بيانه على خرائط أفريقيا.

(٢) اكتشاف واحتى اركنو والعوينات اللتين لم تعرفا من قبل وتعيين موقعيهما ، وسعة مناطقهما بالتقريب . وبذا ينفتح طريق جديد محتمل لرحلات جديدة فى صحراء ليبيا بمناطق لم تستكشف من قبل.

(٣) اكتشاف طريق فى الجنوب الغربى من مصر ، يجتاز سهل أردى وأنيدى فى إفريقيا الاستوائية الفرنسية إلى دارفور ، وتعيين مواقع موارد المياه الواقعة عليه.

وهذا الاستكشاف له علاقة مهمة، ويعتبر كتتمة للاستكشافات المجيدة الحديثة التى قام بها القائمقام تلهو فى السودان الفرنسى.

(٤) تعيين مناسيب مضبوطة للبارومتر على طول الطريق. وبذا أمكن الحصول على معلومات قيّمة عن طبيعة تكوين الجبال فى منطقة واسعة لم يعرف عنها شئ من قبل. وكانت هذه المعلومات مثبتة لاستنتاج القائمقام تلهو ، بأنه لايحتمل أن يوجد مخرج صرف لبحيرة تشاد فى اتجاه شرقى .

استنتاجات من المعلومات الجيلوجية

التى جمعها أحمد محمد حسنين بك أثناء رحلته من

السلوم إلى الفاشر مخترقا صحراء ليبيا عن طريق الكفرة والعوينات

بقلم الدكتور و. ف. هيوم

مدير قسم الجيلوجية المصرية

ترجمة حسن صادق بك

مفتش بالقسم الجيلوجى بمصلحة المساحة

ابدأ قبل بحث المسائل التى نحن بصددها بتهنئة حسنين بك لنجاحه فى إتمام رحلة فتحت أمامنا منطقة عظيمة، كانت حتى الآن من مجاهل الأرض. والذين مارسوا منا الأسفار بالصحارى، ولو قليلا، لابد معجبون بمجهوده فى قطع نيف وثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر، فى صحراء قفرة مغلقة لأسباب سياسية أو دينية فى وجه المستكشف الأوروبى. ولابد أن يكون قد صادف فى رحلته من الصعاب والمشاق، ما أضنى من الجسم والعقل ، إلا أنه لاشك قد عوض من ذلك؛ بلذة الشعور بالحرية الذى يبعثه وجوده فى ذلك الفضاء الذى لاحد له، وترقبه الدائم لاستكشاف جديد.

وقد أظهر حسنين بك عزمًا أكيداً على أن يعود بملاحظات صحيحة عن كل ماله أهمية علمية . فحصل بذلك على مجموعة ثمينة من النماذج الجيلوجية، والصور الفوتوغرافية تجعل من السهل على من خبروا جيولوجية الصحارى المصرية خبرة عملية، أن يصلوا إلى نتائج صحيحة عن التركيب الجيولوجى للمنطقة التى اخترقها .

وحيث كنت غائبًا عن مصر عند عودة حسنين بك ، فقد قام المستر مون بفحص هذه النماذج والعينات ، وقد رافقت مع هذه المذكرة ملاحظاته والنتائج التى وصل إليها ،وعند فحص النماذج والصور الفتوغرافية التى عرضها علينا حسنين بك ، لفتت نظرى النقط الآتية بوجه خاص :

(١) وجدت ما بين واحتى سيوه والجغبوب قطع من الأخشاب المتحجرة جاءنا من بعضها بقطع وصوّر البعض الآخر. وفى هذا دليل على امتداد ما نسميه (الغابات المتحجرة) امتداداً عظيمًا نحو الغرب. كذلك يبعث عندنا الرغبة فى فحص المنحدر الجنوبى لهضبة برقة حتى الحدود الغربية المصرية ، بما فى ذلك الجزء المرقوم «لم يستكشف» على خريطة القطر المصرى الجيولوجية مقياس ١,٠٠٠,٠٠٠ / ١ .

(٢) تدل نماذج المحارات أوستريا فيرليتى (Ostrea Virleti) وأوستريا ديجيتالينا Os-trea digitalina وهى من الحفريات الشهيرة التابعة للعصر الميوسينى، أن واحة الجغبوب واقعة فى صخور تابعة لنفس التكوين الجيولوجى الموجودة فيه واحة سيوة . وهو تكوين تابع للجزء المتوسط من العصر الميوسينى. كذلك تدلنا العينة رقم ٣ على امتداد هذا التكوين نفسه فى اتجاه واحة جالو.

(٣) وهناك عينات من حجر جيرى صلب التقطت عند نقطة رمز إليها بحرف (A) علـى الخريطة المرفقة بمذكرات المسترمون ، على بعد قليل جنوبى خط العرض ٢٨٥ شمالا. ومن بينها قطعة من صخر مكون من بقايا محارات، يغلب أن تكون تابعة للعصر الميوسينى أيضاً. أما العينات الأخرى، فيحتمل أن تكون من طبقات تابعة للعصر الأيوسينى أو الكريتاسى. إذ إن هناك طبقات تابعة لهذه العصور، وتمتد على هذا الخط شرقى الحدود المصرية . على أن خلو هذه النماذج من الحفريات ، يتعذر معه البت فى عمرها الجيولوجى يتعذر معه البت فى عمرها الجيولوجى بطريقة أوضح .

(٤) من يوم ٢٠ إلى ٢٤ مارس كان حسنين بك يخترق سهلا منبسطاً عظيما. وقد يدعونا ذلك إلى التساؤل عما إذا كان هذا السهل نتيجة تأثير عوامل التفتت والتعرية على الطبقات الطينية والرملية الرخوة ، التى توجد عادة بين الأحجار الجيرية الكريتاسية والطبقات الصلبة من التكوين المعروف عند الجيولوجيين بالحجر الرملى النوبى.

(٥) وسواء أصح هذا الاعتبار أم لم يصح ، فقد أبان لنا المستر مون أن حسنين بك وصل إلى أول طبقات التكوين الرملى النوبى، عند نقطة تبعد قليلا إلى الشمال من الحرش (الظيغن) وعينات الصخور التى التقطت من هذه النقطة جنوباً إلى النقطة المرموز لها بحرف (c) على الخريطة، كلها أنواع مختلفة من هذا التكوين الرملى، الذى يغطى مناطق هائلة فى مصر والسودان.

(٦) وهناك أهمية خاصة لاكتشاف أحجار جرانيتيه فى واحات العوينات واركنو، والنوع الشائع بين هذه الصخور الجرانيتية هو البجماتيت المكون من بلورات كاملة من الفلسبار والكوارتز (المرو) والهورنبلند .

وقد أظهرت لنا الصور الفتوغرافية أهمية تأثير درجة الحرارة على سطوح هذه الصخور، فترى سفح الجبل منثورة عليه جلاميد عظيمة من الصخر، قد انفلق بعضها من جراء تغيير درجة الحرارة إلى قطع كبيرة ، لايشك الناظر إليها فى أنها كانت فيما مضى قطعة واحدة.

أما فيما يختص بالعلاقة بين الجرانيت وطبقات الحجر الرملى النوبى، فيلاحظ أن جبل الجرانيت مرتفع ارتفاعًا كبيرا عن طبقات الحجر الرملى التى تحيط به . وهذا الفرق فى الارتفاع يمكن تفسيره بأحد الفروض الآتية :

(**أولا**) وجود تعريج فى طبقات الأرض فى هذه الجهة ، على شكل قبو يكّون الجرانيت الجزء الأوسط منه .

(**ثانيًا**) وجود انشقاق أو فالق عظيم تسبب عنه ارتفاع الجرانيت وانخفاض الطبقات الرملية.

(**ثالثًا**) يدخل الجرانيت وهو فى حالة ميعانه بين طبقات الحجر الرملى التى تعلوه ، على أنه بعد التحدث مع حسنين بك وفحص الصور الفتوغرافية التى لها علاقة بهذا الموضوع، أجدنى مضطرًا للاستنتاج الآتى :

(١) من المحتمل وجود انثناء فى الطبقات على شكل قبو عظيم ، إذ إن طبقات الحجر الرملى، ترى مائلة نحو الناظر فى الصورة السينماتوغرافية التى عرضها حسنين بك، والتى ترى فيها حملته فى طريقها بوادى العوينات.

وهذه الظاهرة معروفة أيضًا فى بعض النقط جنوب واحة الخارجة ، حيث توجد طبقات الحجر الرملى النوبى مائلة ميلا ظاهرًا عن الجرانيت(٢) . وإذا بحثنا الفرض الثالث ، فليس هناك فى أى جهة من جهات القطر المصرى ، ما يدل على تدخل الجرانيت فى حالة ميعانه بين طبقات الحجر الرملى النوبى وبالعكس ، ففى جميع الحالات التى تظهر فيها علاقة الجرانيت بهذه الطبقات النوبية ، قد قام البرهان على أن تكون الجرانيت سابق لتكوين الطبقات الرملية ، وأنه قد تعرض فعلا لعوامل التعرية ، قبل رسوب تلك الطبقات الأخيرة على سطحه .

(٣) ففى انتظار سنوح فرصة لدراسة هذه المسئلة دراسة مفصلة ، نحن ميالون للأخذ بالفرض الذى يعزو الفرق فى الارتفاع بين الجرانيت وطبقات الحجر الرملى النوبى، إلى أن الطبقات فى تلك المنطقة قد سبق انثناؤها فى شكل قبو مستطيل نواته الجرانيت، تحيط به طبقات الحجر الرملى النوبى. ولو أن ذلك لايمنع بقاء الفرض الآخر، أى وجود فالق عظيم نتج منه ارتفاع الكتلة الجرانيتية إلى ارتفاع يعلو سطح الطبقات الرملية، التى كانت تعلوه قبل ذلك، أو أن الطبقات الرملية ، هى التى انخفضت على الجانب الآخر من ذلك الفالق إلى مستوى أوطأ من الجرانيت .

وهناك ظاهرة أخرى على جانب من الأهمية ، وهى وجود رسوم متقنة الصنع على سطح جلاميد الجرانيت، تمثل الزراف والنعام. وقد أخبرنا حسنين بك أن الجمل ، لم يمثل بين هذه الصور وليس بينها مع الأسف ، صور مفصله للإنسان. ويحتمل أن تكون هذه الصورة من صنع الإنسان فى العصور القديمة ، فى وقت كان هذا الجزء من شمال أفريقيا يتمتع بأمطار أغزر من الوقت الحاضر.

وبالاختصار ! فرحلة حسنين بك قد أبانت لنا، امتداد طبقات العصر الميوسينى والتكوين الرملى النوبى غربًا إلى مدى أبعد من الحدود الغربية المصرية ، وهى فى تلك المناطق ، محتفظة بنفس الخواص التى لها بالصحارى المصرية. كذلك يفتح استكشاف واحة جديدة فى صخور جرانيتية فى هذا الجزء من الأراضى المصرية، طريقًا أخرى بين دارفور والواحات الداخلة ويعطينا قاعدة يمكن الاعتماد عليها ، للحصول على المياه لمن يريد أن يزور هذه المناطق فى المستقبل، ومن المهم جدا اجراء دراسة جيولوجية مفصلة لهذه المناطق.

مذكرات جيلوجية
عن رحلة حسنين بك
من السلوم إلى دارفور سنة ١٩٢٣

بقلم المستر ف. و. مون

ترجمة حسن بك صادق

طلب منى حسنين بك فى غيبة الدكتور هيوم مدير القسم الجيولوجى بالاجازة، أن أفحص نماذج (عينات) الصخور والحفريات التى جمعها أثناء رحلته الاستكشافية بالصحراء المصرية الغربية، من السلوم لى شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى دارفور بالسودان . وقد تقبلت هذه المهمة بكل سرور. وأقدم هنا ملاحظات مختصرة، عن الظواهر الجيولوجية التى يمكن استخلاصها من العينات والصور الفتوغرافية ، ومن أقوال حسنين بك نفسه. ولو أن النماذج والعينات صغيرة الحجم طبعا، وهى فيما يختص بالصخور النارية ، تظهر عليها علامات التحلل من تأثير تعرضها للعوامل الجوية بالصحراء فى سنين عدة، فهى مع ذلك كافية لأن تستنتج منها معلومات صحيحة عن التكاوين الجيولوجية التى مر عليها المستكشف إبان رحلته.

وقد فسر لنا الرحالة، كيف أن صعوبة النقل، حالت دون أن يجمع نماذج كبيرة وافية . وقد أراد قدر المستطاع، أن يتجنب كل ما يبعث الشك فى نفوس مرافقيه، بأن لايأتى من الأعمال ما يمكن تأويله على غير القصد منه مثل أن يكثر من تكسير الصخور وحمل قطع منها على غير المألوف بينهم.

يظهر من الجدول، المفصلة فيه العينات الجيولوجية وأوصافها فى ذيل هذه المذكرة أن الطريق كانت فى ابتدائها فوق صخور تابعة للعصر الميوسينى ، تدلنا على ذلك حفريات المحارات أوستريا ديجيتالينا (Ostrea digitalina) وأوستريا فيرليتى (Ostrea Virleti) وكلاميس زيتلى (Chlamys Zitteli) وغيرها . وقد جمعت سبع محارات من الأولى، واثنتان من الثانية واثنتان من الثالثة، وخمس غيرها تشبه كلاميس سبملفينا (Chlamys submalvi-nae) . وهذه كلها ، من الحفريات المعروفة بكثرتها فى طبقات العصر الميوسينى فى الصحارى المصرية .

وتمتد طبقات الميوسين إلى واحات سيوة والجغبوب وجالو ثم جنوبا إلى نقطة تبعد نحو ١٠٨ كيلو متر جنوبى جالو، حيث التقطت آخر عينة من محارات العصر الميوسينى رقم ٤ (انظر العينات رقم ١-٤) . ومن هذه النقطة الأخيرة المرقوم لها بحرف "A" على الخريطة المرفقة ، تستمر الطريق فى سهل قفر منبسط ليس به من الصخور ما له أهمية جيولوجية عدا طبقة رفيعة من الرمل والحصى حديثة التكوين، تغطى سطح ذلك السهل العظيم الذى يمتد نحو مائتى كيلو متر، أى مسيرة أربعة أيام مملة إلى الجنوب.

ولما أن بلغ نقطة تبعد ٥٠ كيلو متر شمال الظيغن ، رأى الرحالة أن ما حوله من المناظر ، قد تغير تغييراً ظاهراً ، وتبدل لون الصخور المحيطة به من اللون الأصفر الباهت الذى لازم الصخور الجيرية الميوسينية، وكذلك رمال الصحراء ، إلى ألوان ساطعة تدلنا قطع الصخور التى التقطها منها، على أنها طبقات الحجر الرملى المعروف عند الجيولوجيين بالتكوين الرملى النوبى التابع للعصر الكريتاسى، وقد يوجد بين هذه الألوان أحياناً اللون الأزرق والأخضر، ولكن اللون الأساسى هو الأحمر بجميع أشكاله من قرنفلى وطوبى، وكذلك ألوان المغرة ممزوجة ببعضها البعض. وقد توجد المغرة نفسها فى شقوق تتخلل هذه الطبقات . وفى هذا دليل على امتداد التكوين الرملى النوبى، امتدادا عظيما نحو الغرب. إذ إن النقطة المرقوم لها بحرف "B" تبعد نحو ٦٠٠ كيلو متر إلى الغرب من آخر نقطة معروفة على الحد الشمالى لطبقات هذا التكوين ، كما هو مبين على الخريطة مقياس ١,٠٠٠,٠٠٠ / ١ طبعة سنة ١٩١٠ .

ومما يلفت النظر ، عدم وجود عينات تدل دلالة قاطعة على وجود الطبقات الكريتاسية العليا. ومن المحتمل جدا وجودها مغطاة تحت الرمل والحصى الذى يغطى سطح السهل الواسع الذى سبقت الإشارة إليه بين النقطتين "A" و "B" على الخريطة.

وهناك مسألة أخرى، بقيت غامضة من جراء وجود هذا السهل السابق الذكر، وهى تقدير الحد الجنوبى للطبقات الميوسينية تقريراً دقيقًا ، فإذا اعتبرنا أن النقطة "A" التى التقطت عندها آخر حفرية ميوسينية هى نقطة على ذلك الخط ، لوجدنا أن التوزيع المقترح هنا لطبقات هذا التكوين ذو أهمية من ناحيتين :

(١) دلالته على الامتداد غربا للبحر القديم الذى كان يغطى منطقة البحر الأبيض المتوسط وما حوله فى العصر الميوسينى.

(٢) تقوية اعتقادنا فى أن الحركات الأرضية التى أدت إلى انثناء طبقات الأرضية فى

الجزء الأكبر من مصر وشبه جزيرة سينا على شكل قبو هائل ، حدثت قبيل العصر الميوسينى مباشرة. وقد كان هذا القبو، العامل الأكبر فى تحديد شاطئ ذلك البحر الميوسينى، الذى كان على هذا الاعتبار ، يمتد من النقطة التى عيناها الآن بين الحرش (الظيغن) وچالو إلى نقطة قريبة من واحة سيوه ثم يتجه إلى الشمال الشرقى حتى خط عرض° ٣٠ شمال ثم يتبع ذلك تقريبا حتى السويس .

ويظهر أن الأراضى المصرية الواقعة بين شواطئ خليج السويس ، كما كانت معروفة فى العصر الميوسينى، وشاطئ البحر الميوسينى ، بعد سيوة والظيغن ، كانت أرضا يابسة فى ذلك العصر، ومعرضة طبعًا لعوامل التعرية إبان مدة جيولوجية طويلة، مما أدى إلى انكشاف طبقات التكوين الرملى النوبى والطبقات الكريتاسية الأخرى ، ثم رسوب الطبقات الميوسينية فوقها مباشرة.

أما الحجر الرملى النوبى، فتدلنا العينات رقم ٥-١٠ أنه محتفظ هنا بجميع الخواص التى له فى باقى جهات الصحارى المصرية وشبه جزيرة سينا، فهو حجر رملى مكون من حبيبات رفيعة مستديرة من الكوارتز ، تتخلله هنا وهناك كميات مختلفة من الحبات الكبيرة والحصى. وقد تتغلب نسبة الحصى أحيانا فيصير الصخر من نوع الكونغلومرات .

أما المواد الجيرية أو السيليسية أو الحديدية التى تحدث تماسك حبيبات الكوارتز ، فهى أيضًا التى تعطى الصخر لونه الذى يختلف فى عمقه باختلاف تركيب وكمية أوكسيدات الحديد الداخلة فى هذه المواد . وهذه الأوكسيدات الحديدية من جراء تأثير العوامل الجوية ، وعلى الأخص الأمطار ، تتجمع فى جيوب أو شقوق فى الصخور ويمكن إذا طحنت طحنا دقيقا أن تستعمل فى صناعة الأصباغ .

وتمتد طبقات التكوين الرملى النوبى ، من النقطة التى انتهت عندها الطبقات الميوسينية جنوبا إلى نقطة مرقوم لها بحرف "C" على الخريطة تبعد نحو ١٥ كيلو مت شمال جبال اركنو.

وباقترابه من هذه النقطة الأخيرة ، لاحظ الرحالة أن معالم الأرض بدأت تتبدل مرة أخرى فالألوان الساطعة التى لازمت الحجر الرملى تغيرت إلى ألوان قاتمة تميل إلى الأسمر والأسود فى جبال من الصخور النارية يبدأ ظهورها على سطح الأرض عند النقطة "C" على الخريطة.. وهذا التغيير فى المناظر الطبيعية الذى يصحب الانتقال من تكوين جيولوجى لآخر ،

يبدو بوضوح فى الصور الفوغرافية الجميلة ، التى عرضها أمامنا حسنين بك والتى من أجلها يستحق كل ثناء وإعجاب .

فمنها صور تعطى فكرة صحيحة عن المناظر الطبيعية ، فى مناطق التكوين الرملى النوبى، وأخرى ترينا المناظر فى مناطق الصخور النارية.

وتدلنا العينات رقم ١١ إلى ٢٢ أن الصخور النارية التى منها تتكون جبال اركنو والعوينات هى من فصيلة الجرانيت والسيانيت ذات التبلور الظاهر ، تخترقها عروق وسدود من صخور نارية أخرى، دقيقة التبلور. فجبال اركنو مكونة فى الغالب من صخور متشابهة التركيب تمثلها العينات ١٢ و ١٤ .

فالعينة رقم ١٢ عبارة عن مجموعة متماسكة من البلورات التامة التبلور من فلسبار قلوى ذى لون رمادى، وربما كان من نوع الأرثوكلاز المتحول إلى الكاولين. وهذا المعدن هو أهم عنصر فى تكوين تلك الصخور . أما الكوارتز فغير ظاهر فى العينة المذكورة التى ثقلها النوعى نحو ٢,٥ . وعدا الفلسبار فتوجد بالصخور بلورات صغيرة جيدة التكوين خضراء قاتمة اللون من الهورنبلند. على أن نسبة هذا المعدن فى الصخور التى نحن بصددها أقل منها فى الصخور الممثلة بالعينات ١٧ و ٢١ من جبال العوينات التى سيأتى ذكرها بعد.

والعينة رقم ١٤ هى قطعة من صخر رمادى اللون، أهم عناصره فلسبار قلوى رمادى اللون، ومعه بلورات من الهورنبلند بنسبة تعادل الموجود منه فى العينة رقم ١٢ . وقد ظهر من الاختبار الميكروسكوبى لقطاع رقيق من العينة رقم ١٤ أن هذا الصخر الأخير يطابق تماما الوصف الذى تقدم للعينة رقم ١٢ ويزيد عليه احتمال وجود معدن النفلين تُرى فى بقع ترى فى القطاع ، وتقابلها فى العينة نفسها بقع سمراء لامعة ترى بالعين المجردة . على أنه لم يتحقق وجود النفلين بوجه التأكيد.

ومما تقدم ، يمكن اعتبار العينات ١٢ و ١٤ من الصخر المعروف بالسيانيت . وتخترق صخور السيانيت فى جبال العوينات، عروق مختلفة من أحجار نارية أخرى تدل عليها العينات ١١ و١٣ و١٥ ولاشك فى وجود غيرها لم تلتقط منه عينات .

فالقطعة رقم ١١ تمثل عرقا من صخر صلب دقيق التبلور، أخضر اللون، قاتمه يظهر على سطحه اسمرار نتيجة تأثر العوامل الجرية ، وعليه عدد كبير من نقط سوداء لاترى فى داخل الصخر.

وقد ظهر من الفحص الميكروسكوبى، أن لهذا الصخر أهمية خاصة ، فهو مكون من أرضية من البلورات الصغيرة ، من الفلسبار دقيقة، أو ميكروسكوبية ، فى بعض الأجزاء ، منتشر فيها بلورات رفيعة من معدن أخضر يشبه الايجيرين . وتوزيع هذه البلورات الأخيرة ليس توزيعا منتظماً ، فحيث توجد بلورات الفلسبار بشكل المعين (lozenge) نرى بلورات الايجيرين مكدسة حول حروفها. أما معدن الكوارتز ، فلم يلاحظ أى جزء من القطاع الميكروسكوبى. ولذلك يمكن اعتبار الصخر فلسيت الايجيرين وهو يشابه كثيراً الصخر الموصوف والمرسوم فى كتاب الاستاذ هاركر Petrology for Students by Harker.

أما القطعة رقم ١٣ فهى من عرق آخر يخترق صخور جبال اركنو ويمكن التعبير عنه بالكوارتزيت الأسمر.

والقطعة رقم ١٥ من عرق آخر من ذى طبقات رقيقة، لونه رمادى قاتم، قد تحول سطحه من تأثير العوامل الجوية إلى لون أسمر مائل للأحمر. وهو فى تركيبه عبارة عن أرضية دقيقة الذرات جدا، مبعثر فيها بلورات صغيرة شفافة.

وقد أظهر القطاع الميكروسكوبى تشابهًا كبيراً مع القطعة رقم ١١ السابق وصفها . على أن الفلسبار المكون للأرضية فى هذا الصخر الأخير، بلوراته دقيقة لدرجة لايمكن معها رؤية أشكال هذه البلورات، حتى تحت الميكروسكوب . كذلك بلورات الايجيرين أصغر وأرق وليست تامة التكوين.

هذا الصخر أيضاً يمكن تسميته مؤقتًا فلسيت الايجيرين.

أما جبال العوينات ، ففى الغالب مكونة من صخور تمثلها القطع رقم ١٧ إلى ٢١ . والتى أهم عناصرها المعدنية فلسبار قلوى رمادى اللون. وربما كان من نوع الأرثوكلاز، ومعه قليل من الميكروكلين، وبها معدن الكوارتز فى بلورات كاملة التكوين ، ولم ير معدن الميكا بها، ولكن هناك بلورات تامة التكوين من الهورنبلند الأخضر القاتم ، منثورة بكثرة فى جميع أجزاء الصخر .

ولما كانت جميع هذه النماذج مأخوذة من سطح الصخور، فقد انتابها التحلل من فعل العوامل الجوية، بحيث أصبحت سريعة التهشم ، لدرجة لاتسمح لفعل قطاعات رقيقة للميكرسكوب ، على أن الصخر يمكن اعتباره نوعًا كثيف التبلور من جرانيت الهورنبلند.

القطعة رقم ١٨ هى من نوع آخر من الصخور، التى تكون الجزء الأكبر من جبال العوينات ويمكن تسميته بالجرانيت الأحمر القريب من فصيلة ؛ الأبليت مع قلة نسبة الميكا الظاهرة فيه.

لأن هذا المعدن سريع التحلل عادة ، فينتج منه أوكسيدات الحديد التى كانت السبب فى اكتساب الصخر لونه الأحمر الغامق . أما الكوارتز والفلسبار فيكونان الجزء الأكبر من الصخر.

وفى جبال العوينات ، كما هو الحال فى جبال اركنو ، ترى الصخور الجرانيتية الأصلية تخترقها عروق من صخور نارية أخرى تمثلها النماذج رقم ١٦ و ١٩ و ٢٢ .

أما القطعة رقم ١٦ فهى من عرق الفلسيت الأرجوانى ، مكوّن من أرضية فلسيتية منتشرة بها بلورات من الفلسبار محتفظة بشكلها البلورى تماماً.

والقطعة رقم ١٩ من عروق من الكوارتز (المرو) ناصع البياض ، موجود فى كهف فى أسفل جبال العوينات . وربما كان هذا العرق لسهولة تآكله السبب فى تكوين ذلك الكهف .

والقطعة رقم ٢٢ التى التقطت عند جارة شِزّو من الكوارتزيت . وربما كان هذا الصخر أيضا من العروق التى تخترق الجرانيت فى تلك الجهة . وهناك غير ذلك ، قطعتان التقطتا داخل الكهف فى واحة العوينات، ولهما أهمية خاصة ، وهما المرقومتين برقم ٢٠ و ٢١ .

أما الأولى : فهى من التراڤرتين ذى الطبقات الرقيقة. ولاشك فى أنه ناشئ من فعل المياه الجارية ، تدلنا على ذلك التموجات الظاهرة على سطحه ، ويظهر من المذكرات التى كتبها الرحالة وقت زيارته لذلك الكهف، أن هناك كميات كبيرة من هذا الصخر مبعثرة فوق أرضه. وقد أظهر الفحص الميكروسكوبى أن هذه التعاريج السطحية تنطبق مع تراكيب كروية فى داخل الصخر، وأن فى المادة الجيرية الكلسيتية المكونة للأرضية قطع صغيرة من الكوارتز والفلسبار. وهذه لاشك، يرجع أصلها إلى تفتت الصخور الجرانيتية. ولم يوجد به أثر لمواد عضوية.

أما القطعة الثانية رقم ٢١ فهى من جرانيت الهورنبلند الذى تتكون منه جبال العوينات، ومنه أيضا سقف الكهف ، ويرى على إحدى جوانب هذه القطعة، قشرة رقيقة من اوكسيدات الحديد والمنغنيز تشبه القشرة التى تعلو سطح الصخور الجرانيتية فى شلالات أصوان بنهر النيل .

وربما كانت هذا المنطقة العظيمة ، من الصخور النارية التى تحتوى الجبال والواحات المكتشفة حديثا باركنو والعوينات محددة، كما بينا بوجه التقريب، على الخريطة المرفقة، وتحيط بها طبقات التكوين الرملى النوبى، كما هو الحال فى مناطق كثيرة مماثلة ومبينة على الخريطة الجيولوجية للقطر المصرى.

وقد علمتنا الخبرة فى مناطق أخرى مماثلة، حيث توجد الصخور النارية محاطة بالحجر الرملى النوبى، أن هذه الطبقات الأخيرة قد تكونت فى أول الأمر، على سطوح الصخور الناريه القديمة التى ارتفعت بعد ذلك من جراء الحركات الأرضية الداخلية ، بعد انثناء الطبقات الرملية التى فوقها والمحيطة بها . على أنه فى الحال التى نبحثها الآن ، يظهر أن هذا الانثناء لم يكن لدرجة كبيرة . إذ إننا لانرى فى الصور الفوتوغرافية ما يدل على أن الطبقات الرملية مائلة ميلا ظاهرا .

ولما ترك الرحالة جبال العوينات واتجه جنوبا ترك وراءه الصخور النارية. وقد بينا على الخريطة نقطة انتهاء تلك الصخور ، وابتداء طبقة التكوين الرملى النوبى ثانيا بحرف " D" على بعد ٢٠ كيلو متر جنوب العوينات . وهنا تعود المناظر الطبيعية ، فتتغير مرة أخرى من جبال وعرة قاتمة اللون ، إلى هضاب مستطيلة من الصخور الرملية ذات الألوان الساطعة. ويبلغ ارتفاع هذه الهضاب نحو ١٠٠ متر فوق سطح البحر، بين أنباه وكتم . ومن ثم ينحدر متوسط منسوب سطح الأرض تدريجيا حتى الفاشر، حيث يبلغ ارتفاع الأرض نحو ٧٠٠ أو ٨٠٠ متر فوق سطح البحر.

الخلاصة

مما تقدم يمكن تلخيص الظواهر الجيولوجية التى بينتها لنا هذه الرحلة الاستكشافية فى النقط الآتية:

(١) تمتد طبقات العصر الميوسينى جنوبا حتى الخط ٢٧° شمال تقريبا . فتكون نتوءًا عظيمًا تحيط بها صخور تابعة لعصور جيولوجية أقدم منها.

(٢) إن الطبقات الميوسينية التى تلى مباشرة طبقات التكوين الرملى النوبى، تتبع هنا نفس القوانين التى قدرها الدكتور هيوم لأول مرة ، فيما يختص بمنطقة خليج السويس، والتى بمقتضاها تتبع هذه الطبقات الميوسينية ، طبقات متزايدة فى القدم، من الشمال إلى الجنوب التى يمكن تفسيرها بأنه قبيل العصر الميوسينى تعرضت هذه المناطق لعوامل التعرية التى كانت أشد فى الجنوب من الشمال ، لارتفاع الأجزاء الجنوبية من جراء حركات أرضية سابقة.

(٣) إن هناك منطقة هائلة قبلى الخط ٢٧° شمال تغطيها طبقات من الحجر الرملى النوبى التابعة للعصر الكريتاسى.

(٤) اكتشاف جبال من صخور نارية فى اركنو والعوينات داخل الحدود المصرية . وهى إما من محافظة جميع نواحيها بطبقات الحجر الرملى النوبى، أو متصلة بلسان من الصخور الجرانيتية إلى سلسلة جرانيتية كبرى واقعة إلى الجنوب .

(٥) لم يصادف الرحالة طبقات كريتاسيه أحدث من التكوين الرملى النوبى. مع أن هذه الطبقات معروفة فى الشمال الشرقى من هذه المنطقة ، كما هو مبين على الخريطة الجيولوجية للقطر المصرى وربما كان سبب عدم ظهورها هنا، أنها مغطاة بطبقة حديثة التكوين من الرمل والحصى.

بيان العينات الجيولوجية

التى جمعها حسنين بك

فى رحلته من السلوم إلى دارفور

نمرة التاريخ مسلسلة سنة ١٩٢٣	الجهة حسب البطاقات المقدمة	العينات
(١)	واحة سيوه	ثلاث قطع من بلورات السلينيت ومحارة واحدة من البكتن (Pecten) ومحارتين من الأوستريا (Os-trea) وربما كانت من طبقات ميوسينية
(٢)	الجغبوب	محارة بكتن (Pecten) فى حجر جيرى مكون من بقايا المحارات . ومن المحتمل أن تكون هذه أيضا من الميوسين.
(٣)	الصخور السطحية فى الطريق بين الجغبوب وجالو	قطعة من الخشب المتحجر ، وثلاث حصوات سيليسية وعقدتين حجريتين مستطيلتين (concre-tions) من الحجر الرملى الجيرى ، وألياف بلورية من الملح طولها ٥ بوصات ومقوسة.
(٤) ٢٠مارس	مبعثرة فى رقع صغيرة بالوادى	حصاتين من الحجر الرملى الجيرى ومعهما حبيبات من الكوارتز
(٥) ٢٤ مارس	قرب بئر الحرش (الظيغن) رقع من هذا الصخر منتشرة قبل الوصول إلى الحطب	قطعة من الحجر الرملى النوبى
(٦) ٢٨ مارس	على مسيرة يوم من الحرش (الظيغن) فى طريق الكفره	خمسة قطع من الطبقات الحديدية الصلبة فى الحجر الرملى النوبى.
(٧) ٢٩مارس	جارة الشريف	ثلاث قطع من الحجر الرملى النوبى
(٨)	جبل النارى	ثلاث قطع من طبقات حديدية أرجوانية اللون فى

	الجارات الغربية من الهوارى	الحجر الرملى النوبى وقطعة كروية سوداء تشبه القنبلة
(٩)	جبال الكفره (التاج)	ثلاث قطع من الحجر الرملى النوبى
(١٠) ٢٢ أبريل	بين الكفرة والعوينات من سلسلة من الجبال اخترقت ذلك اليوم	قطعة من الحجر الرملى النوبى وقطعتين من طبقات حديدية فى الحجر الرملى النوبى .
(١١) ٢٤ أبريل	جبال اركنو	حجر نارى (فلسيت الايجيرين)
(١٢) ٢٤ أبريل	من نقطة فى جبال اركنو وهناك تلال فى أطراف الجبل كلها من هذا الصخر	حجر نارى سيانيت متحلل من فعل العوامل الجوية.
(١٣) ٢٤ أبريل	من رقع كبيرة شمال جبل اركنو	حجر نارى (عرق من الكوارتزيت) حجر نارى (سيانيت رمادى)
(١٤) ٢٥ أبريل	من نفس جبل اركنو	
(١٦)	عينة من تكاوين ذات طبقات فى وادى العوينات الكبير	حجر نارى (فلسيت)
(١٧)	جبال العوينات أغلبها من هذا الصخر	حجر نارى (جرانيت الهورنبلند) متحلل من تأثير العوامل الجوية
(١٨)	الصخر التى تتكون منه أغلب العوينات	حجر نارى (جرانيت) متحلل من تأثير العوامل الجوية

(١٩)	التقطت داخل كهف الماء فى العوينات قرب منسوب الماء وتوجد رقع كثيرة منه	حجر نارى (عرق الكوارتز أو المرو)
(٢٠)	التقطت داخل كهف الماء بالعوينات،	رواسب جيريه من المياه الجارية (ترافرتين)
(٢١)	من سقف كهف الماء بالعوينات أغلب الصخور المكونه للكهف وللجبل من هذا النوع	حجر نارى (جرانيت الهورنبلند) متحلل بفعل المؤثرات الجوية ومغطى بقشرة حديدية لامعة ربما كانت من تأثير المياه
(٢٢) ٨ مايو	من جارة شزو قرب العوينات	حجر نارى (كوارتزيت) دقيق التركيب
(٢٣) ١٠ مايو	بين العوينات واردى	قطعة من الحجر الرملى النوبى
(٢٤) ١٣ مايو	موجود منثور فوق الرمل الأحمر قرب اردى لايوجد سوى الرمل الأحمر وهذا الصخر	قطعة من طبقة حديدية تحتوى على الهيماتيت (اوكسيد الحديد) من الحجر الرملى النوبى
(٢٥) ١٦ مايو	تلال اردى	طين أحمر غامق وبه نسبة صغيرة من الرمل (ويطحن إلى مسحوق طوبى غامق)
(٢٦) ١٦ مايو	صخور تلال اردى	طين أحمر طوبى وبه نسبة صغيرة من الرمل (ويطحن بسهولة إلى مسحوق أحمر طوبى ساطع)
(٢٧) ١٩ مايو	تلال اجاه	تلال اجاه رمل ميكائى رفيع ناعم يختلف لونه بين الأحمر والأصفر وبه نسبة صغيرة من الجير.

قصيدة أمير الشعراء

تحية للرحالة المصرى المقدام

أحمد محمد حسنين *

جادت عبقرية شوقى بك هذه الآية ، التى حيًا بها رحالة مصر الكبير، فأضاف إلى شعره الأخلاقى الوصفى الخالد، درة تلألأ سناها ، وتسحر الأفئدة ، وإن من البيان لسحرا

وقد أُلقِيتْ فى حفلة التكريم التى أُقِيمَت للرحّالة المصرى ، بكازينو سان ستيفانو بالإسكندرية مساء الأمس ، تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك .

أقدم فليس على الإقدام ممتنع	واصنع به المجد فهو البارع الصنع
للناس فى كل يوم من عجائبه	ما لم يكن لامرئ فى خاطر يقع
هل كان فى الوهم أنّ الطيرَ يَخْلُفُها	على السماء لطيف الصنعُ مخترع
وأن أدراجها فى الجوِّ يَسْلُكهَا	إنسُ جنود سليمان لها تبعُ
أعيا العقاب مَداهم فى السماءِ وما	راموا من القبّة الكُبرى وما قرعوا
قل للشباب بمصر عصركم بطل	بكل غاية أقدام له ولع
أس الممالك فيه همة وحجى	لا الترهات لها أس ولا الخدع
يعطى الشعوب على مقدار ما نبغوا	وليس يبخسهم شيئًا إذا برعوا
ماذا تعدون بعد البرلمان له	إذا صِغاركُمو بالدولة اضطلعوا
البر ليس لكم فى طوله لجم	والبحر ليس لكم فى عرضه شرع
هل تنهضون عساكم تلحقون به	فليس يلحق أهل السير مضطجع
لايعجبنكمو ساع بتفرقة	إنّ المقصّ خفيف حين يقتطع
قد أشهدوكم من الماضى وما نبشت	منه الضغائن ما لم تشهد الضبع
ما للشباب وللماضى تمُرُّ بهم	فيه على الجيف الأحزابُ والشيعُ

* عن جريدة السياسة ، السنة الأولى، الثلاثاء ، ٢٨ أغسطس ١٩٢٣ ، ص١ .

إنّ الشـبـابَ غـدٌ فليـهْـدهـم لغـدٍ ... وللمسـالك فـيـه الناصحُ الوَرِعُ
لايمنعكمــو بــر الابــوة أن ... يـكون صنعكم غيـر الذى صنعـوا
لايعـجـبنكمـو الجـاه الذى بلغـوا ... من الولاية ، والمال الذى جـمـعـوا
مـا الجاه والمال فى الدنيـا وأن حسُنا ... إلا عـــوارى حـظ ثم ترتجــع
عليكم بخيـال المجد فـائتلفـوا ... حيـاله وعلى تمثـاله اجـتـمـعـوا
وأجملوا الصبر فى جد وفى عمـل ... فالصبر ينـفع ما لاينفـع الجـزع
وإن نبـغـتم فـفى علـم وفـى أدب ... وفى صناعـات عـصـر ناسـه صُنُع
وكلُّ بنيـان قـوم لايقـوم علـى ... دعـائم العـصـر من ركنيـه منصـرع
شريفُ مكـة حُـرّ فـى ممالكـه ... فـهل تُرى القومُ بالحريّة انتـفعـوا ؟

* * *

كم فى الحياة من الصحراء من شَبَهٍ ... كلتاهمـا فى مفاجاة الفتـى شَـرَع
وراء كلٍّ سـبـيـل فـيـهـمـا قَـدَر ... لاتعلم النفس مـا يأتى ومـا يـدع
فلستَ تدرىَ وإن كنت الحريص متـى ... تهـب ريحـاهمـا أو يطلـعُ السبـعُ
ولستَ تأمَنُ عند الصحو فـاجئـةً ... من العـواصف فـيـهـا الخـوف والهلع
ولستَ تدرىَ وإنّ قَـدَّرتَ مـجـتـهـداً ... مـتـى تَحـطُّ رحـالا أو مـتـى تضـع
ولستَ تملك من أمـر الدليـل سـوى ... أن الدليـل وإن أرداك مُـتَّـبـع
ومـا الحيـاة إذا أظْلَمتْ، وإن خدعت ... إلا سـراب على صحـراء يلتـمع

* * *

أكَـبْرتُ من (حسنين) همّـةً طَمَحتْ ... تَرومُ مـالا يرومُ الفِـتـيـةُ القُنُـع
ومـا البطولـةُ إلا النَّفْسُ تدفـعـهـا ... فـيـمـا يبلغـهـا حـمـدا فـتندفـع
ولايبالــى لهـا أهل إذا وصلــوا ... طاحوا على جنبات الحمد أم رجعوا
رحـالة الشـرق إن البـيـد قـد علمت ... بأنك الليثُ لم يُخلَـق لـه الفَـزَع
مـاذا لقـيت من الدو السـحـيـق ومن ... قَـفْـرٍ يَضـيقُ على السـارى ويتـسع

وهل مـــررت بأقـــوام كـــفطرتهـــم   من عـــهـــد آدم لا خـــبث ولاطبع؟
ومن عـجـيب لغـيـر الله مـا سـجـدوا   على الفَـلا ولغـيـر الله مـاركـعـوا
كـيف اهتـدى لهم الاسـلامُ وانتـقلتْ   إليـهُم الصلواتُ الخمسُ والجُـمـع؟
جَـزَتْكَ مـصُـر ثناءً أنت مـوضـعُـه   فـلاتذُبْ من حـيـاءٍ حين تسـتـمعُ
ولو جَـزتْك الصـحـارى جِئـتنا مَلِكًا   من الملوك عليـــك الريشُ والـــوَدَع

شوقى

كلمة شكر

لم أكن لأوفق التوفيق الذى نلته فى رحلتى، أو أتمكن من إتمامها بالنجاح الذى كتبه لى الله لو لم آنس برأى أصدقائى المخلصين، وأنل مساعدة الذين تفضلوا بمد يد المساعدة إلىّ، حيث كنت فى حاجة إليها. ولا أقل من أن أسجل لهم جميعًا تقديرى لليد التى أسدوها والنصائح التى أبدوها ، وأثبت هذا فى كتابى الذى أقدمه لأبناء وطنى، وملء نفسى الأمل، أن أكون قد قمت ببعض ما يفرضه علىّ الاخلاص فى خدمته.

أتقدم بالشكر للدكتور جون بول مدير مصلحة مساحة الصحراء المصرية، فقد تفضل بتلخيص النتائج العلمية لرحلتى فى الذيل الأول من هذا الكتاب وساعدنى كثيراً بإرشاداته فى استعمال الأجهزة التى صحبتها فى رحلتى.

وأسجل شكرى مرة أخرى للدكتور بول وللمستر براون، وغيرهم من أعضاء مصلحة المساحة المصرية لقيامهم بتحضير خرائط رحلتى التى أثبت احداها فى هذا الكتاب.

وأثنى الثناء العطر على الدكتور هيوم وعلى المرحوم المستر مون الموظفين بمصلحة المساحة الجيولوجية، لمساعدتهما بتقسيم النماذج الجيولوجية التى أحضرتها معى، وعمل التقرير الذى وضعته فى الذيل الثانى لهذا الكتاب . وإنى مدين لحضرة حسن بك عبادى لتفضله بترجمة تقرير الدكتور بول ولحضرة حسن بك صادق المفتش بالقسم الجيولوجى بمصلحة المساحة الذى تفضل أيضاً بترجمة تقريرى الدكتور هيوم والمرحوم المستر مون إلى اللغة العربية.

وقد تفضل اللواء سبنكس باشا ومشعلانى بك بوزارة الحربية فتعهد جزءًا كبيراً من أدوات الرحلة من حقائب وجعب وأوانى ، فأدت وظيفتها على ما يرام ، وإنى لأشكرهما على العناية والإرشادات التى بذلاها فى تحضيرها.

وقد تكرم صديقاى المخلصان السيد عبد العال الإدريسى وولده السيد ميرغنى الادريسى . فقدما لى النصح الخالص، والمساعدة العظيمة ، فلهما منى مزيد الشكر والامتنان .

وقد قام بمساعدتى مساعدة نافعة فى الجزء الأول من الرحلة الكولونل هنتر باشا المدير السابق لمصلحة الحدود ، والكولونيل مكدونيل حاكم الصحراء الغربية ، والماجور دى هلبرت والكابتن هتون ، والكابتن هاويسون من ضباط مصلحة أقسام الحدود، وعبد العزيز فهمى افندى مأمور السلوم ، وأحمد كامل أفندى مأمور سيوه ، والملازم لولر قومندان سيوه . وإنى لأقدم لهم جميعً مزيد شكرى.

وعند وصولى السودان ، مهد لى الطريق بعناية المرحوم السر لى ستاك باشا سردار

الجيش المصرى وحاكم السودان سابقًا ، فأتقدم بالشكر إلى السيدة قرينته اللادى ستاك .

ولاتفوتنى هذه المناسبة بدون أن أقدم خالص امتنانى لجميع إخوانى السودانيين ، وكذلك موظفى السودان الذين قاموا بمساعدتى عند انتهاء الرحلة، وخصوصًا سعادة مدونتر باشا القائم بمنصب حاكم السودان العام ، واللواء هدلستون باشا القائم بأعمال السردار والأميرالاى حافظ بك قائد فرق الخرطوم (الآن اللواء حافظ باشا) والمستر ماك ميكل السكرتير الملكى المساعد والكابتن فيلبس وصمويل عطيه بك، وأحمد السيد الرفاعى أفندى والمستر شارل ديبوى القائم بأعمال حاكم دارفور ، والصاغ أحمد حلمى أركان حرب الفاشر، والمستر كريج حاكم كردفان ، والبكباشى أحمد خليل أركان حرب الأبيّض (والآن ياور حضرة صاحب الجلالة الملك).

هذا وأسجل شكرى الخالص لحضرة صاحب العزة أحمد بك لطفى السيد ، على تفضله بكتابة المقدمة الشيقة التى صدرت بها الكتاب ، ولحضرة صاحب العزة بك شوقى شاعر الشرق على أبياته الرقيقة التى تكرم بنظمها عند عودتى من الرحلة وعلى بيتيه العامرين اللذين زينت بهما غلاف الكتاب .

وأختم كلمتى بإسداء مزيد شكرى لأحمد افندى رامى ولجميع من تفضل من إخوانى بتصفح هذا الكتاب وتكرم بإبداء ملاحظته وإرشاداته فى تقديمه للقراء.

أحمد محمد حسنين

ثانيا : ملاحق المحرر

١- الاحتفال الفخم بتكريم الرحالة المصرى

أحمد بك محمد حسنين

فى كازينو سان ستيفانو بالاسكندرية *

احتفل عدد كبير من رجال الدولة وكبراء البلاد بالرحالة المصرى أحمد بك محمد حسنين، الذى قطع صحراء ليبيا من السلوم إلى أن وصل إلى السودان، والذى اكتشف فى طريقه واحتين هما «أركنود» و«العوينات» وكانت الحفلة تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك، ورعاية صاحب المعالى جعفر باشا ، وحضرها دولة كبير الوزراء نائبا عن جلالة الملك، وأصحاب السمو الأمراء البرنس عمر طوسن ، والبرنس حيدر ، والبرنس جميل ، وصاحبا الدولة عدلى باشا يكن ، ورشدى باشا ، وأصحاب المعالى الوزراء جميعا ، وحضرها المستر سكوت القائم بأعمال المندوب السامى ، وسفراء ايطاليا ، وأسبانيا ، وألمانيا والولايات المتحدة ، وصاحب السمو الأمير السنوسى ، والسيد المرغنى السنوسى ، والسيد الادريسى، ومعالى محمود فخرى باشا، ومعالى طلعت باشا، ومعالي النائب العمومى ، وأصحاب السعادة عبد الرحمن باشا رضا ، وسيف الله باشا يسرى ، وحسن باشا أنيس ، وحسن باشا نشأت ، والدكتور جاهين باشا ، ومحمد صفوت باشا مدير البلديات ، وسعادة المحافظ ، والسيد عبد الحكيم البكرى ، وحفنى الطرزى باشا ، وأبونافع باشا ، وتلينى فهمى ، وكثيرون من الكبراء والأدباء والأعيان لاتحضرنا أسماؤهم .

وقد افتتح معالى الرئيس بالكلمة المنشورة فى غير هذا المكان، وتكلم بعده سعيد بك لطفى ثم عقبه الدكتور محجوب بك ثابت ، فألقى قصيدة شوقى بك فى خطابة ممتعة تكلم فيها عن جمال ** أن الإيمان رأس مال من يجتاز الصحراء ، ثم وصف الطريق والواحات التى اكتشفها وسنأتى على نص الخطبة غداً . وترجم خطابه بعد ذلك إلى الفرنسية حضرة محمد أنسى بك الموظف بوزارة الخارجية .

وقد القيت هذه الخطابات بعد أن تناول جميع المدعوين المرطبات على مائدة فاخرة فى كازينو سان ستفانو .

* * *

---

* السياسة، السنة الأولى ، الثلاثاء ، ٢٨ أغسطس ١٩٢٣، ص٥ .

** طمست حروف الكلمات وتميز الكلمات من عندى «المحرر»

٢- خطبة معالى جعفر ولى باشا *

أفتتح خطبتى هذه برفع واجب الشكر وعظيم الإجلال لصاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ملك مصر ، لجعل هذا الاحتفال تحت رعايته العالية الملكية - وأشكر لكم جميعا تفضلكم بتلبية هذه الدعوة لتكريم الرحّالة المصرى أحمد حسنين بك الموجود معنا الآن .

لست أريد البحث فى موضوع هذه الرحلة ، وما وصل إليه المحتفل به من المكتشفات الجغرافية ، وما وفق إليه من الحقائق العلمية، فإنى أترك هذا الصاحب الرحلة نفسه . وصاحب الدار أدرى بما فيها . ولست أريدُ أن أشرح لكم نشأة المحتفل به والعوامل التى دفعته للقيام بهذا العمل الجليل فإنى أترك هذا أيضا لقرينه فى الدراسة وزميله فى عمله الرسمى سعيد لطفى بك. ولكنى أريد أن استغرق من وقتكم دقائق قليلة ، لأحدثكم ببعض خواطر عامة أحس أنها تجيش فى نفوس الكثير منا إزاء هذا العمل الجليل.

حقيقة إنه لعمل كبير جليل فى ذاته بصرف النظر عن النتائج العلمية المترتبة عليه. أنا لا أدعّى أن المحتفل به عمل ما لايستطيع أحد عمله ، ولا أنه توصل لكشف مغلقات أسرار هذه الصحراء الشاسعة الهائلة ، التى حيرت العلماء والمكتشفين ، وبقيت منها للآن أجزاء صعب استقصاؤها على الجهود السابقة . بل أقول : إن أحمد حسنين هو أول مصرى وجد من نفسه وحدها دافعا إلى المخاطرة بحياته فى القيام بمثل هذا العمل الجليل، فلبى نداءها بجنان ثابت، وتحمل الكثير من المشاق والمتاعب ، واقتحم الشدائد والمصاعب فى اختراق هذه الصحراء المحرقة يلفحه أوارها ، وترهقه سمومها ، مذللا ما اعترضه من العقبات بما تأصل فى نفسه من الخلق الثابت والعزم الوطيد وكل ذلك لا لأنه مكلّف القيام بهذا العمل من قبل حكومته، ولا لأنه يرمى لفائدةٍ مادية ينتظرها من ورائه ، ولكن الدافع الوحيد له على ذلك، هو رغبته فى رفع شأن وطنه مصر وإعلاء مكانتها بين الأمم .

لم يكن أحمد حسنين أول من راد هذه الصحراوات من المصريين، ولكن كل من سبقه فى هذا الطريق كان مدفوعا إلى ذلك ؛ إما بتكليف من الحكومة ، أو ساعيا وراء تجارة أو مغنم مادى.

---

* السياسة ، السنة الأولى، الثلاثاء ، ٢٨ أغسطس ١٩٣٨م،ص٥ .

يخرج من مصر كل عام ألوف من المصريين قاصدين أوربا للسياحة ، ولكن لم يخطر ببال أحد أن أوربا ليست العالم كله ، وأن الأجدر بنا أن نرود البلاد والأقطار المحيطة بمصر قبل غيرها من الممالك .

إن مركز مصر الجغرافي يجعلها حلقة الاتصال بين ثلاث قارات . وأنّ أولى إقليم يجدر بنا السياحة فيه هو حوض نهر النيل المبارك .

معيب علينا أن لانستطلع خفايا هذا الاقليم بأنفسنا . ومعيب علينا أن نرجع فيما نعلم عنه إلى ما حققه واكتشفه الأوربيون .

خبّروني مَنْ مِنّا خطر بباله أن يزور المملكة الوحيدة التى هى توأم مصر فى الاستقلال فى جميع قارة أفريقا- أريد بلاد الحبشة . فهى فضلا عما يربطنا بها من العلاقات التاريخية واللغوية يجمعنا وإياها صعيد واحد وهو حوض نهر النيل المبارك الذى هو منبع حياتنا لذلك أكرر القول : إنه مهما كانت النتائج العملية التى تعرّض لها أحمد حسنين بك فإنه قد ألقي علينا درسا نافعا ، يجدر بنا نحن المصريين أن نحتذيه فى نهضتنا القومية الحديثة . فإذا ما شعرنا بذكرى هذا الرحالة الآن ، فإننا نرجو أن يكون فاتحة عصر جديد : عصر الاعتماد على النفس وصدق العزيمة. فإنّ الأمم برجالها . والرجال بعزائمهم . وعلي قدر أهل العزم تأتى العزائم.

٣- الرحالة المصرى حسنين « بك » يصف سياحته فى الصحراء *

كلمة تمهيدية

أتينا أمس على وصف الحفلة التى أقيمت في كازينو سانو ستيفانو بالاسكندرية تكريما للرحّالة المصرى [١] محمد حسنين بك كما أتينا فى عدد الأمس على القصيدة الرائعة فى البيان ، الخفيفة فى الروح ، التى جادت بها قريحة أمير الشعراء شوقى بك .

واليوم نأتى على نص الخطبة النفيسة التى ألقاها فى هذه الحفلة ، هذا الرحّالة المصرى العظيم .

ولاشك أن كل قارئ سيجد بعد تلاوة هذه الخطبة، أنها أثر من الآثار فى تاريخ وجغرافية الرحلات العلمية فى جهات العالم التى لاتزال غير مطروقة حتى الآن . نعم إن صديقنا الدكتور حافظ بك عفيفى كان أول مصرى ترك أثراً علميا ، بمحاضرته النفيسة فى الجمعية الجغرافية عن سياحته فى الصحراء ، عقب الحرب الطرابلسية مباشرة حيث كان هو أول من وصفها ، ونقلت عنه مجلة الالتراسيون ما حمل من صورها الفوتوغرافية . ولكن حسنين بك قد ذهب إلى الجنوب شوطًا أبعد من الشوط الذى سبقه إليه سلفه المصرى ، [وهو فى] [٢] هذا الشوط الأخير من رحلته قد اجتاب مجاهل رواها لن بتواضع زائد ، كأنه يسير فى طريق عادى مع أن تحت كل كلمة من كلماته ، ووصف من أوصافه ، دليل البطولة الصحيحة ، والعزم الصادق فى اقتحام المخاطر. وقد يكون إيمان رحّالتنا أقوى من عدته العلمية . وقد يكون من صاحبوه وعادوا معه سالمين ، ينقصهم أن يكون من بينهم العالم بطبقات الأرض، والعالم بالنباتات، والعالم بالآثار الحفرية التاريخية . ولكن أليس الإيمان الذى خصه بالذكر، واعتبره السرّ فى النجاح ، أقوى عدة للمرء فى حياته ، وللرحّالة فى رحلاته ؟

لانطيل الكلام فى التعليق علي هذه الخطبة النفيسة بل نسرع فنثبتها كما هى بنصها قال ما يأتى :

---

* السياسة، السنة الأولى ، الأربعاء ، ٢٩ أغسطس ١٩٢٣، ص٣ ، ص٦ .

١- سقط اسم الرحّالة « أحمد » «المحرر»

٢- ثمة لُبْسٌ فى رسم الحروف والأرجح ما ذكر فى المتن بين قوسين «المحرر»

شكر الخطيب

حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء

حضرات أصحاب السمو والدولة والمعالى

حضرة صاحب المعالى الرئيس

سيداتى وسادتى

أقف بينكم الليلة بين عاملين يخجلنى أولا أن يكون شخصى الضعيف وعملى الصغير موضع اهتمامكم ورعايتكم إلى هذا الحد.

ويخجلنى ثانيًا أن اختص بهذه الرعاية وهذا التكريم . فقد كنت أود أن يشاركنى فيهما كل أفراد قافلتى من أول خبير إلى أصغر جَمَّال ، كما شاركونى من قبل ، شظف العيش وسط الرمال السافية ، وشاطرونى مشقة السير فى الصحارى المحرقة . فقد قام كل منهم بنصيبه من العمل خير قيام. ولهم من النتائج التى وصلت إليها شطرهم من الفضل ، فقد خدموا العلم كما خدمته وإلى الحد الذى استطاعوه .

أجد أول واجب علىَّ أيها السادة أن أرفع صوتى بينكم بشكر مولاى صاحب الجلالة مليكنا المعظم فإليه وحده يرجع الفضل فى قيامى برحلتى - وإذا كان العلم سيستفيد منها شيئا فهو مصدر هذه الفائدة . ولولا عطفه وتشجيعه ومساعدته لما كان لى شرف الوقوف بينكم الليلة.

ولا أبالغ إذا قلت لكم : إنى كنت كلما أنهكنى التعب ، وطال بى السيّر ، أستمد من رعايته السامية قوة وجلداً .

واسمحوا لى أن أشكر صاحب الدولة رئيس الوزراء وأصحاب المعالى الوزراء الذين اهتموا برحلتى ، ومَهّدوا لى كل السبل للقيام بها على أكمل وجه .

وأقدم الشكر للحكومة الفرنساوية والحكومة الايطالية لما قاما به من تسهيل مأموريتى فى اجتياز أملاكهما ، وأنتهز هذه الفرصة السعيدة لأقدم لسعادة وزير فرنسا المسيو جبار ولسعادة وزير إيطاليا السنيور كركونى ، عظيم امتنانى ، وتقديرى لرعاية حكومتيهما .

وأتقدم إليكم أنتم يا سادتى بالشكر على ما تكبدتموه من عناء وما ضحيتموه الليلة من ثمين الوقت .

وقبل أن أحدِّثكم عن رحلتى ، أودُّ أن أشكر صديقى القديم السيد إدريس السنوسى، حفيد السيد السنوسى الكبير مؤسس الطريقة السنوسية ويَسُرنى أن أجده بيننا الليلة . وإنى لا

أخفيكم أنه لولا المساعدة القيمة التى قدمها لى ، والتسهيلات التى وجدتها منه ومن رجاله لما تَيَسَّرَ لى اجتياز صحراء ليبيا عن طريق الكفرة.

وإنى أشكر معه صديقى السيد شريف الإدريسى ، والسيد ميرغنى الإدريسى، ويَسُرُّنى أن أراهما هنا الليلة أيضا.

* * *

يا سادتى : إن العمل الذى قمت به صغير لايستحق منكم كل هذه العناية . ولست أكلمكم بلسان التواضع ، وإنما هى الحقيقة التى أشعر بها . فصحراء ليبيا جزء من بلادنا . وعليها حدودنا، ويقضى الواجب أن نتبين حدودنا ونتعرف بلادنا. فإذا كنت اجتزت تلك الصحراء فإنما قضيت بعض حقوق الوطن، بينا كنتم أنتم تقضون جل حقوقه * .

قالت الصحف التى أشكر لها اهتمامها برحلتى أنى تجشمت المصاعب . فسمعت الكثيرين يتوجعون لى . وإنما أنا الذى يتوجع لهم.

نعم لم نكن ننعم بمثل طعام الليلة وشرابها لكن لبساطة العيش وشظفه لذة أخرى . ولعمرى أن البساطة لمن أسباب السعادة والهناء . فإن كوبا من الماء أيا كان هى بعد العطش الشديد أشهى شراب : وإن قدح الشاى للضارب فى الصحراء ، بعد أن يكون التعب قد أخذ منه مأخذه ، للذة فوق كل لذة . وإن الأرز المسلوق بماء ملون لرجال قضو يومهم على الطوى عدا بضع ثمرات لأشهى من طعام الأكاسرة . نأكله فلانعاف لونه . ونقوم قبل أن نشبع . ولانسأل الله إلا دوام هذا الحال.

وما كان ذلك بركوب الصعب ولا بالمركب الخشن . وإذا كان هناك صعب من الأمر، فسرعان ما كان يذوب إزاء الفكر في اختراق الصحراء من طرفها الأعلى إلى طرفها الأدنى، إلى أول العامر من السودان . وكل شئ يروض المرء نفسه عليه سهل وما الصعب إلا المستحيل.

جمال الصحراء

أجل قد يكون للصحراء متاعبها ، لكن لها أيضا ملاذها . فهى التى تستهوى عشاقها وتجذبهم إليها . وقد افتتن بها كل من جاب فيها . افتتن بها وبعظمتها المتمثلة فى فضائها الواسع ، وسكونها العميق ، وحياة التنقل المحفوفة بالمخاطر . بل إنها هى تلك المخاطر التى تفتنه.

---

* تمييز الكلمات من عندى . «المحرر»

بل يفتنه الموت الكامن فى كل خطوة من خطواته .

سلونى إننى جربتها . فعرفت حُلْوها ومُرَّها تبسم فما أحلى ابتسامها . وتعبس فما أقسى عبوسها ، تضحك نجومها فتستهوى عابر سبيلها ، ويحتكم قضاؤها فى القلب فيوقعه فى أسرها.

ثم يسير مغتبط النفس هانئها سير المؤتنس بها ، المولع بجمالها ، المفتون هيامًا بها ، ولكنها كالغانيات شيمتها الغدر . فقد تريك بعد عام الرضا غاية الغضب ومنتهى القسوة . وبينا أنت آمن مطمئن إذ بك ضللت الطريق وفقدت الهدى وما أنس لا أنس ساعة ضللت الطريق فى رحلتى الأولى. فقد شعرنا بالشك وأضل نفس الدليل عن طريقه . ثم زاد الشك حتى شك الرجل فى نفسه ، ثم زاد الويل فسرى الشك إلى القافلة بأسرها . ثم تحول الشك يقينا مؤلما .

لكن قوة الإيمان وروح الضراعة والإخلاص ، دفعت إلى نفوسنا عاملا خفيا لم ندركه فدفعنا إلى حيث لاندرى فإذا نحن إلى جانب بئر كانت لنا بئر الحياة . ولا أنكركم يا سادتى أننى حقدت على الصحراء وأبغضتها ثلاثة أيام سويا ، وعاهدت نفْسى إن قدرت لنا السلامة أن لا أعود لدخولها بعد تلك المرة الأولى. لكنى قمت بعد ذلك ليلة من نومى لأشد حبال خيمتى فأبصرت البدر مطلا علينا ، فأخذنى حسنه وجلاله ، ونظرت للصحراء نظرة نسيت معها ما لاقيته فيها من الأهوال ، وما تجشمته من الصعاب .

وعاودنى حبها فعذرتها وغفرت لها ذنبها ونقضت عهد هجرانها. وهأنذا صحبتها مرة أخرى.

ففى هذا الطريق الذى أحدثكم عنه وفى المكان عينه ، وعلى مقربة من تلك البئر مررت مرة ثانية.

هذا هو سلطان الصحراء على عشاقها .

حاجات مجتاز الصحراء

سألنى كثيرون ما الذى يجب أن يتزوده مجتاز الصحراء ؟

يحتاج مجتاز الصحراء ، بعد الزاد طبعا إلى ثلاثة أشياء : الجمال والماء والخبير - لكنه فى حاجة إلى شئ آخر أعظم خطرا ، وأكبر قدرا ، وأهم من هذا كله . هو فى حاجة إلى

الإيمان. الإيمان الذى لاحد له . الإيمان الثابت الذى لاتزعزعه الشدة ولاتحركه الأهوال فالايمان وحده يبقى ويفوز *. أما الجمال فقد يستيقظ الانسان ضحى غد فيجد أحسنها نفق بالموت. وقد حدث فعلا عندما غادرت الكفرة أن نفق بعد الليلة الثانية خير جمالى. أما الجمل الهزيل الذى كنت أخشى أن ينفق بعد أيام قلائل فقد قطع معى ١٢٠٠ كيلو متر .

أما الماء فينقل على ظهر الإبل فى فناطيس أو قِرَب. والأولى متعبه لأنها تشغل الجمال سواء كانت ملأى أم فارغة . ولذا لم أحمل إلا ثمانية فناطيس ، وحملت سائر الماء فى قرب لأنها إذ خلت سهل حملها كلها على جمل واحد .

والماء عرضة للنفاد . تجفف الشمس جانبا منه فى القرب . ويحدث ليلا أن يجفل جمل فيطأ بخفه قربة أو اثنتين فتنفجران . أو يحتك جملان أثناء السير ليلا فتنفجر القرب أيضا ولايروى ماؤها إلا رمال الصحراء.

وأما الخبير فقد يضل الطريق لغمام أو نحوه ويقول إذا اخطأ السبيل : (دماغى طاحت) .

وأكثر هؤلاء الخبيرين يعرفون الطرق بعلامات يذكرونها ، فإذا فقد أحدهم علامة أو وجد أخرى غريبة أشكل عليه الأمر وحار فى أى طريق يسلك . وقد وقع لى فعلا فى طريقى إلى الواحتين اللتين اكتشفتهما ، أننا كنا نسير نحو الجنوب الغربى ، فلم تك إلا برهة حتى شعرنا بأننا نتجه نحو الشمال الشرقى ، وذلك لتلبد الغمام تلبداً منع الخبير من الاهتداء بالنجوم. ومن حسن حظنا أن ريحا شديدة كانت تهب علينا من الخلف فى البداية ، فشعرت بها تهب فى وجوهنا فأدركت أننا اتجهنا عكس طريقنا ، ولولا وجود البوصلة معى لما علم إلا الله مصيرنا .

أقول لكم هذا لأدلكم على أنه لاسبيل إلى اختراق الصحراء إلا بقوة الإيمان . ولن تجدوا أعرابيا واحداً يجتاز الدفن إلا إذا كان شديد الإيمان بالله .

صرعي غرام الصحراء

وأذكر أننى كنت فى رحلاتى الأولى ، كلما اجتزت شقة شاقة ووصلت مع رجالى إلى واحة أو بئر حيث الراحة والماء ، يدهشنى أن لا أرى على وجه العرب الذين معى فرحا زائداً وكل ما كانوا يصنعونه، أن كانوا يطلقون بنادقهم فى الهواء على عادتهم ، ولايعمدون لأكثر من هذا

---

* تمييز الكلمات من عندى . «المحرر»

لكنى لما تكرر ارتحالى أصبحت مثلهم ، لا اغتبط برحلة قطعتها ، لأنى كنت أشعر بأنى عاجز عن أن أقول بحق : إننى فعلت هذا بنفسى. لقد كانت ثمت أشياء تقف دونها حيلة الإنسان وحوله . لاتجدى فيها الشجاعة ولا الحذر ولا الإقدام . وإنما غلبتنا عليها عناية الله .

يقف الإنسان فى الصحراء على آثار كثيرة تشعر بأن كثيرين ممن هم أكفأ منه من الرحالين البدو أنفسهم قد راحو ضحية جهودهم ، وذهبوا صرعى غرام الصحراء . وهناك على مسيرة أربعة أيام من الكفرة جارة اسمها جارة الفضيل - والجارة التل الصغير- والفضيل هذا كان رجلا من أكفأ الخبراء الذين اجتازوا الصحراء بين جالو والكفرة . وهى من أصعب الدفف . وكان يضرب بالفضيل المثل فى الخبرة. وحدث فى رحلته الأخيرة أن قام هبوب فدخل الرمل إلى عينيه واضطر أن يعصبهما ، ولكنه بقى يستعلم ممن كانوا معه عن علامات فأخطأوا الوصف فأخطأهم الطريق إلى البئر ، ولم يكن معهم ما يكفيهم من الماء ليصلوا إلى الكفرة فماتوا جميعا على مسافة أربعة أيام منها ، ولولا جمل اعتاد الطريق وعاد إليها وعليه علامة الفضيل لما عرف شئ حتى اليوم عن القافلة .

ولما وصل الجمل قامت قافلة مسرعة لانجاد الفضيل ومن معه لكنها وصلت متأخرة بعد أن ماتوا عطشا . أما البضائع التى كانت معهم فدفنتها الرمال فى المكان الذى تركوها فيه ، ولم تكتشف إلا بعد خمس عشر سنة.

هذه يا سادتى مأساة واحدة . والصحراء ملأى بالمآسى التى تعجز دونها الشجاعة ، ويتلاشى بعدها الإقدام. وكل من دخل الصحراء ، من العرب ومن غير العرب ، دخلها وهو يتوقع هذا المصير فى يوم من الأيام.

عيشة البدو

أود بعد هذا أن أُحَدِّثكم قليلا عن البدو الذين اجتزت أرضهم وعشت بينهم.

للبدو خلال أورثتها إياها الفطرة . فالبدوى مثلا يأخذ ولايشكر . ويعطى ولاينتظر شكراً . وكنت فى سفراتى الأولى أتضايق من هذا الأمر كثيرا ، حتى عشت معهم فأدركت السبب . ذلك أنهم يعدون الناس شركاء لكلٍ فى كلِ ما معه ، وأنه شريكهم فى كل ما معهم أيضا .

هذه هى الاشتراكية الفطرية التى قضت المدينة الحديثة مئات السنوات فى صراع الطبقات للوصول إليها .

ومما أقصه عليكم على سبيل الفكاهة أنه جاءنى مرة سائل بدوى ، فوقف متكئًا على عصاه شامخًا بأنفه وسألنى : أعندك أرز ؟ قلت كلا . قال أعندك سكر؟ قلت كلا. قال أعندك شاى؟ قلت كلا قال أعندك دخان؟ قلت كلا . وكنت أرفض علما منى بأنى إذا أعطيته شيئا جاء كل من بالنجع يطلب نصيبه مثله . وبعد ذلك سألنى الرجل هل عندك خرق قديمة ؟ قلت كلا . فبصق على الأرض بكل ازدراء وسار رافع الرأس ، وقد خيل إلىّ أنه يقول فى نفسه : إذا كانت هذه حالك فلماذا تنصب نفسك شيخ قافلة وأنت أحوج للاستجداء منى ».

ويجب أن أقول لكم أيها السادة : إنى ما أعطيت أعرابيا شيئا وكان إلى جانب أحد إلا أشركه معه فيه .

أذكر مرة وقد قَلَّتْ المؤن وكنا نأكل نوعا من (المنين) تَحَجَّر حتى صرنا نسميه (الجنجان) وأعطيت أعرابيا واحدة لأرى ماذا هو صانع بها ، وكان معه رفيقان ، فعالجها بأسنانه فلم ينجح فدفعها إلى الثانى فلم ينجح ولم ينجح الثالث . فلما يئسوا من كسرها على هذا النحو ، عمدوا إلى تحطيمها بكرنافة البندقية ، ثم اقتسموها فيما بينهم.

وكنت أحيانا أعطى قليلا من التمر لبعض العرب الذين معى، والخبير أمامنا على مسافة كيلو مترين أو ثلاثة منا ، فكان الأعرابى يقطع هذه المسافة عدوا ، رغم الحر الشديد ومتاعبه ليعطى الخبير حصته قبل أن يأخذ هو نصيبه .

وهذا منتهي الدلالة على روح الكرم والاخاء والمساواة التى نشأت بين أولئك القوم بالفطرة.

والعرب من أكثر الناس احتمالا للمشاق وقدرة على السير. وإذا صح أن أفخر برجالى فى شئ فبالشجاعة التى أبدوها عند خروجنا من الكفرة . فقد كانوا يعلمون أنهم كما يقول العرب يسيرون إلى أعمارهم ، إذ ذبحت من قبل قافلة بأسرها خرجت من الكفرة منذ سنوات رئيسها بدوى من سكان الكفرة اسمه أبومطاوى وكان يسلك جزءاً من الطريق الذى سلكته فلما وصل إلى جبال ميدوب ، قرب حدود دارفور أكرمهم ملك ميدوب وأرسل لهم فى الليلة عينها رجالا من عنده ذبحوهم خلسة ، ولم يعلم شئ عن هذه القافلة إلا بعد ثلاث سنوات من نكبتهم بعد أن تداولت الأيدى تجارتهم التى استحوذ عليها ملك ميدوب بعد قتلهم وباعها للتجار ليتصرفوا فيها فى جهات أخرى من السودان .

ومن ذلك الحين تشاءم العرب من هذا الطريق ولم تجتزه بعد ذلك قافلة ، ومع هذا كله خرج رجالى معى وكانوا يعتقدون فعلا أنهم يسيرون إلى آجالهم.

الباعث على الرحلة

يتساءل بعضهم بطبيعة الحال لماذا قمت بهذه الرحلة وما الذى دفعنى إليها ولماذا اخترت هذا الطريق دون سواه ؟!

لكل رحّالة أيها السادة ميول خاصة تلذ له صعابها وأهوالها . فمكتشف القطب يحب السير فوق الثلوج وتحلو له الحياة فى المناطق المتجمدة . ومتسلقو الجبال يلذ لهم أن تتمزق أيديهم فوق حافات الصخور لايقعدهم الخوف من أن تزل بأحدهم القدم فيهوي . ومنهم من يستهويه فضاء الصحراء الفسيح ورمالها التى لايحدها البصر. وقد جذبنى حب الصحراء إلى التجول فيها . وخطر لى أن استثمر هذا الحب لفائدة العلم وفائدة بلادى. فبدأت سياحتى الأولى فى أواخر سنة ١٩٢٠م إلى واحات الكفرة مع الست روزيتا فوربس الإنكليزية التى أظهرت من الشجاعة والجلد ما يستحق الإعجاب . وبعد عودتى من هذه الرحلة عرضت نتائجها على مولاى الملك ، فصادفت من مسامعه العالية قبولا ، ووجدت من جلالته اهتماما خاصا كان لى أكبر مشجع على التفكير فى رحلتى هذه ، كما حبانى جلالته بأنعمه .

فعرضت على جلالته فى أوائل سنة ١٩٢٢ برنامج رحلتى هذه ، وهو اجتياز صحراء ليبيا كلها لمعرفة حدودنا الغربية لمصر والسودان ، فسر جلالته لهذه الفكرة ، وشجعنى عليها وأمر بمساعدتى فَمهّدت لى الطرق.

ويصح أن أذكر أنه لم يسبق لأحد من قبل أن اجتاز صحراء ليبيا من الشمال إلى الجنوب.

غير أنه إذا صح أن يُسجَّل فضل وفخر للرحّالة الألمانى رولفس الذى ذهب إلى الكفرة منذ ٤٤ عاما وكان يريد اجتياز الصحراء إلى دارفور من الدرب المعروف للقوافل ، كما كان برنامجى قبلا ، ولكن العرب منعوه فى الكفرة حينئذ ، وحطموا آلاته ومزقوا أوراقه العلمية، ولسوء الحظ لم ينجح فى مهمته ، ومن ذلك الحين لم يُقْدِم على صحراء ليبيا مكتشف حتى ذهبت مع مسز فوربس إلى هناك.

خط سير الرحالة

وها هو أيها السادة بكل اختصار خط سيرى أعددت عدتى فى السلوم ، وكنت عازما على التوجه إلى الجنوب ، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، وسمعت أنى يراد بى وبقافلتى السوء فى الطريق ، فتركت هؤلاء الجماعة الذين تآمروا علىَّ ، واتخذت غيرهم إلى سيو ، إذ لم يقبل أحد أن يوصلنى إلى الجغبوب مباشرة.

قمت من السلوم يوم ٤ يناير سنة ١٩٢٣ ووصلنا إلى سيوه بعد ثمانية أيام ، فأقمت بها ثلاثة أيام ثم قمنا إلى الجغبوب ، ولايفوتنى أن أذكر إنى رأيت على مقربة من سيوه معبد الآمدية ، أقامه قدماء المصريين هناك ، مما يدل على أن مصر الفراعنة كانت على اتصال بالصحراء وواحاتها ، وهو معبد لايرى الناظر إليه ذلك الجمال الذى يراه يفيض على معابد طيبة ومنفيس . وربما كان ذلك لعدم اكتشاف أسراره وتبيِّن حجارته وجمال رسومه .

الوصول إلى جغبوب

ولم يحدث أمر ذو خطر بين سيوه والجغبوب إلا مقابلة الأمير السيد إدريس السنوسى وهو فى طريقه إلى مصر . وقد استبشر أفراد القافلة برؤية سموه ، ولاسيما أنى توسطت لهم فى الفاتحة فقرأها عليهم فكان سرورهم عظيما. ووصلنا إلى الجغبوب بعد مسيرة أربعة أيام وكان الطريق بعضه جبلى وأغلبه رملى . ولم نلق مشقة إلا فى الطريق القريب من المستنقعات ، لأن الجمال كانت تغور أخفافها فيها ، ولحسن الحظ كانت مسافاتها قصيرة.

أما الجغبوب فواحة صغيرة لاتحتوى إلا على معهد علمى كبير حول قبر سيدى ابن السنوسى الكبير مؤسس الطريقة السنوسية ولايسكنها إلا طالب علم أو متعبد.

أقمنا بها أربعة وثلاثين يوما لأنى لم أجد جمالا توصلنى إلى المرحلة الثانية- وهى واحة جالو وذلك بأن الذين كانوا معى رفضوا التوجه إليهم ، ولم أجد غيرهم حتى أوقعتنى الصدفة بقافلة متجهة إليها ، فقطعت المسافة فى أحد عشر يوما . وأهم ما رأينا غابة متحجرة قرب بئر أبو سلامه ، على مسافة يومين من الجغبوب وقد أتيت بقطع منها .

سموم الرياح

وكان الجو أثناء الطريق رديئًا . فكانت تهب علينا كل يوم سموم إذا هبت أثارت الرمال فعاقتنا بعض الشئ عن المسير ، ثم تشتد فاذا بها صرصر عاتية ، تحرمنا كل شئ ، فإن وقفنا غطتنا الرمال وأتلفت حوائجنا ، وإن سرنا لم نر اتجاهنا بالضبط ، لكنا فضلنا دائما سير الهوينا على الوقوف . وقد كانت هذه الريح تعصف ليلا فتقتلع خيامنا ، وتحدث صوتًا وجلبة كزوبعة البحار فلااستطيع النوم ، وفى الصباح نجد الرمل قد دخل كل شئ حوته راحلتى من زاد وطعام وملبس.

الوصول إلى جالو

وفي يوم ٥ مارس سنة ١٩٢٣ وصلنا إلى جالو . وهي من أكبر واحات برقة ، غنية بنخيلها ومشهورة بتجارها . وأكثر أهلها من قبيلة المجابرة . وهم تجار الصحراء يترددون على برقة وطرابلس ومصر . وأكثر تجارتهم مع السودان ، ومنازلهم تشبه منازل قري مصر. وبواحة جالو قريتان : اللبة والعرق . تبعد الواحدة عن الأخرى كيلو مترين تقريبا .

وفي جالو أعددت عدتي للسفر الطويل، وهنا أيضا كنت موضع عناية صديقي السيد إدريس ، ولقيت من رجاله كل مساعدة وتسهيل . وقمت منها يوم ١٥ مارس في قافلة . هي القافلة الرابعة التي صاحبناها ، ولايمكنني في وقت قصير أن أذكر لكم شيئًا عن سيرة هؤلاء أكثر من أنهم بريئون من عيوب المدينة محرومون من أكثر نعمها . وبما أن دينهم الإسلام فخلقهم وتشريعهم وأحوالهم الشخصية شبيهة جداً ببدو مصر.

الوصول إلى الكفرة

بعد جالو أخذنا الماء من بئر «أبو الطفل» وشققنا قلب الصحراء في طريقنا إلى الكفرة وهي طريق قحلاء جرداء قطعناها في أسبوعين .

وفي الكفرة أقمت أربعة عشر يومًا أعددت فيها عدتي وأعدت فيها تنظيم قافلتي وكنت مدة إقامتي في ضيافة السيد العابد السنوسي ابن عم الأمير السيد ادريس.

اختيار الطريق المجهول واكتشاف واحتين

وكان عزمي الأول أن اجتاز صحراء ليبيا بواسطة الدرب المطروق للقوافل التجارية ما بين شاطئ أفريقيا الشمالي وأواسط أفريقيا . وكان الجزء المهم الذي لم يكتشف من الطريق يقرب من ٣٥٠ كيلو متراً وهي الجهة الممتدة بين الكفرة وشمال واداي . فلما بلغت الكفرة علمت أن الفرنساويين وصلوا إلى أول بئر من الآبار الثلاثة الموجودة ، وبذلك قصروا المسافة التي لم تكتشف فرأيت والحالة هذه أن اخترق الجزء الجنوبي من صحراء ليبيا في طريق غير معروف، لم يسبق لمكتشف اجتيازه ، خصوصًا وأنه يقع على حدودنا الغربية للسودان . وتوصلت بذلك إلى قطع ٧٥٠ كيلو مترا لم يطرقها رحّالة من قبل ، وعثرت على واحتي اركنود* والعوينات اللتين لم تكتشفا من قبل.

---

* في كتابه «في صحراء ليبيا» ذكر الرحّالة «أحمد محمد حسنين باشا «أركنو» «المحرر»

وبين هاتين الواحتين وجميع الواحات التى مررت بها فرق شاسع ، فجميعها تسقى من الآبار ، أما هاتين فسقياهما من خزانات صخرية طبيعية تحفظ مياه الأمطار . وجميعها فى منخفض من الأرض إلا هاتين الواحتين ، فهما فى مستوى الطبيعة تكتنفهما الجبال من الجهات الأربع وقد استلفت نظرى عدم وجود نخيل بها ، إلا أن سكانها يأتون بالتمر من الكفرة وطعامهم العادى هو التمر مخلوط ببذر الحنظل والجراد واللبن . أما الجراد فعافته نفسى ولم أذقه . أما الحنظل فيغلى بذره فتذهب مرارته ، ثم يحفظ ويُدَق مع التمر فى هاون ويعجن وهكذا يأكلونه .

فتعالى الله : يترك هؤلاء الناس بلاد الله العامرة إلي هذا البلقع القفر فيحرمون من كل ما نسميه ثروة ولذة ، وهم مع ذلك سعداء . ليلهم سمر. ويومهم غبطة . بالرغم من الفقر المدقع ومنتهى شظف العيش ، ولايرضون بوطنهم أى بلد آخر. وكذلك حبب الله الأوطان لأهلها.

ولايقيم فى أركنود إلا بعض بيوت من البدو الرحل يأتون إليها من العوينات طلبًا للمرعى، ولا يقيمون فيها طويلاً لأن ماءها جيرى غير سائغ الطعم . ولقد شربنا منه مدة إقامتنا بها خمسة أيام مضطرين ، ولذلك أصاب جمالنا الهزال من ماء طريق الكفرة إليها. أما العوينات فيبلغ سكانها ١٥٠ نفسًا من قبيلتى التبر والجرعان ، ويأوى إليها الفارون من وجه القضاء من البلاد المتحضرة المحيطة بالصحراء.

ولقد دهشت غاية الدهشة إذ رأيت فى تلك الواحات النائية نقوشًا ورسومًا على الصخور المكتنفة وديانها. نقوشًا لحيوانات كثيرة مثل الزرافة والأسد والغزال والبقر. لكنى لم أجد حيوانًا معينًا هو مركب الصحراء أجل أيها السادة . لم أجد صورة الجمل على هذه الصخور. فهل الجمل لم يكن عُرِف وقت هذا الرسم فى الصحارى. وإن لم يكن معروفا فكيف وصلوا إليها والمسافات التى بينها وبين الواحات الأخرى لايمكن قطعها إلا على ظهور الجمال . ورأيى الأول قبل فحص الموضوع فحصًا علميًا ، هو أن هذه الواحات لم تكن منفصلة عن بعضها فى ذاك الوقت ، بل كان يتخلل المسافات أرض خضراء ، وواحات قد غطتها الرمال. وسأجتهد أن أوفى الموضوع حقه فى كتابى عن هذه الرحلة.

الوصول إلى السودان عن طريق جبال أرداى

أيها السادة . إنى أخشى أن أكون قد أطلت عليكم وأثقلت ، ولذلك سأختصر اختصاراً كليا.

بعد العوينات قَصدتُ السودان عن طريق جبال أردى بعد مسيرة عشرة أيام ، ذقنا فيها الأمَرّين لعدم وجود مياه فى الطريق طول المدة ، ولاشتداد الحرارة وخروج الصيف علينا بأشواظ من نار. وهواءهو اللافح . ومن العجيب أن ذلك جرى فى المنطقة التى هى الحد بين موت الصحراء وحياة الوديان . فقد بدأنا نأتنس بالأعشاب والحشائش ، ثم بالشجيرات، فالشجر. وظهرت بشائر العمار من ظباء إلى نعام إلى إبل ، وسمعنا عواء الثعالب والضباع ورأينا حجرة الأسُوُد ، وصرنا نعثر بعد جبال ارداى على آبار يفصلها عن بعضها مسيرة أربعة أيام أو أقل - ثم ظهرت جبال السودان مكسوة بالخضرة ، ودخلنا دارفور عن طريق (فارديه) فأرسلت منها رسولا إلى مدير دارفور وعرضت عليه حالنا ، وطلبت منه المعونة ، فاهتم غاية الاهتمام وأرسل مسرعا نجدة تحمل إلينا سُكّراً أو شايا وأرزاً ودقيقًا ، فتقبلناها بشوق ولهف عظيمين ، لحرماننا منها طول الشهر الأخير من اجتياز الصحراء.

ثم وصلنا الفاشر يوم ١٩ يونيه وهناك أكرمنا مديرها أى اكرام والحق يقال : إنا لم نَسِرْ بعد ذلك فى جهة من جهات السودان إلا لقينا حفاوة وإكراما. وقد احتفل بنا أيضا مدير كردفان وضباط وموظفوا المديرية فى الأبْيَضّ . ومن هناك ركبنا القطار إلى الخرطوم فأكرمنا سعادة نائب حاكم السودان وكبار الموظفين والضباط، واحتفلت بنا نوادى الخرطوم فأنسونا ما قاسيناه فى الصحراء ، فلهم منى جميعا عظيم الشكر وجزيل الامتنان .

المسافة المقطوعة

هذا هو ملخص خط السير في رحلتى . وقد قطعنا علي ظهّر الابل ٣٧٠ كيلو متراً تقريبًا[١] فى ستة أشهر ونصف . وقد زاد فائدة رحلتى العلمية أننى كان معي آلة التيودوليت لمعرفة المواقع الجغرافية بالضبط ، لجميع الأماكن التى مررت بها ، فأصبح من المتيسر الآن وضع خريطة دقيقة لصحراء ليبيا حسب الجغرافية الحديثة ، وهو ما لم يكن مستطاعا من قبل.

١- المسافة التى قطعها أحمد حسنين باشا بالقافلة «٣٥٠٠كيلو مترا» كما ذكر خاتمة فى كتابه م.ن ص٢٨١ .

بمقابلة نص خطبة أحمد محمد حسنين باشا المنشورة فى «السياسة» بالنص الذى نشر فى الأهرام، لاحظت أن الفقرات الموجودة فى الهامش وكذا الخاتمة لم ترد فى الخطبة، فأثبتها فى الهامش : المحرر

ويضاف إلى ما تقدم اكتشافات أخرى أرجئ التكلم عنها إلى أن استوفى بحثها من الوجهة العلمية (١).

وفي الختام لايفوتني أن أذكر رجالاً أشداء ثابتي الإيمان مخلصين لصاحبهم خرجوا معي إلى حيث لايعلمون وعادوا بحمدالله جميعا سالمين .

١- وقد وفقت إلى جمع عينات جيولوجية لطبقات الأرض التي مررت بها وسيتولى فحصها المعهد الجيولوجي بمصر ويضع تقريراً عنها .

ويسرني أن أقول : إن الصور الفوتوغرافية التي أخذتها، لاسيما الجهات التي لم تكتشف من قبل نجحت تمامًا رغم بقائها زمنا طويلاً دون تحضير، وأتعشم أن أتمكن من عرضها على حضراتكم في الوقت المناسب.

وأرجو المعذرة إذا كنت قد أغفلت ذكر تفاصيل عن رحلتي ، سأبسطها كلها في التقرير الذي سأشرف برفعه إلى مولاي الملك، بعد جمع النتائج العلمية للرحلة ، وسيقدم التقرير التفصيلي للمؤتمر الجغرافي الذي سيعقد في مصر سنة ١٩٢٥ .

ولايفوتني أن أذكر رجالاً أشداء ثابتي الإيمان، مخلصين لصاحبهم ، خرجوا معي إلى حيث لايعلمون وعادوا بحمد الله سالمين. أولئك هم رجال قاموا بنصيبهم من العمل على أتم وجه ، وأخص منهم بالشكر عبدالله أحمد وأحمد طه، فقد رافقاني في رحلتي من أولها إلى منتهاها بروح الفداء والإخلاص، وكذلك السيد الزروالي الذي صاحبنا من جالو إلى القاهرة فكان لي أكبر معين وخير رفيق.

هذه كلمة عن رحلتي أيها السادة ونتائجها . وإذا كان هناك فضل في القيام بها ونجاحها فهو ، كما قلت لكم، لجلالة مولانا الملك حفظه الله وكتب لهذه البلاد السعادة على يديه .

الأهرام ٢٩ أغسطس ١٩٢٣، ص٢ .

٤- تكريم الرحّالة المصرى

فى كازينو سان ستيفانو *

الاسكندرية فى ٢٧ أغسطس (١٩٢٣) لمراسل الاهرام

لم يجتمع أمراء مصر ووزراؤها وكبار موظفيها وأعيانها وكبار أدبائها ، فى حفلة من الحفلات ، اجتماعهم فى الحفلة التى أقيمت مساء أمس فى كازينو سان ستيفانو برمل الأسكندرية ، تكريما لحضرة الرحّالة المصرى (أحمد) ** محمد حسنين بك . ولاغرو بذلك فإن المآثر التى تؤتى لخدمة العلم والاجتماع والوطنية ، تجتذب الميول والأفكار وتدعو الناس لسماع أخبارها ومشاهدة ما عليها، وليكون إقبال ذوى الأفهام والمكانة على ذلك بقدر أهمية العمل، وما يكون قد تطلبه من الجهد والتضحية .

ولاشك بأن رحلة حسنين بك كانت بذاتها مأثرة من المآثر العصرية الكبيرة ، من هذا القبيل.

أقيمت الحفلة في الساعة الثامنة مساءً ، واستمرت إلى نحو منتصف الساعة الثانية عشرة. وكان سرور المدعوين فى آخرها كسرورهم فى أولها، لأن الخطب التى ألقيت فى موضوع الرحلة الصحراوية ، ومدح الرحّالة ، كانت لطيفة الوقع على المسامع . وكان المكان جميلاً، والمائدة فاخرة ، والخدمة متقنة . وكل شئ كان مناسبًا إلا ما كان بين هذه الحفلة وبين الصحراء التى اجتازها حسنين بك من صلة ، فكل ما كان فيها كان حسنا لطيفًا ، وكل ما فى الصحراء خشن متعب .

كانت الحفلة تحت رعاية جلالة الملك ، وتحت رئاسة صاحب المعالى جعفر ولى باشا. وقد حضرها من الأمراء الأجلاء أصحاب السمو الأمير عمر طوسون ، والأمير جميل ، والأمير حيدر. ومن كبار رجال الدولة جميع الوزراء الحاليين، وصاحب الدولة حسين رشدى باشا ، وصاحب الدولة عدلى يكن باشا وأصحاب المعالى والسعادة محمود فخرى باشا ، وطلعت باشا ، وعبد الرحمن رضا باشا ، وسيف الله يسرى باشا ، وحسن أنيس، باشا ، والدكتور

---

* نشرها الأهرام فى العدد نفسه .

** سقط الاسم من الأصل .

شاهين باشا، ومقبل باشا فى محافظ الاسكندرية، وإنجرام بك القائم بأعمال الحكمدار ، وصفوت باشا مدير البلدية العام، وبعض أعضاء القومسيون البلدى ، وبعض القضاة ، وكثير من الأعيان والأدباء.

وقد افتتح الحفلة جعفر ولى باشا بخطبة أشار فيها إلى ما أقدم عليه حسنين بك من المتاعب والمخاطر فى اجتياز الصحراء ، ذاكراً أنه أول مصرى يخاطرها المخاطرة ، ويجوب الصحراء بقصد الاكتشاف وخدمة العلم والحقيقة. وذكر شيئًا عن شأنه ، وميله إلى مثل هذا الأمر، ورجا أن تكون رحلة حسنين بك فاتحة عصر جديد لمصر ، وأن تكون مصر قد بدأت بمجاراة البلدان الأوروبية التى تُخَرِّج كثيرين من المكتشفين ، وطلاب الحقائق العلمية والفنية والجغرافية لخدمة الهيئة الاجتماعية.

ثم تكلم حضرة سعيد لطفى بك من مفتشى الداخلية، وأطرى مناقب حسنين بك، ذاكراً ما يعرفه شخصيًا عنه، إذ كان زميله فى المدرسة ، وعن استعداده للأعمال الاكتشافية ، والقيام بما يستدعى الهمة والنشاط والإقدام.

ثم وقف حضرة الرحّالة وألقى خطبة شائقة نشرناها فيما بعد .

وقد ألقى حضرة الأستاذ الدكتور محجوب بك ثابت قصيدة غَرَّاء بديعة من نظم أمير الشعراء شوقى بك .. وألقى حضرة محمد ألفى بك ترجمة خطاب الرحالة باللغة العربية . إذ كان المدعون من الأوربيين والأمريكيين يتوقون إلى سماع كلام يفهمونه عن الرحلة، فكانت تلاوة الترجمة فى عين محلها .

ولقد كانت مس فوربس تنازع حسنين بك فخر اجتياز الصحراء إلى جغبوب والكفرة فى المدة الأخيرة . ولكن هذه الرحلة أثبتت تفوقه ، وإقدامه الشخصى وثباته، فهو جدير بكل تكريم وبكل مدح وثناء والمفهوم أنه سيكتب كتابًا عن رحلته الجديدة يثبت فيه تفاصيلها . ولاشك أن مثل هذا الكتاب يتلقاه الناهضون بكل شوق وسرور.

٥- تكريم الرحالة المصرى*

قال وكيلنا الأسكندرى:

أقيمت الحفلة الشائقة لتكريم الرحّالة المصرى صاحب العزة أحمد بك حسنين فى كازينو سان ستفانو فى الاسكندرية ، تحت رعاية جلالة الملك ، وبرئاسة صاحب المعالى جعفر ولى باشا فحضرها صاحب الدولة رئيس الوزراء بالنيابة عن جلالته ، وحضرات أصحاب السمو والأمير عمر طوسون والأمير حيدر ، والأمير جميل ، وصاحبا الدولة حسين رشدى باشا وعدلى باشا يكن ، وأصحاب المعالى محمود فخرى باشا ، ومحمد إبراهيم باشا ، وطلعت باشا ، وأصحاب السعادة عبد الرحمن باشا رضا ، وسيف الله يسرى باشا ، وحسن أنيس باشا ، وحسن نشأت باشا ، والدكتور شاهين باشا ، ومحمد صفوت باشا ، ومحافظ الاسكندرية ، والسيد عبد الحميد البكرى ، وجناب المستر سكوت القائم بأعمال دار المندوب السامى ، وسفراء الولايات المتحدة ، والمانيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، وعدد غفير من العظماء والأعيان والأدباء يضيق المقام عن ذكرهم.

وبعدما تناولوا المرطبات على موائد فاخرة مُدَّتْ لهم فى الكازينو ، فتح صاحب المعالى جعفر ولى باشا الحفلة بكلمة رشيقة استهلها برفع آيات الشكر لجلالة المليك المعظم ، لتفضله بوضع الحفلة تحت رعايته الملكية ، ولحضرات أصحاب السمو الأمراء ، وأصحاب الدولة، والمعالى الوزراء وسائر الحاضرين ، لتكرمهم بتلبية الدعوة ثم ابان فضل المحتفل به ، وأنه أول مصرى وجد فى نفسه وحدها دافعًا إلى المغامرة بحياته للقيام بالعمل العظيم الذى أتمه فَلَبَّى نداء هذا الدافع ، فقاسى المتاعب والمشاق وذلل المصاعب ، واقتحم الشدائد بجنان ثابت ، مدفوعًا بالرغبة فى رفع شأن وطنه وأعلاء مكانته بين الأمم . قال «يخرج من مصر فى كل [عام] ألوف من المصريين قاصدين أوربا للسياحة ولكن لم يخطر لأحد أن أوربا ليست العالم كله ، وأن الأجدر بنا أن نرود البلاد والأقطار المحيطة بمصر قبل غيرها من الممالك. إن مركز مصر الجغرافى يجعلها حلقة الاتصال بين ثلاث قارات ، وأن أول إقليم يجدر بنا السياحة فيه هو حوض نهر النيل المبارك معيب علينا أن لانستطلع خفايا هذا الإقليم بأنفسنا ، ومعيب علينا أن نرجع فى ما نعلمه عنه إلى ما حققه واكتشفه الأوربيون» وأشار إلى الحبشة التى هى

---

* المقطم ، الأربعاء ٢٩ غسطس ١٩٢٣، ص٥ .

توأم مصر في الاستقلال في جميع قارة أفريقية. فقال : ومن منا خطر له أن يزور تلك المملكة التي تربطنا بها علاقات تاريخية ولغوية ويجمعنا وإياها صعيد واحد ، هو حوض النيل الذي هو منبع حياتنا . فمهما كانت النتائج العملية التي تعرَّض لها المحتفل به، فإنه ألقى علينا درسًا نافعًا ورجا أن يكون عمله فاتحة عصر جديد في الاعتماد على النفس وصدق العزيمة.

وتلاه حضرة الفاضل سعيد بك لطفي فأتى على سيرة حياة المحتفل به ، وبيان البواعث التي دفعته إلى القيام برحلته ، فأجاد وأفاد في ذلك غاية الإجادة.

ثم نهض حضرة الدكتور محجوب ثابت بك وأنشد قصيدة غراء من نظم سعادة أحمد بك شوقي قوطعت بتصفيق الاستحسان.

وبعد ذلك نهض حضرة المحتفل به فاشرأبت إليه الأعناق ، فخطب خطبة بديعة أخذت بمجامع القلوب ، ضمَّنها تاريخ رحلته وما لقيه فيها وما وُفِّق إلى اكتشافه من الواحات، والطرق التي اجتازها ، والأماكن التي وُفِّق إلى تعيين مراكزها الجغرافية إلى غير ذلك من المعلومات الجغرافية ، والنباتية ، والحيوانية ، والجيولوجية . واستهل خطبته وختمها برفع واجب الشكر والامتنان لجلالة المليك المعظم الذي شمله بعطفه ورعايته ، وللحاضرين من الأمراء والوزراء والعظماء . وعقبه حضرة محمد بك أنسي فترجم خطبته إلى اللغة الفرنسوية.

وخرج المدعون وهم يتحدثون بجمال هذه الحفلة ، وما سمعوه فيها من الخطب الرنانة ، وفرائد القصائد والمعلومات العلمية الحديثة ، ويُبْدُونَ مظاهر الإعجاب بالمحتفل به ، وثبات جنانه، وشدة عزيمته ، وشجاعته الأدبية وما فق إليه من الاكتشافات التي تكسب المصريين حسن السمعة وتعلي مكانة مصر بين الأمم المتمدنة .

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

٦- «فى صحراء ليبيا»

لأحمد حسنين *

الدكتور زكى مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

هتفتُ وأنا أهمُ بكتابة مقال عن هذا الكتاب، لأنه صعب المنال، ولأن المقدمة التى حبَّرها لطفى باشا السيد لم ترشدنى إلى طريق تقديمه إلى القراء، وأنا أرجو أن تنفعنى بركة «البسملة» فأسجل بعض ما سنح من الخواطر عند قراءته السريعة ، وهى جهد المقل فى ثلاث سهرات .

الرحلة :

هى رحلة قام بها حضرة صاحب المعالى أحمد محمد حسنين باشا سنة ١٩٢٣ من السلوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، إلى الأُبَيِّض عاصمة مديرية كردفان بالسودان ، وهى مسافة قدَّرها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر قُطعت على ظهور الإبل، وفيها وُفق الرحَّالة إلى كشف واحتين مجهولتين هما «أركنو» و«العوينات» وكانتا غير معروفتين قبل ذلك للجغرافيين.

وقد سُطِّر تاريخ هذه الرحلة فى نحو أربعمائة صفحة بالقطع المتوسط، وهى مقسمة إلى جزأين ، وفيها كثير من الرسوم العلمية والجغرافية .

شخصية المؤلف:

هو رجل لم تلده ولأَدة ، كما يعبِّر أهل مصر حين يصفون فتى من النجباء . وقد حَدَّثنا هذا الفتى عن أهله، فلم نعرف إلا أن أباه كان من علماء الأزهر الشريف، وقد تلطف لطفى باشا السيد فحدَّثنا أن جد المؤلف كان من الباشوات ، ولم يذكر أية صفة نال ذلك الجد رتبة الباشوية ، وأغلب الظن أنها الباشوية التى كانت تمنح لرجال الجيش، فإن لم تكن كذلك فهى باشوية لم تقض على وارثى جاهها الفخم بمحنة الترف واللين، وإنما أورثت حفيدها القدرة على

---

* الرسالة : العدد ٣٩٠ ، ٢٣ ديسمبر ١٩٤٠، ص١٨٤٣ .

أن يقول : إن أهله كانوا من ساكنى البادية ؛ وعلى أن يقول : نحن أهل الصحراء لايغنينا النوم عن العشاء .

وقد كان أحمد حسنين فى كل أدوار ماضيه من نماذج الفتّوة واللوذعية ، عاش فى انجلترا حينًا فكان صورة للفتى الموسوم بالبراعة والشهامة والصدق والجاذبية ، ولم يمنعه تحضره من الاتصال بالبادية ، فاعتمد عليه أيام الحرب الماضية فى السفر إلى الصحراء الغربية للاتفاق مع زعمائها على رعاية واجب الجوار فى احترام الحدود.

ثم طوحت به همته إلى اختراق تلك الصحراء ليكشف واحتين كان لهما فى أذهان أهل البوادى خيال، ولم يكشفهما أحد من قبل، فكان التوفيق من حلفائه الأوفياء.

ثم أراد أن يكون طياراً ، ولكن الحوادث أرادت غير ما يريد، فقد طار من انجلترا إلى إيطاليا ، ثم سقطت طيارته، فأصلحها وطار، ثم سقطت فأصلحها وطار، وقد صمم على أن يدخل مصر طائراً ولو سقط بطيارته فى جوف المحيط، ولكن برقية كريمة صدرت إليه بوحى من الملك فؤاد ، فقهرته الطاعة على أن يدخل مصر وقد امتطى الماء، لا الهواء، وتلك أعظم محنة عاناها ذلك العربى الصوال .

الإنسان الكامل

وما أريد الإنسان الكامل فى اصطلاح الصوفية ، وإنما أريد القول بأن أحمد حسنين كان رجلاً كامل الرجولة حين اخترق الصحراء فى سنة ١٩٢٣ ، والرجولة التى أعنيها هى الرجولة المبرّأة من شوائب الضعف والغفلة والقنوط. كان أحمد حسنين فى ذلك العهد رجلاً بكل معنى الكلمة : كان بدويًا فى مواطن البداوة، وحضريًّا فى معاهد الحضارة . كان حليما فى أوقات الحلم، و جاهلاً فى أوقات الجهل ، فكان له فى كل حالة لبوس، وكان فى جميع أحواله صورة من الرجل الذى يرى الخلق الصحيح فى رياضة النفس على مسايرة ظرف المكان والزمان.

ومن المؤكد أن رحلة الصحراء نفعته فى مركزه الحاضر، وهو رياسة الديوان بقصر جلالة الملك، فقد وصفته مجلة «آخر ساعة» وصفًا هو أعجب الأوصاف ، حين قالت : إن أحمد حسنين يتمتع بأعظم المواهب السياسية ، لأنه أقنع الجميع بأنه رجل غير سياسى[١].

١- السياسة فى الأصل رياضة الخيل، مشتقة من سوس بالعبرية وهو الفرس.

وأعود إلى تأثير الصحراء فى عقل أحمد حسنين فأقول : عاش هذا الرجل نحو ثمانية أشهر فى ظلال المخاوف والحتوف ، وكانت الريب تحيط به من كل صوب ، وكانت الثعابين تداعبه من حين إلى حين ، وكان يُؤثر سُرى الليل ليتجه بصره إلى ناحية واحدة، ومن هنا عرف أن الظلمة قد تنفع (والسياسى يعيش في عوالم من الظلمات ولو سطع النور حول أغراض السياسى لتخاذل وضاع) .

الرحالة : لا يدلنا كتاب أحمد حسنين على أنه كان رجلاً من المُترفين حين قام بتلك الرحلة العاتية، وإنما يشهد كتابه بأنه كان رجلاً من صميم البادية . كان رجلاً يهمه أن يقيم البراهين على أنه لم يتعلم فى جامعة أكسفورد غير حزم الأمتعة ، والتعرف إلى مواطن الخوف والرجاء فى مفاوز الصحراء.

هو فلاح متحضر ، فهو لذلك أذكى الرجال وأعقل الرجال وقد عرف هذا الفلاح المتحضر فى البادية من مكر ودهاء، فهو يلبس حُلة ذكائه فى كل وقت ، ويشتمل بثوب مكره فى كل حين.

وما ظنكم برجل تحيط به الشكوك من جميع الجوانب ، وهو فريد وحيد ، ثم ينتصر بلا مشقة ولاعناء ؟

ذلك هو أحمد حسنين الذى ائتمنه الملك فؤاد واصطفاه الملك فاروق، ومن الصعب جداً أن يكون الرجل أهلاً لثقة الملوك ، فذلك مقام لايظفر به إلا الأقلون من أعاظم الرجال .

وقد فَطِن أسلافنا إلى أن صحبة الملوك تحتاج إلى تثقيف خاص، فوضعوا المؤلفات الطوال فى التعريف بما يجب أن يتحلى به أمناء الملوك من شمائل وآداب. وهذا الفن من التأليف لم يكثر إلا فى العصور التى ازدهرت فيها الحضارة العربية والإسلامية، وإنما كان ذلك لأن ازدهار الحضارة يزيد فى مشكلات المجتمع من النواحى الذوقية والاجتماعية ، وتلك حال تزيد فيها تبعات من يتصلون بالملوك، لأنهم عندئذ يكونون صلة الوصل بين الحاكمين والمحكومين ، وعلى ذكائهم وبراعتهم وإخلاصهم ، يرجع الفضل فى حل أكثر المعضلات ... فمن خَطَل الرأى أن يظن بعض المتعاقلين أن إكثار أسلافنا من التأليف فى هذه الشؤون دليل على أنهم كانوا يعيشون فى عصور الاستبداد .

أغراض المؤلف

للمؤلف فى ظاهر الأمر غرض واحد : هو تسجيل رحلته فى الصحراء ، ولكن من الذى يقف به القلم عندما كان يريد؟ إن النفس تنفتح عند حمل القلم من وقت إلى وقت، وتتنادى خواطرها من فصل إلى فصل ، فإذا بلغ القلم نهاية الشوط كانت النسبة بين ما ابتدأ به وما انتهى إليه كالنسبة بين النواة الضامرة والسَّرحة اللفَّاء.

يقع كتاب أحمد حسنين فى عشرين فصلاً، وله فى كل فصل مجال خاص، وفقًا لاختلاف الأغراض.

فالفصل الأول عن الصحراء من نواحيها المادية والروحية، وفى هذا الفصل كلام يقوله كل الناس، إلا كلامه عن الشوق إلى ما فى الصحراء من متاعب وصعاب ، ولاتظهر قيمة هذه النزعة لمن يقرأها فى الفصل الأول إلا حين يعانى وقدها في الفصل الأخير ، ذلك بأنها تواجهه أول مرة وهى أشبه بالفلسفة الروحية ، والناس قد يقرأون الفلسفة هادئين ، ولكن هذه النزعة لاتواجه القارئ فى الفصل الأخير ، إلا بعد أن يكون شارك المؤلف فى الأنس بالصحراء، وعندئذ يحق له أن يتوجع لبلواه حين يقول وقد وصل إلى دار الأمان:

«وَدَبَّ فى نفوسنا جميعًا دبيب الابتهاج بعودتنا إلى الاتصال بحياة الحركة، ولكنى شعرت حين انقلبت إلى فراشى بوخزة حزن فى قلبى، لأن ذلك اليوم كان آخر أيامى فى الصحراء، ورأيتنى أضيف إلى صلوات شكرى دعاء خالصًا اسأل الله فيه أن يُقَدِّر لى العودة إليها يومًا من الأيام».

وفى **الفصل الثانى** يتكلم المؤلف عن وضع خطة الرحلة فيقول كلامًا يقوله سائر الناس، لكنه يفاجئك بكلام نفيس عما صنع أبوه رحمه الله، وهو يزوِّده بالبخور والدعوات الصالحات ومن كلامه عرفت أشياء من عادات العرب فى التأهب للرحيل .

وقد أطنب المؤلف فى الثناء على أبيه ، ثم أعرب عن فجيعته لوفاته بعبارات لاتصدُر إلا عن نجباء الأبناء، وما مات من خلَّف مثل أحمد حسنين .

وفى **الفصل الثالث** يقف المؤلف موقف المعلم لمن يحاولون اختراق الصحراء ، فَيقدِّم من المعارف الضرورية للمغامرين أشياء يحتاجون إليها أشد الاحتياج .

وفى **الفصل الرابع** تظهر طلائع المخاوف ، ونرى كيف يضطر الرحالة إلى تغيير خطة السير لينجو من مكايد الأعراب.

وفـى **الفصل الخامس** يتحدث المؤلف عن السنوسيين بكلام ينهض على قواعد علمية، فيذكر تاريخهم بإيجاز ، ويشرح عقائدهم بالتفصيل ، ومن الواجب أن يدرس الطلبة هذا الفصل ، لأنه من عيون الكتاب ، ولأن موضوعه يهم أعضاء لجنة الامتحان «وهنا أذكّر الطلبة بأن الامتحان له قواعد، ومن أهمّ قواعده أن ترد أسئلة فى الموضوعات الرئيسية ، فمن واجب كل طالب أن يُعنى عناية شديدة بالموضوعات التى لايجوز جهلها على الإطلاق ، فإن التمكن في تلك الموضوعات التى لايجوز جهلها على الإطلاق ، فإن التمكن فى تلك الموضوعات يغفر الضعف فى الموضوعات الفرعية بعض الغفران ... وأذكّرهم أيضًا بأن هناك شؤونًا تظهر كالتوافه ، ولكنها رئيسية ، كوجه التسمية لواحة أركنو، فهي مسألة هينة ، ولكن الجهل بها يدل على عدم الاكتراث ... ثم أذكّرهم بأن الطالب الذى يُختبر فى كتاب أحمد حسنين سيسأل حتما عما قال المؤلف فى وصف الواحتين الجديدتين ... وأذكّرهم كذلك بأن فى المقدمة التى كتبها لطفى باشا كلمة مهمة عن ارتياد تلك الصحراء فى عهد الفراعين» .

وفى **الفصل السادس** يتكلم المؤلف عن واحة جغبوب، وهى واحة مصرية نهبها الطليان منذ سنين ، فليقرأ الطلبة أخبارها ، وليذكروا أن لهم إليها عودة بعد حين.

وفـى **الفصل السابع** يتحدث الرحّالة عن الولائم والأدوية، فيذكر أشياء تنفع من يفكر فى ارتياد تلك البقاع .

وفـى **الفصل الثامن** يتكلم عن الزوابع فى طريق جالو، ويصفها وصف العارف الخبير ، والبدو هنالك يرون الزوابع من عمل الجن، فليذكر الطلبة أن الزوبعة هي الْجنِّية فى لغة العرب، ولها اسم بهذا المعنى عند عوام المصريين ، فهم يرون الزوبعة من الأنفاس الخلفية للعفريت .

وفـى **الفصل التاسع** يفصّل القول عن واحة جالو، ويذكر ما بينها وبين الطليان من نزاع وشقاق.

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

لا أرى من الضرورى أن أشير إلي بقية الفصول ، لأن هذه الإشارات العوابر لاتغنى عن المراجعة والاستقصاء وإنما أرى من الحتم أن أوجه الطلبة إلى درس هذا الكتاب ، ولايتم ذلك إلا بدعوتهم إلى تعقب ملاحظات المؤلف، وتعرّف ما كان يجول بنفسه من خواطر وشجون.

وأقول : إن المؤلف مولع بوصف الأجسام فلايرى شخصًا إلا حدّثنا عن قوامه وعينيه، فما سر ذلك ؟

يرجع السرّ إلى أن المؤلف عاش دهره موصول الأواصر بالأندية الرياضية ، ومن هنا غُرست فى نفسه بذور الثقافة الجسمية ، فهو ينظر إلى الأجسام قبل أن ينظر إلى العقول، وهى نظرة تدل على أنه رجل سليم Normal ويؤكد هذا المعنى غرام الرجل بالإبل والخيل، فهو جمّال إن أردت ، وفارس إن شئت ، وهو فوق هذا وذاك يحسّ مذاق الظل ، وقد يتذوق طعم الغُبار فى بعض الأحايين .

يمرّ أحمد حسنين بعظام رجل ميت فيستأنس ، وكان الظن أن يستوحش ، وإنما استأنس برؤية عظام الميّت لأنها تشهد بأنه يسير فى طريق سلكها الناس من قبل .

ويهتم أحمد حسنين بدرس عادات البدو دراسة مضمّخة بعبير الشوق والحنين، وهو يرد تلك العادات إلى أصولها من العواطف الذاتية، فالفتاة التى يحرق حذاءها البارود تُزهى وتختال ، لأن ذلك شاهد على أنها تَغُلّ ألباب الرجال وفى هذه المرحلة يصرخ أحمد حسنين صرخات تنطق بأنه من أصحاب الأذواق .

وهذا الرجل المفتون بالبادية ،، و أيضًا مفتون بالحاضرة أعنف الفتون ، فلايطيل المكث إلا فى المواطن التى يكثر فيها اشتباك العواطف والأهواء.

وهنا أظفر بأحد مقاتله فأصرح بأنه لم يعش طويلاً فى الواحتين الجديدتين - وهما محصوله الأصيل فى تاريخ الاستكشاف - وإنما عبرهما عُبور الطيف ، لأنهما خاليتان من مواسم العيون والقلوب .

وما عددت هذا من مقاتله إلا رياءً ، فالجمال الحقيقى هو الجمال الإنسانى، لأنه يفهم عنا ما نريد ؛ أما جمال الطبيعة فهو جمال غبى بليد ، ولايكتفى بالأنس به إلا الممتحنون بالحرمان، وما كان أحمد حسنين من المحرومين .

أحمد حسنين يتفاءل فى فرصتين : الأولى أن يرمى ظبيًا فيصميه ، والثانية أن يرى فى صبيحة السفر وجهًا جذاب الملامح وضّاح الجبين .

فمن يكون الرجل السليم إن لم يكن هذا لرجل نموذجًا للرجل السليم؟

ثم يجب النص على اهتمام أحمد حسنين بأداء الصلوات ، والتبرك بالأذان ، فتلك شواهد على ماصرح به غير مرة من أن الصحراء تزيد فى قوة الإيمان، وهو التصريح الذى أتاح لمعالى الشيخ مصطفى عبد الرازق بك أن يقترح إرسال علماء الأزهر إلى الصحراء !! والنكتة الدقيقة من أبرز عناصر الفن الرفيع .

الأسلوب

أحمد حسنين ليس من أصحاب الأساليب ، فليس له فى الإنشاء مذهب خاص ، وهو فيما نعلم لم يفكر فى أن يكون له مكان بين الكُتّاب، وإن كان من أكابر الأدباء .

وقد أنشأ كتابه أول مرة بالإنجليزية *، ثم ترجمه إلى العربية وهذا يفسر ما نشهد من تفاوت الأسلوب من حين إلى حين .

ولكن الكتاب مع هذا على أعظم جانب من الحيوية، فما سر ذلك؟

يرجع السِّر إلى قوة إحساس المؤلف، فكل سطر من كتابه ينطق بأنه يَعنِي ما يقول، وسياق الحديث يدل فى كل صفحة على أن الرجل جاب الصحراء ، وهو مرهف الحس ، ذكى الجَنان، وملاحظاته فطرية بعيدة من التكلف، فهو يشعرك بأنه بدوى لايرى غير ما فى البادية من مخاوف وآمال، وهو ينقلك إلى تلك المجاهيل بقوة سحرية فتسايره بتلهف وتشوق، كأنك عانيت من صابها ما عانى ، وذقت من رحيقها ما ذاق وإحساس أحمد حسنين يصل به إلى تذوق جميع الألوان ، هو إحساس رجل سليم يرى ويسمع ويذوق بقوة وعنف ، وكأنه طفل يطلع أول مرة على غرائب الوجود .

تُقَدَّم إليه المائدة وهو فى البادية فيُقبل عليها إقبال البدوى الغرثان، وينص على أنه أكل بشهية ، ثم يصف ألوان الطعام بإسهاب ، وذلك لايقع إلا من رجل مدّرع بالعافية .

ويدرس الوجوه باهتمام شديد، حتى جاز أن يحكم لفتاة بالجمال، ولم ترها عيناه، لأنه لاحظ أن أخاها جميل.

ويدرس عواطف أصحابه بمهارة وحذق فيعرف ما يطوون فى صدورهم من لواعج وأشجان ، يم يمضى فيتعقب ما بينهم وبين نسائهم من كدر أو صفاء، وهذا التطلع لايقع إلا من رجل متشوف إلى درس الغرائز والطباع.

وهل ننسى حديث «السبحة» فى ساعة أنْس

---

* ظهرت الطبعة الأولى بالإنجليزية تحت عنوان : «The Lost oases » بمقدمة كتبها السير رنيل رود "Sir Rennell Rodd" فى ١٩٢٥ . والطبعة الثانية قدمها ميشيل هاج Michael Hagg وصدرت عن الجامعة الامريكية فى القاهرة ٢٠٠٦ .

كان فى القافلة فتّى رخيم الصوت ، وكان أحمد حسنين يتشهى السماع ، ولكن الفتى له عمّ كهل، ومن العيب فى البادية أن يتغنى الشباب بحضرة الكهول.

وتلطف أحمد حسنين فاستأذن للفتى من عمه الكهل، فانطلق الشاب يغنى، واندفع الشيخ يسبِّح ، ليشغل نفسه بالتسبيح عن الغناء.

فماذا صنع أحمد حسنين؟

أخذ يرصد السبحة ليرى كيف يتواتر خفق الحبات، فعرف أن حباتها تصاب بالبطء من لحظة إلى لحظة ، ثم تعود إلى الإسراع، وكان ذلك شاهداً على أن الكهل الوقور كانت له صبوات، وأن رنين السبحة لم يُلهه عن تشوف المحبين إلى أوقات الوصال.

وأحمد حسنين لاينسى تسجيل ما مرّ به من عواطف، كأن ينص على أنه استيقظ فى أعقاب حُلم رائع على وجه فتاة حسناء، وكأن ينص على أنه كان يتلبَّث فى بعض المواطن ليزود قلبه وعينيه بأطايب الجمال.

وجملة القول : إن أحمد حسنين شاعر وصّاف : هو يحدّق فى كل شئ ، وهو يصف كل ما يراه وصفًا يشهد بأنه مفطور على قوة الإحساس .

وقد أطال أحمد حسنين فى وصف القمر والنجوم، كما أطال فى وصف الشروق والغروب، فكيف صنع فى هذه الأوصاف ؟

نقل إلينا أحاسيس أهل البادية بقوة وحيوية ، لأن الكواكب فى البوادى لها سحر يجهله من يأنسون بأضواء المصابيح.

ثم ماذا ؟ ثم أقول : إن أحمد حسنين صوَّر نفسه فى كتابه بصورة الرجل الممتحن بهوى الصحراء، ولو قال له الغادون: ما تشتهى ؟ لقال : أعود !! كما عبر الشريف الرضى عند فراق بغداد .

وهنالك صورة أبدع وأروع، هى صورة العالم الحصيف الذى أباحه العلم ما لايباح من هتك أسرار الصحراء.

هنالك أحمد حسنين الذى يتمارض ليخلو إلى أجهزته العلمية فى غفوة الليل.

هنالك الباحث المستقصى الذى يدوّن كل ما يرى وما يسمع ، وما يذوق بلا تأجيل ولاتسويف ...

هنالك الرجل الذى يرصد الشمس من وقت إلى وقت ليمُد العلم بزاد جديد.

هنالك الوطنى الغيور الذى ينص على قيمة بعض الواحات من الوجهة الحربية.

هنالك المفكر الذى يشرح ما في الصحراء الغربية من مذاهب وآراء

أما بعد فتلك هى الملامح الفكرية والعقلية والذوقية للرحالة أحمد حسنين ، وهى «الدليل» الذى «يوّجه» الطلبة إلى سرائر كتابه النفيس.

وكل ما أرجوه أن تكون الفتوّة التي اتصف بها المؤلف من أعظم مطامح الشبان فى هذا العهد ، فقد رأوا بأعينهم كيف تكون الخشونة أقوى الدعائم فى بناء الرجال .

زكى مبارك

٧- مع حضرة صاحب السعادة الأستاذ الجليل

أحمد محمد حسنين بك *

الأمين الأول لحضرة صاحب الجلالة الملك

المرأة المصرية الحديثة والمجتمع

«وإنى لوطيد الأمل ألا تمضى بضع سنين حتى نرى فى مجلس نوابنا ممثلات ذوات ثقافة وكفاءة ، يفدن كثيراً فى معالجة الشؤون الخاصة بتعليم الأمهات والعناية بالأطفال وما إلى ذلك من مسائل اجتماعية خطيرة عدة»

«من حديث سعادةالأستاذ أحمد حسنين بك»

أنعم النظر فى رسم ذلكم الرجل الذى شربت معه «مجلتى» فنجانا من القهوة ، وظفرت منه بحديث هذا العدد . أنعم النظر فى هذا الرسم يطالعك جليلا رائعًا ، وتبدو روحه من ثناياه قوية نشيطة حية تقرئك ما وهبت من علو وسمو، وتفرض عليك ، وهى عفة صامتة ، ما يجب أن تُكِنّ لها من وقار، وتضمر من إكبار ، وتشهد من إعجاب .

مستوى العود ، لطيف السَمْت . عابث الشيب، عن سهو منه، ومن غير جزع ، شعره الأسود مَشَت فيه صفرة الذهب برفق ، وتخلص من رأسه البديع التكوين إلى شاربه الدقيق فمسه بقدر... وهو شيب الجد والحوادث أكثر مما يكون شيب السنين ، فهو لايزال فى فجر العقد الخامس. صغير العينين وإنّ فيهما لعجبا . فيهما - لمن يبصر ويدقق- أطهر ما أوتى الإنسان من خلال وشيم . وأصفى ما وُهِبَ من سجايا وصفات . فيهما الصفاء والعفّة ، وفيهما مضاء العزم وصلب الإرادة ، وفيهما الشجاعة والبطولة ، وفيهما اللّين والرفق، وخفض جناح الذل من الرحمة .. وفيهما إلى ذلك جميعا عذوبة وحلاوة، وحسن وجمال ، تحكى ما طبع صاحبهما عليه من لطف حس ، ورقة نفس ، وظرف روح. أنف أشم ، وفم مستدق الشفاه ، وذقن أخاذ التناسب .. يتقدم هذه الجوارح الحسان ، جبين عريض مرتفع ، ينم بما يختبئ من ورائه من الرزق الذهنى الخصب ، والثمر الثقافى الناضج ، وصدى الحوادث المكتنز ، وبنت لتجاريب العدة ذات الخطر، وخميرة المعرفة الواسعة ألمت بكل علم، وأصابت من كل فن ،

---

* مجلتى، المجلد الرابع - أول يولو ١٩٣٦ ، ص ص١٩٤-٢٠٢ .

وتزودت من كل أدب .... وجه عربي، في سمته واستطالته . قالت عنه سكرتيرة أحد رؤساء الإنجليز في صحيفة كبرى: «إنه أجمل وجه لأجمل ظل رأت عيناى فى هذا العالم» تلك صورة أوليَّة عجلى لحضرة صاحب السعادة الأستاذة الجليل أحمد محمد حسنين بك الذى سافر مع سمو الأمير فاروق الأول من إنجلترا إلى مصر ، وهو أمينه المقرّب المحبوب . وهو الرحّالة الذى أضاف إلى العلم علما ، وزود خريطة الدنيا بأثر جديد. يقول عارفوه المتصلون به إن خدمة مليكه الراحل كانت خير عزاء له فى عدم تمكنه من ارتياد الصحراء مرة أخرى، وإن كان سحرها لايزال يغريه ، وحبها لم يمت فى نفسه التى تختزن لها أجمل الذكريات ، وتحفظ لرمالها العهد مصونا ... ومع ذلك، ولعل الكثيرين لايعلمون، فقد صح منه العزم يوما على أن يقصد وجه الصحراء من جديد ابتغاء البحث عن بقايا جيش قمبيز الذى غَيَّبته فى بطونها رمال البيد، غير أن جلالة الملك الراحل ، رحمه الله رحمة واسعة ، رأى بثاقب نظره وبعده غير ما رأى خادمه المقدام الجرئ ، ضنا منه بحياته من أن تستهدف للمخاطر ، وهى حياة أنزلها جلالة الفقيد الكريم من نفسه منزلة عليا.

«الرجل الكَيِّس الكامل » هكذا أسماه الإنجليز. كان وهو تلميذ يطلب العلم فى «اكسفورد » المثل الأعلى للنشء الحديث إلى حد أنه كان يختصم إليه المتخاصمون بدل أن يختصموا إلى أولى الأمر فى الجامعة ، أو قبل أن يسلكوا إليهم السبيل على الأقل .. المصلح الاجتماعى العملى الرشيد. ديموقراطى متواضع كريم. انضم إلى جماعة الرواد ، ونزل من رفيع مستواه إلى الأحداث الشاردين الغفل من أبناء السبيل ، فكان يلعب معهم ، ويأكل وكتفاه بين أكتافهم ، ويقضى الساعات فى زمرتهم يُقَوِّم عِوَجهم، ويُطَبِّب منهم ما مرض من أخلاق وهنت وتمكنت منها العلة بانصراف المجتمع عنها وإغفاله إياها وإشمئزازه منها ... قيل له فى هذا الشأن مرة فقال «إنهم بنونا . نحن أصحاب الأمر فيهم اليوم وسيكونون أصحاب الأمر فينا غدا.. تهذيب النشء من أقدس ما فى رقابنا من أمانات وفروض فى سبيل أمتنا، وفى سبيل خدمة الأمة تفنى الفروق».

أديب مطبوع ، وكاتب منشئ بارع الخيال ، شعرى الأسلوب خصب الأدب، رشيق العبارة ، عميق الفكرة، وله فى ذلك صوت وطيب سمعة ، أما الذى لايعرفه عنه إلا الأقلون فهو رُسُوخ قدمه فى الفنون، وله فيها جميعا رأى موفق مسموع وفى نقدها اتجاه سديد محترم : نبيل له فى الأوساط كلها منزلة رفيعة وقدر عال .

* * *

أردنا أن نشرب معه فنجانا من القهوة فنشهد أن قد تعبنا. نلتمسه فى قصر عابدين إذا به فى قصر القبة، ونحاول أن ندركه فى قصر القبة إذا به فى قصر عابدين. ثم هو فى الحالين، وفى كل حال، مضطلع بأعباء أعمال ليس لها حصر وليس لها نهاية .. وقد قال أحد أصدقائه فى هذا الشأن : «إذا أردت أن أقابل حسنين بك وَطَّنت نفسى على أن تكون المقابلة بعد شهر!»

على أنَّا مع ذلك تجملنا بالصبر ، وطاوعنا حبل مشاغله إلى أبعد مدى ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم الذى رافق من بعده بيوم حضرة صاحب الجلالة الملك إلى مصيفه بالاسكندرية أدركناه ، والتعب آخذ منه كل مأخذ ، وهو يتهيأ ليأخذ قسطًا يسيراً من الراحة التى لايذوقها إلا لماما، فإنى تراه عالما، لايفرق فى ذلك بين ليله ونهاره ، فقال فى ابتسامة كريمة أنستنا كل ما ألم بنا من ضيق الانتظار، وقد طال ... تلك الابتسامة الحلوة التى تختلب اللب وتفتن النفس عما كان بهما من هم وكآبة ... قال فى تلك الابتسامة الشهية الساحرة :

– عجبًا ! إلى مثل هذه الساعة تنتظر مجلتى ؟

قلنا : لاعجب فهى تقدرك ، ولاتريد أن تحرم قراءها منك

– معاذ الله . أنا فى خدمة «مجلتى» وقرائها. نحن جميعًا جنود الصحافة المحترمة لأنها أصدق مرايا الرأى العام.

... ودعانى إلى الجلوس بجانبه بعد أن كان تهيأ لمغادرة مقامه ، ووضع منظاره على عينيه، وأشعل سيجارة ؛ وأخذ يشعل الواحدة إثر الأخرى، ورغب إلىّ فى أن أقول سؤالى على شريطة أن يكون موجزاً محدوداً نظراً إلى الوقت المتقدم، والاعياء النائل منه ، والمشاغل المرجأة التى لماً تنته ؛ فقلت: «إنها أسئلة وليست سؤالا » فقال : «تستطيع أن تتلوها أولا »، فأخذت أتلوها سؤالا بعد سؤال حتى إذا انتهيت من تلاوتها وكانت تتناول جوانب أخلاقية وقومية وتعليمية وصحفية ونسائية ؛ رأى أن أعيد تلاوة السؤال النسوى؛ وأن أتقدم به إليه، وأن يكون فى ذلك غناء عن الأسئلة الأخر ى للاعتبارات الشخصية التى أبداها سعادته من ناحية؛ ولأن المرأة هى الأمة كما قال من ناحية أخرى.

إذ ذاك ، قلت أتلو السؤال مرة أخرى .

- ألدى المرأة المصرية من الاستعداد الفطرى ما يهيئ لها يومًا ما أن تكون كأختها الغربية فى كل أسباب المعيشة ؛ وشؤون الحياة الخاصة منها والعامة؟

فقال وقد ارتسمت علائم الجد على وجهه ؛ وفى لهجة فيها حرارة الإيمان بما يقول ؛ وصوت متزن جميل الوقع واضح أخاذ :

على الرغم من أن حياتنا الاجتماعية والقومية لاتزال متحفظة إلى حد بعد أو قرب ؛ لاتسنى لنا أن نختلط بعدد كثير من نسائنا ، فقد أتيح لى أن أرى بعضهن ، وأن اختلط ببعضهن ، وأن أكَوِّن على ضوء الرؤية والملاحظة فكرة عامة عن المرأة المصرية فى مختلف الطبقات: العالية ، وهى التى يسمونها الراقية ، والوسطى، وهى التى يسمونها العادية، والأخيرة وهى التى يسمونها السوقية . على أنى أعرض عن كيان هذه الطبقات جميعًا ، والتمس من بينهن المرأة المتعلمة ، وهى التى أعنيها بهذا الحديث.

وإنى لأومن أصدق الأيمان أن المرأة المصرية من اكفأ نساء الدنيا وأقدرهن على الاضطلاع بالمسئوليات وأداء الواجبات وفهم المسائل وتصريف الأمور. بل إنى لأذهب إلى أبعد من ذلك فأغلب أنها ربما فضلت فى صفات عقلية كثيراً من الرجال المصريين، وقد يفضل مجموع النشء النسوى الحديث المتعلم مجموع أقرانهن من طبقات الشباب ، الذى فى مستواهن متانة فى الخلق واستمساكًا بالفضائل . وليس يعوز الحقيقة برهان . فلطالما لوحظ ، وصحت الملاحظة، أن أسباب الشقاق والتنافر ، التى تنشأ فى كثير من الأحايين ، فى حياتنا العائلية بين زوجين من بيئة واحدة ، ومستوى واحد لم يكن لها من باعث حقيقى إلا التفاوت العظيم بين تعليم الشاب والفتاة، فهذا فى اتجاه لايستطيع أن يرقى عنه، وهذه فى اتجاه لاتستطيع أن تسف عنه، والاتجاهان أبداً مختلفان متناقضان لايمكن أن يستويا ، ولايمكن أن يلتقيا .

رأينا كثيراً حالات مثل هذه الحالة. فبينما تكون الزوجة ثمرة تعليم ناضج أوتى أكله سواء فى البيت أو فى المدرسة : مصرية كانت أو أجنبية ، فضلاً عن العناية بها، إلى ذلك ، عناية خاصة كتزويدها فى البيت بمعلمين ومعلمات : بينما تكون الزوجة الفتاة ، وهى ثمرة هذه العناية والتثقيف ، فى مثل هذا المستوى الرفيع علمًا ومعرفة وتهذيبًا ؛ إذا بنا نرى زوجها الشاب، وهو من نفس الطبقة الاجتماعية التى تنتسب زوجته إليها ، لم يصب من التعليم إلا مرحلته الابتدائية أو الثانوية ، ثم أعرض بعد ذلك عن الدرس والتحصيل ، وأخذ يسرح الوقت رخيصا فى مزاولة ضروب من الرياضة المريضة التى يزاولها أولئك الشبان الخائرون

الدخيلون على فن الرياضة ، يلتمسون أن يظهروا فى الناس بمظهر الرياضيين . على حين أنهم يلتمسون فى الواقع أن يستروا ما جبلوا عليه من كسل ذهنى، وضعف عقلى وبلادة نفسية بذلك الستر الرياضى الزائف المهلهل. فإذا ما كان هذا شأن الزوج وذاك شأن الزوجة ، وكان هذا التفاوت البعيد قائما ما بين هاتين العقليتين : إحداهما متعلمة ناضجة أَلَمَّتْ من الثقافة الخصبة الحق بنواح عدة، وهى عقلية الزوجة، والأخرى جاهلة ملتوية عاطلة من كل ثقافة تحفز إلى وهن الخلق، وهو بنشأته واهنا، كان من الطبيعى ألايطول معهما زواج.

أما ما تتهم به تلك المرأة المصرية الحديثة من وهن فى الأخلاق بخروجها عن حد التقاليد ، وظهورها على النحو الذى ترى عليه ، فذاك أمر وإن كان نسبيا ، ويبدو أكثر ما يبدو فى بعض أفراد الطبقات الراقية ، فإنه أمر مأمون العاقبة لايخشى منه بحال ، ولاسيما إذا استقر فى أذهاننا أنه صدى تفاعل تطور من عصر إلى عصر، وانتقال من جيل إلى جيل . هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى فإنه هدف تهويل واغراق وتشهير من جانب ناس من الجنسين ينتسبون إلى عصر غير هذا العصر ، ويألفون روح جيل غير هذا الجيل، وطبيعى أن مثل هؤلاء، وقد عجزوا عن فهم سُنَّةِ الزمن ومقتضياته، وجمدوا عن الاصلاح والتجديد، لم يتبق أمامهم إلا أن يمضوا ينقدون وينعون ويندون ما راقهم النقد والنعى والتنديد.

على أنى أرانى هنا بحاجة إلى أن أصَرِّح بأن مستقبل المرأة المصرية فيما تنشد من حرية فى حياتها ، واستقلال فى عملها ، وحساب لكرامتها ، وإجماع من الجمهور على إقرار كل ما تثمر جهودها فى سبيل التقدم والرقى ، إنما يتوقف على مسلك الشابة الحديثة ، وطريقة معالجتها للمسائل وتصريفها للأمور ، مراعية فى ذلك التقاليد الخلقية الصالحة ، التى لاتتنافى عندى بأى حال من الأحوال مع نهوض المرأة الحديثة ، وما دمنا فى هذا الصدد من الحديث فلزام لكى أضع الأمور فى نصابها ، وأرد الفضل إلى ذويه ، أن أذكر أن الحركة النسائية الحديثة فى مصر مدينة الدين كله للسيدة الفضلى هدى هانم شعراوى ، باعثتها من العدم وراعيتها بالحزم والثبات والعزم الذى لايلين . تدين النهضة النسائية الحالية لجهاد زعيمتها الجليلة البصيرة ، ولما اتصفت به من أخلاق سامية ، ومبادئ فاضلة ، واخلاص كبير لقضية المرأة المصرية ، وإيمان شديد بوجوب تهيئتها إلى مكانة إنسانية أدبية لائقة . فمضت فى طريقها الاجتماعى القومى ، تجاهد فى سبيل رقيها من كل ناحية من نواحى الرقى، مراعية فى ذلك التزام حدود التقاليد الأخلاقية الصالحة، ومن أجل ذلك قادت سفينة النهضة

النسائية فى بحر غير نائم موجه ولا مأمونة ريحه قياداً موفقًا مباركًا ، كان من بعض ثمره تلك الحالة الطيبة التى انتهت المرأة إليها اليوم. وكأنما حملت قضية مصر النسائية عنق هذه السيدة الصالحة فصانتها أحسن الصون وتعدتها خير التعهد ، وأدتها على أجمل وجه أداء رائعً ، وحسبه أن يكون وحده تاريخ النهضة النسائية عنق هذه السيدة الصالحة ، فصانتها أحسن الصون ، وتعدتها خير التعهد ، وأدتها على أجمل وجه أداء رائعًا ، وحسبه أن يكون وحده تاريخ النهضة النسائية الحديثة فى مصر. فلو أن التى قامت بهذه الحركة سيدة متطرفة أهانت بمسلكها تقاليد البلد. وعجزت عن أن تبرهن للجيل الماضى ، على أن المرأة المصرية قادرة على أن تخطو خطوة جريئة واسعة فى سبيل إصلاح شؤونها، وإدراك قسط موفور من الحرية المقرونة بكثير من مظاهر الوقار والحشمة لما قام للحركة النسائية الحديثة فى مصر قائمة.

وإنى لوطيد الأمل ألا تمضى بضع سنين حتى نرى فى مجلس نوابنا ممثلات ذوات ثقافة وكفاءة ؛ يفدن كثيراً فى معالجة الشؤون الخاصة بتعليم الأمهات والعناية بالأطفال وما إلى ذلك من مسائل اجتماعية خطيرة عدة ، من الطبيعى أن ما تعلم عنها يزيد عما يعلم أى رجل، وأن الفائدة التى تجنيها امرأة الشعب من ورائها لاتعد لها بحال تلك التى تجنيها منه كائنا من يكون ولايتاح لبعض الرجال أن يلموا بمعلومات كما يتاح للمرأة ، فالمرأة أرحب من الرجل صدراً ، وأشد صبراً وأكثر جلداً، وأقدر على البحث والدرس والتحصيل.

ولست بقائل شيئًا جديداً ، إذا ما قررت أنى أعتقد اعتقاداً جازمًا أن نهوض مصر من جميع نواحى حياتها، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم قومية أم اقتصادية ، إنما سبيله بيد الأمهات ؛ وإنه ليس ثمة اصلاح يرجى من برامج التعليم أو التثقيف التى تقدم لنشء جديد إلا بعد أن تصلح الأمهات هذا النشء ، وهو يجتاز مرحلة التكوين الأولى، وهى مرحلة الطفولة ، وقبل أن تحتضنه المدارس التى تُعَد له ، فالأم هى الأمة، وبقدر ما تكون الأم تكون الأمة.

وإذا ما عنيت الفتاة الحديثة بمسلكها بعض العناية ، وَهَوَّنت من غلوائها بعض التهوين، سواء أكان ذلك خاصًا بتزينها أو بظهورها فى المجتمع، أو بمسلكها العام، وإذا ما اهتمت قليلا بأسلوب حديثها مع كل من تضطر إلى التحدث إليه من الناس، وأرادت بذلك الرجل على أن يوليها حظها من الاحترام الجديرة به، ويشهد لها بأنها ذات شخصية رشيدة مفكرة ،

ورأى فى الأمور العامة لايقل عن رأى الرجل دقة وسدادا ، وبأنها ليست دمية من الدمى وليست على غير التزين والتجمل فى شئ .

عندى أنه إذا هيأت الفتاة الحديثة نفسها لمثل هذه الشؤون ؛ وأصابت فيها التوفيق المشرِّف غرست الثقة في نفس أبيها أو أخيها أو زوجها ، وجنبت عنه تردده فى استصحابها معه إلى مجالس أصدقائه ، وتمكنت بذلك من أن تخلق جوا صالحًا محترمًا لوسط اجتماعى له شأن خطير فى حياتنا القومية المصرية.

وهنا ، وقبل أن أختتم هذا الحديث الذى طال وإن أكن أرجو الأيمل ، أحب أن أهمس بكلمة إلى أبناء جنسى من الرجال الذين تروقهم كثيراً مجالس النساء المهذبات المثقفات، وإنهم ليختلفون إلى هذه المجالس، وهم جد مبتهجين بما يلمسون من رقى المرأة المصرية، وتراهم يجهرون فى هذه المجتمعات بوجوب مواجهة الحقائق والتمشى مع الزمن ، وبأنهم عصريون يؤمنون بفوائد الاختلاط ، وبخروج المصريات المتعلمات إلى ميادين الحياة الاجتماعية ... يجهرون بهذا كله ، على حين أنهم يحرمون نساءهم ، زوجات كُنَّ أو أخوات أو بنات ، من غشيان مثل هذه المجتمعات. يَضِنّون على ذويهم من النساء بجنى ثمرات هم أنفسهم لايفتأون يشيدون بها ، ويطرون ما فيها من مزايا وفضائل وطيب صدى فى محيطنا الاجتماعى . يقف أولئك الفريق هذا الموقف ، لا لشئ سوى أنهم يكسلون عن أن ينفقوا من وقتهم قليلا فى سبيل إعداد نسائهم الإعداد الموفق لمثل هذه المجتمعات ، ولايكلفون أنفسهم يسيرا فى سبيل انزالهن الوسط النسائى ، وإحلالهن مستوى أولئك السيدات الفضليات الذين يغشون مجالسهن ، ويمتلئون إعجابا بهن وتقديرا لهن .

ولو قد عنوا بتهيئة نسائهم إلى الاندماج فى ميادين الحياة الاجتماعية بعض العناية ، لجعلوا منهن، من غير أن يحتسبوا ، شخصيات لاتقل فى شئ عن تلك الشخصيات التى يُكْبِرونُها كل الإكبار ، ويَجُلُّونها غاية الإجلال.

ألا إنه ينبغى لمن يدعو إلى مبدأ يعتنقه أو مذهب يؤمن به ، أن يبدأ بنفسه أولا ، فيكون مَظْهراً لما يعتنق من مبدأ ، وقدوة لما يؤمن به من مذهب ، قبل أن يلتمس أن تذيع فى الناس رسالته وتبلغ منهم الاسماع والقلوب .

٧- أحمد حسنين باشا

أحمد حسن الزيات *

مات صاحب المقام الرفيع والخلق الرفيع والأدب الرفيع أحمد حسنين فى غير الميادين التى تحدى فيها الموت !!

تحداه فى الصحراء المجْهل حين رحل، وفى السماء المرعدة حين طار، وفى الداء العقام حين مرض ، فخنس عن تحديه ؛ ثم اختلسه اختلاسًا فى حادث من حوادث القدر على غفلة من إرادته وحيويته !! ولو كان الموت حليفًا للحياة لأمهل الفقيد حتى يتم عمله الذى تهيأ له بخير الفضائل والوسائل من تربيته وخلقه وثقافته وتجربته ؛ ولكن أجل الله إذا جاء لايؤخر !

كان أحمد باشا حسنين – سقى الله بصيّب الرحمة ثراه- مزيجًا حلواً من طبيعتين كريمتين : صوفية مؤمنة ، وعسكرية مغامرة . أخذ الأولى عن أبيه وكان من علماء الدين فى الأزهر، وورث الأخرى عن جده وكان من أمراء البحر فى الأسطول. أما أثر البيئة الأزهرية فيه فخلوص العقيدة ، وبلاغة الأسلوب، واستقامة الطريقة ؛ وأما فضل الوراثة العسكرية عليه، فحبه للنظام ، وولعه بالرياضة ، وميله إلى المخاطرة . ثم تخرج فى اكسفورد فوجدت هاتان الطبيعتان فى البيئة الإنجليزية والثقافة السكسونية الغذاء الناجع والجو الصالح ، فنمتا أعظم النمو، وأثمرتا أكرم الثمر. والخلق الإنجليزى الأصيل قائم على جوهر هاتين الطبيعتين وفى هذا سر نجاحه .

كان الفقيد الكريم رياضى الروح والعقل والجسم ؛ فمن رياضة روحه نبالة نفسه، ومن رياضة عقله سلامة تفكيره ، ومن رياضة جسمه شجاعة قلبه . وهذه الصفات هى التى تندر فى أكثر الناس، وتعسر على قادة الشرق؛ لذلك كان فقد أمثاله رزءاً لايحتمل وخسارة لاتعوض.

وكان من خواص الأدباء وبلغاء الكتّاب؛ وكتابه (فى صحراء ليبيا) وآثاره في منشآت (القصر) تتسم بسمة الفكر الناضج والذوق السليم والفن العالى. والبلاغة ظاهرة من ظواهر القوة ، وأدب اللسان مظهر لأدب النفس.

---

* الرسالة، العدد ٦٦٠، ٢٥ فبراير ١٩٤٦م، ص١ .

وكان من حملة العرش الأقوياء الأوفياء المخلصين . آثر التاج بحبه ، وآزره بقلبه ، وأحسن

السفارة بينه وبين شعبه . ومن اعتدال الزمان وإقبال الأمور أن تكون بطانات الملوك من هذا الطراز : رأس مفكر ، ولسان عف ، ويد طاهرة ، وقلب مؤمن .

ومما يُطمئن القلب على سلامة الفطرة في هذه الأمة أنها أجمعت على حب هذا الرجل ، فكأنها تحب الفاضل لذاته، وتكره أن يدخل الهوى فى تقدير حسناته.

إن الشعب الفقير فى الرجال خليق بأن يطول حزنه على فقد رجل . وإن المصاب فى أمثال أحمد باشا حسنين مصاب فى الكيف لا فى الكم، وفى الجوهر لا فى العرض ، وفى الرعاية لا فى القطيع . تغمده الله برحمته، وأجزل له ثواب المتقين فى جنته ، وأخلف بالخير على أسرته وأمته .

فهرست

صفحة

فهرست الصور

صفحة

بما اشتمل عليه الكتاب من الصور

رقم الإيداع ١٧٤٥٨ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى L.S.B.N. 977 - 322 - 246 -2

مطبعة صحوة

تليفون وفاكس/ ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨

أحمد محمد حسنين باشا

فى صحراء ليبيا



تحرير

د. أحمد إبراهيم الهوارى

صورة الغلاف : أحمد محمد حسنين بك

الأمين الأول لحضرة صاحب الجلالة الملك





للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES